# خلاصة
# تاريخ الإسلام

- المجلد الثاني -

# خلاصة تاريخ الإسلام

ISBN: 978-1-83590-071-0

المؤلف: محمد إلهامي

X.com/melhamy
t.me/melhamy
youtube.com/melhamy
melhamy.blogspot.com
fb.com/profile.php?id=100091925270490
goodreads.com/author/show/4479089

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م

إسطنبول - تركيا

# خلاصة تاريخ الإسلام

## المجلد الثاني

- السيرة النبوية
- الخلافة الراشدة
- الفتنة بين الصحابة

محمد إلهامي

بسم الله الرّحمن الرّحيم

**إهداء**

إلى العاملين لدين الله في كل مكان..

**محمد**

# المحتويات

| المحتوى | الصفحة |
| --- | --- |


**إهداء** ........................................ ٥

**المحتويات** ........................................ ٦

## الفصل الأول: السيرة النبوية – المرحلة المكية ........................ ٩

**أولا: الإيمان العميق بالفكرة** ........................................ ١١

**ثانيا: شخصية القائد وإعدادها** ........................................ ١٧

**ثالثا: بيئة الدعوة وشأن العاصمة** ........................................ ٢٢

**رابعا: الدعوة الخاصة، أو تكوين فريق العمل** ........................................ ٢٦

**خامسا: تربية إيمانية مكثفة** ........................................ ٣٢

**سادسا: الاعتماد على قوة طبيعية** ........................................ ٣٥

**سابعا: خطة واضحة، أو: جدول أعمال للأرض والنصرة** ........................................ ٤٠

**الخلاصة** ........................................ ٤٤

## الفصل الثاني: السيرة النبوية – المرحلة المدنية ........................ ٤٦

**قبل تأسيس الدولة** ........................................ ٥١

١. ضرورة السلطة ........................................ ٥١

٢. الفرصة واللحظة الفارقة ........................................ ٥٣

٣. الهيمنة الرسالية والإيمانية ........................................ ٥٤

**ضرورات التأسيس** ........................................ ٥٨

١. الأمن والتمكن ........................................ ٥٨

٢. تماسك المجتمع وتكتيله ........................................ ٦٧

٣. الاستقلال المالي ........................................ ٧٦

**توسع الدولة الإسلامية** ........................................ ٨٢

١. جهاد تأسيس الدولة ........................................ ٨٤

٢. انتزاع الاعتراف السياسي ........................................ ١٠١

٣. جهاد السيادة ........................................ ١١١

**وقفة مع سياسة الجهاد** ........................................ ١٢٥

**خلاصة** ............ **١٣٤**

## الفصل الثالث: الخلافة الراشدة ............ ١٣٦

**موجز الأحداث التاريخية** ............ **١٣٨**
عهد أبي بكر الصديق: إعادة تأسيس الدولة ............ ١٣٩
عهد عمر بن الخطاب: الدولة الإسلامية القوة العظمى ............ ١٤٨
عهد عثمان بن عفان: الرخاء وابتداء جيل جديد ............ ١٥٢
**القضايا المهمة في عصر الخلافة الراشدة** ............ **١٥٧**
العصر الذهبي للحضارة الإسلامية ............ ١٥٩
وقفة تنبيه! ............ ١٦٤
**تكوين النظام السياسي الإسلامي: الأمة والحاكم** ............ **١٧٤**
١. اختيار الحاكم: «وُلِّيتُ عليكم» ............ ١٧٧
٢. مراقبة الحاكم: «إن أحسنتُ فأعينوني، وإن أسأتُ فقوِّموني» ............ ١٨٢
٣. عزل الحاكم: «أطيعوني ما أطعت الله، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم» ............ ١٨٦
**النظام الاجتماعي الإسلامي: التكتل الاجتماعي** ............ **١٩١**
**العلاقات الدولية: الجهاد والفتوحات الإسلامية** ............ **٢٠٠**
١. ضرورة الجهاد: الجهاد أو الذل ............ ٢٠٠
٢. الفتوحات المذهلة ............ ٢٠٣
٣. الفتوحات الأخلاقية ............ ٢١٠
**النظام الأخلاقي الإسلامي: السلطة والأخلاق** ............ **٢٢٠**
١. أخلاق الخلفاء ............ ٢٢٢
٢. الهيمنة الأخلاقية في عصر الراشدين ............ ٢٢٨
٣. المسؤولية الأخلاقية للسلطة الإسلامية ............ ٢٣٤

## الفصل الرابع: الفتنة بين الصحابة ............ ٢٤٢

**أصول البحث في عصر الفتنة** ............ **٢٤٥**
١. ضرورة فهم الفتنة في ضوء النصوص الصحيحة ............ ٢٤٥
٢. ضرورة فهم الحكمة في وقوع الفتن ............ ٢٥١
**مقتل الخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه** ............ **٢٥٥**
جذور الفتنة ومقدماتها ............ ٢٥٥
الأسباب المباشرة للفتنة ............ ٢٦٢
حقيقة المطاعن التي طعنوها بها على عثمان ............ ٢٧٩
التمرد على عثمان رضي الله عنه ............ ٢٨٨

استشهاد عثمان ........ ٣٠١
هل شارك أحد من الصحابة في قتل عثمان؟ ........ ٣٠٤
ما جاء من الأحاديث في استشهاد عثمان ........ ٣٠٩
**خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ........ ٣١٢**
فضل عليٍّ وكونه جديرا بالخلافة ........ ٣١٢
بيعة علي رضي الله عنه ........ ٣٢١
تسلسل الأحداث المفضية إلى الحروب ........ ٣٢٨
سياسة علي بن أبي طالب ........ ٣٤٣
**وقعة الجمل ........ ٣٥٥**
خروج عائشة وطلحة والزبير إلى البصرة ........ ٣٥٥
خروج علي إلى العراق ........ ٣٥٩
نشوب القتال ........ ٣٦٤
آثار معركة الجمل ........ ٣٧٥
**وقعة صفين ........ ٣٧٩**
تسلسل الأحداث من وجهة نظر معاوية رضي الله عنه ........ ٣٧٩
وقوع القتال ........ ٣٨٥
قصة التحكيم ........ ٣٩٧
**خروج الفرق ........ ٤٠٦**
الشيعة ........ ٤٠٧
الخوارج ........ ٤٠٩
موقعة النهروان ........ ٤١٧
وقفات ومسائل مهمة ........ ٤٢٢
**استشهاد علي رضي الله عنه ........ ٤٢٩**
تثاقل أهل الكوفة عن أمر علي ........ ٤٢٩
مؤامرة الخوارج الكبرى ........ ٤٣٠
**وقفة عند عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة ........ ٤٣٣**
كيف تكونت عقيدة أهل السنة والجماعة؟ ........ ٤٣٣
عدالة الصحابة هل تخدشها الفتنة؟ ........ ٤٣٦
لماذا نكف عما شجر بين الصحابة؟ ........ ٤٣٩

# الفصل الأول:

# السيرة النبوية - المرحلة المكية

تبدأ المرحلة المكية من لحظة نزول الوحي على النبي ﷺ، وحتى الهجرة إلى المدينة المنورة، فهي تبلغ بذلك ثلاث عشرة سنة، وفيها بدأ الإسلام وأخذ ينتشر رويدا رويدا بين الناس، حتى بلغ عند نهاية المرحلة المكية أن كان قد اعتنقه عدد قوي من بين أهل مكة، وفيهم عدد من كبار أشرافهم كحمزة من بني هاشم وأبي بكر من بني تيم وعمر بن الخطاب سفير قريش وزعيم بني عدي، فضلا عن مجموعة أخرى من المهاجرين المسلمين في الحبشة، وفضلا عن مجموعات أخرى منتشرة في القبائل العربية ممن أسلموا وأوصاهم النبي بالعودة إلى قبائلهم، وأخيرا: العدد الكبير الموجود في المدينة المنورة والذي بايع النبي على أن يكونوا عصبته وأهل دولته.

و قد عجزت قريش عن مواجهة هذه الدعوة وإخمادها والقضاء عليها، و قد تدرجت في حربها بين الإجراءات القمعية والدعاية الإعلامية، ومع ذلك فقد ظلت الأرض تتناقص من تحتها، وانتهى الأمر بإخفاقها في منع قيام الدولة الإسلامية في المدينة المنورة.

فكيف نشأت هذه الدعوة و صعدت هذا الصعود وتمتعت بهذه القوة والقدرة على البقاء، ثم كيف حققت أهدافها، وجذبت إليها الشخصيات القوية التي أخلصت لها، كما اجتذبت إليها أهل بلد آخرين قرروا التضحية بأنفسهم والتعرض للمخاطر العظيمة في سبيلها، ثم استطاعت أن تتحول إلى دولة؟

**استخلصنا ها هنا سبعة أمور هي بمثابة الأصول والأركان التي ينبغي لكل مصلح السعي فيها والعمل عليها. وهي كما يلي:**

# أولا: الإيمان العميق بالفكرة

لا يمكن الحديث عن أي دعوة، أو عن أي تجمع بشري، أو عن أي محاولة تغيير، بغير البدء من الفكرة، فالفكرة هي التي تمنح الناس تعريفهم لأنفسهم وتعطيهم المعنى لوجودهم ومنها تُسْتَمَدُّ عاداتهم وتقاليدهم وقوانينهم وأنظمتهم.

وتبدأ أي دعوة، وأي محاولة تغيير، من الفكرة، فحتى إذا كان الصراع ماديًّا بحتا يتعلق بالتنافس على الموارد والأرض ونحوها، فلا بد أنه يتسربل بالفكرة التي تعطيه المبرر والمعنى، وتجعل الخوض فيه محملا بمعاني الشرف والشجاعة والبسالة والتضحية. وبدون الفكرة ينتفي معنى الحق والباطل والصواب والخطأ، ويستحيل التجمع البشري تجمعا حيوانيا تُحَرِّكه الغرائز وحدها. ولا يُعرف في تاريخ الإنسان حصول مثل هذا، بل الإنسان في أبسط تجمعاته البشرية كان يعتنق أفكارا ويبدع فنونا ويُنتج ما يدل على أنه ليس مجرد كائن غريزي ولا مادي[1].

---

(١) للتوسع في هذا، انظر القسم الأول من كتاب علي عزت بيجوفيتش «الإسلام بين الشرق والغرب»؛ وانظر: ابن القيم، مدارج السالكين، تحقيق: محمد حامد الفقي، ط٢ (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٧٣م)، ٣/ ١٦٤.

والدين هو أقوى الأفكار قاطبة، فالدين هو الفكرة الراسخة التي صارت إيمانا وعقيدة، والدين «حقيقة من الحقائق التاريخية والنفسية»[١]، والإنسان بطبيعته «كائن ديني»[٢]، وهو احتياج نفسي مهيمن والناس سواء في عطشهم إليه[٣] والدين هو أصحّ دليل على ارتباط الإنسان بالعبودية والفكرة التي غرسها الله في فطرته ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢].

فالإنسان وإن ضلَّ في تصور الإله والدين فإنه لم ينخلع عن أصل الإله والدين، وحتى في هذه الحضارة الغربية المعاصرة التي توصف بأنها «أول حضارة ملحدة في التاريخ»[٤] لا يمكن القول بأن المجتمعات الغربية قد انخلعت تماما من الدين، سواءً أكان ذلك هو الدين المسيحي أم كان ذلك مجموعة أفكار وتلفيقات أخرى يسعى بها الإنسان لإشباع حاجته الروحية إلى المعنى[٥]، ويعد الإلحاد والتخلي عن الدين –بما يترتب عليه من

---

(١) ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة: زكي نجيب محمود، (بيروت: دار الجيل، ١٩٨٨م)، ١/ ٩٨، ٩٩.

(٢) كما تقول كارين أرمسترونج كتابها (The Case Of God) والذي صدر في سبتمبر ٢٠٠٩، وترجم إلى العربية بعنوان «الله لماذا»، ونشرته دار سطور في القاهرة. وبعده بشهرين في (نوفمبر ٢٠٠٩م) نُشِر كتاب الصحفي الإنجليزي نيكولاس واد، الذي جعل له عنوانا موحيا «غريزة الإيمان» (The Faith Instinct)، وفيه يتحدث عن الإنسان مخلوق وداخله «جين» الله. وقبلهما كان دين هامر قد كتب كتابه الشهير الذي أثار زوبعة في وقته (سبتمبر ٢٠٠٤م) «الجين الإلهي» (The God Gene) لأنه قال بوجود جينات في جسم الإنسان هي المسئولة عن تعلقه بالروحانيات، وكان العنوان التوضيحي للكتاب «How Faith is Hardwired into our Genes» أي «كيف أن الإيمان مستقر في جيناتنا».

(٣) جوستاف لوبون، الآراء والمعتقدات، ترجمة: عادل زعيتر، (القاهرة: المطبعة العصرية، د. ت)، ص١٤٠؛ وانظر: مارشال هودجسون، مغامرة الإسلام، ترجمة: أسامة غاوجي، ط١ (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث، ٢٠٢١م)، ١/ ٣٠١.

(٤) عبد الوهاب المسيري، رحلتي الفكرية، ط٤ (القاهرة: دار الشروق، فبراير ٢٠٠٩م)، ص٢١٩.

(٥) عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ط١ (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢م)، ١/ ٢٣٢.

انتشار السيولة والنسبية- في طليعة الأسباب الحاضرة لدى الدراسات والتحليلات التي تستشرف انهيار الغرب[1].

ومن أوضح الأدلة على أن الدين هو أقوى الأفكار قاطبة وأشدها تأثيرا على الناس أن الحضارات الكبرى في التاريخ إنما أُسِّسَتْ على الأديان الكبرى كما لاحظ بحق المؤرخ البريطاني كريستوفر داوسون[2]، فلقد «كانت الأديان بمثابة يفعات لجميع الحضارات»[3] كما لاحظ مؤرخ الحضارات أرنولد توينبي، والتقلبات الكبرى عبر التاريخ إنما هي أثر التقلبات في الأفكار والمعتقدات كما لاحظ الفيلسوف المؤرخ وعالم الاجتماع جوستاف لوبون[4]. وهو الأمر الذي قرره قبل هؤلاء جميعا أسلافنا، مثل حكيم التاريخ ابن خلدون حين قال: «الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك أصلها الدين إما من نبوة أو دعوة حق»[5]، وقبله قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ليس في الأرض مملكة قائمة إلا بنبوة أو أثر نبوة»[6].

والسبب في هذا أن الدين يتغلغل في القلوب ويستثير في نفوس الناس أقصى ما في طاقتهم من الجهد والبذل، فيكون أثرهم في الحياة أعظم من أثر اعتناق ما هو دون ذلك من

(١) انظر مثلا: باتريك بوكانان، موت الغرب، ترجمة: محمد محمود التوبة، (الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٠٥م)، ص٣٣٩ وما بعدها؛ ريتشارد كوك وكريس سميث، انتحار الغرب، ترجمة: محمد محمود التوبة، ط١ (الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٠٩م)، ص٨٠.

(2) Christopher Dawson, The Dynamics Of World History, (Sheed And Ward, 1965), p. 128

(٣) أرنولد توينبي، مختصر دراسة التاريخ، ترجمة: فؤاد محمد شبل، (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١١م)، ٣/ ١٥١ وما بعدها.

(٤) جوستاف لوبون، روح الاجتماع، ترجمة: أحمد فتحي زغلول، (القاهرة: مطبعة الشعب، ١٩٠٩م)، ص٩، ١٠؛ وانظر: توينبي، مختصر دراسة التاريخ، ١/ ٥.

(٥) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، (بيروت: دار الفكر، ١٩٨٨م)، ١/ ١٥٧.

(٦) ابن تيمية، الصارم المسلول على شاتم الرسول، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، (الرياض: الحرس الوطني السعودي، ١٩٨٣م)، ص٢٥٠.

الأفكار، وندر أن يبذل فيلسوفٌ في سبيل فكرته مهما محَّصها ما يبذله المؤمن في سبيل دينه.

والدعوات التي حققت نجاحا، وغيَّرت مجرى التاريخ، هي التي آمن بها أصحابها إيمانا جازما عميقا لا يتزعزع ولا يتردد، حملهم على أن يخوضوا لأجلها معركة التغيير الكبرى الذي يقلبون فيه المجتمعات ونظامها، ويتعرضون لبطش القوى الحاكمة والتقاليد الراسخة والأفكار الموروثة، ويضحون في سبيل إقامتها وتحقيق وجودها بأرواحهم وأموالهم وأبنائهم. إن قوة الإيمان بالفكرة واحدة من أهم أركان النجاح في الدعوة، وذلك أنه «ينشأ عن المعتقدِ القويِّ يقينٌ لا يزعزعه شيء، ومن مثل هذا اليقين تُشْتَقّ أكثر حوادث التاريخ أهمية، فقد أيقن محمد (ﷺ) أن الله أمره بالدعوة إلى دين جديد أوحى به لتجديد العالم فاستطاع بفضل يقينه أن يقلب الدنيا»[1]، وقد أخبر النبي في حديث الإسراء والمعراج الطويل أن جبريل جاءه «بطست من ذهب، ممتلئ حكمة وإيمانا، فأفرغه في صدري ثم أطبقه»[2].

لقد كانت أول عوامل القوة وأول عوامل النجاح في السيرة النبوية هو هذا الوحي الذي ألقاه الله لنبيه، هذه الفكرة والرسالة الدينية الصافية، فبهذا الدين وحده اجتمع العرب من بعد تمزق وتفرق، وائتلفوا من بعد حروب ومنازعات، وسادوا من بعد ما كانوا هملا رعاعا لا يؤبه لهم في حركة التاريخ ولا في ساحة الأقوياء. وهذه الرسالة الدينية هي التي تجعل المسلمين حتى الآن بعد خمسة عشر قرنا من نزولها أمة واحدة، وتجعل نهضتهم ممكنة مرة أخرى، يتشوق إليها المسلم ويتخوف منها العدو. وإن بقاء هذا الوحي وهذا الدين هو النعمة التي تكفل الله لعباده ببقائها فيهم وبأنه يحفظها لهم ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩﴾[الحجر: ٩]، وهي نعمة عُظْمى لولاها لتعرضت الفكرة للتحريف والتشويه كما

---

(١) جوستاف لوبون، الآراء والمعتقدات، ص١٤٥.

(٢) البخاري (٣٤٢)؛ مسلم (١٦٣).

حصل للكتب السابقة التي حرفها أتباعها رغبة ورهبة.

وإن رسوخ الإسلام في نفوس الشعوب المسلمة يجعل مهمة الدعاة والمصلحين أسهل مما كانت عليه الدعوة في الصدر الأول، فإنهم يستندون في دعوتهم إلى جذور راسخة، وأصول ثابتة، وإنما يمسحون ما علق بها من الباطل وما تراكم عليها من الران. ويبقى عليهم أن يستخلصوا من الإسلام ما يعالجون به أمراض زمانهم، وأن يحسنوا عرض هذا العلاج وتقديمه للناس فيقبلون عليه(١).

وكان العامل الثاني هو هذا الإيمان الراسخ العميق بهذه الرسالة، الإيمان الذي لا يتزعزع ولا يتردد ولا تشوبه شائبة، إيمان بهذا الدين، وبصلاحيته لهذه الحياة في كل زمان ومكان، وبقدرته على إصلاح حياة الناس وإنقاذهم دائما وأبدا، إيمانٌ يختلط باللحم والدم والعظم، يجري في العروق وينبض في القلوب، إيمانٌ لا تستطيع قوة أن تنتزعه أو أن تصرف عن العمل له، التخلي عن الإيمان بالرسالة يساوي التخلي عن الحياة، إيمانٌ عبر عنه النبي في قوله: «أترون هذه الشمس؟ قالوا: نعم. قال: فما أنا بأقدر على أن أدع ذلك منكم على أن تستشعلوا منها شعلة»(٢).

وكانت حياة النبي كلها تمثل نموذجا لهذا الإيمان الراسخ، منذ اللحظة الأولى وحتى لحظة وفاته ﷺ، ويتضح هذا الرسوخ العميق بجلاء لمن قرأ سيرة النبي وإن لم يكن مسلما؛ مثلما يقول ألفونسو دي لامارتين: «حياته وخشوعه وشجاعته في تسفيه آلهة قومه ومعتقداتهم، وجرأته في مواجهة سخط الوثنيين، وثباته على احتمالهم خمس عشرة سنة في مكة، ورضاه بأن يكون مثار سخرية بني قومه بل وبأن يكاد يكون ضحيتهم، وهجرته،

---

(١) كان من هدي الأنبياء معالجة مشكلات أقوامهم المخصوصة بعد الدعوة العامة إلى الإيمان بالله، فلوط عليه السلام اهتمّ بأمر الفاحشة التي يمارسها قومه، وشعيب عليه السلام اهتمّ بأمر تطفيف المكيال والميزان، وهكذا. فلم تكن دعوتهم نظرية مجردة تتعلق بالتوحيد دون تطبيقاته العملية.

(٢) أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ط٦ (المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، ١٩٩٤م)، ١/ ١٦٠؛ الألباني، صحيح السيرة النبوية، ط١ (عمّان: المكتبة الإسلامية، ١٤٢١ه)، ص١٤٤.

ودعوته دون هوادة، وحروبه المتفاوتة القيمة وثقته بالنجاح والظفر، ونجاته بما يفوق طاقة البشر عند الهزائم، وعفوه وحلمه عند النصر، وطموحه إلى تحقيق فكرة لا إلى بناء ملك، وصلاته التي لا تنتهي، وحواره الصوفي مع الله، وموته وما حاز من مجد بعد وفاته، كل ذلك يشهد بأننا بإزاء ما يتجاوز الإدعاء، بإزاء إيمان واقتناع. فقد زوده إيمانه واقتناعه بالقدرة على بعث عقيدة»[١]، ومثل ذلك يقول هنري دي كاستري: «لا يمكن أن ننكر على محمد في الدور الأول من حياته كمال إيمانه وإخلاصه وصدقه. أما في الدور الثاني فلم يتزعزع الإيمان من قلبه مثقال ذرة. وما أوتيه من النصر، كان من شأنه أن يُقويه على الإيمان، لولا أن الاعتقاد كله قد بلغ منه مبلغا لا محل للزيادة فيه»[٢].

(١) ألفونسو دي لا مارتين، مختارات من كتاب حياة محمد، ترجمة: محمد قوبعة، (الكويت، مؤسسة جائزة البابطين، ٢٠٠٦م)، ص١٢٣.

(٢) هنري دي كاستري، الإسلام خواطر وسوانح، ترجمة: أحمد فتحي زغلول، ط١ (القاهرة: مكتبة النافذة، ٢٠٠٨م)، ص٥٢.

## ثانيا: شخصية القائد وإعدادها

لو أن الفكرة تملك التغيير من تلقاء نفسها لأنزل الله الكتب ولم يبعث الرسل، ولكنه جل وعلا أرسل الرسل، لأن الدين لا بد له من إنسان يتمثله ويمثل نموذجا له، ولذلك فلا بد لكل فكرة من شخص يحملها، ويمتلك من المؤهلات والمواهب القيادية ما يستطيع بها أن يجمع إليه العقول والقلوب، ويحسن أن يفصح عن فكرته، ويعرف مداخل الناس وله فيهم فراسة ونظر ورأي، رجلٌ على قدر المهمة، «فما عرف الناس دعوة منفصلة عن قيادتها، وإلا فهي نظريات في بطون الكتب أو كلمات على أفواه الناس»[1]، والقائد «هو الركن الأول الذي يقوم به نظام وحدة الجماعات ويهيئها لأن تصير طائفة خاصة»[2].

والأمة قد تكون مهزومة مستذلة مستضعفة، وهي تحوي بين أفرادها القائد الذي يمكنه أن يأتي لها بالنصر، كما أخبرنا الله تعالى في قصة طالوت، فلقد كان موجودا بين القوم المطرودين من الأرض المقدسة، ولكنه لم يكن قائدا، وكانت معاييرهم الفاسدة في اختيار

(١) أنور الجندي، الزعامة النبوية في تاريخ الرسول، (القاهرة: مطبعة التوكل، د. ت)، ص٣.

(٢) جوستاف لوبون، روح الاجتماع، ص١٤٨.

القائد تحجبه عنهم، ولما أخبرهم نبيهم بأن الله اصطفاه للقيادة استنكروا هذا الاصطفاء ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ﴾[البقرة: ٢٤٧]، ولما تولى قيادتهم جاءهم بالنصر العزيز الذي كان فاتحة للعصر الذهبي لبني إسرائيل.

من المستحيل أن تكون أمتنا التي قاربت المليارين خالية تماما من القائد المتمتع بمواهب القيادة، إلا أننا نحتاج أن نبحث عنه، وأن نفتش بين الصفوف لعلنا نجده، وربما حدث من الحوادث ما أفرزه وأبان عنه، فكان الواجب على كل فرد أن يمدّ يد العون له بما ا ستطاع، فالقائد هو سرّ الأمة و سبب تبدل أحوالها، نحتاج أن نبحث عن كل كفاءة وطاقة وموهبة ونوسع لها ما استطعنا سبيل الارتقاء، وما أكثر قادة أمتنا الذين نصروها وأعزها فكانت مسيرة حياتهم فصولا من تقديم المخلصين لهم والتعريف بهم. يجب أن تكون القُوَى والجهود في ظهره ومن خلفه، وأن تخلص النفوس من حظ نفسها وتتجرد لله ولمصلحة الأمة، فأن نكون ذيولا في الحق خير لنا من أن نكون رؤوسا في الباطل، وهو خير لنا في الدنيا، فأن نسوق للزعيم المسلم دابته خير من أن نرعى خنازير الكافر الذي سيحتلنا ويذلنا.

وقد أعدَّ الله نبيه لهذه المهمة، حتى إن سيرة النبي قبل مبعثه هي سيرة لإعداد الله له:

١. فمن ذلك أنه وُلِد في أشراف القوم، مما يجعله متمتعا بالمكانة بين الناس، وهذا من سنة الله تعالى في خلقه، فإن «الأنبياء يبعثون في أشراف قومهم»(١)، ومن أبرز ما يُفهم من هذه السنة حكمتان؛ الأولى: أن هذه المكانة تجعله مُحْتَرَمًا مسموعا له لا منبوذا ولا مهينا ولا مدفوعا بالأبواب، والثانية: أن هذا الشرف يجعله في حِمًى وعصبية من قومه حتى يشتد ساعد دعوته، وهذا ما سنأتي إليه بعد قليل.

٢. ومن ذلك أنه استرضع في بني سعد، وفي البادية يشب الصبي على اللغة الفصيحة

---

(١) البخاري، صحيح البخاري، تحقيق مصطفي البغا، ط٣ (بيروت: دار ابن كثير، ١٩٨٧م)، (٧).

السليمة الصافية من العجمة واختلاط اللهجات السائدة في العاصمة، وقد وردت بعض الآثار التي تُرجع فصاحة النبي إلى رضاعته في بني سعد، وهي آثار ضعيفة إلا أن معناها صحيح[1]. وفي البادية أيضا الهواء النقي الذي تصلح به الأجسام، لا الهواء المختلط الذي يسود في جوّ المدينة، وربط بعض الباحثين ما تمتع به النبي من الصحة بنشأته في البادية، فقال: «هذه الصحة الأخلاقية والجسمية التي يدين بها إلى البادية، ساعدته كثيرا على تحمل ما ابتلي به بعدُ من محن»[2].

٣. ومن ذلك نشأته يتيما، وفقيرا، واضطراره للعمل منذ سن صغيرة، فقد أتاح هذا له –وهو الشريف النسيب– الاختلاط بأطفال الفقراء والضعفاء من الناس، ومعرفة أحوالهم وحقيقة ما يشعرون به.

٤. ومن ذلك أنه رعى الغنم، بل قال ﷺ «ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم»[3]، ولا ريب أن في هذه المهنة سرًّا يحتاج إليه الدعاة والمصلحون، وقد اجتهد بعض العلماء في اكتناه هذا السر، فمما قالوه: إن رعي الغنم هو رعي الحيوان الضعيف –ليس كرعي الإبل والبقر– وهو في ضعفه أشبه بالإنسان، وهو رعي الحيوان الذي يكثر تفلته وشروده وغفلته وهو في هذا أشبه بالإنسان أيضا، وراعي الغنم مضطر في رعيه هذا إلى الصبر وحسن السياسة والتدبير لئلا يتفلت منه الغنم ولا يضيع، وهو مضطر إلى اليقظة والتنبه لئلا تشرد أو يهجم عليها بعض الضواري، ثم إن راعي الغنم ممن يتاح له التأمل في الحياة والطبيعة

(١) وذلك هو ما يروى عن النبي بلفظ «أنا أعربكم، أنا من قريش ولساني لسان سعد بن بكر»، وفي رواية «أنا أعرب العرب ولدت في بني سعد، فأين يأتيني اللحن؟»، انظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١/ ١١٣ (بيروت: دار صادر، د. ت)؛ العجلوني، كشف الخفاء ومزيل الإلباس، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، ط١ (بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠٠م)، ١/ ٢٢٨؛ الألباني، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، ط١ (الرياض: مكتبة المعارف، ١٩٩٢م)، (١٦٨٩).

(٢) آتيين دينيه وسليمان بن إبراهيم، محمد رسول الله، ترجمة: عبد الحليم محمود ومحمد عبد الحليم، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٦م)، ص٨٤.

(٣) البخاري (٢١٤٣).

بابتعاده عن الناس وخروجه إلى النواحي والبرية، فيكون له من صفاء النفس وهدوء الأجواء ما لا يكون للمنغمس في حياة الناس طول يومه كما هو حال التاجر في المدينة[1].

٥. ومن ذلك عمله بالتجارة، وهو العمل الذي يحمله على السفر والتنقل، ومخالطة أنواع الناس، وفيه يكون السوم في البيع والشراء والتعامل بالأموال، وهذا العمل يدرب صاحبه على الفراسة في الناس ويدربه على حسن التعامل معهم وحسن التدبير في شأن المال واجتناء الربح وتجنب الخسارة، كما أنها مهنة يندر فيها الأمانة والصدق، بحيث يكون التاجر الأمين الماهر في تجارته من ذوي المواهب الخاصة.

٦. ومن ذلك مشاركته في الحرب مثلما كان في حرب الفجار، ومشاركته في حلف المطيبين في دار عبد الله بن جدعان. فشهد بهذا أمورا من أعمال الحرب وأمورا من أعمال السلم والسياسة.

٧. ومن ذلك نشأته العفيفة التي لم تتلوث بما يقع فيه الشباب عادة في زمن الاندفاعة وتفجر الشهوة. ثم أخلاقه التي اشتهر بها حتى عُرِف بين الناس بلقبه «الأمين»، فصار بذلك موضع ثقتهم، وقيل فيه «ما جربنا عليك كذبا قط»[2]. ثم حكمته التي ظهرت في حادثة وضع الحجر الأسود عند إعادة بناء الكعبة، وهي الحكمة التي منعت وقوع حرب بين قبائل قريش، فكان له بذلك عليهم منّة عظيمة بحقنه دماءهم ونزع فتيل ثأر عظيم كان سيتفجر فيهم.

وثمة أمور أخرى هي من إعداد الله له، ولكنها أدخل في الأمر القدري الذي لا يمكن تكراره، كمولده ﷺ في عام الفيل الذي شهدت فيه قريش أن أصنامهم لم تغنِ عنهم شيئا،

(١) يحيى اليحيى، مدخل لفهم السيرة، ط١ (المدينة المنورة: دار الخضيري، ١٤٢٠ه)، ص٧٩، ٨٠؛ محمد الصادق عرجون، محمد رسول الله، ط٣ (دمشق: دار القلم، ٢٠٠٩م)، ١/ ١٧٧؛ علي الصلابي، السيرة النبوية، ط٩ (بيروت: دار ابن كثير، ٢٠١٩م)، ١/ ٦١، ٦٢؛ وبعض هذه الأمور مستفادة من درس الشيخ حازم صلاح أبو إسماعيل في السيرة النبوية.

(٢) البخاري (٤٦٨٧)؛ مسلم (٢٠٨).

وشهدوا على أنفسهم بالضعف والذلة أمام أبرهة وجيشة، وكالبركة التي حلَّت بالمكان الذي ينزل فيه ﷺ، وكالأنباء التي كانت تتناثر حوله تبشر بأنه نبي هذه الأمة كما في حادثة شق الصدر وكلام بحيرا الراهب وبعض من رآه من أهل الكتاب. وغير ذلك من الأمور التي لا تكون محلًّا للاقتداء والاستفادة، وإنما هي مخصوصة به ﷺ.

ولا يلزم أن يمر القائد الذي ترجوه حركة التغيير بكل هذه الظروف القدرية كاليُتْم والنشأة الفقيرة، بل ولا يلزم أن تكون نشأته عفيفة فقد يكون ممن تاب فأصلحه الله، وإنما المقصود أن شأن القائد الذي يحمل الرسالة ويؤسس الحركة لا يمكن أن يخلو من مؤهلات القيادة.

والخلاصة أن إعداد القائد لمهمة الدعوة والرسالة أمرٌ يتأسس على الموهبة الموجودة فيه، ولكنه يستند مع ذلك إلى ما يكتسبه من خبرات ومهارات عبر الظروف التي يمر بها، وفي هذه النقاط السابقة ما يُوَجِّه عمل المربين والدعاة والمصلحين إلى طريقة إعداد القادة، أو على الأقل: معايير الترجيح بين المرشحين لهذه القيادة.

## ثالثا: بيئة الدعوة وشأن العاصمة

إن العمل في الأطراف والهوامش أسهل كثيرا، ونتائجه أسرع كثيرا، ولكنها أيضا: أضعف كثيرا، بينما العمل في العواصم أصعب كثيرا، ونتائجه أبطأ، ولكن النجاح فيها يغير التاريخ. ومما هو من قواعد الحياة وسير التاريخ أن نَصْرَ دولة على أخرى إنما هو اللحظة التي تسقط فيها العاصمة، وطالما بقيت العاصمة تقاوم فالحرب لم تنته بعد، والثورة تنجح حين تسيطر على العاصمة، وتفشل إن لم تنجح في هذا، والمعارك الكبرى في التاريخ هي معارك العاصمة (سواء معركة السيطرة عليها أو المعركة التي يهلك فيها الجيش الرئيسي فينفتح الطريق إلى العاصمة)؛ فالعاصمة قادرة على استعادة الأطراف مهما ضعفت زمنا ولو طال، وبعض الثورات والتمردات استمرت خمسين سنة ثم ذبلت لما لم تنجح في السيطرة على العاصمة.

لقد بُعِث النبي ﷺ في مكة وهي عاصمة العرب، ومن ذلك اتخذت اسمها «أم القرى»، فكانت أعز مدن العرب وأشرفها وأعلاها قدرا، فإذا اعتنقت مكة دينا تبعها عليه سائر العرب:

فمن مكة انتشرت عبادة الأصنام في الجزيرة العربية حين أتى سيدها في الجاهلية عمرو بن لحي الخزاعي بصنم لأول مرة. وكانت سيرة النبي ﷺ كلها تدور حول مكة، فقد بذل كل الجهد مع أشرافها لاعتناق الدين، وظل فيها عشرة أعوام يحاول في هذا السبيل. فلما أبوا ولم يعد من أمل، ذهب إلى العاصمة الثانية للعرب، وأعز المدن بعد مكة: الطائف، وفي الطائف جاء قول الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾[الزخرف: ٣١] ولما أبت الطائف ولقي فيها النبي ﷺ صدودا لا إمكان معه لمحاولة أخرى، بدأ بعرض نفسه على القبائل حتى وجد الأنصار. ثم كانت المرحلة المدنية صراعا مع العاصمة المكية نفسها، فكانت كل معاركه الكبرى تدور حول مكة، إذ لم يكن ممكنا إقامة مجتمع مسلم في جزيرة العرب «ما دام النظام المكي لا يزال يقوم على الأسس الوثنية»[١]، وحين اعترفت مكة بدولة المدينة في اتفاقية الحديبية[٢] سمَّى الله ذلك «فتحا مبينا» وأَسْلَمَ خلال عامين مثلُ الذين أسلموا منذ بدء الدعوة[٣]، وحين فُتِحت مكة كان ذلك هو «الفتح الأعظم»، وعندئذ فقط: جاءت قبائل العرب تدخل في دين الله أفواجا، وسُمِّي العالم التالي لفتح مكة بعام الوفود[٤]، وعندئذ نزل قوله تعالى ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢﴾[النصر: ١-٢]، وهو الأمر الذي كان يدل على قرب أجل النبي بعد اكتمال

---

(١) هودجسون، مغامرة الإسلام، ١/ ٣٤٨.

(٢) يماثله الآن الاعتراف الدولي عبر الأمم المتحدة بدولة ما، مما يرتب لها حقوقا قانونية وسيادة مستقلة ضمن القانون الدولي ووفقا لأسس العلاقات الدولية.

(٣) الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن، تحقيق: أحمد شاكر، ط١ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٠م)، ٢٢/ ٢٥٩.

(٤) السمعاني، تفسير السمعاني، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس، ط١ (الرياض: دار الوطن، ١٩٩٧م)، ٦/ ٢٩٦؛ ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وآخران، ط٢ (القاهرة: مكتبة البابي الحلبي، ١٩٥٥م)، ٢/ ٥٦٠.

مهمته[١].

وحتى بعد انتهاء أجل النبي ﷺ، ظهرت أهمية العاصـمة وأهلها في كلمة أبي بكر للأنصار يوم السقيفة، حيث ذَكَّرهم بأن العرب لن يخضعوا إلا لزعامة قرشية، فقال: «ولن يعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش هم أوسط العرب نسبا ودارا»[٢].

ولو تصورنا أن النبي قد بُعث في غير مكة لكان أمر خضوع مكة له أعسر وأصعب وأبعد، ثم كان أمر خضوع بقية العرب له أعسر وأصعب وأبعد أكثر وأكثر.

كذلك لو تصـورنا أن النبي حين أنشـأ الدولة في المدينة فلم يكن قتاله مع مكة، لكان قد تأخر التمكين جدا وكثرت الحروب وتعاظم المسـفوك من الدماء والأموال والمجهود والأوقات، وإنما قَصُـر الأمر كله لما كانت المواجهة مع مكة، عاصـمة العرب، رأسًـا.. فلما أن انتصـر المسـلمون عليها دخلت الجزيرة العرب في دين الله أفواجا.

والمصلحون –اليوم– إذا أرادوا الاستفادة من هذه السنة من سنن التاريخ، أو إذا تصَوَّرنا أن ثمة خليفة أو ثمة مجموعة قيادية لأمة المسلمين، وأنها بصدد وضع خطة لإصلاح الأمة، فسينطلقون من التركيز على العواصم المهمة المركزية في الأمة، التي يعدُّ التغيير فيها تغييرا واسعا في مناطق كبيرة. فالتغيير داخل الأوطان المحلية لا يكون إلا بفتح العاصمة، والتغيير في الأمة الإسلامية لا يكون بغير فتح العواصم الكبرى للأمة. وقد قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ﴾ [القصص: ٥٩].

(١) البخاري (٤٦٨٥).

(٢) البخاري (٦٤٤٢).

إن أمتنا المســلمة أمة مليارية، تنتشــر شــرقا وغربا، ولن يكون الطريق بأية حال الدوران على هذه الجموع وهدايتها أفرادا أو مجموعات، بل لا بد من اختصـار ذلك كله في مراكز التغيير المهمة، وفي المراكز الكبرى للتغيير، عندها ستكون المعركة أكثر صـعوبة ولكنها أكثر فعالية، وتلك سـيرة النبي، لم يَدُر بين قبائل العرب المتناثرة ليدعوهم أفرادا أو قبائل، وإنما ركز جهوده في تحويل الوضع في العاصمة الكبرى «أم القرى»، فلما فتحها الله عليه، فُتِحت له سائر الجزيرة.

## رابعا: الدعوة الخاصة، أو تكوين فريق العمل

أول ما بدأ به النبي أمر دعوته اختياره فريق العمل، وقد كان ذلك في السنوات الثلاث الأولى التي تُسَمَّى سنوات الدعوة السرية، أو الدعوة الخاصة، وهذه التسمية الثانية أليق وأدق، ففي تلك السنوات اختار النبي لدعوته من يُعرفون باسم «السابقون الأولون»، وهم من يمكن أن نطلق عليهم، لتقريب الصورة، لفظ «فريق العمل»، وأولئك كانوا أعمدة الإسلام منذ كان بذرة حتى صار دولة عظمى عالمية.

ونحن إذا فتشنا في سيرة هؤلاء، وجدناهم رجالا صالحين في أنفسهم، فعَّالين في مجتمعهم، تشربوا الرسالة حتى تبلغ منهم مبلغ اللحم والدم والعظم، وهم مع ذلك أهل كفاءة وفعالية، فخديجة رضي الله عنها شريفة تاجرةٌ تدير أموالها في تجارة دولية، ولا يخرجها هذا عن معنى الشرف والعفة والنزاهة، ولا يخرجها فيما بعد عن حسن التبعل للزوج واللين له، وإنها لموهبة وحزم وقوة. وزيد بن حارثة كان من قوة البصيرة وقوة الشخصية رغم صغر سنّه ما جعله يختار الإقامة مع النبي ولو كان رقيقا على أن يعود إلى أهله حرًّا. وعلي بن أبي طالب صبي فتى مستقل بنفسه قوي الشخصية يؤمن بدين يخالف دين قومه، وسيرته تدل على مبلغ قوته وشجاعته مع ذكائه ومقدرته. وبلالٌ مع ما كان فيه

من العبودية إلا أنه كان قوي العقل والقلب لينظر فيختار لنفسه دينا يتعارك فيه السادة أصحاب المنازل والثراء فلم ينصرف عن هذا الدين كما هو شأن العبيد والخدم في انصرافهم عن أمور السياسة وما يشغل الزعماء. ثم هذا أبو بكر أمة وحده، فهو فوق معدنه الأصيل النفيس رجل تاجر صاحب أموال قادر على التمويل والإسناد، نسَّابة يعرف خريطة قبائل قريش، ومؤرخ يعرف أيام قريش، مركز علاقات عامة « يألف ويؤلف»، وبمجرد ما آمن التقط ستَّةً من كل قريش، فكانوا من العشرة المبشرين بالجنة ومن أعمدة الإسلام الكبرى، فانظر مدى الخبرة والدقة والفراسة في معادن الناس. وكذلك كانت سيرة عثمان بن عفان وأبي عبيدة بن الجراح وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص، كل واحدٍ منهم كان مع كونه شابا مستقل الرأي والنظر، معروف القدر والأثر.

ولكي يتضح الأمر، نقف وقفة مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

إن العلم بأنساب قريش وأيامها (أي: تاريخها) هو عِلْمٌ بخريطة قريش ومواقع النفوذ فيها، وعلم بالبطون والعشائر وأصولهم ومنازعاتهم ومحالفاتهم، ومعاركهم وثاراتهم، وطموحاتهم ومخاوفهم، وطباعهم وأخلاقهم، وما يُمْدَحون به وما يعاب عليهم، وما يتفاخرون به وما يستترون منه. ويعرف معادن رجالهم وأصحاب الشأن فيهم. ومثل هذا حين يكون صاحب دعوة ورسالة يعرف بيسر وسهولة كيف يدخل بها على كل قوم، ومن منهم يُصطفى لها ومن منهم يُتَجَنَّبها، ويعرف كيف يخاطب كل قوم بها من جهة ما يجذبهم إليها. ثم هو بعد ذلك يعرف من أين يُتوقع أن يأتي الخطر والصد والرد والمواجهة، ومن المرشح أن يقف ضد تلك الدعوة والرسالة فيحاربها ويعاديها. ثم هو يعرف كيف تكون أساليب الرد عليه وتذكيره بالمثالب والمعايب واستعمالها في الحط منه والنكير عليه. هنا نرى أبا بكر يمثل جهاز الأمن والمعلومات للدعوة الإسلامية الوليدة، الجهاز الذي يوفر لها المعلومة الصادقة الدقيقة، ولهذا ما إن سمع أبو بكر بالدعوة وصدقها حتى انطلق فجاء في الأيام الأولى بتسعة من المسلمين، ستة منهم من العشرة المبشرين بالجنة،

بالإضافة إلى إسلام أسرته. أولئك النفر الذين أسلموا على يد أبي بكر هم أعمدة الإسلام الذين حملوه حتى فتح المشرق والمغرب. ما كان له أن يفعل هذا لولا ذلك العلم بالناس ومعادنهم!

وقد استفاد النبي من خريطة أبي بكر في خطاب الدعوة للناس، سواء في باب استمالتهم أو في باب رد عاديتهم، فمما روي في استمالتهم أنه كان يصحب النبي حين كان يعرض نفسه على القبائل، فكان يكتشف من خلال أسئلته قوة القبيلة أو ضعفها ويعرف بذلك ما إن كانت تصلح نصيرا أم لا[١].

وأما في رد عاديتهم فقد كان شاعر الإسلام حسان بن ثابت إن أراد هجاء من يسبون رسول الله، راح إلى أبي بكر ليعرف أنسابهم وأيامهم، فيتخير من الألفاظ والوقائع والمعاني ما لا يقترب به من نسب رسول الله، إذ للنبي في قريش نسبا، فتعلم من أبي بكر ما يحتاج إليه ثم انطلق ليوقع بهم هجاء كان أشد عليهم من السهام[٢].

في عصرنا هذا كان غياب الجهاز الأمني للحركة الإسلامية وحركات المقاومة هو أقوى وأخطر ثغراتهم التي أفضت إلى هزيمتهم وإفشالهم، وقد روى بعض رجال تلك الحركات أنه كان من شرط السماح للإخوان المسلمين في عصر مبارك بالبقاء هو ألا يكون لهم أي جهاز جمع معلومات ولو اقتصر فحسب على أحزاب المعارضة الأخرى[٣]. ولا يمكن لحركة تغيير في عالمنا المعاصر أن تفكر فيه وهي تجهل خريطة رجال النظام القائم وتحالفاتهم وعلاقاتهم وخصوماتهم، ولا تعرف أهم خمسين اسم، أو أهم خمسين شركة،

---

(١) البيهقي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ)، ٢/ ٤٢٢ وما بعدها؛ محمد الصوياني، السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة، ط١ (الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٠٤م)، ١/ ٢٢٦ وما بعدها.

(٢) مسلم، صحيح مسلم، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د. ت)، (٢٤٩٠).

(٣) من مذكرات إبراهيم الزعفراني، الذي كان قياديا في جماعة الإخوان بالإسكندرية وفي العمل النقابي، ونشر مذكراته على صفحته بموقع الفيس بوك على هذا الرابط: https://www.facebook.com/ibrahim.zafarany/posts/10153994381327612

أو أهم خمسين موقع.. فإنها بهذا تكون بمثابة حركة عمياء! وكانوا قديما يضربون المثل بالملاكم القوي الضخم الذي يفقد قوته كلها إن وُضِعت الغمامة على عينه، فكيف إن كان الأعمى هو الملاكم الضعيف الذي يواجه الملاكم الضخم المبصر؟!

وكان ما لدى أبي بكر من العلم بالأنساب والأيام يجعله مركز شبكة العلاقات العامة للدعوة الإسلامية، كان يجتمع إليه صفوة الناس في قريش ونخبتهم على اختلاف قبائلهم، ورغم أن أبا بكر من قبيلة ضعيفة في قريش (قبيلة تيم بن مرة) إلا أن أثره كان ممتدا لسائر قريش. ولو دققنا في أسماء التسعة الأوائل الذين أسلموا على يده لوجدنا فيهم: عثمان بن عفان (من بني أمية بن عبد شمس) والزبير بن العوام (من بني أسد) وسعد بن أبي وقاص (من بني زهرة)، وأبو سلمة بن عبد الأسد (من بني مخزوم) وغيرهم. وليس من دعوة إلا وهي تحتاج رجالا في مواقع النفوذ والتأثير من مراكز قوى المجتمع، وتحتاج من يستطيعون الحديث عنها وشرحها والتنظير لها.

ثم إن موقع أبي بكر في عالم المال، لكونه واحدا من مشاهير تجار قريش، يمثل بمصطلح العصر «رجل الأعمال»، وهو بما له من قوة مالية أنفقها كلها في سبيل الدعوة، وتحرير من أسلم من العذاب والرق. وكان النبي ﷺ يذكر له مواساته بالمال. وسيبدو واضحا أن عددا من أولئك الأوائل كانوا تجارا: عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف، وجميعهم ممن كانت لهم مواقف مشهودة في نصرة الإسلام بأموالهم. وهذا الجانب أهم من أن نطيل الكلام فيه، فلا تكاد تكون قصة فشل في تاريخنا المعاصر إلا وكانت أزمة التمويل جانبا منها. فالممولون يتحكمون بالمنع والعطاء في التأثير والتوجيه وصناعة الفصائل والحزبيات والأجنحة والانشقاقات، حتى إن الثورات وحركات المقاومة تدفع من دمائها وأرواح شبابها في معارك خاسرة تحت ضغط الأموال.

وبعد ذلك كله، فقد كان أبو بكر إلفا مألوفا، حسن الخلق.. وإن الناس يحبون القرب من أهل المال وإن كان فيهم كبر وغلظة وجفاء، وكثير من الناس يحبون القرب من أهل

العلم وإن كان فيهم كبر وغلظة وجفاء، فكيف إن اجتمع في رجل واحد: العلم والمال مع التواضع واللين وحسن الخلق؟!

وقد استثمر أبو بكر هذا كله في وجوه الخير، فقد وُصِف بما وُصِف به النبي ﷺ، وذلك حين أراد الهجرة إلى الحبشة فلقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة، فقال له «مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يُخرج، إنك تكسب المعدوم وتصل الرحم وتحمل الكلّ وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق»، وأجاره من أذى قريش[1]. وبهذا كان أبو بكر مثالا ينبغي أن يحتذيه المؤسسون للدعوات، فإنهم يستثمرون في دعوتهم ما كان لهم من تاريخ حَسَن وثمرة محمودة بين الناس، وبهذا يجدون لهم حتى بين أهل الباطل أنصارا.

تلك الجوانب من شخصية أبي بكر وأثرها في الدعوة ينبغي أن نركز عليها أكثر من التركيز على رقته ورحمته وبكائه حين يقرأ القرآن، فهذه مع أهميتها لكل مسلم إنما تعود على شخصه فحسب، ولم ينتفع الإسلام برقة أبي بكر وبكائه قدر ما انتفع بفهمه لخريطة واقعه وشبكة علاقاته وأمواله. ولا أحسب أن الأمة تعاني من نقص أهل الرحمة والرقة والبكاء قدر ما تعاني من نقص الكفاءة في تلك الثغرات الكبرى الخطيرة[2].

والحركة الإسلامية الآن لا تدعو للإسلام من جديد، بل واجبها أن تنتقي الكفاءات المؤثرة، ولا تستكثر من الضعفاء والهزالي والكسالى الذين ما دخلوا حركة إلا أثقلوها وجعلوها منتفخة بلا أثر، بل إن حقيقة نكبتنا المعاصرة أن غالب جسد الحركة الإسلامية ليس أهلا للمهمات. يجب أن تكون الدعوة والانتقاء لمن يضيف إليها ولا يكون عالة عليها، دعوة للمؤثر الكفء الفعال مهما كان سبيل دعوته صعبا ومجهدا، وهي دعوة تستهدف نخبة الناس، ومراكز القوى والتأثير في المجتمع، والناظر في الخريطة القبلية

---

(١) البخاري (٢١٧٥).

(٢) للتوسع في صفات السابقين الأولين، انظر: منير الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية: التربية القيادية، ط٤ (المنصورة: دار الوفاء، ٢٠٠٥م)، ٤/ ١٠٢ وما بعدها.

للمسلمين الأوائل يُشْعِر أنه انتقاء مقصود من أفضل نخبة الشباب في القبائل العليا لمجتمع قريش.

ولا بد من ملاحظة أن الحركة تنتقي، ولكنها لا ترفض من أقبل إليها مهما ضعفت إمكانياته ولا تصرفه، وهذا هو موضع عتاب الله لنبيه في ابن أم مكتوم، عاتبه الله في الانصراف عن الذي أقبل، لا في أنه دعا سادة القوم. إننا نؤمن بقول نبينا «هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم»[1]، وسنستعين بهؤلاء في الدعاء فكم فيهم من مستجاب الدعوة، ونتقرب إلى الله بخدمتهم ورعايتهم والنظر في أحوالهم، لكن حديثنا الآن عن مسارات العمل وما تحتاجه من كفاءات.

---

(١) البخاري (٢٧٣٩).

## خامسا: تربية إيمانية مكثفة

من أعظم ما يهدد الدعوات وحركات التغيير قدرة الأنظمة القائمة على احتوائها واختراقها وتوظيفها في مرحلة البداية، أو الوصول معها إلى حلول وسطى في حال ما إذا استطاعت الحركة أن تكون فاعلة وعجزت الأنظمة عن اجتثاثها وإنهائها، وإذا تجاوزت الحركة هذا كله فقد بقي أمامها خطر آخرٌ كبير وهو أن لا تنحرف بعد انتصارها لتكون نسخة أخرى من الأنظمة التي ثارت عليها وقامت لتغييرها، فكم استطاعت إغراءات السلطان والنفوذ والجاه أن تكسر أصحاب الحركة بعد انتصارهم ليكرروا سيرة الظالمين قديما.

كذلك فإن الدعوات وحركات التغيير الدينية، تتمثل قيمًا رفيعة سامية، وهي لا تحارب الأوضاع الدنيوية الظالمة لذاتها، وإنما لكون هذه الأوضاع انحرافا عن الدين الذي أنزله الله، ولكونها من صور الباطل الذي يدعمه الشيطان وتمليه النفس الأمارة بالسوء. ولذلك فإن أهل هذه الدعوات يتطلعون إلى الآخرة ولا يحرصون على مطامع الدنيا، وهم يتزودون في رحلة كفاحهم برصيد عظيم من الإيمان بالله ورجاء اليوم الآخر، وهذا هو ما يجعلهم يقبلون على الشهادة إقبال غيرهم على الدنيا، ويحرصون على الموت حرص

غيرهم على الحياة.

لهذا كله، كان لا بد لأهل الدعوة الدينية على وجه الخصـوص من تربية إيمانية مكثفة، تُعَظِّم دائما من رصيدهم الإيماني الذي يمنحهم القدرة على التضحية والبسالة ويستخلص من نفوســهم أعظم ما فيها، وهو نفس هذا الرصــيد الذي يحرس دعوتهم وحركتهم من الاحتواء والاختراق، ومن المساومة والتنازلات، ومن الانحراف بعد النصر والتمكين.

ولقد تعرض السابقون الأولون إلى هذه التربية الإيمانية المكثفة، حيث فُرِض عليهم قيام الليل في كل ليلة، وذلك في قوله تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ [المزمل: ١-٤]، فكان يقوم الليل هو ومن أسلم معه، بهذه الكيفية الشديدة التي تستغرق نصف الليل، واستمر هذا الحال عاما حتى نزل التخفيف من الله تعالى فجعل قيام الليل نافلة، وذلك في قوله تعالى ﴿۞إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ﴾ [المزمل: ٢٠].

وقد قام الســابقون الليل حتى إن بعضــهم كان يعلق حبلا ليتعلق به ليتغلب على ما قد يعتريه من النوم والكســل، وفي هذا العام ورمت أقدامُهم وســوقُهم وانتقعت ألوانهم، وقد كانوا يحتاطون لأنفســهم فيزيدون عن قيام نصــف الليل مخافة أن يخطئ تحريهم: هل مضى نصف الليل أم لا، فكان بعضهم يقوم إلى الصبح[1].

وسياق الآيات يفيد أن قيام الليل هو العدَّة التي لا بد منها لأصحاب الرسالة، وذلك في

(١) الطبري، تفسير الطبري، تحقيق: أحمد شاكر، ط١ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٠م)، ٢٣/ ٦٧٩ وما بعدها؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط١ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٦م)، ٢١/ ٣٤٤ وما بعدها؛ الرازي، مفاتيح الغيب، ط١ (بيروت: دار الفكر، ١٩٨١م)، ٣٠/ ١٧٢.

قوله تعالى ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ [المزمل: ٥-٦]، فتكلم أهل العلم عن أن قيام الليل تكليف صعب، إذ هو وقت الراحة والنوم فلا بد لمن أحياه من مضادة لطبعه ومجاهدة لنفسه، وأن القيام يثبت المؤمن ويبعده عن الزلل، ثم إن الانشغال بالعبادة في الليل المظلم حيث تغيب الشواغل والعوائق يهيئ النفس لإشراق جلال الله فيها، وإعدادها لما ستلقاه من المشاق في دعوة الناس إلى الدين الجديد[١].

وقد ثبتت نتيجة هذه التربية الإيمانية المكثفة في أنها أخرجت أمثلة إيمانية فريدة، جاهدت وكافحت حتى حوَّلت الدعوة إلى دولة، ثم حولت الدولة إلى قوة عظمى عالمية، وجاءتها كنوز كسرى وقيصر فلم تستطع اختراق الحصانة الإيمانية المتينة، فكان الخلفاء الراشدون وهم على رأس الدولة الإسلامية العظيمة أزهد الناس في الدنيا وأرغبهم في الآخرة.

(١) الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، ط١ (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٩٩٨م)؛ ٦/ ٢٤٢ وما بعدها؛ الرازي، مفاتيح الغيب، ٣٠/ ١٧٢ وما بعدها؛ الصابوني، صفوة التفاسير، ط٤ (بيروت: دار القرآن الكريم، ١٩٨١م)، ٣/ ٤٦٦.

# سادسا: الاعتماد على قوة طبيعية

إن النظر في سيرة الدعوات التي نجحت وتحولت إلى دول، يفصح عن أنه كان لكل دعوة عصبية طبيعية اعتمدت عليها واستندت إليها، حتى صارت الدعوة دولة. وهذه الظاهرة هي التي يسميها ابن خلدون «العصبية»، وتسميها العلوم الاجتماعية الحديثة «قاعدة الدولة» أو «مركز القوة».

وقد وردت العديد من النصوص التي تؤكد هذا المعنى، كما جاء في قول قوم شعيب له ﴿يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾ [هود: ٩١]، وقد جاء في مؤامرة قوم صالحٍ ما يثبت قوة عشيرته، حيث ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [النمل: ٤٩].

ولما افتقد لوط عليه السلام هذه العصبية، لم يستطع أن يدفع الضر عن ضيفه، ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ [هود: ٨٠]، ولم يكن يعلم في تلك اللحظة أنه يأوي إلى ركن شديد، فقال له ضيوفه ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَۖ﴾ [هود: ٨١] وأشار الملك إليهم فذهبت أعينهم ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾﴾ [القمر: ٣٧]. ويبدو —والله

أعلم- أن قصة لوط كانت مثالا ضربه الله للناس، عن صاحب الدعوة حين يفتقد إلى الحماية ولو كان نبيا، ذلك أن الله لم يبعث من بعده نبيا إلا في «ثروة من قومه» كما قال النبي ﷺ[1]، والثروة: هي الكثرة والمَنَعة التي تكفل له الحماية، ولذلك كان من علامات الأنبياء أنهم يُبعَثون في أنساب (أي أشراف) قومهم، كما جاء في الحوار المشهور بين هرقل وأبي سفيان حين كان هرقل يسأله كي يتثبت من أن محمدا نبي حقا[2].

وليس معنى هذا أن النبي يُحْفَظ من كل الأذى، بل يصير إيذاؤه أمرا عسيرا صعبا على خصومه وأعداء رسالته، ويصير قرار قتله هو القرار الأخير الذي لا يُتَّخَذ إلا بعد استنفاد المحاولات الأخرى لإسكاته وقهر دعوته، فالأنبياء أشد الناس بلاء ومنهم من قُتِل كما فعلت بنو إسرائيل بأنبيائها، وكما كانت سيرة نبينا صلوات الله وسلامه عليه، فلقد أوذي في نفسه وأهله وأهين وضُيِّق عليه وحوصر، لكن قرار قتله لم يُتَّخذ إلا بعد ثلاثة عشر عاما.

وذلك أن الله بعث نبيه في أشرف نسب من قوم القرشيين، فحماه بالعصبية القبلية العشائرية، وامتن عليه بهذه الحماية منذ أول الأمر بعمه أبي طالب، فقال تعالى ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾ [الضحى: ٦]، وظل عمه -الذي هو سيد بني هاشم حينئذ- يحوطه ويرعاه ويدفع عنه رغم كراهيته لما جاء به ابن أخيه، حتى لم يكن أحد من المشركين يجد حلا سوى التفاوض مع أبي طالب أن يكف عنهم محمدا، ثم لم يظفروا منه بشيء؛ فبهذه الحماية نجَّى الله نبيه من العذاب الذي نزل بالصحابة رضوان الله عليهم، وهو العذاب الذي أنزله بهم أهلوهم، فإن كفار مكة -احتراما للقانون الحاكم لمجتمعهم: قانون العصبية القبلية- قرروا أن يتولى كل قوم التنكيل بمن آمن منهم ومن مواليهم.

---

(١) أحمد بن حنبل، المسند، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعادل مرشد، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠١م)، (٨٣٩٣)؛ البخاري، الأدب المفرد، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط٣ (بيروت: دار البشائر الإسلامية، ١٩٨٩م)، (٦٠٥)؛ الترمذي، سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د. ت)، (٣١١٦) وحسنه، وصححه الألباني وشعيب الأرناؤوط.

(٢) البخاري (٧).

وحتى الحصار الذي فرضه ملأ قريش على بني هاشم، والذي استمر ثلاث سنوات حتى أكلوا أوراق الشجر والجلود من الجوع، شمل بني هاشم مسلمهم وكافرهم، فكان ذلك الكافر يتحمل كل هذا الألم والعنت الرهيب لأجل عصبية قبلية، وربما عرَّض أحدهم نفسه للقتل إذ يبيت مكان النبي الذي كان أبو طالب ينقل مبيته خوفا عليه من الاغتيال(١).

إن قانون العصبية كان حصنا منيعا ضد اجتياح الدعوة في مهدها، ومثل ذلك قوانين الأحلاف التي كانت بين القبائل، ومثلها قوانين مرور التجارة في منازل القبائل؛ فقد تردد في السيرة كيف حمى العباس بن عبد المطلب أبا ذر الغفاري من فتك المشركين به بتذكيرهم أنه من غفار حيث تمر تجارة مكة(٢)، وكيف أنقذ العاص بن وائل عمر بن الخطاب من الفتك به ومَكَّنه من الخروج من داره لكون بني سهم وبني عدي حلفاء في الجاهلية(٣)، وتبرز قوة التقاليد في تلك الزيارة التي زارها أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية لأبي طالب وهو على فراش الموت، وذلك حين قال له النبي ﷺ «قل لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله» فقال أبو جهل وعبد الله: «أترغب عن ملة عبد المطلب؟» فما زال النبي يعيدها وهما يعيدانها حتى قال أبو طالب «بل على ملة عبد المطلب»(٤)، ولكن الشاهد هنا هو تلك الزيارة التي يزار فيها مريض رغم ما بين الفريقين من شقاق عنيف ومن حصار شامل ومقاطعة استمرت ثلاث سنوات، فتلك هي قوة التقاليد السائدة التي مَثَّلت حماية للنبي والدعوة.

---

(١) من الملاحظات الذكية التي سجلها مارشال هودجسون هنا قوله: «لم تكن هناك حكومة مركزية لتقضي بسجنه أو بمحاكمته كخائن أو محرض، أو لتقوم بسجن أتباعه وإصلاحهم». مارشال هودجسون، مغامرة الإسلام، ١/ ٣١٧.

(٢) البخاري (٣٦٤٨)؛ مسلم (٢٤٧٤).

(٣) البخاري (٣٦٥١)، (٣٦٥٢).

(٤) البخاري (١٢٩٤)؛ مسلم (٢٤).

وقد ظلت هذه الحماية حتى اللحظة الأخيرة في الفترة المكية، فحتى بعد وفاة أبي طالب التي كانت من أصعب النوازل على النبي لم تنتهِ حماية بني هاشم، بل تولى العباس زعامتهم فكان على العهد(١)، حتى قال للأنصار في بيعة العقبة الثانية –قبل الهجرة بشهرين– «يا معشر الخزرج إن محمدا منا حيث علمتم، وهو في منعة ونصرة من قومه وعشيرته، وقد أبى إلا الانقطاع إليكم، فإن كنتم وافين بما عاهدتموه فأنتم وما تَحَمَّلْتُم، وإلاَّ فاتركوه فِي قومه»(٢)، ولذلك لم يكن السبيل للتخلص منه إلا ما توصل إليه زعماء الكفر، أن يشتركوا جميعا في قتله بضربة رجل واحد فلا تقوى بنو هاشم على حربهم فيقبلون الدية، فذلك دليل على أن حماية بني هاشم كانت قائمة.

وهذا يدلُّ على أن النبي حين هاجر أو بحث عن مأوى لم يكن ذلك فرارا من الأذى أو طلبا للحماية الشخصية، بل كان طلبا لأناس يقيمون الدولة ويحمون الدعوة لا صاحبها فحسب.

إن مجرد حمل الحق والدعوة إليه بالحسنى لا يغير شيئا في واقع الباطل، بل لا بد لكل حق يحمله داعية من حماية تحوطه من بطش الباطل حتى يستوي على عوده ويبدأ جهاده، وهذه ظاهرة تاريخية، أشار إليها ابن خلدون في قوله: «الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم، وهذا لما قَدَّمْناه من أن كل أمر تُحمل عليه الكافَّة فلا بد له من العصبية، وفي الحديث الصحيح «ما بعث الله نبيا إلا في منعة من قومه» وإذا كان هذا في الانبياء وهم أولى الناس

(١) بل إن ثمة رواية ضعيفة، نوردها هنا للاستئناس، أوردها ابن سعد في الطبقات ونقلها عنه ابن الجوزي في المنتظم وابن كثير في البداية والنهاية والحلبي في السيرة والصالحي في السبل، أن أبا لهب شقَّ عليه قلة خروج محمد ﷺ من بيته بعد وفاة أبي طالب فذهب إليه وقال «يا محمد امض لما أردت وما كنت صانعا إذ كان أبو طالب حيا في صنعه، لا واللات لا يوصل إليك حتى أموت»، وتصدى لرجل سب النبي حتى ظنوا أنه أسلم فأنكر ذلك وقال: «ما فارقت دين عبد المطلب، ولكني أمنع ابن أخي أن يضام حتى يمضي لما يريد». انظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١/ ٢١١.

(٢) أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ١/ ٢٠٠؛ إبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية، ط١ (عمّان: دار النفائس، ١٩٩٥م)، ص١١٠.

بخرق العوائد فما ظنك بغيرهم؟!... أحوال الملوك والدول راسخة قوية لا يزحزحها ويهدم بناءها إلا المطالبة القوية التي من ورائها عصبية القبائل والعشائر كما قدمناه، وهكذا كان حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في دعوتهم إلى الله بالعشائر والعصائب وهم المؤيدون من الله بالكون كله لو شاء، لكنه إنما أجرى الأمور على مستقر العادة والله حكيم عليم، فإذا ذهب أحد من الناس هذا المذهب (أي الدعوة بغير قوة تحميه) -وكان فيه محقا- قَصَّر به الانفراد عن العصبية، فطاح في هوة الهلاك»(١).

والخلاصة: أن الداعية، مؤسس الحركة على أقل تقدير، والدعوة لا بد لها من قوة وحماية تتقي بها بطش النظام القائم، وهذا المعنى من أهم المعاني الذي ينبغي أن تعتنقه حركات التغيير، إذ ما من حركة استطاعت أن تنجح وهي تضع نفسها تحت رحمة عدوها، فليس أسهل من قرار ينتهي به أمرها أو في أحسن الأحوال يُبقي عليها موجودة بلا تأثير، بل إن فشل كثير من الحركات الإسلامية إنما كان لهذا السبب. و سيرة الدعوات أنها تستفيد من واقع المجتمع الذي تريد تغييره، وتوظفه لمصلحتها، فيجب أن تقصد الدعوة مواضع الحماية وعصبيات القبائل ومراكز القوى لتحتمي بقوتها ومكانتها، ولهذا يجب عليها أن تعرف خريطة مجتمعها جيدا وتحديد أهدافها قبيل بدء الحركة.

وفي الوقت الحاضر ربما يجب الاجتهاد في مسألة مراكز القوى بحسب كل مجتمع، هل لا تزال في القبائل والعشائر، أم أنها انتقلت لتكون في الجيوش، أم في شبكة القوى الاقتصادية ذات النفوذ السياسي؟ كذلك يجب الاجتهاد في مسألة مراكز القوى العالمية، وإلى أي مدى يمكن الاستفادة منها، وكيف يمكن ذلك؟

فالمقصود أن الحركة لا يمكن لها أن تبدأ وهي لا تستند إلى قوة طبيعية موجودة في المجتمع، فإما أن هذه القوة قد استجابت للدعوة فهي عصبتها وشوكتها، وإما أنها توفر الحماية لها إلى حين تستطيع الدعوة أن تكون ذات قوة وشوكة. ولا يجوز الاعتماد

(١) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ١/ ١٥٩.

والاستناد إلى مجرد قوة الفكرة أو قوة الإيمان، فهذا وحده غير كافٍ، ولو أنه كان يكفي لكان أولى الناس بأن يستغني عن هذا هم الأنبياء، فكيف والأنبياء أنفسهم -الذين تُخرق لهم العوائد- قد احتاجوا إلى العصبة ومركز القوة؟!

## سابعا: خطة واضحة، أو: جدول أعمال للأرض والنصرة

إذا لم تتحول الدعوة إلى دولة ونظام وجماعة فإنها لا تلبث أن تضمر وتذبل، أو أنها تتشوه وتُوَظِّفها السلطة القائمة ضمن أغراضها. ولئن كان يمكن الجدال حول احتياج الدعوة إلى السلطة في حالة الدعوات الروحية الزاهدة، فإن ذلك غير ممكن في حالة الإسلام الذي هو دعوة ودولة، إذ الإسلام لا يمكن أن يُطَبَّق بغير وجود الدولة والنظام.

إن السلطة ضرورة لأية دعوة، والدعاة الذين يحملون أي دعوة تغيير يجدون أنفسهم مدفوعين إلى معركة السلطة؛ فكل فكرة وكل دعوة وكل حركة تبحث عن السلطة، ليس لأن أصحابها طامعون في المال والجاه والنفوذ، بل لأن السلطة هي السبيل لنشر هذه الفكرة ونشر هذه الدعوة. وذلك أن الناس على دين ملوكهم، وإن قدرة السلطة على تغيير الناس أعظم بكثير من قدرة الناس على تغيير السلطة، والقائد يستطيع أن يسوق الجماهير الكثيرة بأكثر مما تستطيع الجماهير الكثيرة أن تسوق القائد، وتلك المعاني مذخورة في قول عثمان رضي الله عنه «إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»(1). وقد تضاعف تأثير السلطة في زماننا هذا عما كان عليه قديما، فقد

(١) روي بألفاظ مختلفة وقريبة عن عثمان، وهو الأشهر، وعن عمر بن الخطاب، انظر: ابن شبة، تاريخ المدينة، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، (قم: دار الفكر، ١٤١٠ه)، ٣/ ٩٨٨؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، تحقيق: بشار عواد

وفرت لها المخترعات الحديثة أساليب تأثير وتحكم بالغة الخطورة كالإعلام والنظم الحاسوبية والسلاح المتفوق الذي يجعلها قادرة على التحكم في الشعوب ومراقبتها وصناعة الأفكار التي تسود فيهم، وما كان هذا متاحا لأي حاكم فيما سبق بهذا القدر من القوة والفعالية.

إن معركة الدعوة هي في حقيقتها وفي جانبها الأهم معركة سلطة! فالتمكن من الحكم هو أول مراحل النصر والتمكين، والإخفاق فيه هو أول منازل الهزيمة والفشل.

وبالتأمل في المرحلة المكية نستطيع أن نستخلص اتجاهيْن متضافريْن؛ الأول: هو البحث عن أرض للدولة وعن عصبية تحمل الدعوة. والثاني: أن النبي في بحثه هذا كان يقصد إلى الزعماء والقادة.

كانت المرحلة المكية هي مرحلة البحث عن أرض للدولة، وعن عصبية تحمل الدعوة وتحميها، فاستمرت المحاولة في مكة ما بقيت حماية بني هاشم وأبي طالب، فلما ضعفت هذه الحماية بموت أبي طالب، كذلك فقد ظهر أن أهل مكة لن يؤمنوا، فذهب النبي ﷺ إلى الطائف محاولا أن يجد فيها أرضا لدولته وفي أهلها من ثقيف وهوازن عصبة لدعوته، ثم عرض نفسه على القبائل، وقَبِلَ من هذه القبائل حمايتها ولو داخل البلدة فحسب كما كانت بيعته للأنصار «وأن تحموني مما تحمون منه أنفسكم وأبناءكم»، ولو لم يؤمن الأنصار لطاف النبي ﷺ على قبائل أخرى وأخرى حتى يجد له أرضا تنصره ليبلغ منها رسالة ربه، ولتكون أرض الدعوة وليكون أهلها

معروف، ط١ (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٢م)، ٥/ ١٧٢؛ ابن العربي، أحكام القرآن، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط٣ (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣م)، ٣/ ٤٧٤؛ ابن تيمية، مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الرحمن قاسم، (المدينة المنورة، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف، ١٩٩٥م)، ١١/ ٤١٦.

أنصاره وحزبه.

إن الوصـول إلى الاسـتقلال بأرض لإقامة الدولة من بعد الدعوة كانت خطوة في طريق كل حركة ناجحة، سـواءٌ أكان ذلك بتنفيذ ثورة، أو انقلاب، أو الاسـتقلال بناحية، ويظل الصراع دائما حول السيطرة على العاصمة التي تعني نهاية العهد القديم وبداية العهد الجديد. وهذه الخطة يجب أن يستخلص لها أهل كل مكان ما يناسب وضعهم، إذ هي حصيلة النظر في الجغرافيا والتاريخ والاجتماع والأمن والسياسة، وبدون وجود رؤية كهذه يستحيل أن تحقق الحركة نجاحا، لأنها تصير كالتائه الذي لا يدري ماذا يفعل، يتحرك بالانطباع الانفعالي اللحظي، تحت ضغط الظرف والضرورة، يوظفه الأقوياء من حوله في صراعاتهم، ويدفع هو ثمنها كاملة دون أن يربح شيئا.

وكان النبي ﷺ يتوجه بالدعوة -منذ أن أعلنها- إلى ملأ القوم وسادتهم وزعمائهم، ولما لم يستجب له ملأ قريش ذهب إلى ملأ الطائف فلما لم يستجيبوا له عرض نفسه على القبائل: على أشرافها ورؤوسها لا على عامتهم وضعفائهم. ولما ذهب مصعب بن عمير إلى المدينة كان إنجازه أنه ا ستطاع ضمّ قادة الأنصار كأسيد بن حضير وسعد بن معاذ، وبإسلام سعدٍ أسلمَ قومُه، وتمهدت المدينة لدخول الإسلام ولتكون عاصمة دولته.

مما يجب ملاحظته أن النبي ﷺ حين استعصى عليه الملأ في كل حالة لم يضيع وقته في دعوة الناس والعامة والعبيد، لأنهم في النهاية تبع، ولا يمكن أن يكثروا حوله رغم أنف الملأ حتى يكاثروهم ويغلبوهم، كما هو التصور الساذج الذي نبت في أطياف من الحركة الإسلامية المعاصرة، تحت ضغط الهروب من تكاليف الصدام مع الأنظمة أو تحت وهم التغيير الديمقراطي أو تحتهما معًا.

كذلك فإن النبي ﷺ لما دخل المدينة دخلها حاكما ولم يدخلها داعية، وأزال النظام السياسي القديم -وقد كان هذا النظام القديم يحاول القيام من بعد الانهيار في معركة بعاث، وكاد ينتصب عبد الله بن أبي بن سلول ملكا- وصار هو ﷺ السلطة القائمة والمرجع القائم.

# الخلاصة

كانت تلك قراءة للسيرة النبوية في فترتها المكية، من حيث كونها تجربة تأسيس دعوة في بيئة مناهضة لها، وقدرة هذه الدعوة على اجتذب الأتباع والأنصار حتى تجاوزها مرحلة الدعوة نحو مرحلة الدولة، ويمكن إجمال النتائج في هذه النقاط:

١. أي دعوة تبدأ من فكرة ورسالة، وبقدر ما تكون هذه الفكرة حقا في نفسها وصالحة لزمانها بقدر ما توفق في الانتشار والتأثير، وبقدر إيمان أصحاب هذه الفكرة بها ويقينهم فيها بقدر ما يضحون في سبيلها فيحققون الانتصار لها.

٢. هذه الفكرة لا تتحول إلى حركة تغيير دون قائد يحملها ويكون متمتعا بمواهب القيادة، فيحسن التعبير عنها، وتجنيد الطاقات لها، وخوض المعارك وتوظيف الظروف في سبيلها.

٣. تحقق حركة التغيير نجاحا مؤثرا وواضحا إذا كانت في عاصمة البلد أو عاصمة الإقليم، فالتغير الذي يحصل في العاصمة يلقي بتأثيره على كافة الأنحاء، فمعركة العاصمة هي المعركة الأصعب لكنها الأنجح والأقدر.

٤. يعتمد نجاح حركة التغيير على الشخصيات المؤسسة التي بدأت بحمل همّ

الدعوة، فبقدر ما يكون هؤلاء من الشخصيات الفعالة ذات الكفاءة بقدر ما يمكنهم تغيير واقعهم وتفعيل دعوتهم وتمكين رسالتهم.

٥. إذا كانت الفكرة دينية سامية، وليست دنيوية، فلا بد لأصحاب هذه الفكرة من تربية إيمانية عميقة ومكثفة، تستخلص من قلوبهم حب الدنيا ومطامع المكسب، وتجردهم لله ولطلب الآخرة، وبهذه التربية الإيمانية العميقة تكتسب الدعوة حصانة من الانحراف والتوظيف، كما تظل على نقائها وإن وصلت إلى السلطة وفُتِحَت عليها الدنيا.

٦. تعتمد حركات التغيير على قوة طبيعية في المجتمع الذي قامت فيه، تمثل العصبية التي تحميها إلى أن تجد لها شوكة وقوة، أو تكون هذه العصبية نفسها هي الشوكة والقوة التي تستعملها الدعوة في مجالدة النظام القديم الذي يحرس الوضع الذي قامت الدعوة لتغييره.

٧. لا بد لكل حركة تغيير من الوصول إلى الحكم، ولهذا لا بد لها من وضع خطة أو جدول أعمال لتحقيق هذه الغاية، ويكون ذلك من خلال ضم واجتذاب مراكز القوى المؤثرة في المجتمع، أو من خلال الهجرة والانتقال إلى أرض أخرى استطاعت الدعوة اجتذب قيادتها ومراكز القوة فيها.

# الفصل الثاني:

# السيرة النبوية - المرحلة المدنية

تسعى هذه «الخلاصة» إلى تكوين وعي تاريخي للشباب المسلم، بحيث يتوفر لقارئها تصورٌ واضح منضبط عن التاريخ الإسلامي ومراحله المختلفة، ولهذا السبب يجب التأكيد دائما على أمريْن:

أولهما أن تكوين الوعي التاريخي يرتبط بطبيعته بالإجابة عن أسئلة الواقع وحاجاته، فالتاريخ هو «ما يحتاج الناس إلى تذكره»[1]، والمؤرخ حين يفتش كتب التاريخ فإنه يفعل ذلك وهو مهمومٌ بقضايا الواقع ومشكلاته لكي يحاول العثور على حلولٍ لها، ومن هنا فإن أسئلة الواقع ومشكلاته هي التي تحدد طبيعة قراءتنا للتاريخ، وهذا أحد أسباب اختلاف القراءات في التاريخ. ومن هنا يظل التاريخ قادرا دائما على إعطاء إجابات متنوعة بحسب ما يُطرح عليه من الأسئلة، ومن هنا تحظى الأحداث بأحجام وأوزان مختلفة بحسب الأمر الذي يبحث عنه قارئ التاريخ. والخلاصة من ذلك كله أن هذه «الخلاصة» هي قراءة تاريخية لتقديم وعي تاريخي ينطلق من حاجات واقعنا ومشكلاته وأزماته، فهي قراءة تتجنب عن وعي وعمد أحيانا، وعن غير وعي وغير عمد أحيانا أمورا تاريخية، يجوز أن تكون حاضرة وبقوة في وعي تاريخي في زمن آخر أو في حال أخرى. لهذا يجب أن يكون واضحا أن هذه «الخلاصة» متوجهة إلى الشباب المسلم الذي يسعى إلى العمل على الخروج من الذلة والاستضعاف إلى التحرر والاستقلال والتمكين، وبناء على هذا الهدف تتحدد وتتشكل القراءة التاريخية. وليس يعني هذا بأي حال من الأحوال خروجا عن المنهجية العلمية الموضوعية والتوثيق العلمي أو استعمال القراءات العاطفية أو

(١) ألبرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨ - ١٩٣٩م، ترجمة: كريم عزقول، (بيروت: دار النهار، ١٩٦٨ م)، ص١٩.

المثالية، فإن هذا كله مُضِرٌّ بالوعي ومُهْلِكٌ للحركة، وإنما القصد أن كل قراءة علمية موضوعية منهجية تركز بالضرورة على إشباع الحاجة التي حرَّكتها وحفزتها وعلى تحقيق الغرض الذي أرادت الوصول إليه.

ثانيهما: أن الفترة النبوية وفترة الخلافة الراشدة على وجه التحديد هما فترتان يقف المسلم أمامهما متعلما ومتبعا ومقتديا ومتأسيا، فهي ليست فترة تاريخية بشرية نأخذ منها ونترك، أو نعترض على شخوصها ونحاكمهم، وإنما هي جزء من الدين الذي نحن مأمورون باتباعه. ولو لم نكن مسلمين لكان الواجب علينا كقراء للتاريخ أن نقف منها موقف التأمل والتعلم أيضا لكون هذه الفترة أشبه بالمعجزة في بعث أمة من العدم وتحولها إلى قوة عظمى عالمية في ثلاثين سنة فحسب! فكيف ونحن مسلمون نؤمن أن نجاتنا في اتباع النبي وصحبه والتمسك بسنته وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده؟!

لذلك فإن الفترة المكية –التي تناولناها سابقا– هي فترة تأسيس الدعوة والوصول بها إلى مرحلة الدولة، وتلك هي الفترة التي تعيشها تقريبا كل الحركات الإسلامية في عصرنا هذا. ولهذا فهي الأَوْلَى بدراستها وفحصها وتأمل فصولها ودروسها.

بينما تمثل الفترة المدنية –التي نحن بصددها الآن– مرحلة الدولة، وهي مرحلة لم تصل إليها إلا القليل من الحركات الإسلامية التي أخفقت غالبا، ولم يبق إلا تجارب قليلة ولا تزال غير مكتملة كما في تركيا وغزة وربما طالبان مرة أخرى(١) وربما منطقة الشمال المحرر في الشام، فأولئك أحوج إلى فحص المرحلة المدنية ودراستها وتأملها والاستفادة منها.

(١) تكتب هذه الأسطر في أثناء انسحاب القوات الأمريكية من أفغانستان، وتتالي استسلام القوات الأفغانية لقوات طالبان التي تستعيد السيطرة على أفغانستان فيما يبدو حتى الآن.

ولكن الحركات الإسلامية التي لا تزال تعيش في مرحلة الدعوة هي كذلك بحاجة إلى فهم المرحلة المدنية لا من جهة التفاصيل والترتيبات الإدارية الجزئية، بل من جهة المسار العام، إنها تحتاج إلى هذا لتحقيق هدفين:

الأول: لفهم الهدف الذي نريد الوصول إليه، ومدى اتفاقه أو اختلافه مع الوضع الذي نحن فيه، وإلى أي حدٍّ يمثل الإسلام نقيضا للعلمانية المعاصرة وللنظام الدولي الحالي، أو الجاهلية المعاصرة، كما يسميها بعض العلماء والدعاة. وبهذا تفهم ما الذي يجب أن يتغير وما الذي يمكن أن نبقيه ونستفيد منه، فتلك حاجة ضرورية في معركة التغيير والا ستقلال والتحرر. إن ذلك ضرورة لضبط تصورنا عن الدولة التي ننشدها.

والثاني: لممارسة الدعوة بين الناس وبين الشباب المسلم، إذ يجب أن يعرف هؤلاء فضل الإسلام عليهم وعلى الناس، وكونه الحل الوحيد لمشكلات العالم، وأن الفترة النبوية وفترة الخلافة الراشدة كانت «عصر السعادة»[1] للمسلمين ولمن كان في ظلها من غير المسلمين. يجب أن يتحقق الشاب المسلم الساعي إلى العمل كيف أن الإسلام بحق هو رحمة للعالمين وأن نبينا كان منقذا للإنسانية، فإذا وقر هذا في قلبه استطاع أن يدعو إليه الناس، وإذا وقر هذا في قلوب الناس تغيرت أحوال مجتمعاتنا. ولا سبيل لهذا اليقين إلا بمعرفة تاريخ هذه الفترة معرفة عميقة وشافية. إن ذلك ضرورة لضبط تصورنا عن المجتمع الذي نبشر به.

وهذان الهدفان هما أوسع وأكبر من قدرة هذه الصفحات، إنما يقتصر هدفنا الآن على تقديم وعي مجمل بمراحل الفترة المدنية، والإشارة إلى أهم فصول تطور

(١) هذه التسمية سمعتها تتردد كثيرا بين الإسلاميين في تركيا، وهي تسمية دقيقة ورائعة.

الدولة الإسلامية من بدايتها كبذرة ضعيفة في محيط يعاديها إلى أن سادت الجزيرة العربية في عشر سنوات فقط.

هذا الوعي المجمل يستهدف توضيح مراحل نمو الدولة والتحديات التي تواجهها في طريق النمو، وكيف نتعامل معه اقتداء بسيرة نبينا ﷺ[1].

(١) في الحديث عن تفاصيل إحكام بناء الدولة وترتيب أمرها وإجراءاتها، أنصح بالبدء بكتاب «نظام الحكومة النبوية أو التراتيب الإدارية» للعلامة الكبير عبد الحي الكتاني، فإنه كتاب عظيم مدهش، التقط فيه من عيون الأخبار وشذراتها ما كشف عن الوضع البديع الذي كان موجودا في الدولة النبوية وكثيرا من أحوال الخلافة الراشدة.

# قبل تأسيس الدولة

ثمة أمور لا يمكن وضعها في مرحلة بعينها، وإنما نجد أنها حاضرة مستمرة في سائر المراحل، ولهذا أفردناها بالوضع هنا قبل الدخول في التطور التاريخي، وذلك أن السرد التاريخي يظلمها ويهضمها بحيث لا تظهر من خلاله، فينبغي أن يُراعى وجودها وكونه حاضرا في سائر مراحل قراءة السيرة المباركة. وتلك هي: ضرورة السلطة والحكم وأنها خطوة حاسمة لكل دعوة، اغتنام الفرصة التاريخية واللحظة الفارقة، الهيمنة الرسالية الإيمانية على المجتمع المسلم في سائر مراحله من الضعف أو القوة.

### ١. ضرورة السلطة

إن صلاح الفرد في نفسه هو جزء من نظام المجتمع، فالصلاح ليس مجرد قدرة الفرد أن يكون صالحا في نفسه، بل هو مرتبط بالأخلاق والثقافة التي تسود المجتمع، فالفرد الصالح في أي مجتمع هو الذي يقوم بما يراه هذا المجتمع خيرا وصلاحا، والعمل الصالح هو ما ينظر إليه المجتمع بإعجاب وتقدير، ونظامُ المجتمع هذا الذي تحدد عبر الثقافة

والأخلاق هو ما يحدد سلوك الغالبية العظمى من الناس. إن هذا هو ما يجعل كل دعوة وفكرة تَوَّاقة إلى إنشاء مجتمعها، لنشر ثقافتها وإعلاء قيمها وتطبيق «الصلاح، الخير، الحق» كما تقرره، ولن يكون هذا إلا بالعبور على مرحلة السلطة والدولة.

لهذا لم تكن ثمة دعوة إلا واحتاجت إلى الكفاح لتبني دولتها، ولكسر الظلم والباطل الذي قامت لإزالته؛ فكل دعوة تغيير، وكل فكرة، محتاجة لأن تكون دولة وأن تتمكن من السلطة، تلك هي الخطوة الحاسمة في حياة كل دعوة. ومع أن ذلك يبدو بديهيا وليس في حاجة إلى استدلال عليه، إلا أن كثيرا من أطياف الحركات الإسلامية المعاصرة تنتج من الأفكار ما يجعل هذا الكلام محل جدل ونقاش!

إن تحول الفكرة والدعوة إلى دولة وسلطة ليس مجرد امتلاك وسيلة جديدة، بل هو امتلاك أعظم وسائل التغيير على الإطلاق، فالناس على دين ملوكهم، والسلطة أقدر على التأثير في الناس من الناس على التأثير في السلطة، ولذلك يندر الصالحون في المجتمع الفاسد وينكمشون ويتناقصون، والعكس بالعكس، وذلك قانون مضطرد في التاريخ والاجتماع وطبائع الناس. فالوصول إلى السلطة في سبيل الإصلاح هو في أقل مراتبه: الواجب الذي لا يتم الواجب الكبير بدونه.

وقد تطورت الأبحاث في علوم النفس والاجتماع بما جعل كثيرا من تفاصيل طبائع المجتمعات مرصودا عبر تجارب متعددة أسفرت بوضوح عن الأثر الهائل للسلطة في تشكيل الوعي الجمعي للناس، وفي حملهم على طبيعتها وطريقتها، وإخراجهم عن طبيعتهم وسويتهم، فالسلطة تستخرج من أخلاق الناس وطبائعهم ما لا يتوقعه ولا يتصوره الناس أنفسهم[١].

---

(١) للتوسع في هذا يُنظر مثلا: تجارب فيليب زمباردو التي سجلها في كتابه «تأثير الشيطان»، وتجارب ستانلي ميليجرام في علم نفس الطاعة، وتنظيرات زيجمونت باومان في «الحداثة والهولوكوست»، وحنة أرندت في «أيخمان في

ومما يدل على أن السلطة مرحلة حاسمة هو التسارع الذي شهدها المجتمع الإسلامي في كل شيء، في التشريعات والتعاليم والأحكام التي نزلت عليه، وكذلك في التوسع والنمو السياسي، «الأحداث الكبرى قد تتالت بسرعة كبيرة بمجرد انتقاله [ﷺ] إلى المدينة»[1].

وهذا التسارع نفسه دليل على الجدية والعبقرية وسرعة الإنجاز.. فما حققته دولة النبي في عشر سنين يساوي ما تحققه حضارات أخرى في قرون.

## ٢. الفرصة واللحظة الفارقة

تنبهت عائشة رضي الله عنها بعبقريتها إلى لحظة سبقت قيام الدولة الإسلامية ومهَّدت لها، تلك هي حرب بعاث الطاحنة التي نشبت بين الأوس والخزرج بالمدينة، وانتهت بمقتل السادة الكبار من الفريقين، تقول عائشة: «كان يوم بعاث يوما قدمه الله عز وجلّ لرسوله ﷺ، فَقَدِم رسول الله ﷺ المدينة وقد افترق مَلَؤُهم وقُتِلَتْ سراتهم في دخولهم في الإسلام»[2].

وهكذا خلت المدينة من قياداتها العتيقة، تلك التي ظلت نظيرتها المكية سدًّا منيعًا أمام دخول الناس في الإسلام، واستنفدت من جهد النبي عشر سنين يحاول فيها أن يُسْلِموا دون فائدة[3]، مما اضطره للبحث عن نصير خارج مكة حتى انتهى به الأمر إلى المدينة.

لم يبق من سادة الأوس والخزرج بعد بعاث إلا رجلا واحدا، هو عبد الله بن أبي بن سلول، وسيكون مزعجا وزعيما لفئة المنافقين ومثيرا للمشكلات حتى آخر حياته، وذلك

---

القدس»، وميشيل فوكو في «المعرفة والسلطة» و«المعاقبة والمراقبة»، وجوستاف لوبون في «سيكولوجيا الجماهير» و«الآراء والمعتقدات»، وإيريك هوفر في «المؤمن الصادق»، وغيرها.

(١) هودجسون، مغامرة الإسلام، ترجمة: أسامة غاوجي، ط١ (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث، ٢٠٢١م)، ١/ ٣٤٤.

(٢) البخاري، صحيح البخاري، تحقيق: مصطفي البغا، ط٣ (بيروت: دار ابن كثير، ١٩٨٧م)، (٣٧١٥).

(٣) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، (بيروت: دار المعرفة، ١٣٧٩هـ)، ٧/ ١١١.

أنه كاد يكون ملكا عليهم لولا أن أسلم الأنصار وجاء النبي ﷺ وتسنم زعامة المدينة[1].

وقد أخبر النبي ﷺ بضـــرر هذه الزعامات العتيقة العنيدة، حيث قال ﷺ: «لو آمن بي عشـــرة من اليهود لآمن بي اليهود» وفي رواية: «لو تابعني عشـــرة من اليهود لم يبق على ظهرها يهودي إلا أسـلم»[2]. وهو يقصـد هنا ﷺ عشـرة معينين من قيادات اليهود لو كانوا أسلموا لأسلم اليهود من خلفهم، فحملوا بذلك إثم اليهود إلى يوم الدين[3].

وهكذا مثَّلَت حرب بعاث لحظة فارقة، لقد كانت لحظة الا ضطراب وزوال الأ ساطين الكبار المتنفذين واختلال أحوال السلطة هي اللحظة الأمثل في تأ سيس الدولة الإ سلامية. وهو ما يجب أن يسـتفاد منه في واقعنا المعاصـر، فإن لحظة الثورات الشـعبية ولحظة الا ضطراب والتنازع بين أركان النظام القديم هي لحظة ذهبية يجب ا ستثمارها واقتناصـها بكل قوة، وأي حديث عن التدرج والتهدئة والانتظار والتريث وما إلى ذلك هو حديث تضييع للفرصة.

لقد سـبق النبيُّ إلى المدينة وقد كاد قومها يُتَوِّجون ابن أبي بن سـلول ملكا عليهم، وكانوا في المراحل الأخيرة للتتويج، وكان القادة الشـباب الذين تولوا زعامة أقوامهم بعد بعاث كسعد بن معاذ وأسيد بن حضير هم مداخل الإسلام الكبرى إلى أهل المدينة، فلقد أسلم قومُهم بإسلامهم. كانوا شبابا لم يترسخ فيهم عناد الكبار وتشبثهم بالقديم.

## ٣. الهيمنة الرسالية والإيمانية

(١) البخاري (٤٢٩٠)، مسلم، صحيح مسلم، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د. ت)، (١٧٩٨).

(٢) البخاري (٣٧٢٥)، مسلم (٢٧٩٣).

(٣) ابن هبيرة، الإفصاح عن معاني الصحاح، تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد، (الرياض: دار الوطن، ١٤١٧هـ)، ٧/ ١٨٦؛ ابن حجر، فتح الباري، ٧/ ٢٧٥.

من أهم ما يميز التجربة الإ سلامية في العصر النبوي هو ا ستمرار الهيمنة الر سالية والإيمانية على هذا المجتمع في سائر مراحله ومع اختلاف الفصول والتطورات التي مرت عليه ومرَّ بها. وحيث إننا ســنتابع تطورات المجتمع الإســلامي عبر التدرج التاريخي فلا بد من التأكيد على أن هذه الهيمنة الإيمانية كانت مستمرة في كل مسيرة المجتمع الإسلامي.

إن من الظواهر التاريخية المســتمرة أن الوصــول إلى الحكم والســلطة وإقامة الدولة تعني انفراد أحد الثائرين بالســلطة وتخلصــه من شــركائه في الدعوة والثورة، وهو الأمر الذي رصــده ابن خلدون باعتباره ســنة تاريخية فقال: «من طبيعة المُلْك الانفراد بالمجد»، وهو ما يكرره المعاصرون بقولهم «الثورة تأكل أبناءها».

ولكن المجتمع الإســلامي بعد إقامته دولة في المدينة ضــرب أروع الأمثلة في الإخاء والمودة والتراحم والتكافل، ولم يكن قيام الدولة فاتحة لعصــر التصــفيات البيْنية.

كذلك لم يكن قيام الدولة فاتحة لعصــر الأطماع والمكاســب، بل كان صــاحب الدولة –وهو النبي ﷺ- مثالا في الزهد والتخفف من الدنيا، فلم يكن يُسْــأَل شــيئا حتى يعطيه[1]، وكان يرفض أن تكون له صــبغة الملك، فكان ينام على الحصــير حتى يؤثر في جنبه وتحت رأسه وسادة من الجلد حشوها الليف[2]، وكان يقصّ الناس من

(١) البخاري (٥٦٨٧).

(٢) البخاري (٥٥٠٥)، مسلم (١٤٧٩).

نفسه[1]، ورأى رجلا تَهَيَّبَه فقال له: «إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة»[2]، وكان يقوم الليل حتى تتورم قدماه[3].

ومثله كان صحابته الكبار الذين هم بمثابة وزرائه ومستشاريه وحاشيته، ولم يكن الواحد منهم يتردد في أن يتصدق بثلث ماله أو بشطره أو حتى بماله كله، أو يتبرع ليجهز جيشا من ماله أو يشتري بئرا ثم يهبها للمسلمين.

فلئن كانت لهم الدنيا أحيانا فلقد كانت في أيديهم لا في قلوبهم، فلا يفرحون إذا أقبلت ولا يحزنون إذا أدبرت.

وهذه الهيمنة الإيمانية هي التي حلَّت كثيرا من المشكلات، وذَلَّلت كثيرا من العقبات، وأذابت كثيرا من الأزمات، ومن ينظر إلى طبيعة المشكلات في أي دولة معاصرة فسيرى بأدنى النظر أن نصف هذه المشكلات على الأقل ستنحل من تلقاء نفسها إذا هيمنت على هذه الدولة الأجواء الإيمانية والمعاني الرسالية.

وهذا الأمر يجب أن يكون على رأس أولويات كل حركة إسلامية، ذلك أنه ليس ثمة تجربة إسلامية إلا وستواجه تحديات في غاية الضخامة والقوة، وأعداءًا في غاية الشراسة والوحشية، ولن يمكن لحركة أن تصمد إلا أن يكون مجتمعها من خلفها، ولن يكون خلفها إلا إذا هيمنت عليه الحالة الإيمانية التي تجعله أكثر صلابة وقوة، كما تجعله أكثر رحمة ورأفة وشفقة، وتجعله أكثر زهدا وورعا وتعففا كما تجعله

(١) الألباني، السلسلة الصحيحة، (الرياض: مكتبة المعارف، ١٩٩٦م)، (٢٨٣٥).

(٢) ابن ماجه، سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار الفكر، د. ت)، (٣٣١٢)؛ الحاكم، المستدرك على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٠م)، (٣٧٣٣) وقال: على شرط الشيخين ووافقه الذهبي؛ الألباني، السلسلة الصحيحة (١٨٧٦).

(٣) البخاري (٤٥٥٧).

أكثر فعالية ونشاطا وإنجازا.

ومهما استطاع حاكم صالح أو حركة إسلامية أن تنعش الاقتصاد فإن النفوس التي يستولي عليها الطمع لا تكتفي ولا تقنع ولا تني تطالب بالمزيد، بينما من يحركه الإيمان يبذل من نفسه وماله ورزقه ليقيم شأن الدين.

# ضرورات التأسيس

إذا توقفنا مليا عند الخطوات الأولى التي بدأ بها النبي ﷺ عهده في المدينة سـنجد أننا إزاء عمل جادٍّ دؤوب وسريع في ثلاث أمور هي من ضرورات التأسيس، تلك هي: تحقيق الأمن والتمكن للحكم الجديد، تقوية المجتمع الجديد وتماسـكه، تحقيق الاسـتقلال المالي للدولة الجديدة.

وقد أثمرت تلك البذور الأولى ثمارا عظيمة فيما بعد، ظهرت في المراحل التالية التي احتاجت فيها الدولة الجديدة إلى النمو والنهوض ومواجهة التحديات الخارجية.

## ١. الأمن والتمكن

أول ما تحرص عليه السـلطة الجديدة: ضـبط الأمن، ولذلك فإن القرار الأول الذي يتردد عند لحظة التغيير في السـلطة هو إعلان حالة الطوارئ وفرض حظر التجول، وذلك لكي يحظى هذا التغيير بالاستقرار في أقرب وقت، فالسـلطة الجديدة تحرر نفسـها من أي قانون أو التزام وتعطي نفسها حق القتل والضرب بأقصى قوة ممكنة لمن قد يعترض على

هذا التغيير، وتفرض حظر التجول لكي تقلل إلى الحد الأدنى أي انفلات أمني.

ويكون الموقف معكوسا لدى السلطة القديمة، التي تسعى جهدها لعرقلة إقرار هذا التغيير، فتطالب الشعب بالنزول إلى الشوارع ومقاومة هذا الانقلاب العسكري أو مقاومة حركة التمرد الخارجة عن القانون، وتطالب الشعب بالبقاء في الشوارع أطول فترة ممكنة إلى أن تستطيع قواتها الاستفاقة من المفاجأة والصدمة لاستعادة السيطرة على القوات المتمردة.

ومهما تغيرت الأشكال والتفاصيل في لحظة الثورة الشعبية أو الانقلاب العسكري أو الاحتلال الخارجي، فإن عنصر ضبط الأمن والوصول إلى لحظة التمكن هي العنصر الجوهري في معركة أي سلطة وأي نظام.

وفي ظل هذه المعركة يُعَدّ العنصر الأخطر فيها هو الحفاظ على القيادة وتأمينها، فأي القيادتيْن سبق إلى الظفر بالأخرى فإنه يحسم المعركة. فإذا وقعت ثورة شعبية أو انقلاب عسكري أو احتلال خارجي فلا بد لكل هذه من الظفر بالحاكم وسجنه وقتله، فإذا أخفق هذا واستطاع الحاكم الظفر بقادة الثورة أو الانقلاب أو جيش الاحتلال فقد أخمدت الثورة أو فشل الانقلاب أو هُزِم الغزاة.. وتطول المعركة بقدر ما تعجز إحدى القيادتين على الظفر بالأخرى، ولكن طولها يكون عادة في صالح النظام القديم لا في صالح الثورة ولا الانقلاب ولا الغزو.

حين خرج النبي ﷺ من مكة، فلم يكن هذا «مجرد هرب من حالة الاستضعاف التي يعيشها هو وأصحابه في مكة؛ بل كانت أيضا فرصة لبناء نظام حياة»[(١)]، ولذلك كان الحفاظ على حياة النبي وحراسته هو المهمة الأولى طوال مدة الهجرة وفي الأيام الأولى من تأسيس الدولة، وسنجد هذا واضحا في سيرته ﷺ منذ بدء الهجرة: فقد تولى أبو بكر رضي

(١) هودجسون، مغامرة الإسلام، ١/ ٣٢١.

الله عنه مهمة حراســة النبي طوال رحلة الهجرة، فكان يقول: «نم يا رســول الله وأنا أنفض لك ما حولك»، أي: أنظر وأستكشف هل يطلبك أحد[1].

وقد بدأت الدولة الإسـلامية بمشكلات سياسـية قوية، تفرض بطبيعتها تهديدات أمنية خطيرة، فمن أهم تلك المشــكلات أن لم يكونوا يعرفون حُكْمَ الغريب الطارئ، ويأنفون جدا من أن يحكمهم من ليس منهم، فالعرب عريقون في رفض الخضوع للحكم وللملوك، بل كان هذا الانفلات من الحكم «عندهم ملذوذا» بتعبير ابن خلدون[2]، ومن ثَمَّ، فقد كان وصــول النبي إلى المدينة حاكما له الأمر والنهي –وليس مجرد داعية لا يطلب إلا الحرية ليمارس الدعوة– هو إقامة نظام سياسـي جديد في بيئة لا تعرف مثل هذا النظام ولا تتقبله، إن هذا وحده كافٍ في تصوّر حجم التحدي لتحقيق الأمن والتمكن. فكيف إذا أضـفنا إليه أن المدينة كانت على وشـك تنصيب رجل منها هو سـيّدٌ من سـاداتهم، وكانوا ينظمون له التاج، فهو يرى أن قد اسـتُلِب منه المُلك[3]. ثم إن هذه الدولة تبدأ مسـيرتها بمعاداة أهم القوى الإقليمية الموجودة بالمنطقة: مكة عاصمة العرب، والطائف العاصمة الثانية!

ولكن الأنصــار كانوا على وعي بهذه المهمة، فما إن وصــل النبي ﷺ حتى اسـتقبلوه بالسـلاح حتى قيل في وصـفهم «فثار المسـلمون إلى السـلاح» وفي رواية «وحفُّوا دونهما

(١) البخاري (٣٤١٩)، (٣٦٩٣)؛ الخطابي، أعلام الحديث، تحقيق: د. محمد بن سعد آل سعود، ط١ (مكة: جامعة أم القرى، ١٩٨٨م)، ٣/ ١٦٠٧؛ القاضي عياض، إكمال المعلم بفوائد مسلم، تحقيق: د. يحيى إسماعيل، ط١ (المنصورة، دار الوفاء، ١٩٩٨م)، ٨/ ٥٧٥؛ ابن الملقن، التوضيح لشرح الجامع الصحيح، تحقيق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، ط١ (الدوحة: وزارة الأوقاف القطرية، ٢٠٠٨م)، ٢٠/ ١٩٨.

(٢) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د. ت)، ١/ ١٤٩؛ وانظر بعض أقوالهم وأشعارهم ونفورهم من الملوك عند: معمر بن المثنى، شرح نقائض جرير والفرزدق، تحقيق: محمد إبراهيم حور ووليد محمود خالص، ط٢ (أبو ظبي: المجمع الثقافي، ١٩٩٨م)، ٣/ ٩٩٣.

(٣) إبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية، ط١ (عمّان: دار النفائس، ١٩٩٥م)، ص٢٥٤.

بالسلاح»[١]، ولما أرسل النبي إلى بني النجار الذين سينزل فيهم «فجاؤوا متقلدي السيوف»[٢] وكانوا في حراسته.

وكان قيس بن سعد بن عبادة من أهم حُرَّاس النبي، بل وصفه أنس بن مالك بأنه «كان يكون بين يدي النبي ﷺ بمنزلة صاحب الشرط من الأمير»[٣]، وصاحب الشرط هو بمصطلحنا المعاصر وزير الداخلية.

وظل النبي ﷺ تحت الحراسة حتى نزل قول الله تعالى ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾[المائدة: ٦٧] فتخلى عن الحراسة، وتختلف الروايات حول الآية هل هي مكية أم مدنية، وبالتالي: فهل الحراسة التي كانت للنبي كانت من بني هاشم بإشراف أبي طالب أم هي حراسة أصحابه في المدينة، والأرجح أنها مدنية بدليل ما جاء في البخاري ومسلم عن عائشة وفيها: فلما قدم (النبي) المدينة قال: «ليت رجلا من أصحابي صالحًا يحرسني الليلة». إذ سمعنا صوت سلاح، فقال: «من هذا؟» فقال: أنا سعد بن أبي وقاص جئت لأحرسك. فنام النبي»[٤].

وكان للنبي ﷺ حاجبٌ أو آذِنٌ أو صاحب الباب، فلم يكن كل من أراد النبي دخل إليه بل كان يُستأذَن عليه فربما أذن وربما لا[٥].

ولا ينافي هذا ما ورد من الأحاديث الصحيحة الأخرى أن النبي كان يجيب دعوة المملوك، وكانت الجارية تأخذ بيده فتفضي إليه بما تريد، وأنه ليس بملك، فكل هذا إما

---

(١) البخاري (٣٦٩٤)، (٣٦٩٩).

(٢) البخاري (٤١٨).

(٣) البخاري (٦٧٣٦).

(٤) البخاري (٢٧٢٩)، مسلم (٢٤١٠).

(٥) عبد الحي الكتاني، نظام الحكومة النبوية أو التراتيب الإدارية، تحقيق: عبد الله الخالدي، (بيروت: دار الأرقم، د. ت)، ١/ ٩٠ وما بعدها.

أن يكون في حال الأمن وإما أنه بعد نزول الآية التي يتكفل الله فيها بحفظه.

ولا ريب أن التفريط في أمن القيادات المسلمة قد ترتب عليه جملة من أشد الخسائر وأفدحها في مسيرة الإسلام المعاصرة، ومن كان مُطَّلعا على شيء من هذا علم أن حماية القيادات يجب أن يكون في أولى أولويات الحركات الإسلامية(١).

ولم يكتفِ النبي ﷺ بهذا الاستعداد العملي وحده، بل جعل شأن الأمن والتمكن قانونا حاكما، يستحق من يخرقه العقوبة، وهو ما يهيمن ويسود على صحيفة المدينة، التي كانت الوثيقة القانونية الحاكمة للفترة الأولى من المرحلة المدنية قبل نزول التشريعات التي تنظم علاقة المسلمين بغيرهم، فقد جاء فيها أن محمدا ﷺ هو الحاكم والفاصل فيما يقع من النزاع، وجاء فيها ما يمنع من إيواء المْحْدِث، أي مرتكب الجريمة، أو نصره، ومن فعل ذلك فلا يُقبل منه صرف ولا عدل، وجاء في الوثيقة ما يوجب التحالف بين المؤمنين على كل من يسعى بينهم بالفساد والوقيعة والظلم ولو كان ولد أحدهم، وما يوجب التحالف بين أهل هذه الصحيفة على تأمين المدينة إذا دهمها عدو، وما يمنع من التحالفات الفردية مع عدو لآخرين من أهل المدينة، وما يمنع من إجارة قريش وأنصارها(٢).

وتتعامل وثيقة المدينة مع المجتمع من خلال قسمته القبلية، فكل قومٍ يمثلون وحدة متميزة، وهم يتكفلون بتنفيذ ما في الوثيقة في أنفسهم وعلى أبنائهم، وهذه القسمة لها فائدتها الأمنية التي تجعل كل قوم مسؤولين عما يقع فيهم ومنهم، وتجعل المسؤولية على

---

(١) الاستخبارات الأمريكية، تقييم برامج الاغتيالات النوعية، ترجة: مركز حازم، نسخة إلكترونية؛ محمد إلهامي، «في ضرورة تأمين القيادات والكفاءات المسلمة»، مجلة كلمة حق، عدد ١٠، مايو ٢٠١٨م؛ أحمد مولانا، «عمليات الاستهداف عالي القيمة، مجلة كلمة حق، عدد ٢٢، مايو ٢٠١٩م.

(٢) انظر البنود الكاملة في: محمد حميد الله، الوثائق السياسية، ط٥ (بيروت: دار النفائس، ١٩٨٥م)، ص٥٩ وما بعدها.

عاتق زعمائهم وشيوخهم. ولهذه القسمة فائدة اجتماعية سنأتي لها بعد قليل إن شاء الله.

ومما يمكن أن يُدرج في باب الأمن والتمكن هنا أن الهجرة إلى المدينة كانت فرضا على المسلمين، ولو لم يكن مستضعفا في قومه، بل كانت «متعينة على كل قادر بلا خلاف بين المسلمين»[1]، وذلك لتكثير سواد المسلمين مما يجعل له الهيبة في خارج المدينة لمن يردها فيرى شأن النبي فيها[2]، وأولى من الهيبة خارج المدينة تمكين شأنه فيها أيضا، وهذا موضع استشهادنا بهذا الأمر في سياقنا هذا.

وظل تدفق المسلمين إلى المدينة حتى فتح مكة، فحينئذ أوقف النبي الهجرة وقال: «لا هجرة بعد الفتح»[3].

وقد تعددت الأخبار في أقوامٍ من خارج مكة أسلموا في بداية الإسلام، وأوصاهم النبي بالعودة إلى ديارهم وقبائلهم على أن يلحقوا به إذا سمعوا أنه قد ظهر، جاء هذا صريحا في قول النبي ﷺ لعمرو بن عبسة «ارجع إلى أهلك فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني»[4] وقوله ﷺ لأبي ذر «اكتم هذا الأمر وارجع إلى بلدك فإذا بلغك ظهورنا فأقبل»[5]، ويُفهم معناه من روايات أخرى كما في إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي وهجرته إلى المدينة[6].

إن هذا الاستكثار والحرص على انضمام كل الطاقة الإسلامية وتركيزها في المدينة كان له بغير شك أثره الكبير في تمكين شأن النبي والدولة الإسلامية بالمدينة.

وقد استمرت هذه السياسة طوال الفترة المدنية، ومهما قيل في قدرة النبي ﷺ وسياسته

(١) الطريفي، التفسير والبيان لأحكام القرآن، ط١ (الرياض: دار المنهاج، ١٤٣٨ه)، ٢/ ٩٧٤.

(٢) الطريفي، التفسير والبيان لأحكام القرآن، ٢/ ٩٧٤، ٩٧٥.

(٣) البخاري (٢٦٣١)، مسلم (١٨٦٤).

(٤) مسلم (٨٣٢).

(٥) البخاري (٣٣٢٨)، مسلم (٢٤٧٤).

(٦) مسلم (١١٦).

مع اليهود والمنافقين في احتوائهم وإفساد مكرهم، فالشأن أنه ﷺ لم يسمح أبدا أن يتحول مكرهم إلى ما يُخِلّ بشـأن الأمن والتمكين في المدينة، لقد تسـبب المنافقون «بالكثير من المتاعب لمحمد، ولكنه [ﷺ] لم يعط لهذه المجموعة الفرصـة للانقلاب عليه والتحول ضده علنا»[1]، وإنما «وجد المعارضون (اليهود والمنافقون) أنفسهم في موقع من يُتسامَح معهم في أفضـل الأحوال»[2]. وهذه ملاحظة مهمة أخفقت في فهمها بعض الحركات الإسـلامية التي وصـلت إلى السـلطة في ظرف ما، أن النبي ﷺ وإن عانى من المنافقين واليهود إلا أنه لم يسـمح لهم أبدا بالتحول إلى قوة حقيقية تناهضـه علنا وتتحدى حكمه وسلطانه. وفارقٌ واضحٌ بين بقائهم تحت السيطرة مع اختيار التهدئة والإمهال في عقوبتهم لتحقيق مصلحة أو تفويت مفسدة وبين تركهم يخرقون حالة الأمن ويهددون الدولة.

وثمة حادثة نتوقف عندها لأنها تدلّ على ما نريده هنا دلالة قوية، وذلك أنه لما وقع خلافٌ بين المهاجرين والأنصار –وكان ذلك في السنة الخامسة[3]– أفلت لسان عبد الله بن أبي بن سلول، فظهر فيما قاله تغيظه وشعوره بالعجز، وأن الأنصار غلبوه على رأيه، وأن المهاجرين كانوا كثرة مع النبي وعزم أن يجعل ذلك تمردا فيقوم في قومه ليُخرج النبيَّ والمهاجرين من المدينة، قال: «ما رأيت كاليوم مذلة! والله، إن كنت لكارها لوجهي هذا، ولكن قومي غلبوني! قد فعلوها، قد نافرونا وكاثرونا في بلدنا... والله، ما صرنا وجلابيبقريش هذه إلا كما قال القائل « سمن كلبك يأكلك»... والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل».

لقد كان هذا القول من الغرابة بحيث أن النبي ﷺ ما توقع أن يقوله وراجع زيد بن أرقم –الذي نقل إليه الخبر– وكان غلاما حدثا، ولكن زيدا أصـرَّ أنه لم يخطئ السـمع ولم

(١) هودجسون، مغامرة الإسلام، ١/ ٣٢٩.

(٢) هودجسون، مغامرة الإسلام، ١/ ٣٢٩.

(٣) وذلك على أرجح الأقوال، لأن هذه الحادثة كانت بعد غزوة بني المصطلق في شعبان من العام الخامس للهجرة.

يختلط عليه الأمر، وهذا دليلٌ على ما بلغه النبي من التمكن في الأنصار حتى ليُستغرب أن يُقال مثل هذا عنه!

وما إن وصل الخبر إلى سمع الصحابة حتى عرض غيرُ واحدٍ منهم أن يقتله، ثم عرف ابن أبي أن الخبر وصل إلى النبي ﷺ فدخله رعب وفزع وجعل يكذب ويحلف بالله أنه لم يقل هذا، حتى نزل القرآن يشهد بصدق زيد بن أرقم –ناقل الخبر– وبكذب ابن أبي، ثم جاء عبد الله بن عبد الله بن أبي يعرض على النبي أنه يقتل أباه –وقد كان بارًّا به– ولكن النبي أبى، إلا أن عبد الله سبق أباه إلى المدينة ومنعه أن يدخلها إلا أن يُعلن أنه الأذل وأن رسول الله هو الأعز، ففعل(١).

وقد عاقب النبي ﷺ بأنواع العقوبات من سعى في تهديد هذا الأمن والتمكن، وكان هذا مستمرا طوال مرحلة المدينة وإن كان في أول الأمر أكثر أهمية وخطورة لكونها مرحلة تأسيس الدولة، ووصلت هذه العقوبات إلى القتل، سواء أكان ذلك بأمر النبي أو بإقراره لمن فعل ذلك دون استئذانه، فممن أمر بقتلهم: كعب بن الأشرف الشاعر اليهودي الذي أكثر من هجو النبي والمسلمين والتحريض عليهم في شعره حتى لقد ذهب إلى قريش ورثى قتلاهم في بدر بقصيدة له(٢)، وابن سنينة الشاعر اليهودي الذي هجا النبي وآذى المسلمين بشعره(٣). وممن بادر إليهم بعضُ المسلمين فقتلوهم ثم أقر النبي قتلهم: عصماء بنت مروان وكانت شاعرة ذات لسان سليط تسب به أهل المدينة وتهجو رسول الله

---

(١) القصة مختصرة في الصحيحين: البخاري (٤٦٢٤)، ومسلم (٢٥٨٤)، ولكني نقلت بعض ألفاظها من الواقدي لوضوح اللفظ في المعنى الذي نستشهد له، انظر: أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ط٦ (المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، ١٩٩٤م)، ١/ ٢٥٠، ٢/ ٤٠٨؛ إبرهيم العلي، صحيح السيرة النبوية، ص٢٥٢، ٢٥٣؛ الواقدي، المغازي، تحقيق: مارسدن جونس، ط٣ (بيروت: دار الأعلمي، ١٩٨٩م)، ٢/ ٤١٦ وما بعدها.

(٢) البخاري (٣٨١١)، مسلم (١٨٠١).

(٣) الواقدي، المغازي، ١/ ١٩١، ١٩٢؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ٢/ ٥٨، ٥٩.

فكانت لشدة لشدة لسانها يخافها الناس أن يُسلموا، فكان من أسلم من بني خطمة يستخفي بإسلامه، ولما قتلها عمير بن عدي فشا الإسلام فيهم[١]، ومثلها أبو عفك اليهودي من بني عمرو بن عوف فقد كان شاعرا يهجو النبي ﷺ ويحرض عليه فقتله سالم بن عمير من بني النجار وقد اختلفت الروايات هل كان قتله مبادرة من سالم بن عمير أم أمر بها النبي ﷺ[٢].

وقد جمع د. منير الغضبان عمليات الاغتيال التي أمر بها النبي أو نفذها المسلمون وأقرهم النبي عليها[٣]، وبالتأمل فيها نجد أنها سبعة: خمسة منها بالمدينة واثنتان خارجها، كما نجد أن خمسة من المستهدفين كان السبب في استهدافهم قولهم الشعر واثنين من القادة والزعماء. ونفهم من هذا أن التحريض الإعلامي كالتهديد الأمني يجب إيقافه.

ومن أبلغ ما قيل في شأن تحقيق الأمن وضرورته وكونه أولوية، ما قاله أشهر رواة السيرة قاطبة محمد بن إسحاق: «فلما اطمأن رسول الله ﷺ بالمدينة، واجتمع إليه إخوانه من المهاجرين، واجتمع أمر الأنصار، استحكم أمر الإسلام، فقامت الصلاة، وفرضت الزكاة والصيام، وقامت الحدود، وفرض الحلال والحرام»[٤].

---

(١) أصل القصة عند الواقدي، واشتهرت عند أهل السير فنقلوها، وأوردها ابن تيمية في الصارم المسلول مصدقا لها ومستبعدا أن تكون موضوعة وانتصر لها. انظر: الواقدي، المغازي، ١/ ١٧٢ وما بعدها؛ ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وآخران، ط٢ (القاهرة: مكتبة البابي الحلبي، ١٩٥٥م)، ٢/ ٦٣٦ وما بعدها؛ ابن تيمية، الصارم المسلول، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، (الرياض: الحرس الملكي السعودي، د. ت)، ص٩٥ وما بعدها.

(٢) الواقدي، المغازي، ١/ ١٧٤، ١٧٥؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ٢/ ٦٣٥، ٦٣٦؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٠م)، ٣/ ٣٦٦؛ ابن حزم، جوامع السيرة، (بيروت: دار الكتب العلمية، د. ت)، ص١٦. وفي هذا المصدر الأخير أن ذلك كان بأمر رسول الله.

(٣) منير الغضبان، المنهج الحركي للسيرة النبوية، ط٦ (الزرقاء: مكتبة المنار، ١٩٩٠م)، ١/ ٣٤٥ وما بعدها.

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية، ١/ ٥٠٨.

## ٢. تماسك المجتمع وتكتيله

لكي نتصـور حجم الأزمة التي واجهها النبي في تكوين المجتمع الإسـلامي في المدينة يجب أن نتذكر الانقسـامات المتعددة التي كان يعاني منها هذا المجتمع، فمن جهة الدين ضمّ مجتمع المدينة المسلمين والمشركين واليهود، ومن جهة الانقسام الاجتماعي القبلي وُجِد في المدينة تكتلات يهودية قائمة بذاتها كقينقاع والنضـير وقريظة وقبيلتان عظيمتان في المدينة هما الأوس والخزرج وبينهما حروب طاحنة وتاريخ من العدواة المسـتمرة ثم يقدم عليهم أشتات من المهاجرين المسلمين من مكة وسائر القبائل العربية[1]، وقد ذكرنا سـابقا ملامح الأزمة السـياسـية التي من أهمها: نفور العرب من الخضـوع لحكم الطارئ الغريب وكون النبي قد قدم فأزال ملكا كاد أن يُتَوَّج وكونه قد جاء محملا بعداوات مع أهم القوى الإقليمية: مكة والطائف.

وبالتأمل في سـيرة النبي ﷺ سـنجد أنه عمل على معالجة هذا الواقع من قبل الهجرة، فمنذ أن بدأت تلوح الفرصـة في أن تكون المدينة هي أرض الدولة الإسـلامية، وذلك في بيعة العقبة الثانية، اتخذ النبي ﷺ وسـيلة تنظيم الناس تحت نقباء وعرفاء، حيث يمثل النقيب والعريف رأي قومه وجماعته وهو رجل منهم بل هو السـيد والزعيم فيهم، فكان مما قال لهم النبي بعد أن اسـتوثق منهم الصـدق: «أَخْرِجوا إليَّ منكم اثني عشـر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم. فأخرجوا منهم اثني عشـر نقيباً، تسـعة من الخزرج وثلاثة من الأوس»[2]، وعلى هذا اسـتمر عمل النبي في المدينة فكان للناس زعماء ونقباء وعرفاء فهم الذين يشاورهم النبي في الأمور ويشيرون عليه[3].

---

(١) انظر في أحوال المدينة عند الهجرة: الندوي، السيرة النبوية، ط٨ (جدة: دار الشروق، ١٩٨٩م)، ص١٧١ وما بعدها.

(٢) أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ١/ ٢٠٠؛ إبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية، ص١١١.

(٣) عبد الحي الكتاني، التراتيب الإدارية، ١/ ٢٠٥، ٢٠٦.

ونرى في سائر مراحل السيرة أن النبي ﷺ كان حريصا دائما على كل ما يجمع المسلمين حوله، فلم يكسر الروابط القديمة بين الناس -إلا رابطة الإيمان بطبيعة الحال- وإنما حرص على استثمارها وتقويتها في كل وقت(١)، ومن أعجب ما فعله ﷺ في ذلك: أنه استثمر قرابته في بني النجار، وهم أخوال جده عبد المطلب، إذ أم عبد المطلب منهم، فكان أول قدومه المدينة أن تنازع الناس أين ينزل فقال: «أنزل على بني النجار، أخوال عبد المطلب، أُكْرِمُهُم بذلك»(٢). فمَتَّن بذلك صلته فيهم، وإن كانت بعيدة. ولما مات أسعد بن زرارة، وكان نقيب بني النجار، جاؤوه فقالوا: «يا رسول الله، إن هذا قد كان منا حيث قد علمت، فاجعل منا رجلًا مكانه يقيم من أمرنا ما كان يقيم، فقال رسول الله ﷺ لهم: أنتم أخوالي، وأنا بما فيكم، وأنا نقيبكم»(٣)، وكان ذلك في أثناء بناء المسجد، أي في أول العهد المدني. وتولى النبي ﷺ بنفسه رعاية بنات أسعد فكنّ معه يَدُرْن في بيوته(٤).

ويجب أن نتوقف مليا عند الإجراءات الأولى التي اتخذها ﷺ عند قدومه المدينة، وهي ثلاثة: بناء المسجد، كتابة صحيفة المدينة، المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار. ويمكن أن نستفيد من هذه الثلاثة فوائد كثيرة، ولكن الذي يجمع بينها كونها تعمل معا في سبيل تقوية المجتمع وتمتينه وتكتيله.

١ . فقد قام المسجد بالدور الأكبر والأهم في صهر المجتمع الإسلامي غير المتجانس

---

(١) حمل عامة شراح الحديث قوله ﷺ «وأيما حلف في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة» على هذا المعنى الذي نذكره، من أن الإسلام جاء بتقوية ما كان في الجاهلية من الروابط إلا ما كان منها يُتَّخذ عصبية ويعلو على الحق ويعين على الظلم. انظر: ابن الجوزي، كشف المشكل من حديث الصحيحين، ٤/ ٤٨؛ أبو العباس القرطبي، المفهم لما أشكل من صحيح مسلم، ٦/ ٤٨٣؛ ابن حجر، فتح الباري، ١٠/ ٥٠٢؛.

(٢) مسلم (٢٠٠٩).

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ١/ ٥٠٧، ٥٠٨.

(٤) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣/ ٤٥٨؛ ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٤م)، ٧/ ٦٠.

في أسـرع وقت ممكن، فلقد كان المسـجد يجمع المسـلمين كل يوم خمس مرات، فالتقى فيه المسلمون منذ بداية أمرهم، حين كانوا أطيافا شتى؛ مهاجرين وأنصار وهم غرباء على بعضـهم في الطباع والعادات وأسـلوب الحياة، والمهاجرون أنفسـهم هم مجموعات غير متجانسة ممن آمنوا من كافة قبائل العرب، كما أن الأنصار أيضا حديثو عهد بالنزاع الطويل بين الأوس والخزرج. لهذا وقبل أن يدخل النبي ﷺ أرض المهجر أمر ببناء المسـجد في قباء قبل المدينة[١]، وقبل أن تطأ قدمه ﷺ أرض المدينة كان قد حدد موضع المسجد، لقد كان المسجد هو المؤسسة الأولى والمركزية في الدولة الإسلامية، لم يكن فقط دار عبادة، بل هو مدرسة تعليم الدين، ووسيلة الإعلام، وهو قصر الرئاسة الذي يستقبل فيه الوفود وتتخذ فيه القرارات، وهو بعد ذلك مأوى من لا مأوى له من المسلمين الفقراء، وقد يكون أحد جوانبه مستشفى لعلاج الجروح، أو سجنا للأسرى[٢]!

وفضـلا عن الصـلوات الخمس التي يشـهدها المسـلمون في المسـجد، تنعقد مجالس الذكر والوعظ، والتي هي من أسباب رفع الدرجات وغفران السيئات، ومن أسباب نزول الملائكة والرحمة والسـكينة، ومن موجبات النور التام في ظلمات يوم القيامة، حتى الخطوة إلى المسـجد لها أجر، وقد بلغ اندفاع المسـلمين في هذا حدًّا وصـفه ابن مسـعود رضـي الله عنه بقوله: «ما يتخلف عن الصـلاة إلا منافق معلوم النفاق، ولقد كان يؤتى بالرجل يهادى بين الرجلين حتى يقام في الصف»[٣].

فبهذا وقع التلاحم بين القيادة (النبي) والأتباع، وبين الأتباع بعضهم بعضا بأسرع وقت ممكن، لقد عرف الجميع بعضهم بعضا، واختلطوا ببعضهم، فعرفوا أخبارهم وأحوالهم، وفقراءهم وأغنياءهم، فمن كان لديه فضـل مال أو طعام ذهب به إلى الفقراء في المسـجد،

---

(١) البخاري (٣٦٩٤).

(٢) محمد الصادق عرجون، محمد رسول الله، ط٣ (دمشق: دار القلم، ٢٠٠٩م)، ٣/ ٣٤ وما بعدها.

(٣) مسلم (٦٥٤).

فعمَّ التكافل هذا المجتمع الصغير، وصاروا بعد الاغتراب والانقسام كتلة واحدة. ولا نكاد نعرف عبر التاريخ وسيلة أسرع في اندماج المجتمعات من التقائهم يوميا خمس مرات على الأقل!

إن المسجد يصنع حوله مجتمعا، ويمنع أن تترسخ الفردية والأنانية والشح في المحيط حوله، وحتى من كان عاصيا أو لم يكن يرتاد المسجد فإن أثر المسجد راسخ في طبعه وأخلاقه والعادات الحاكمة التي تحدد سلوكه الاجتماعي. فالمسجد رابطة جغرافية تمتن الصلة بين الناس في المكان الواحد ولو لم يكونوا ذوي قرابة.

وقد عزز الإسلام وأعلى من رابطة الجوار، وجعل حقوقا كثيرة للجار، «واسم الجار يشمل المسلم والكافر والعابد والفاسق، والصديق والعدو، والغريب والبلدي، والنافع والضار، والقريب والأجنبي، والأقرب دارا والأبعد»[١]. وحفل القرآن والسنة بالآيات والأحاديث عن حقوق الجار، حتى صار يتهدد إيمان مَن «يبت شبعانا وجاره جائع»[٢] ويتهدد إيمان «مَنْ لا يأمن جاره بوائقه»[٣]، وهذا معنى لطيف جدا، فالإيمان ينتفي ممن لا يأمنه جاره وليس من يؤذي جاره!! ولقد ظن النبي ﷺ أن الجار سيكون من جملة الوارثين من كثرة ما نزل في الوصية به[٤].

وبأدنى نظر في العبادات والشعائر الإسلامي سيتحقق لنا أثرها الاجتماعي الكبير في

(١) ابن حجر، فتح الباري، ١٠/ ٤٤١.

(٢) أبو يعلى، مسند أبي يعلى، تحقيق: حسين سليم أسد، ط١ (دمشق: دار المأمون، ١٩٨٤م)، (٢٦٩٩)؛ البيهقي، سنن البيهقي الكبرى، (مكة المكرمة: دار الباز، ١٩٩٤م)، (٢٠١٦٠)؛ الألباني، السلسلة الصحيحة، (١٤٩).

(٣) البخاري (٥٦٧٠)، ومسلم (٤٦).

(٤) البخاري (٥٦٦٩)، ومسلم (٢٦٢٤).

تقوية صلات المجتمع وتمتينها، يتحقق هذا في الصلاة والزكاة والصوم والحج[١]، فضلا عن الواجبات والتعليم الأخرى كعيادة المريض والحرص على صلاة الجنائز والمواساة في الشدائد، بل في أبسط من هذا كإفشاء السلام وتشميت العاطس، وإن مجتمعا يتبادل أفراده السلام غادين رائحين لهو مجتمع سائر في طريق التحابب والترابط كما قال النبي ﷺ «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»[٢]، ولا ريب في أن ترابط المجتمعات الإسلامية قد تحقق بما لا يتشابه معه مجتمع آخر[٣].

٢. وعملت كتابة الصحيفة على تجنب واستلال ما قد يفسد العلاقة بين مكونات مجتمع المدينة؛ فقد تعاملت الوثيقة مع قبائل المدينة من خلال قسمتهم القبلية، فهؤلاء بنو عوف وهؤلاء بنو الحارث وهؤلاء بنو ساعدة... وهكذا، والمهاجرون أمة، والمؤمنون أمة، فأقرَّت بهذا ما كان العرب قد اعتادوا عليه من رابطة القبيلة وحميتها، واستعانت بهذه الرابطة على حفظ الأمن وعلى القيام بالمسؤوليات وعلى استثمار هذه القوة في أن تكون في رصيد قوة الدولة الإسلامية، وجعلت الجميع سواسية في الحقوق والواجبات، وفَصَّلت الوثيقة الشؤون التي قد تسبب نزاعا أو فسادا كأمور الفداء والديات والعقائل وفك العاني، فتكرر في الوثيقة «بالمعروف والقسط بين المؤمنين»، وذكرت الوثيقة اليهودَ وما لهم وما عليهم، فكانت بذلك وسيلة إلى تمتين المجتمع وتكتيل قواه وعناصره لئلا ينفذ منها نوعُ اختراق أو تجييش أو إفساد.

ويمكن القول بأن صحيفة المدينة أنشأت «الرابطة الوطنية» لأهل المدينة، وهذه الرابطة هي التي توجّه النظر إلى مواطن الالتقاء والاتحاد، وتجعل من وجوه الخلاف

---

(١) محمد إلهامي، «الإسناد الاجتماعي والاقتصادي بين الديمقراطية والنظام الإسلامي»، مؤتمر الحوكمة والسلطة السياسية في العالم الإسلامي، ديسمبر ٢٠٢٠م.

(٢) مسلم (٥٤).

(٣) محمد إلهامي، منهج الإسلام في بناء المجتمع، ط١ (القاهرة: دار التقوى، ٢٠١٥م)، ص١٣١ وما بعدها.

والفرقة أمورا ثانوية تحت الأصل الواحد الذي هو وحدة الدار والبلد.

٣. واستطاعت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار أن تساهم بنصيب وافر في صهر المهاجرين بالأنصار، فلم تظهر في المدينة المشكلة الكبيرة التي لا تزال تحتار فيها الدول المعاصرة ذات الإمكانيات الضخمة، وهي مشكلة اللاجئين، لقد استوعب مجتمع الأنصار –من خلال هذه المؤاخاة– كثيرا من مجتمع المهاجرين، وانتصب نموذج المؤاخاة هذا مثالا فريدا لا نظير له عبر التاريخ على ما يمكن أن تبلغه الأخوة الإيمانية، فقد صار أخو الإسلام مقدما على أخي النسب، وظهرت في هذا الإخاء عجائب لا سوابق أو لواحق لها؛ فلقد استقبل الأنصار إخوانهم بكل ترحاب، فأحبوهم وأنفقوا عليهم من أموالهم وإن كانوا في حاجة، وآثروهم على أنفسهم، واقتسموا معهم أملاكهم، وتسابقوا على استضافتهم ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[الحشر: ٩] حتى «ما نزل مهاجري على أنصاري إلا بقرعة»[١]، ومثلما ظهرت عجائب الأنصار في الإيثار ظهرت عجائب المهاجرين في النبل والتعفف[٢]، وبادلهم المهاجرون الحب والاعتراف بالفضل حتى كانت خشيتهم أن يذهب أجرهم في الجهاد والتضحية أمام عظمة الأنصار، وقالوا للنبي ﷺ «ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل، وأحسن بذلا في كثير، لقد كفونا المئونة، حتى لقد حسبنا أن يذهبوا بالأجر كله»[٣]، وذلك أن الأنصار قبلوا أن يعملوا في أرضهم ويقتسمون الثمرة مع المهاجرين، وهذه مرتبة رفيعة من النبل والسمو.

ومما يجب التنبيه عليه هاهنا، أن الإسلام حين أسس الأخوة الإيمانية وجعل رابطة الدين فوق رابطة النسب، فإنه اعتنى عناية فائقة برابطة النسب والرحم، وحرص عليها،

---

(١) البخاري (١١٨٦).

(٢) البخاري (١٩٤٣).

(٣) أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ١/ ٢٤١ وما بعدها؛ إبراهيم العلي، صحيح السيرة، ص١٣٨، ١٣٩.

وأوصى بها. إنه من المهم للغاية أن نعرف أن الإسلام لم يأتِ لكسر أي روابط بين الناس وإنما أتى لتقويتها وتمتينها، ولكنها جعل الحق والدين فوق كل رابطة، لكي تكون كل هذه الروابط والعلاقات خاضعة للحق فلا تُستعمل في الظلم ولا يدخلها العصبية بالباطل[١]. ولذلك فاضت التعاليم الإسلام بالحث على صلة الرحم ورعايتها، وذلك منذ مبدأ الإسلام، فقد لخص النبي ﷺ رسالته بقوله: «أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يوحد الله لا يشرك به شيء»[٢]، ولخَّص جعفر بن أبي طالب الرسالة للنجاشي فقال: «وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار»[٣]، بل قال ﷺ «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي»[٤] والحديث عن هذا الأمر يضيق عنه المقام هنا.

وإنما ذكرنا هذا لنقول بأن إجراءات النبي ﷺ في أول قدومه المدينة استهدفت تكتيل المجتمع وتمتينه والاستفادة من كل علاقاته وروابطه، ومنها علاقة الأرحام والقبائل والعشائر، فقد أقطع النبي ﷺ للمهاجرين ما ليس مملوكا من أرض المدينة أو تنازل عنه الأنصار أو غنمه من اليهود، فأقطعها إياهم بحسب قبائلهم[٥]، فكانت كل قبيلة تمثل كتلة اجتماعية في مكان واحد. وكان النبي ﷺ يرتب جيشه على قسمة القبيلة، فكانت ترفع راية للمهاجرين وراية للأنصار. وفي حديث فتح مكة كانت كتائب الجيش على هيئة القبائل

---

(١) محمد إلهامي، منهج الإسلام في بناء المجتمع، ص١٢٦ وما بعدها.

(٢) مسلم (٨٣٢).

(٣) الألباني، صحيح السيرة النبوية، ط١ (عمّان: المكتبة الإسلامية، ١٤٢١ه)، ص١٧٤؛ أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ١/ ١٧٣، ١٧٤.

(٤) الترمذي، سنن الترمذي، تحقيق: أحمد شاكر وآخرين، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د. ت)، (٣٨٩٥)، وابن ماجه (١٩٧٧)، وصححه الألباني.

(٥) ابن شبة، تاريخ المدينة المنورة، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، (قم: دار الفكر، ١٤١٠هـ)، ١/ ٢٦٠ وما بعدها.

حتى كان أبو سفيان يراها فيقول: «ما لي ولبني فلان.. مالي ولبني فلان»[1]. وقد اضطرد هذا في تاريخ المسلمين فكانت كتائب الجيوش في الفتوحات في زمن الخلافة الراشدة ودهرا بعدها على قسمة القبائل[2]، وكانت خطط المدن التي أنشأها المسلمون موزعة على قسمة القبائل كذلك[3]، وكان توزيع الغنائم والأموال يجري في الدواوين والدفاتر على قسمة القبائل أيضا[4].

وقد حاولت قريش في الفترة الأولى من المدينة أن تنفذ اختراقا في صفوف مجتمع المدينة فراسلوا عبد الله بن أبي بن سلول ومن معه ممن ظلوا على الشرك، وهددوهم وتوعدوهم قائلين: «إنكم آويتم صاحبنا وإنا نقسم بالله لتقاتلنه أو لتخرجن أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم ونستبيح نساءكم» فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبي ومن كان معه من عبدة الأوثان اجتمعوا لقتال رسول الله ﷺ فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم فقال: «لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم؛ تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم». فلما سمعوا ذلك من النبي – ﷺ –

(١) إبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية، ص٤٠٨؛ محمد الصوياني، السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة، ط١ (الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٠٤م)، ٤/ ٢٨.

(٢) الطبري، تاريخ الطبري، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٥م)، ٢/ ٢٧٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٨م)، ٦/ ٣٥٧؛ أكرم العمري، عصر الخلافة الراشدة: محاولة لنقد الرواية التاريخية وفق مناهج المحدثين، ط١ (الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٠٩م)، ص٤٠٧، ٤٠٨؛ أحمد عادل كمال، الطريق إلى المدائن، ط ٦ (بيروت: دار النفائس، ١٩٨٦م)، ص٢٠.

(٣) شاكر مصطفى، المدن في الإسلام حتى العصر العثماني، ط٢ (دمشق: دار طلاس، ١٩٩٧م)، ١/ ٣٢١، ٣٤٨ وما بعدها؛ محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، ص٤٩، ٥٧، ٥٨، ٦١؛ عبد الجبار ناجي، المدن العربية الإسلامية، ط٢ (بيروت: شركة المطبوعات، ٢٠٠٩م)، ص١٦٣، ١٩١، ٢١٤، ٢٥٧، ٣٠٥، ٣٢٩، ٤٠٣، ٤٢٨، ٤٧١.

(٤) أكرم العمري، عصر الخلافة الراشدة، ص٢٣١.

تفرقوا[1]. وهكذا نجد أن النبي خاطبهم بصلة الرحم ورابطة القبيلة والعشيرة، واستثمر هذه الصلة والرابطة في تقوية مجتمع المدينة وتكتيله.

ولكنه ﷺ حال في الوقت نفسه أن يتحول خطاب الرحم إلى العصبية، فحين حاول شيخ اليهود شاس بن قيس أن يستثير ذكرى النزاع بين الأوس والخزرج حتى انقلب القوم فكادوا يقتتلون، أسرع إليهم النبي يذكرهم بخطاب الإسلام وصلة الدين، وقال: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟ بعد أن أكرمكم الله بالإسلام، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، وألف بينكم، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً ؟ الله الله»[2]. وكذا فعل النبي ﷺ أيضا حين حاول ابن أبي بن سلول إيقاع الفتنة بين المهاجرين والأنصار فقال النبي ﷺ «دعوها فإنها منتنة»[3].

وسيظهر مدى ما بلغته متانة المجتمع المسلم وتماسكه حين يُعاقب النبي ﷺ الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك بغير عذر، إذ أمر النبي بمقاطعتهم، فصار لا يكلمهم أحد حتى من أصدقائهم وأقاربهم ممن كانوا أحب الناس إليهم، فبلغوا أن ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [التوبة: ١١٨]، ثم تاب الله عليهم فتسابق المسلمون إلى تبشيرهم والحفاوة بهم[4].

يفسر هذا التماسك الاجتماعي الذي صنعه الدين تلك القدرة الهائلة التي انطلق بها المجتمع الإسلامي فيما بعد فاتحًا للجزيرة العربية ومزيلا لإمبراطوريتي فارس والروم،

---

(١) أبو داود، سنن أبي داود، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، (بيروت: دار الفكر، ١٩٨٦م)، (٣٠٠٤)، وقال الألباني: صحيح الإسناد؛ الصوياني، السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة، ٢/ ١٤.

(٢) جاءت هذه الرواية في كتب السير والتاريخ بأسانيد ضعيفة، ولكن قال عصام الحميدان محقق أسباب النزول للواحدي: «ولعلهُ يشدّ بعضها بعضًا فيثبت أصل الرواية»، انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ١/ ٥٥٥ وما بعدها؛ الواحدي، أسباب النزول، تحقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، ط٢ (الدمام: دار الإصلاح، ١٩٩٢م)، ص١١٥ وما بعدها.

(٣) البخاري (٤٦٢٢)، ومسلم (٢٥٨٤).

(٤) البخاري (٤١٥٦)، مسلم (٢٧٦٩).

لم يكن المجتمع الإسلامي «من نواح معينة شبيهًا بأي مجتمع آخر في التاريخ. اشتراطه صلوات يومية متكررة جعل الدين أسلوب حياة؛ تأكيده لتماهي السلطة الدينية مع نظيرتها السياسية أدى إلى قلب توسع الإسلام من مشروع إمبراطوري-إمبريالي إلى واجب مقدس»(١).

ويعد هذا النموذج من الاجتماع على رابطة دينية روحية هو المثل الأول لنموذج لم يكن يُعرف حتى ذلك الحين، حيث تتجاوز الرابطة الدينية فيه صلات العرق والأرض والتاريخ المشترك التي هي أعمدة تَكَوُّن الأمم(٢).

### ٠٣ الاستقلال المالي

جاء النبي ﷺ إلى المدينة واليهود يسيطرون على حركتها المالية، مع أنهم أقلية، وكان ذلك من المخاطر المهددة التي يجب أن يواجهها الكيان المسلم الجديد، وفوق ذلك فقد كان تدفق المهاجرين على المدينة ضاغطا بأعبائه الاقتصادية على مجتمع المدينة، وأغلب المهاجرين كانوا من مكة وأولئك قوم يعرفون التجارة لا يحسنون الزرع بينما كانت المدينة بلدا زراعيا.

يجب القول أن الحل الأكبر في المشكلة الاقتصادية كانت متمثلة في الإيمان العظيم المهيمن على مجتمع المدينة، فذلك الإيمان هو الذي يجعل المشكلة الاقتصادية في أقل حالاتها، لأنه يُوَلِّد الزهد ويقلل الرغبة ويحارب الشهوة والأثرة والترف والسرف وسائر تلك الصفات التي يتحول معها الغنى إلى فقر وحاجة بل وإلى نزاع وصراع. إن غرائز

(١) هنري كيسنجر، النظام العالمي: تأملات حول طلائع الأمم ومسار التاريخ، ترجمة: فاضل جتكر، (بيروت: دار الكتاب العربي، ٢٠١٥م)، ص١٠٣. وينبغي لفت النظر هنا إلى أن كيسنجر هو أستاذ في التاريخ قبل أن يصير أحد دهاقين السياسة العالمية المعاصرة.

(٢) روجيه جارودي، وعود الإسلام، ترجمة: طوقان قرقوط، ط٢ (بيروت: دار الرقي، ١٩٨٥م)، ص٣٥، ٣٦؛ إميل درمنغم، حياة محمد، ترجمة: عادل زعيتر، ط٢ (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، د. ت)، ص١٧٥.

الإنسان في التملك و شهواته في التمتع هي التي يستند عليها الشياطين وأتباعهم في تكوين منظومتهم الاقتصادية وتسويق منتجاتهم مهما كانت تافهة ولا فائدة منها.

لقد عمل الإيمان على تقليل الحاجات وحصرها في الضروريات القصوى، فعاش مجتمع المدينة بما في ذلك بيت رسول الله ﷺ وهم لا يجدون من الطعام ما يسد جوعهم؛ فكان يمر الهلال والهلال والهلال ولا يوقد في بيت النبي ﷺ نار[1]، وحدث أن خرج النبي من بيته ليلا ما أخرجه إلا الجوع فلقي كبار صحابته أبا بكر وعمر على نفس حاله[2]، وكان أبو هريرة يغشى عليه من الجوع[3]، وكان ربما تعرض لبعض الصحابة طمعا أن يستضيفه أحدهم[4]، وقالت عائشة بأنهم حين فتحت خيبر قالوا: «الآن نشبع التمر»[5]، وكان فتحها في السنة السابعة للهجرة، ومنذ الهجرة وحتى فتح خيبر كانت الأنصار تكفل المهاجرين فيكفونهم المؤونة ويشركونهم في الثمرة فلما فُتِحَت خيبر ردَّ المهاجرون إلى الأنصار منائحهم[6]. وقد خاض المسلمون المعارك والحروب وهم في هذه الحال من الحاجة والفقر حتى سُميت إحدى سراياهم جيش الخَبَط وهو ما يسقط ورق الشجر وذلك أنهم خرجوا ونفد منهم الزاد –ولم يكن زادهم إلا تمرة واحدة في اليوم للرجل الواحد- حتى أكلوا ورق الشجر[7]، وسميت إحدى غزواتهم ذات الرقاع، وذلك أن نعالهم تقطعت ولم يكن لهم بدائل عنها فلَفُّوا أقدامهم بالخرق والرقاع[8]، وإلى السنة التاسعة كانت تأتي

(١) البخاري (٢٤٢٨)، مسلم (٢٩٧٢).

(٢) مسلم (٢٠٣٨).

(٣) البخاري (٦٨٩٣).

(٤) البخاري (٦٠٨٧).

(٥) البخاري (٣٩٩٩).

(٦) البخاري (٢٤٨٧)، مسلم (١٧٧١).

(٧) البخاري (٤١٠٣)، مسلم (١٩٣٥).

(٨) البخاري (٣٨٩٩)، مسلم (١٨١٦).

الغزوة فيحتاج النبي إلى تمويلها فيتبرع بعض الناس بماله كله وبعضهم بنصف ماله وبعضهم لا يجد إلا أن يتبرع بتمرات، ثم لا يكفي هذا كله لتوفير الراحلة لكل من أراد الغزو، مع شدة الحاجة إلى كثرة العدد(١)! بل لقد قالت عائشة: «توفي النبي ﷺ حين شبعنا من الأسودين التمر والماء»(٢).

لقد نهض الإيمان الذي هيمن على المهاجرين والأنصار بالمهمة التي لا تقم بها أعتى البرامج الاقتصادية في أعتى النظم التسلطية، فقد كان المهاجرون أزهد الناس كما كان الأنصار أكرم الناس، وقد رضي الأنصار أن يُقاسموا المهاجرين في ثمرات زرعهم وحملوا عنهم هذا العبء، حتى قال المهاجرون للنبي ﷺ «ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل، وأحسن بذلا في كثير، لقد كفونا المئونة، حتى لقد حسبنا أن يذهبوا بالأجر كله»(٣)، وقد وصف الله الأنصار بهذا الوصف العظيم ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ﴾[الحشر: ٩].

ومع ذلك فقد عمل النبي ﷺ منذ بداية نزوله في المدينة على معالجة الوضع الاقتصادي، فأنشأ سوق المدينة، واختار موقعه في شمالي المدينة، من مسجد السبق إلى جبل سلع، وهو بعيد عن تكتلات اليهود الذين كانوا في الجنوب الشرقي من المدينة، وأقرب إلى المنفذ الطبيعي الوحيد في شمال المدينة، ووضع له مزايا تنافسية، فروي عنه أنه قال ﷺ «هذا سوقكم لا يُحجر ولا يُضرب عليه الخراج»(٤)، وكان ﷺ يراقب السوق

(١) وذلك في قوله تعالى ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾[التوبة: ٩٢].

(٢) البخاري (٥٠٦٨).

(٣) أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ١/ ٢٤١ وما بعدها؛ إبراهيم العلي، صحيح السيرة، ص١٣٨، ١٣٩.

(٤) ابن ماجه (٢٢٣٣)؛ الطبراني، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، ط١ (الرياض: دار الصميعي، ١٩٩٤م)، ١٩/ ٢٦٤؛ وهذا الحديث وإن كان ضعيفا من جهة النظر الحديثية، إلا أن الأخبار التاريخية المروية تعضد معانيه، وهي المقصودة في بحثنا، انظر مثلا: ابن شبة، تاريخ المدينة المنورة، ١/ ٣٠٤ وما بعدها؛ المقريزي،

وينهي ويأمر في أنواع البيوع والمعاملات بما يُنهي وسـائل الغش والاحتكار وتآمر التجار على التسعير، وقد عاد هذا كله على المجتمع بثمرات العدل والأخوة والنزاهة.

ومما يُستدل به هنا على حصر النبي لموارده، أنه ﷺ نفَّذ إحصاء للمسلمين في المدينة، وقال: «اكتبوا لي من تلفظ بالإسـلام من الناس»، قال حذيفة: فكتبنا له ألفا وخمسـمائة رجل(١). وجاء في الحديث أن المسـلم كان يُكتب اسـمه فيمن سيخرج الغزوة المقبلة(٢)، وتردد في عدد من الروايات ما يفيد أن النبي كان يستعرض الناس كل عام فيجيز من يصلح للغزو أو يؤخر من لا زال صغيرا(٣).

ومما عولجت به الأوضاع الاقتصادية ما فرضه الإسلام من أنواع الزكاة: زكاة المال وزكاة الفطر، وللزكاة فوائد عديدة في إعادة توزيع الثروة وتنشيط سوق العمل وغير ذلك، لكن الأهم هنا أن نعرف كون هذه الفريضة لم يكن ممكنا أن تنجح دون الهيمنة الإيمانية القوية السائدة في المجتمع، فإن أخذ المال من العربي هو أمر كبير، بل هو دليل على الذِلَّة، وذلك أمر لا يستوعبه أبناء عصرنا هذا لأنهم وُلِدوا وتعودوا أن تأخذ الدولة أموالهم وتفرض عليهم الضرائب الكثيرة دون أن يشعروا في هذا بمعنى الظلم أو الذل. ولم يكن العرب هكذا، بل كان هذا شيئا عظيما، وبرزت شدته في حروب الردة حين امتنعت القبائل عن تأدية الزكاة لأنهم لم يرسخ في نفوسهم بعدُ أنها ليست من معنى الذلة التي يفرضها الغالب على المغلوب والملك على المملوك، وإنما هي حق الله لرعاية الفقراء وتزكية النفس وأنها تُنفق في مصارفها ولا يستأثر بها الخليفة المسلم لنفسه وترفه أو لأغراض

---

إمتاع الأسماع، تحقيق: محمد عبد الحميد النميسي، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٩م)، ٩/ ٣٦٢، ٣٦٣؛ السمهودي، وفا الوفا بأخبار دار المصطفى، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ)، ٢/ ٢٥٦ وما بعدها.

(١) البخاري (٢٨٩٥).

(٢) البخاري (٢٨٤٤)، مسلم (١٣٤١)، وانظر: ابن العربي، أحكام القرآن، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط٣ (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣م)، ٤/ ٦٣؛ ابن حجر، فتح الباري، ٦/ ١٧٩.

(٣) عبد الحي الكتاني، التراتيب الإدارية، ١/ ٢٠٣، ٢٠٤.

تثبيت حكمه.

وقد فرضت الزكاة وزكاة الفطر في السنة الثانية للهجرة، فضلا عما شُرع بعد ذلك من الأضحية والوقف وما جاء الحث فيه من أنواع الصدقات وعتق الرقبة وما كان من العقوبات المالية لمن حلف اليمين الكاذب أو جامع في نهار رمضان أو ظاهر زوجته أو غير ذلك.

ومع تطور الدولة الإسلامية وما وصلت إليه من الاتساع تطور عملُ الحساب والإحصاء ومراقبة الولاة، واتسع الشأن فيه، فكان النبي ﷺ «يستوفي الحُسَّاب على عمله، يحاسبهم على المستخرج والمصروف»[1].

ويجب القول هنا أن الدولة الإسلامية تميل إلى الاستكثار من السكان، سواءٌ كان ذلك بالحث على الإنجاب أو باستقبال المهاجرين، وذلك ينافي ما يروج في بعض الأوساط الحركية الإسلامية أو بالأحرى يُراد ترويجه لغايات مغرضة وخطيرة، من أن الأولوية لتحقيق الكفاية أو الرخاء وإن قلَّ عدد السكان، إن مثل هذه النظرة هي نظرة قاصرة، ولا تصلح لمن ينظرون إلى أنفسهم وأهدافهم باعتبارهم قوة عظمى، إن الأولوية كما نستفيدها من السيرة النبوية هي الاستكثار من السُكَّان وإن لم تكن الموارد كافية، وقد ذكرنا سابقا أن الهجرة كانت فرضا على كل من أسلم، مع أن موارد المدينة لا تتحمل أن تكفي –فضلا عن أن تُغني– كل هؤلاء، بل بقي أهل الصفة يبيتون في المسجد لا يجدون مطعما ولا مأوى إلا ما يُتَصَدَّق به عليهم. إن هذا دليل واضح على أن الأولى هو لكثرة العدد، ثم تأتي كثرة العدد بالموارد، فكثرة العدد قوة، ولا يمكن أن تتكون قوة عظمى إلا

---

(١) ابن القيم، الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، تحقيق: نايف بن أحمد الحمد، ط١ (مكة المكرمة: دار عالم الفوائد، ١٤٢٨ه)، ٢/ ٦٤٦.

بعدد كبير من السكان، «والدول قليلة السكان لا تستطيع أن تصبح قوى عظمى»[١]. وفي كل قصة سقوطٍ أو انهيارٍ لدولة أي حضارة أو مدينة مزدهرة نجد عنصر نقص السكان حاضرا كما تكون زيادة السكان حاضرة في كل قصة توسع ونهوض[٢]، ويمثل موضوع السكان عنصرا أساسيا في أية دراسة مستقبلية استشرافية، فالأمم تفزع من حصول النقص السكاني وتستبشر بزيادته أو تتولى معالجة النقص من خلال التحفيز على الإنجاب وعلى الهجرة[٣].

---

(١) جون ميرشايمر، مأساة سياسة القوى العظمى، ترجمة: د. مصطفى محمد قاسم، (الرياض: جامعة الملك سعود، ٢٠١٢م)، ص٧٦.

(٢) انظر مثلا: أرنولد توينبي، مختصر دراسة التاريخ، ترجمة فؤاد محمد شبل، (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١١م)، ١/ ٨، ٩؛ ول ديورانت، قصة الحضارة، ٨/ ٢٧، ١١/ ٤٠٥، ٤٠٦، ١٢/ ٦١ وما بعدها؛ يوشع براور، الاستيطان الصليبي في فلسطين، ترجمة: عبد الحافظ البنا، ط١ (القاهرة: عين للدراسات والبحوث، ٢٠٠١م)، ص١٤، ١٥؛ ألبرت حوراني، تاريخ الشعوب العربية، ترجمة: أسعد صقر، ط١ (دمشق: دار طلاس، ١٩٩٧م)، ص٢٦٦، ٢٦٧؛ عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ط١ (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩م)، ٧/ ٧٣ وما بعدها.

(٣) انظر مثلا: باتريك بوكانان، موت الغرب؛ ترجمة: محمد محمود التوبة، ط١ (الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٠٥م)، ص٣١ وما بعدها؛ جورج فريدمان، الأعوام المائة القادمة، ترجمة: منذ محمود محمد، ط١ (دمشق: دار الفرقد، ٢٠١٩م)، ص٢٦.

# توسع الدولة الإسلامية

من السـنن المضـطردة في التاريخ أن الدول لا تقوم إلا بالقوة، فليس ثمة دولة إلا وأول صـفحة من تاريخها حرب التحرير أو حرب الاسـتقلال أو حرب التأسـيس، ولا ثمة دولة إلا وتنتهي بحرب سـقوط وانهيار. فالحروب هي التي تحرك التاريخ وتغير الخرائط. حتى قيل بحق: «الدولة أمها المِلْكِيَّة وأبوها القتال»(١).

ولهذا كان التاريخ السياسي هو القسم الأهم من تاريخ الحضارات والمجتمعات، فإنه يؤثر على ما عداه من جوانب الحضارة.

ومن طبيعة الدول أنها لا تقوم ولا تتمكن إلا بما تملكه من القوة، بل ليس ثمة دولة إلا وهي بين حالَيْن: إما غازية وإما مغزوة، وإلا فهي سـلطان غيرها وليسـت مسـتقلة على الحقيقة.

وقيام الدولة المستقلة إنما يكون قسرًا، ضـد رغبة المحيط السياسـي، فتكون محاولة تأ سيس الدولة هي محاولة مارقة معادية، ثم تتطور فصول الصراع، فإذا ا ستطاعت إثبات

(١) ول ديورانت، قصة الحضارة، ١/ ٤٣.

نفسها والصمود ضد محاولات كسرها واجتياحها، انتزعت بعد ذلك الاعتراف السياسي بوجودها ومكانتها، ثم تتطور إلى أن تكون قوة إقليمية أو قوة عظمى أو لا تكون بحسب ما يتوفر لها من قوة الفكرة وكفاءة القادة وبسالة الجنود وتماسك المجتمع.

مهما تحدث الفلاسفة والكُتَّاب عن السلام وأمانيهم وأحلامهم فيه، فإن الحقيقة المرة هي أن السياسة الدولية كانت دوما ميدانا قاسيا وخطرا، والراجح أنها ستبقى كذلك، ولا يزال الهدف الأهم لكل دولة أن تزيد نصيبها من القوة العالمية، ولا تكتفي القوى العظمى أن تكون الأقوى فحسب، بل لا بد أن تكون المهيمنة، أي: القوة العظمى الوحيدة في النظام. إن «جميع القوى العظمى تبحث عن فرص لاكتساب القوة على حساب بعضها البعض»[1]. و«يؤكد لنا التاريخ أن كل دولة أو عدد من الدول، وكل حضارة أو عدد من الحضارات، تنتقل فجأة في فترات من تاريخها، من عالم السلام إلى عالم الحرب، وهكذا تصبح الحرب أمرا واقعا لا مفر منه»[2].

ومما يصدِّق هذا ما جاء في الحديث الصحيح أن الإذن بالقتال نزل أثناء هجرة النبي ﷺ إلى المدينة[3]، فلحظة ولادة الدولة هي ذاتها لحظة بدء القتال.

والدولة الإسلامية تجد نفسها مدفوعة للجهاد لأسباب مجتمعة ومتضافرة؛ أولها: أن الباطل لا يتركها ولو اجتهدت في تركه فتلك طبيعته وغايته، وثانيها: أنها مكلفة بإنقاذ البشر والدعوة إلى الحق فتلك طبيعة الحق وغايته، وثالثها: أن الأمة التي لا تجاهد تنفجر فيها الخلافات الداخلية وتلك طبيعة المجتمعات البشرية المضطردة في التاريخ.

ولا يمكن أن تتحقق دعوة بلا جهاد، ولا أن تسود فكرة بلا كفاح، سواءٌ في هذا دعوة

---

(١) جون ميرشايمر، مأساة سياسة القوى العظمى، ص٢، ٣، ٦.

(٢) مجموعة مؤلفين، الحروب والحضارات، إصدار المؤسسة الفرنسية لدراسات الدفاع الوطني، ترجمة: أحمد عبد الكريم، ط٣ (دمشق: دار طلاس، ١٩٩٢م)، ص٢٤.

(٣) محمد خير هيكل، الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، ط٢ (عمّان: دار البيارق، ١٩٩٦م)، ١/ ٤٦١ وما بعدها.

الصــلاح أو الإفســاد، الدعوة إلى الحق أو الباطل، فلا يســود الباطل إلا إذا كافح أتباعه ليسـود وينتصـر، وكذا الحق، إن «السـعي الجاد لإحداث إصـلاح اجتماعي يتضـمن عادة اسـتعدادًا من قبل المصـلحين لاسـتعمال الإكراه البدني لمواجهة، والتغلب على، الإكراه الذي يمارسـه الأشـخاص الذين في السـلطة. وهذا يعني ضـمنيا الاسـتعداد لشـن الحروب ولارتكاب العنف والخداع اللذين تسـتلزمهمها الحروب بالضـرورة»[١]، و«ما كان ينبغي للنبي –حبا في السلام– أن يترك الباطل يعلو على كلمة الحق المبين»[٢].

يمكن أن نقسم توسع الدولة الإسلامية إلى ثلاث مراحل:

الأولى: جهاد التأسيس وهي المرحلة التي تهدف إلى تثبيت وجود الدولة ونشر هيبتها في محيطها وتهدف هذه المرحلة إلى الوصـول بالدولة الوليدة إلى الاسـتعصـاء على الاجتياح والإسقاط، وتمتد هذه المرحلة منذ بداية الهجرة وحتى غزوة الأحزاب.

والثانية: انتزاع الاعتراف السـياسـي، وهي المرحلة التي لا يمكن الوصـول إليها بغير عبور المرحلة الأولى، فحين تعجز القوى المحيطة عن إنهاء الدولة الجديدة فإنها تخضـع لهذه الحقيقة الجديدة، وتتمثل هذه المرحلة في صلح الحديبية.

والثالثة: بلوغ السـيادة، وفيها تخضـع عاصـمة النظام القديم للدولة الجديدة، وينهار النظام القديم، وترث الدولة الجديدة ما كان للقديمة من النفوذ والقوة والمكانة، وتمتد هذه المرحلة منذ فتح مكة إلى وفاة النبي ﷺ.

## ١. جهاد تأسيس الدولة

بحسـب ما يقتضـيه سـياق بحثنا هذا، فلن نتعرض هنا بالتفصـيل للحوادث الكبرى المعروفة كغزوة بدر وأحد والأحزاب، وذلك لشهرة الأخبار فيها، وإنما سنركز أكثر على

(١) مارشال هودجسون، مغامرة الإسلام، ١/ ٣٤٠.

(٢) هنري دي كاستري، الإسلام، ص٦٧.

الحوادث التي قادت إليها والنتائج التي أسفرت عنها.

وقبل أن نبدأ في استعراض فصول جهاد تأسيس الدولة، فإن ثمة مسألة تثار ويهلك فيها الكثير من الوقت والجهد، تلك هي: هل الغزوات والسرايا التي شنها النبي كانت دفاعية أم هجومية، ومن الذي بدأ بالعداوة في هذا الصراع؟ والواقع أن هذه المسألة مسألة نظرية، فمجرد فهم طبيعة الحق وطبيعة الباطل يجعل نشوب الصراع بينهما أمرا حتميا، فكلاهما لا يحتمل وجود الآخر ولا يقبل به، إن مجرد وجود الحق مثير للباطل ومجرد وجود الباطل مثير للحق، ولن يعدم أحدٌ سببا يجعل به الآخرَ هو البادئ بالعداوة.

لقد استعلنت العداوة بين المسلمين والمشركين منذ اللحظة الأولى، منذ أن جهر النبي ﷺ بالدعوة فقيل له «تبا لك»، وطفقوا يؤذونه ويعذبون أصحابه ويمنعونهم حتى من الهجرة والفرار بأنفسهم، ثم حاصروهم ثم دبروا اغتيال النبي ﷺ، ولما أفلت المهاجرون إلى المدينة استولوا على أموالهم وبيوتهم. إن هذا وحده كافٍ لاعتبار أن المعركة قائمة وأن المسلمين حين يهاجمون قوافل قريش إنما يستعيدون أموالهم التي أُخِذَت منهم.

بل ولو افترضنا جدلا أن كل هذا لم يقع، فهل من الممكن أن تقبل مكة، وهي عاصمة العرب وصاحبة النفوذ فيهم، نشوء قوة إلى جوارها تناهض أفكارها وأديانها ونظامها السياسي والاجتماعي والاقتصادي وتنشر أفكارها بين العرب؟! فكيف إذا كانت هذه الدولة تنشأ على الطريق التجاري الرئيسي الذي تسلكه تجارة مكة إلى الشام، فكأن العصب التجاري للاقتصاد المكي صار بيد الخصوم؟!

إن سكوت مكة على قيام دولة للمسلمين هو ضد طبائع الأمور، وكل القُوَى تدافع عن مصالحها ضد التهديدات ولو كانت بعيدة عنها، فكيف إن كانت قريبة؟!

لقد كان قيام الدولة الإسلامية بحد ذاتها هو سبب في اشتعال حرب مكة عليها.

ومع ذلك، فلا تبخل علينا النصوص بما هو صريح في أن قريشا هي التي بدأت بعداوة

المسلمين وحربهم، فقد ذكرنا سلفا مراسلتهم لعبد الله بن أبي بن سلول وتحريضهم إياه لإخراج النبي والمهاجرين وإلا اجتاحوهم، وهو ما قد كاد يؤدي إلى حرب في المدينة[١]. وإضافة إلى ذلك فقد ذهب سعد بن معاذ –سيد الأوس- إلى مكة معتمرا، وكان في ضيافة صديقه أمية بن خلف، وبينما هو يطوف بالبيت إذ قال له أبو جهل: «تطوف بمكة آمنا وقد آويتم الصباة؟! أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالما»، فقال سعد: «أما والله لئن منعتني هذا لأمنعنك ما هو أشد عليك منه، طريقك على المدينة»[٢]. وفي هذا النص نرى أن قريشا تعلن صدّ المسلمين عن البيت الحرام، وتهددهم بالقتل إذا جاءوه[٣] وأهم من هذا أن عبارة سعد بن معاذ تفيد أن المسلمين لم يكونوا يتعرضون لقوافل قريش حتى هذه اللحظة، فأبو جهل أنكر عليه قبولهم بمحمد ولم يذكر شيئا عن تهدد القوافل، وسعدٌ هدد بالتعرض للقوافل إن مُنِع من البيت، فدلّ هذا على أنه لم يكن حتى ذلك الحين يتعرضون لها.

وهكذا نرى أن حالة الحرب إنما بدأت من قريش، وسائر فصول الصراع فيما بعد تدل على أن حالة الحرب قائمة، إذ لم يُتَّهم النبي حين هاجم القوافل بأنه غدر أو نقض أمانا، كذلك فإن قريشا كانت تُسَيِّر قوافلها وهي تعلم بحالة الحرب فأبو سفيان كان يستطلع ثم يغير طريقه، وقريشٌ استطاعت أن تجمع جيشا وتخرج به في وقت بسيط حتى إن المسلمين الذين خرجوا للقاء العير وجدوا أنفسهم أمام جيش قريش وهم لا يتوقعون.

ومع ما سبق، فيجب التأكيد على الأصل، وهو أن حالة الحرب والصراع بين الحق والباطل ستظل هي الأصل، وأما الوقائع التفصيلية ومن بدأ بالعداوة فهو أمرٌ يجري في

---

(١) أبو داود (٣٠٠٤)، وقال الألباني: صحيح الإسناد؛ الصوياني، السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة، ٢/ ١٤.

(٢) البخاري (٣٧٣٤).

(٣) المباركفوي، روضة الأنوار في سيرة النبي المختار، (الرياض: دار السلام، ٢٠٠٣م)، ص٩٦.

سياق المبررات والحجج والذرائع.

بدأت سرايا النبي ﷺ وغزواته بعد ستة أشهر من الهجرة، وكانت أول سراياه بقيادة حمزة بن عبد المطلب وقوامها ثلاثين من المهاجرين (رمضان ١هـ) يعترضون عيرا لقريش بقيادة أبي جهل في ثلاثمائة رجل، وكاد يقع قتال لولا أن توسط مجدي بن عمرو الجهني فانصرف الفريقان. ثم بعد شهر (شوال ١هـ) سرية أخرى بقيادة عبيدة بن الحارث في ستين من المهاجرين يعترضون عيرا لقريش بقيادة أبي سفيان في مائتي رجل فحصل الترامي بالسهام دون قتال. ثم بعد شهر آخر (ذي القعدة ١هـ) سرية أخرى بقيادة سعد بن أبي وقاص في عشرين رجلا من المهاجرين إلى الخرار ولم يلق كيدا.

وبعد شهرين (صفر ٢هـ) خرج النبي ﷺ في غزوته الأولى إلى الأبواء أو ودّان في سبعين من المهاجرين، فلم يلق أحدا، وعقد ميثاق الأمان والتناصر مع عمرو بن مخشي الضمري. وبعد شهر (ربيع الأول ٢هـ) خرج ﷺ إلى بواط ناحية جبل رضوى في مائتين من المهاجرين ولم يلق أحدا إذ أفلتت العير بقيادة أمية بن خلف.

سنفاجأ بعد ذلك باعتداء وحيد على المدينة، شنّه كرز بن جابر الفهري على مراعي المدينة (ربيع الأول ٢هـ)، ونهب بعض مواشيها، فخرج النبي ﷺ في إثره مع سبعين من المهاجرين إلى سفوان من ناحية بدر، لكنه أفلت ونجح في الفرار، وهي الغزوة التي عرفت باسم سفوان أو بدر الصغرى.

وبعدها بشهرين (جمادى الأولى ٢هـ) خرج النبي ﷺ في غزوة العشيرة في مائة وخمسين أو مائتين من المهاجرين، لاعتراض قافلة أبي سفيان ولكنها كانت قد فاتت قبل أيام، وهي القافلة التي ستنشب لها عند عودتها غزوة بدر الكبرى، ووقع في هذا الخروج عقد الأمان مع بني مدلج.

وهكذا في تسعة أشهر، خرجت أربع غزوات وثلاث سرايا، وكلها استهدفت منطقة

جنوب غرب المدينة، وبالنظر في مواقع هذه الغزوات سنلاحظ أنها استهدفت تأمين المدينة[1] وبسط نفوذ الدولة الإسلامية على المساحة الواقعة بينها وبين البحر الأحمر من جهة مكة، وذلك من خلال إظهار القدرة العسكرية، وإنشاء التحالف مع القبائل في تلك الأنحاء أو تحييدها في الصراع مع قريش، وكانت الوسيلة في ذلك تهديد القوافل التجارية المكية بما يستصحبه ذلك من كسر هيبة قريش والضغط عليها اقتصاديا، وستكون لهذه السرايا فوائد في تمكين الحكم داخليا في المدينة بإظهار قوة المسلمين أمام اليهود والمشركين[2].

ونلاحظ هنا أن أربعة من السرايا والغزوات (سرية سعد إلى الخرار، غزوة الأبواء، غزوة بواط، غزوة العشيرة) قد فاتتها أهدافها، فلم تلق كيدا ولم تجد أحدا، ونلاحظ من هذا أن جهاز المخابرات الإسلامي كان لا يزال في بداية أمره ولم يكن يستطيع توصيل المعلومات بدقة كافية، كما يستفاد من ذلك أن مكة كانت شديدة الحرص والحذر على معلومات قوافلها، ويزيد في الدلالة على هذا الاحتياط القرشي أن سريتين كانتا تنويان مهاجمة القوافل (سرية حمزة إلى سيف البحر، سرية عبيدن بن الحارث إلى رابغ) ثم وجدتا أن العدد ضخم فلم يقع قتال.

نلاحظ كذلك أن جميع الغزوات والسرايا في ذلك الوقت كانت من المهاجرين ولم يشترك فيها الأنصار، وفسَّر بعض العلماء هذا على أن النبي ﷺ في أول الأمر قَسَّم عبء الجهاد على المهاجرين وعبء الكفالة على الأنصار وذلك في قوله: «تكفوننا المؤونة

---

(١) حتى إن البعض يسمي هذه السرايا «دوريات تفتيشية على الطرق التي تتجه من مكة إلى المدينة»، انظر: سليمان المنصورفوري، رحمة للعالمين، ترجمة: سمير عبد الحميد إبراهيم، ط١ (الرياض: دار السلام، ١٤١٨هـ)، ص٤٥٧.

(٢) أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ٢/ ٣٤٥.

ونشرككم في الثمرة»[1]، وقد يُفسَّر أيضا على أن النبي ﷺ إنما طلب من الأنصار حمايته داخل المدينة، وعلى هذا كان عقد العقبة الثانية، ويدل على ذلك أنه لما وجد قتالا في بدر استشارهم مرة أخرى في الأمر فقبلوا أن يكونوا مع رسول الله ﷺ في جهاده خارج المدينة وداخلها[2].

بقيت سرية أخرى أثير حولها الكلام الكثير، وهي سرية عبد الله بن جحش (رجب ٢هـ)، وكان النبي ﷺ قد أرسلها لاستطلاع أخبار عير قريش، وهي سرية صغيرة من ثمانية أو اثني عشر رجلا، إلى نخلة وهي بين مكة والطائف، أي أن الدولة الإسلامية بدأت تستطلع تهديد تجارة قريش إلى اليمن أيضا! ولكن قائدهم فهم أنه مأمور بقتال القافلة، فوقع في اختيار حرج، فلقد كانت الفرصة أمامه للقتال في آخر يوم من رجب وهو من الأشهر الحرم، فإذا أفلت هذه الفرصة أفلتت العير، فاجتهد فقاتل، فقتلوا واحدا وأسروا اثنين واستولوا على القافلة. وأثارت هذه الحادثة الجهاز الإعلامي لقريش باعتبارها خرقا لحرمة الأشهر الحرم، وكذلك غضب رسول الله ﷺ إذ لم يأمر بقتال، ثم نزل قول الله تعالى ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾[البقرة: ٢١٧] الآية ففرج الكرب عن المسلمين[3].

تلك هي السرايا والغزوات التي سبقت غزوة بدر الكبرى، وبها ظهر أن الدولة الإسلامية في المدينة لا تخاف من مواجهة قريش ولا تخضع لتهديداتها بل تكسر هيبتها وتؤثر على تجارتها وتكاد تُمسك بخناق عصبها المالي، وبقي أن تفكر قريش في مسالمة هذه القوة الجديدة والاعتراف بها أو أن تفكر في مواجهتها مواجهة حاسمة.

يجب أن نفهم جيدا أنه لن يخطر ببال أحد أن يعترف بقوة جديدة دون أن يجرب

---

(١) البخاري (٢٢٠٠).

(٢) البخاري (٣٧٣٦)، مسلم (١٧٧٩).

(٣) أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ٢/ ٣٤٧، ٣٤٨؛ الصوياني، السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة، ٢/ ٢٢ وما بعدها.

كسـرها، ويختبر مواجهتها، وهو ما وقع بالفعل في غزوة بدر، ولكن المشـكلة أن ذلك قد وقع باستعداد من قريش، ودون استعداد من المسلمين!

استنفر النبي ﷺ من كان جاهزا من المهاجرين والأنصـار لاعتراض قافلة أبي سـفيان العائدة من الشـام، والتي كانت تحوي أموال المهاجرين التي سـلبتها قريش منهم عند الهجرة، فخرج من كان سـلاحه حاضـرا دون من كان يحتاج وقتا للاسـتعداد، فكانت قوة المسـلمين ثلاثمائة رجل تقريبا. ولكن أبا سـفيان توقع أن تُهَاجَم القافلة فأرسـل طلائع جاءته بتأكيد مخاوفه، فأرسـل إلى قريش يسـتغيثهم، ثم سـلك بالقافلة طريقا آخر حتى أفلت، وبينما هو كذلك كانت قريش قد خرجت في ألف من مقاتليها لحماية القافلة، ولما بلغهم أنها قد نجت، أصرّ أبو جهل على أن تكون هذه هي فرصة المواجهة التي يكسر بها قوة محمد ومن معه، واسـتطاع أن يحمل القومَ على رأيه، فكانت محنة شـديدة على المسـلمين الذين لم يتوقعوا أن تكون حربا مع قوة بهذه الضـخامة، وجرت الفصـول المعروفة من أحداث الغزوة لتسفر عن نصر هائل للمسلمين، ومقتلة شنيعة في المشركين ذهب فيها رؤوس القوم بمن فيهم أبو جهل وعتبة بن ربيعة وأمية بن خلف، حتى إن المكيين لما جاءهم الخبر لم يصدقوا أن هذا حصل وظنُّوا أن حامل الخبر مجنون.

كانت القيمة الكبرى لغزوة بدر أنها كانت إعلانا عن ميلاد الدولة الإسـلامية، فبها تحول المسـلمون من «دولة مارقة» أو «مجموعة اللاجئين» أو «الإرهابيين» إلى قوة إقليمية، وإلى دولة قادرة على الدفاع عن نفسـها وعن خوض الحروب ضـد الجيوش المجهزة المستعدة للقتال (ليس التعرض للقوافل التجارية فحسب)، بل هي استطاعت أن تحقق نصـرا على قريش التي هي سيدة العرب وهي قوة الحجاز الأولى. لقد مثلت غزوة بدر الاختبار العسـكري الأول الذي تقاس به الدول، فإما أن تنتصـر فيه فتكون هذه هي حرب التأسـيس أو الاسـتقلال أو التحرير، وإما أن تفنى فيه فتذهب إلى طي النسـيان في سـجلات المحاولات الفاشـلة. كان انتصـار بدر «بمثابة تأكيد على اسـتقلالية المجتمع

المسلم وقدرته على البقاء»[1]، ومن هنا فقد كان حال المسلمين بعد بدر بخلاف حالهم قبلها، وقد ترتب عليها كثير من النتائج المهمة، من أبرزها: تصفية معسكر المشركين داخل المدينة! حيث دخل المشركون في الإسلام بمن فيهم المنافقون، وقال عبد الله بن أبي بن سلول «هذا أمرٌ قد تَوَجَّه»[2]، وبهذا انتهت قصة المشركين لتبدأ قصة المنافقين.

لقد غيَّرت معركة بدر مسار التاريخ، وجيشها «هو الجيش الذي سيبدل وجه العالم بأعمق مما بدلته الجيوش التي تعد مليون رجل كجيش خشايرشا بن داريوس ملك الفرس، أو نابليون. فليس بعدد المقاتلين تقاس الأحداث، وإنما تقاس بما وراء الأحداث من أسباب. فإذا كان مليون جندي يقاتلون إرضاء لطموح غازٍ أو تعظيما لمجده، هلكوا دون أن يخلفوا أثرا سوى عظامهم على الأرض، أما إذا كان ثلاثمائة وأربعة عشر يقاتلون في سبيل نصرة فكرة لا يبتغون منها نفعا عاجلا، هي فكرة وحدانية الله، وإظهارها على أهل الشرك، فإنهم يفتحون ثلث العالم ليثبتوا فيه -على مدى الزمن- العقيدة التي كانت تدفعهم. فالنصر مهما كان قول بعض الملوك الماديين في عصرنا هذا ليس للجيوش الجرارة، النصر لله ولمن يقاتل في سبيل الله ضد روح الفساد في البشر»[3].

ومن ناحية أخرى عملت نتائج بدر على إزالة الغطاء الهشّ عن بعض الأطراف التي كانت تتمنى هزيمة المسلمين مثل اليهود، الذين لم يستطيعوا كتمان ما في صدورهم من الغيظ، وقد كانوا يتمنون أن يهلك المسلمون في بدر، فأثارهم ما حققوا من النصر، فبدؤوا في إثارة العداوات، لا سيما بنو قينقاع الذين كانوا أخطر أحياء اليهود الثلاثة المتكتلة، وهو ما أسفر في النهاية عن غزوة بني قينقاع، حيث أجلاهم النبي ﷺ من المدينة (١٥ شوال

---

(١) هودجسون، مغامرة الإسلام، ١/ ٣٢٧.

(٢) البخاري (٤٢٩٠).

(٣) ألفونسو دي لا مارتين، مختارات من كتاب حياة محمد، ترجمة: محمد قوبعة، (الكويت: مؤسسة جائزة عبد العزيز البابطين، ٢٠٠٦م)، ص٧٥؛ وانظر: آتين دينيه وسليمان بن إبراهيم، محمد رسول الله، ترجمة: عبد الحليم محمود ومحمد عبد الحليم محمود، ط٣ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٦م)، ص٢٠٨؛ درمنغم، حياة محمد، ص٢١٧.

٢هـ). ومثلُ بني قينقاع بنو سليم الذين تحشدوا للهجوم على المدينة بُعيْد بدر ولكن الأخبار وصلت للنبي فبادر إليهم ﷺ فهاجمهم (٢٥ رمضان ٢هـ – أو: المحرم ٣هـ) فتفرقوا منه وهربوا وغنم المسلمون إبلهم في الغزوة المعروفة باسم الكُدْر. ومثلُ بني قينقاع وبني سليم بنو ثعلبة بن محارب من غطفان إذ تجمعوا للإغارة على المدينة فوصلت الأخبار فبادر إليهم رسول الله ﷺ (ربيع الأول ٣هـ) ففرُّوا وهربوا وبقي رسول الله ﷺ لمدة شهر في نجد لم يجرؤ أحد على حربه وهي الغزوة المعروفة بذي أمر. وفي هذا الوقت ظهرت عداوة كعب بن الأشرف واشتد هجاؤه واستعلانه بمحالفة القرشيين وقد أرسل النبي محمد بن مسلمة لاغتياله كما مرَّ آنفا، وأقر النبي من اغتال الذين هجوه بشعرهم كعصماء بنت مروان وأبي عفك، فهذه الاغتيالات الثلاث كانت بعد بدر.

وطرأ أسلوب جديد على الصراع مع مكة، إذ فكَّر عمير بن وهب الجمحي في اغتيال النبي فجاء متوشحا سيفه –وقد ملأه بالسُمّ– متعللا بفداء ابنه، لكن النبي أخبره بنيته فأسلم. وكذلك شن أبو سفيان غارة خاطفة في مئتين من قريش على المدينة (ذي الحجة ٢هـ) فأحرق فيها نخلا وقتل رجلين وفرَّ، فطارده النبي ﷺ والمسلمون ولكنه جدَّ في الفرار حتى لقد ألقى ما كان معه من الأطعمة يريد بذلك أن يتخفف فتسرع به الركائب، فغنمها المسلمون.

وبعدها بثلاثة أشهر خرج النبي ﷺ في غزوة بُحْران (جمادى الأولى ٣هـ)، واختلفت الروايات هل أراد قريشا أو بني سليم، ولكن لم يقع قتال، وبالنظر في موقع الغزوة يُحتمل كلا الأمريْن، فبنو سليم على الطريق إلى الجنوب نحو مكة، فالمؤكد إذن أنها حققت هدف التأمين والردع. وبعد أيام من هذه الغزوة أرسل النبي ﷺ سرية القَرْدَة بقيادة زيد بن حارثة لاعتراض قافلة لقريش (الأول من جمادى الآخرة ٣هـ)، فغنمها وفرَّ رجالُها، وكانت تجارة فضة، فكانت نكبة وقعت على قريش، ولكن النكبة الأشد من هذه الخسارة المالية أنهم بهذا فقدوا الطرق المتاحة أمام تجارتهم في الشام، فقد كانت هذه القافلة تسلك طريقا

بعيدا عن المدينة تقع في ناحية نجد، ولكن المسلمين –بهذه السرية– أغلقوا هذه الطريق، وأتمّوا عملهم في حصار قريش من جهة الشمال[١].

نلاحظ في هذه الغزوات والسرايا التي وقعت بين بدر وأحد اتساع المساحة التي هيمن عليها نفوذ الدولة الإسلامية، ففي الوقت الذي انحصرت فيه السرايا الأولى –تقريبا– في الجهة الجنوبية الغربية، سنرى هذه السرايا قد توجهت إلى الجنوب الشرقي والشرق كما في غزوة الكُدْر وسرية القردة، وإلى نجد في الشمال الشرقي كما في ذي أمر.

وسنلاحظ في هذه الغزوات قوة المخابرات الإسلامية، إذ تمكن النبي في أربع مرات على الأقل من مبادرة الخصوم قبل أن ينهضوا إليه، وفي إصابة القافلة التي قُصِدت في سرية القردة، بينما أفلت أبو سفيان بصعوبة في غزوة السويق.

كان لا بد والحال هكذا أن تفكر قريش في عمل عسكري حا سم ضد دولة الإ سلام في المدينة، فخرجت في ثلاثة آلاف مقاتل في غزوة أحد، وجرى فيها ما هو معروف مما لا نطيل بذكره[٢]. ولكن أهم ما يستفاد من غزوة أحد في سياق بحثنا هذا:

١. أن المسلمين بشر تجري عليهم الهزيمة إذا هم لم يلتزموا أمر رسول الله ولم يأخذوا بالأسباب، ولم يكافحوا ما يقع في نفوسهم من حب الدنيا والحرص على الغنيمة، وهذه الأمور كفيلة بهزيمة الجيش ولو كان فيه خير الناس: رسول الله وصحابته الأكرمون المبشرون بالجنة.

٢. أن المسلمين كادوا يحققون النصر مرة أخرى على جيش قريش المجهز المستعد للقتال، الذي يستعد للمعركة منذ أمد، لولا ما وقع من الأخطاء التي قلبت المعركة، ثم إنه برغم ما وقع من الارتباك والا ضطراب وا ستشهاد العديد من أبطال المسلمين، فإن جيش

(١) أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ٢/ ٣٧٥، ٣٧٦؛ مهدي أحمد رزق الله، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ط١ (الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات، ١٩٩٢م)، ص٣٧٧.

(٢) البخاري (٢٨٧٤).

المشـــركين عجز عن اغتيال النبي أو كبار صـــحابته كأبي بكر وعمر، ولم يفكر في اجتياح المدينة ومواصـــلة انتصـــاره، بل ولم يمكث الأيام الثلاثة التي يمكثها المنتصـــر في موقع المعركة على عادتهم، وإنما رجعوا كأنما كانوا على وجل من أن ينقلب الحال عليهم مرة أخرى. والدليل على هذا أنهم في اليوم التالي غادروا إلى مكة، وكان النبي ﷺ يخشى أنهم قد يعدون لجولة أخرى، واستعد لهم بمن بقي من جيشه في الغزوة التي سميت باسم «حمراء الأسد»، ولكنه لما أرسل طلائعه وجدهم قد اتخذوا طريق الرجوع.

لقد كان رجوع قريش عن أحد دون إخضاع دولة المدينة واجتياحها دليل على أن القوة الإسلامية صارت في موضع الندية، وأن قوة قريش وحدها غير كافية لإنهاء دولة المدينة. وهذه نتيجة عظيمة على مستوى الصراع، لقد صارت قريش –وهي سيدة العرب– تتعامل مع المدينة بمنطق الأخذ بالثأر لا بمنطق الإنهاء والإقصاء والاجتياح والإخضاع. وصار هدفها أن تستعيد شيئا من هيبتها لا أن تفرض كلمتها وحكمها ونفوذها.

وكان معنى هذا أن مكة فقدت هيمنتها على الحجاز، ولم تستطع أن تكسر الحصار المضروب على قوافلها على طرق الشام[١].

٣. مثلما أسفر النصر في بدر عن ميلاد الدولة الإسلامية وانتشار هيبتها، فقد أسفرت الهزيمة عن كسرة قوية في هيبة المسلمين، لذلك تعرض المسلمون بعدها لعدد من الحوادث القاسية المريرة، أبرزها خمسة، وهي:

- محاولة بني أسد الهجوم على المدينة بقيادة طليحة بن خويلد الأسدي ولكن النبي ﷺ وصله الخبر فبادر بإرسال سرية بقيادة أبي سلمة بن عبد الأسد فهاجمهم قبل أن تكتمل جموعهم ففرقهم وشتتهم وغنم أنعامهم (المحرم ٤هـ).
- محاولة قبيلة هذيل الهجوم على المدينة بقيادة خالد بن سفيان الهذلي، فبادر النبي

---

(١) مونتجمري وات، محمد في المدينة، ترجمة: شعبان بركات، (بيروت: المكتبة العصرية، د. ت)، ص٤٢.

ﷺ فأرسل عبد الله بن أنيس الجهني، فاغتاله، وأحبط خطته (المحرم ٤هـ).

- حادثة الرجيع (صفر ٤هـ): وفيها جاء رجال من قبيلتي عضل والقارة (صفر ٤هـ) فطلبوا من النبي ﷺ أن يرسل معهم مجموعة من الصحابة ليفقهوهم في الدين، فأرسل معهم عشرة، إلا أنهم غدروا بهم و هاجمهم بنو لحيان، وهم من هذيل، فقتلوا ثمانية وأسروا اثنين أعطوهما للمشركين فقتلوهما[١]، وتورد بعض الروايات أن هذا الغدر كان مرتبا له بين هذيل وبين عضل والقارة انتقاما لقتل خالد بن سفيان الهذلي[٢].

- حادثة بئر معونة (صفر ٤هـ): وفيها جاء أبو براء عامر بن مالك وكان سيد قومه إلى النبي ﷺ فلم يُسلم ولم يبعد من الإسلام، وطلب من النبي أن يرسل إلى نجد مجموعة من أصحابه يدعونهم إلى الدين، فأرسل النبي سبعين من القراء، إلا أن زعيما آخر من بني عامر عزم على الغدر بهم، وهو عامر بن الطفيل، فرفض بنو عامر لكون أولئك في ذمة سيدهم، فاستعان عامر بن الطفيل ببعض بني سليم فأجابوه فقتلوا السبعين إلا واحدا لم ينتبهوا له[٣].

- محاولة بني النضير اغتيال النبي ﷺ، وقد اختلفت الروايات هل جاءهم بطلب منهم ليسمعوا منه القرآن أو جاءهم يستعين بهم -كما تقضي الصحيفة- في دفع دية رجلين قتلهما صحابي بالخطأ، إلا أن المهم هنا أنهم حاولوا تكرار ما فعله بنو سليم وبنو لحيان ولكن باغتيال النبي نفسه، وهو ما عرف به النبي سواء من خلال الوحي أو من خلال تسرب الخبر، فانتهى الأمر إلى غزوة بني النضير (ربيع الأول ٤هـ) حيث حاصرهم حتى قذف الله في قلوبهم الرعب وقبلوا بالجلاء من المدينة. وقد كان لهم قبل ذلك تاريخ في

---

(١) البخاري (٣٨٥٨).

(٢) أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ٢/ ٣٩٨ وما بعدها.

(٣) البخاري (٣٨٦٠، ٣٨٦٢)، مسلم (٦٧٧).

التعاون مع قريش وتحريضها ومعاونتها على المسلمين[1].

وهذه الحوادث الخمسة خسر المسلمون فيها أكثر من ثمانين من خيار المسلمين الذين يحسنون الدعوة والبيان، وهم عنصر نادر بطبيعة الحال في الأمم، وتلك الخسارة الفادحة التي فاقت ما خسره المسلمون في أحد إنما هي من آثار الهزيمة. ولهذا فيجب أن يكون محفورا في الذهن أن التقصير والخطأ وما يترتب عليه من الهزيمة تكون له آثار أبعد بكثير وأخطر بكثير من آثاره المباشرة، وأنها تستمر في الزمن ولا تقتصر على الهزيمة العاجلة، وأن معالجة آثارها تحتاج إلى مجهود مضاعف من البذل والجهاد فيه.

ونلاحظ أن النبي ﷺ لم ينهض لقتال بني لحيان أو بني عامر، وإنما أخَّر ذلك، وذلك أن ديار بني لحيان متوغلة في بلاد الحجاز إلى حدود مكة، ولوجود ثارات بين المسلمين من جهة وقريش والأعراب من جهة أخرى، رأي رسول الله ﷺ ألا يتوغل في البلاد القريبة من العدو الرئيس (قريش)»[2]، وأن يؤجل هذا إلى حين استعادة هيبة المسلمين وتحقيق انكسار لقريش وحلفائها، ولهذا سنراه ﷺ مسارعا لتأديبهم بعد انكسار الأحزاب، بل سنراه ﷺ يرسل جيشا لقتال الروم وحلفائهم الغساسنة لأجل قتلهم رسولا واحد له.

ونلاحظ هنا قوة المخابرات الإسلامية في نقل الأخبار وسرعة الجيوش في الوصول لأهدافها[3]، فقد تمكن المسلمون من الإجهاز على ثلاث محاولات من هذه الخمسة (أو على اثنتين إن ترجح نزول الوحي على النبي ﷺ في غزوة بني النضير)، وقد تمكنوا من الإجهاز على هذه المحاولات وهي لا تزال في مهدها. وأما حادثتي الرجيع وبئر معونة فما كان بالإمكان تلافيهما إذ هما من الغدر وخفر الذمة الذي كانت تترفع عنه العرب. كما يُلاحظ تطور عمليات المخابرات الإسلامية وتنفيذها للاغتيال الخارجي في أرض العدو

(١) أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ١/ ٣٠٤ وما بعدها.

(٢) مهدي رزق الله، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٤٦٨.

(٣) مونتجمري وات، محمد في المدينة، ص٤٦.

كما وقع لخالد بن سفيان الهذلي.

وكان من الضروري ا ستئناف نشاط الغزوات والسرايا لا ستعادة هذه الهيبة وتقويتها، وأهم ما في هذه الجولة خروجُ النبي ﷺ إلى غزوة بدر الموعد أو بدر الثانية (شعبان أو ذي القعدة ٤هـ)، حيث تواعد المسلمون والمشركون في أحد على الحرب في بدر من العام المقبل، فخرج النبي ﷺ إلى الغزوة بألف وخمسمائة مقاتل، وخرج أبو سفيان في ألفي مقاتل، ولكنه خاف وتردد وادعى أن العام عام جدب وليس من المصلحة القتال فيه، فعاد مرة أخرى، وأسفرت هذه الغزوة التي لم يقع فيها قتال على استعادة هيبة المسلمين ونفوذهم، وعلى إضعاف صورة قريش.

ومن أهم ما يدل على هيبة المسلمين في ذلك الوقت أن النبي ﷺ لم يُخْرِج سريةً ولم يَخْرُج في غزوة بعدها لبضعة أشهر (أربعة أشهر أو سبعة تبعا لاختلاف الروايات في غزوة بدر الموعد)، مما يدل على استتباب الأمن وتهيب الجميع من قصد المدينة أو التآمر عليها. بل سنجد أن الغزوة التالية (ربيع الأول ٥هـ) كانت في مكان بعيد للغاية، في دومة الجندل، على بعد ٤٥٠كم إلى الشمال الشرقي من المدينة على حدود دولة الغساسنة، وذلك أن النبي ﷺ بلغه أن جمعا بهذه الأنحاء يغيرون على القوافل ويؤذون الناس، وأنهم قد اجتمعوا يريدون غزو المدينة، فبادر إليهم النبي ﷺ ففاجأهم الجيش الإسلامي فتفرقوا وهربوا ولم يلق النبي كيدا، فأقام أياما، وبث السرايا التي كانت تغنم الإبل فحسب، حيث فرَّ الناس. وبهذه الغزوة يكون النبي ﷺ قد أضاف مساحة كبيرة إلى نفوذ الدولة الإسلامية، كما تدل هذه

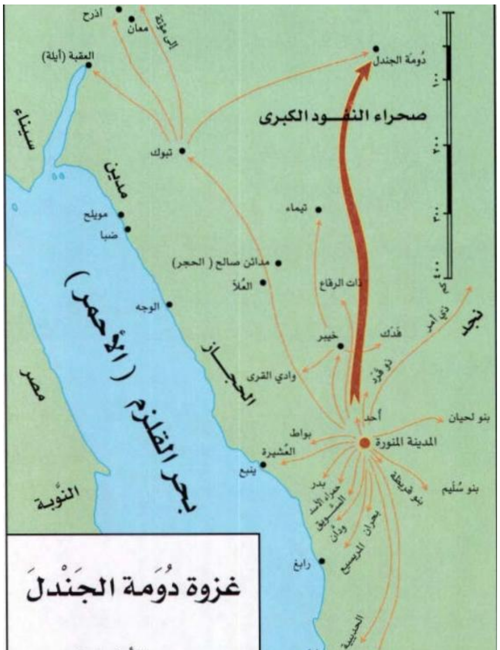

الغزوة على أن النبي أَمِن إلى حد كبير جانب قريش فيخرج إلى الشمال الشرقي كل هذه المسافة!

ثم نرى أنفسنا إزاء خمسة أشهر أخرى بلا غزوة ولا سرية، وهو دليل جديد على ما بلغه الأمن في أنحاء المدينة، حتى يأتي خبر إلى النبي بأن بني المصطلق -وهم فرع من قبيلة خزاعة- يعدون للهجوم على المدينة، وكانوا قبل ذلك قد عاونوا قريشا على النبي ﷺ إذ كانوا ضمن جيشهم في أحد، ثم إن وقوعهم على الطريق التجاري وعلاقتهم الوثيقة بمكة جعلت من مصلحتهم ألا تغلق التجارة في وجه قريش، ولما توثق النبي ﷺ من خبر اجتماعهم بادر إليهم كعادته ( شعبان ٥هـ)، فهاجمهم قبل أن ينتهبوا فغنم و سبى وأوقع بهم هزيمة نكراء[١]. وبهذه الغزوة يكون النبي ﷺ قد حقق السيطرة الكاملة على الطريق بين مكة والمدينة وأحكم الحصار الاقتصادي على قريش من جهة الشمال[٢].

وإلى هنا نرى أن المسلمين قد استعادوا هيبتهم، ووسعوا نفوذهم، ووطدوا دولتهم، وأقروا الأمن في أنحائها، وكانت لهم اليد الطولى في الوصول إلى خصومهم قبل أن يتكامل استعدادهم بفعل جهاز استخبارات قوي، وجيش خفيف سريع الحركة، وأضيف إليها عمليات خاصة نفذت اغتيالات مؤثرة.

لقد مرَّ عام ونصف العام منذ غزوة بني النضير ولم يدخل المسلمون في مواجهة عسكرية[٣]!

ومن أهم نتائج هذه المرحلة نتيجة أخرى غير مرئية، مع أنها نتيجة قوية على المستوى

---

(١) البخاري (٢٤٠٣).

(٢) حسام حمشو، السيرة النبوية من خلال الكتب الستة: دراسة تحليلية، ط١ (عمَّان: الدار العثمانية، ٢٠٠٨م)، ص٤٠٩.

(٣) المباركفوري، روضة الأنوار، ص١٢٣.

الكبير للصراع مع مكة، تلك هي ما أحدثته هذه الحركة العسكرية من عرقلة لجهود القرشيين في تكوين تحالفٍ أكبر مما استطاعوا تكوينه في غزوة الأحزاب، فقد كان على القبائل أن تفكر جيدا فيما قد يحل بها إن هي حالفت قريشا ضد محمد ﷺ[1]. وبهذا عفّى المسلمون على ما أصابهم من انكسار في غزوة أحد طوال السنتين التاليتيْن، واستأنفوا مسيرتهم نحو أن يكونوا قوة إقليمية منافسة لقريش بل أقوى.

استثار هذا الوضع الذي بلغته المدينة تحالفا كبيرا بين أعداء المسلمين، فإذا بحيي بن أخطب زعيم بني النضير المطرودين من المدينة، وقد استقر به المقام في خيبر، ومعه سلام بن أبي الحقيق، يدبر مؤامرة يجمع بها أطراف الصراع: اليهود وقريش وقبائل غطفان، فأما يهود خيبر فعليهم بذل المال وتمويل الحرب وقد تعهدوا بدفع ثمر خيبر لسنة أو نصفه، وأما قريش فهي قيادة الحرب، وأما غطفان فهم العدد الكبير والقوة الضاربة للجيش، فاجتمع عشرة آلاف مقاتل من قريش وغطفان ومن انضم إليهم من الأعراب، وفيهم اليهود، وتوجهوا إلى المدينة بغرض اجتياحها وإنهاء الدولة الإسلامية.

وكان اضطرار قريش إلى تكوين حلف مع غطفان في غزوة الأحزاب اعترافا صريحا «بأن قوة مكة وحدها لا تكفي للقضاء على محمد»[2]، «وكان ذلك أقصى جهد يبذله المكيون لتحطيم سلطة محمد»[3].

شملت الخطة كذلك استثارة بني قريظة، التكتل اليهودي الأخير الموجود في جنوب شرقي المدينة، في موقع استراتيجي يمكن من خلاله الدخول إلى المدينة، وقد كان المسلمون مطمئنون إلى هذه الجهة لما بينهم وبين اليهود من العهد والميثاق. فعمل حيي بن أخطب على إقناع كعب بن أسد زعيم بني قريظة بنقض العهد واغتنام هذه الفرصة

---

(١) مونتجمري وات، محمد في المدينة، ص٤٦.

(٢) هودجسون، مغامرة الإسلام، ١/ ٣٤٧.

(٣) مونتجمري وات، محمد في المدينة، ص٥٤.

التاريخية التي لن تتكرر لإنهاء أمر محمد، وقد استطاع أن يقنعه حقا.

كانت هذه اللحظة هي الأخطر في عمر الدولة الإسلامية، فهي تواجه تهديدا بالاجتياح والإسقاط، بقوة ضاربة تفوق عدد من في المدينة كلهم بمن فيهم النساء والصبيان، ولم يكن ممكنا القضاء على مثل هذا الجمع بعمل عسكري خاطف أو فرقة خاصة، وتعد المغامرة بالخروج لملاقاتهم في منطقة ما انتحارا للتفوق العددي الكبير، كما أن البقاء في المدينة يساوي أن تكون الهزيمة الأولى هي الهزيمة الأخيرة، فلن يحتاج المهاجمون إلا إلى جولة واحدة فليس ثمة عمق يُلْجَأ إليه، وقد كانت عادة العرب إذا دهمهم مثل هذا أن يتركوا ديارهم ويتفرقون في الجبال حتى يستلب الجيش الغازي ما يريد ثم يمضي فيعودون، ولكن هذا الجيش لم يأتِ بغرض المطمع والمغنم بل بغرض اجتياح الدولة الإسلامية، ولو تُرِكت المدينة لبلغ هدفه بسهولة، ويكون هذا قرارا بهدم كل ما أُنْجِز من المكتسبات في الأعوام الخمسة الماضية.

وهنا بزغت فكرة الخندق، وهي الفكرة المبدعة التي اقترحها سلمان الفارسي، وسرعان ما قبلها النبي ﷺ وبدأ في تنفيذها. لقد كان المطلوب هو حفر الخندق شمال المدينة إذ إنها محمية من الشرق والغرب بجبليْها، ولا مسلك إليها من الجنوب إلا من خلال ديار بني قريظة، ولم يكن يُتَوَقَّع غدرهم.

ثم حدث ما هو معروف ومشهور في غزوة الأحزاب (شوال ٥هـ) مما لا نطيل بذكره، على نحو ما نهجناه لأنفسنا في هذه الخلاصة من تجاوز الأمور المشهورة، وانصرف الأحزاب بعد أن قذف الله في قلوبهم الرعب وسلط عليهم الريح الباردة، وصمد المسلمون صمودا صلبا لأربعين يوما اجتمع عليهم فيها الخوف والبرد والجوع والحصار والغدر.

وبهذا يكون الإخفاق في غزوة الأحزاب قد جعل «حصار محمد للتجارة المكية قد

تأكد، وباتت قريش في موقع دفاعي لا يمكنها معه سوى انتظار تحركات محمد [ﷺ]»[١].

ليس هذا فحسب، بل لقد كان إخفاق الأحزاب في اجتياح المدينة هو اللحظة التي انتهى فيها جهاد تأسيس الدولة، وبدأ بعدها انتزاع الاعتراف السياسي، لقد انتهت مرحلة أن تكون الدولة الإسلامية مغزوة، وبدأت مرحلة أن تكون غازية، بمعنى أنها غازية للقوة الإقليمية الكبرى، وهي مكة. ولهذا قال رسول الله ﷺ «الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم»[٢].

لقد صارت الدولة الإسلامية حقيقة واقعة لا يمكن إنهاؤها ولا إفناؤها، وذلك هو أول الاعتراف بها.

## ٢. انتزاع الاعتراف السياسي

ما إن انتهت غزوة الأحزاب على خير حتى تحول المسلمون إلى بني قريظة، فأنزلوا بهم جزاء الخيانة والغدر في أصعب لحظة مرت عليهم، وذلك في غزوة بني قريظة[٣] (آخر ذي القعدة وأوائل ذي الحجة ٥هـ)، ثم تطوعت فرقة من الأنصار لاغتيال سلام بن أبي الحقيق، وهو رئيس يهود خيبر كما أنه الرجل الثاني في مؤامرة الأحزاب مع حيي بن أخطب، فقصدت إليه هذه الفرقة في حصنه في خيبر حتى نجح عبد الله بن عتيك في قتله وهو في حصنه وبيته[٤].

وتواصلت السرايا لاستكمال تأمين المناطق المحيطة بالمدينة، فنرى سرية محمد بن مسلمة (المحرم ٦هـ) إلى القرطاء باتجاه الشرق من المدينة، وفي أثناء العودة وقع أسير

---

(١) هودجسون، مغامرة الإسلام، ١/ ٣٤٨.

(٢) البخاري (٣٨٨٣).

(٣) البخاري (٣٨٩٥)، مسلم (١٧٦٨).

(٤) البخاري (٣٨١٣).

عالي القدر في يد هذه السرية، وهو ثمامة بن آثال الحنفي، فحبسه النبي في المسجد ثلاثة أيام رأى فيها صلاة المسلمين وأخلاقهم فشرح الله صدره للإسلام فأسلم، ثم تعهد للنبي أن يستكمل الحصار الاقتصادي على قريش من جهة اليمامة، فلا تصل إليهم حبة قمح إلا أن يأذن رسول الله، وقد وَفَّى بذلك. وبهذا صارت قريش في وضع اقتصادي صعب، حتى أرسلت إلى النبي تسأله أن يأمر ثمامة بفك هذا الحصار من جهته، فأذِن النبي ﷺ له، وبهذا يكون النبي ﷺ قد صار الأعلى يدا في فرض سياسة المنطقة لأول مرة مع قريش.

وعندئذ حان الوقت لتأديب بني لحيان الذين غدروا بالقراء في بئر معونة، والذين لم ينهض النبي لقتالهم وقتها، ولكن الوضع تغير الآن بعد انكسار الأحزاب وضعف قوة قريش وحلفائها، فخرج إليهم النبي ﷺ في مائتين من أصحابه (ربيع الأول أو جمادى الأولى ٦هـ) وعمَّى على جهته حتى فاجأهم فهربوا منه إلى رؤوس الجبال وداخلهم الرعب، وأرسل النبي سرية من عشرة تقترب من حدود مكة في رسالة سياسية وعسكرية بقوة النبي واتساع نفوذه وأنها تبلغ حدود مكة.

ونتوقف هنا عن ذكر السرايا التي أخرجها النبي ﷺ إلى الأنحاء، لأنها صارت تدخل في التفاصيل العسكرية للدولة الإسلامية، تلك التفاصيل التي لا يهتم بها بحثنا هنا، وإنما كان تركيزنا على السرايا الأولى في السنوات الخمس لأنها كانت ترسم لنا جهاد التأسيس الذي يتحقق به تأمين الدولة ونقلها من مرحلة الخطر إلى مرحلة البقاء، ومن كونها دولة «مارقة» ومجموعة من اللاجئين الهاربين الخائفين على أنفسهم إلى مرحلة أنهم القوة الإقليمية التي فرضت وجودها وكلمتها.

ويبقى أن نتوقف عند الآثار المهمة للحظات الكبيرة، ومن أهمها: صلح الحديبية.

كان الصحابة يعدون الحديبية فتحا فقال البراء للتابعين «تعدون أنتم الفتح فتح مكة...

ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية»[1]، ولقد سمَّاه القرآنُ الكريم بالفتح في قوله تعالى ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ ۚ﴾[الحديد: ١٠]، فالفتح هنا هو صلح الحديبية، وسمَّاه القرآن الكريم فتحا مبينا في قوله تعالى ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾[الفتح: ١]، مع أن هذا الفتح كان يبدو في ظاهره إخفاقا وهزيمة للمسلمين!

ومختصر قصة الحديبية كالآتي[2]: أراد النبي ﷺ أن يخرج إلى مكة معتمرا، وهذه الرغبة هي في ذاتها دليل على ما بلغته المدينة من قوة واقعية، إذ لم يفكر النبي طوال الفترة الماضية في العمرة، لقد كانت موازين القوى تجعل منه ومن أصحابه «إرهابيين، متمردين، خارجين على حكم مكة»، بينما هو الآن بعد هذه السنوات الخمس قد صار واقعيا قوة مرهوبة وكيانا قائما لا يُستطاع إنهاؤه! ولهذا أخذ النبي في ممارسة ما تمارسه القوى المعترف بها عمليا، ومن أهم هذه المظاهر القدرة على زيارة البيت الحرام كما تفعل كل القبائل في الجزيرة العربية.

وقد أدار النبي معركته هذه المرة بالسياسة والرأي والحكمة، فقد حرص على أن تكون زيارته للكعبة زيارة عمرة لا حربا ولا هجوما، فلم يكن معه إلا سلاح الراكب، أي السلاح الذي يحفظ المرء به نفسه في الصحراء، وبث في القبائل خبر خروجه معتمرا (ذي القعدة ٦هـ).

ووقعت قريشٌ في حرج شديد، ذلك أن قبولها بدخول محمد وأصحابه معتمرين إنما هو اعتراف بهم كقوة شرعية قائمة لها الحق في زيارة البيت، كما أن ردهم عنها مثير لأزمة سياسية بين العرب الذين لا يقبلون أن تكون قريش متحكمة في البيت حتى تمنع منه من

---

(١) البخاري (٣٩١٩).

(٢) روي خبر الحديبية في حديث البخاري الطويل (٢٥٨١) وزاد عليها في بعض الروايات الأخرى (٣٩٤٤)، وزاد عليه مسلم في بعض التفاصيل الصغيرة (١٧٨٤).

تشاء، ثم إن محمدا هو ابن عبد المطلب سيد مكة إلى وقت قريب، فقبل اثنتين وخمسين سنة فحسب كان عبد المطلب هو القائم على رعاية شأن الحجيج، أي أن بعض شيوخ العرب في هذه اللحظة قد أدركوا عبد المطلب، وهم يرون ابنه يُمنَع عن زيارة البيت.

وقد استعدت قريش للحرب ولتمنع المسلمين من العمرة، تكبرا أن تعترف بالمسلمين، ثم إنها في ذات الوقت بدأت معركة السياسة إذ أشاعت أن محمدا ﷺ إنما قرر أن يدخل البيت عنوة وأنه جاء محاربا، وأخذت تعمل لكي تحث محمدا ﷺ على العودة من تلقاء نفسه دون حرب تخسر بسببها مكانتها بين العرب، فكأنما احتكرت البيت وزيارته لنفسها. فبدأت رحلة من المبعوثين بين قريش والمسلمين، فدخل متوسطا كلٌّ من: الحليس بن علقمة سيد الأحابيش وبديل بن ورقاء سيد خزاعة وعروة بن مسعود سيد ثقيف والطائف ومكرز بن حفص من سادات بني عامر بن لؤي وهو قرشي.

كان بديل بن ورقاء من خزاعة وهم قومٌ يميلون إلى النبي ﷺ فكان الأمر معه هادئا، إذ بيَّن النبي ﷺ أنه إنما قدم معتمرا ولا يريد الحرب، فلما عاد بديلٌ بهذا إلى قريش اتهموا نواياه وميوله ورفضوا وساطته. وأما الحليس بن علقمة فقد قدم على النبي وهو يظن أنه قد جاء للحرب، وكان من حكمة النبي أنه علم تعظيم الأحابيش للشعائر فأمر المسلمين أن يُطلقوا في طريقه الهَدْي -الخراف المعدة للذبح تقربا إلى الله، وهي من شعائر العمرة حينها- ففوجئ الرجل بأن محمدا ﷺ إنما يريد العمرة، فعاد إلى قريش بهذا فاتهموا عقله وصرَّحوا له بسذاجته ورفضوا وساطته. وأما عروة بن مسعود فقد كان قرشي الهوى وكان عسكريا وسياسيا ذا تجربة، فجاء برسالة تهديد ووعيد وتخويف، فلقيه النبي بما يردعه، فقد لقيه النبي في صحابته وبينهم ابن أخيه المغيرة بن شعبة الذي كان يضرب يد عمه عروة إذا قرَّبها من لحية رسول الله وهو يقول: «أمسك يدك عن لحية رسول الله قبل ألا تصل إليك»، ولما تفوه بما فيه تنقيص للصحابة ردَّ عليه أبو بكر ردًّا صاعقا «امصص بظر اللات، أنحن نفر عن رسول الله؟» وما كان هذا الرد القوي متناسبا مع رقة أبي بكر وحلمه،

ثم أراه النبي ﷺ كيف يكون التفاف صحابته حوله وتعظيمهم له، فعاد عروة إلى قريش وهو يقول: «أي قوم والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد ﷺ محمدا، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدوا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وَضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيما له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فأقبلوها»(١).

وبهذا ترى قريش أنها خسرت معركة السياسة، وأنها إذا حاربت فقد خاطرت بمكانتها وخاطرت بالهزيمة أيضا، فتحيروا، ثم بعث النبي ﷺ من عنده عثمان بن عفان رسولا إلى قريش، فلم يكن لديهم جواب له، فاستبقوه عندهم أياما، فأشيع في الناس أن قريشا قتلت عثمان، ولما بلغ هذا الخبر إلى النبي ﷺ تحول موقفه من العمرة إلى القتال، وتعاهد مع صحابته في الحديبية على القتال حتى الموت، وهي البيعة المعروفة باسم «بيعة الرضوان» لأن الله أنزل فيها أنه رضي عن أهلها ﴿۞لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]، فما إن بلغ خبر البيعة هذا قريشا حتى أطلقوا عثمان، وأرسلوا خلفه سهيل بن عمرو، وهو خطيب قريش، ليبرم معاهدة مع النبي ﷺ على أن يرجع هذا العام، ثم يأتي العام القابل معتمرا.

كانت أهم بنود معاهدة الحديبية التي قبلها النبي:

- العودة عن العمرة هذا العام وأداؤها العام المقبل
- هدنة بين الفريقين لعشر سنين
- احترام الأحلاف، فمن كان في حلف قريش أو في حلف محمد فتجري عليه المعاهدة

(١) البخاري (٢٥٨١).

▪ من أسلم من الكفار يُعاد إليهم ولا يقبل محمد به، وأما من ارتد من المسلمين فيقبله الكفار.

أثار هذا الشرط الأخير جدلا ومرارة في معسكر المسلمين، وتفيد عبارة النبي في الرد على من اعترض عليه «إني رسول الله ولن يضيعني الله أبدا»[١] أن قبول هذا الشرط كان وحيا، ولكن سيبدو فيما بعد أن هذا الشرط كان في صالح المسلمين، وانتهت المعاهدة على أن دخلت خزاعة في حلف محمد ﷺ ودخلت بكر في حلف قريش.

وعاد المسلمون من الحديبية، دون عمرة، ودون قتال ونصر، بل عادوا بشرط مجحف لهم! ومع ذلك فقد سمَّاه القرآن: الفتح المبين.

في الواقع لقد كان فتحا مبينا، وكان هذا الفتح هو انتزاع المسلمين الاعتراف السياسي بهم، وتحولهم إلى كيان مقبول معترف به في الجزيرة العربية. هذا الاعتراف هو ما مثَّل قفزة كبرى في حياة المسلمين. لقد «خضع في الظاهر لخصومه، ولكنه في الحقيقة تفاوض معهم مفاوضة الند للند، وهو نجاح دبلوماسي كبير رغم خيبة أمل المسلمين الذين عادوا إلى المدينة دون أن يزوروا الكعبة»[٢]، واستطاع النبي ﷺ بهذا الصلح «أن يفاوض البلد الذي أخرجه مفاوضة النظير للنظير»[٣]، ومن جهة أخرى فمن «دون أن تلحق بالقرشيين هزيمة ساحقة، أدرك هؤلاء أن قوة جديدة قد وُلِد وأنه لا بد من التفاوض معها إن كانوا يريدون لتجارتهم ألا تصاب بخراب شامل. فأتاحت الهدنة التي نجمت عن ذلك، لمحمد أن يجمع حوله عددا متزايدا من القبائل الحليفة»[٤].

---

(١) البخاري (٤٥٦٣).

(٢) هنري ماسيه، الإسلام، ترجمة: بهيج شعبان، ط٣ (بيروت – باريس: منشورات عويدات، ١٩٨٨م)، ص٥١، ٥٢.

(٣) درمنغم، حياة محمد، ص٣٣٧.

(٤) كلود كاهن، الإسلام منذ نشوئه حتى ظهور السلطنة العثمانية، ترجمة: حسين جواد قيسي، ط١ (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، مايو ٢٠١٠م)، ص٣٥.

لقد أسـلم في العاميْن التالييْن له مثلُ الذين أسـلموا منذ بداية الإسـلام[1]. وذلك أن معاداة قريش كان أمرا لا تقدم عليه قبائل العرب، لمكانتها ورعايتها الحرم، فلما اصطلحت قريش مع المسـلمين لم يعد التواصـل معهم عملا مزعجا لقريش ولا مثيرا لها[2]، ولما وضعت الحرب أوزارها وتواصل الناس كانت فرصة لعرض الإسلام على القبائل فأقبلوا عليه.

لكن واحدا من أعظم الدروس التي يجب التوقف عندها هو قدرة هذا الجيش المسلم الصغير أن يدخل في معركة حاسمة مع قريش حين تسرب إليه نبأ قتل عثمان، إن هذا الاستعداد والجاهزية والفدائية الكبيرة هي التي تثير الخوف والفزع، وتأتي بالخصوم إلى مائدة التفاوض وتوقيع الاتفاق، لقد كان انهمار المسـلمين على بيعة النبي على القتال في الحديبية هو الدليل على ما بلغه صف المسلمين من القوة والتماسك والإقدام، ولعله لهذا نزل عليهم رضوان الله وسُـميت بيعتهم بيعة الرضوان. وبعض الباحثين[3] يرى هذا هو أعظم نتائج الحديبية.

وأما هذا الشـرط المجحف فقد جعل قريشـا تطمئن فتطلق من كانت تحبسـهم من المسـلمين إيمانا منها أنهم لا يستطيعون الهجرة، وهو ما أدى إلى أن يتكاثر المسـلمون في قريش نفسها، ثم أدى إلى نتيجة أشد خطورة، حيث أسلم رجل اسمه أبو بصير من قريش وانطلق مهاجرا، فذهب أهله وراءه إلى المدينة لاسترداده، فردَّه النبي ﷺ، ولكنه استطاع في الطريق أن يقتل أحدهم ويعود إلى المدينة، فلم يقبله النبي أيضـا، فاتخذ له موقعا على الطريق من مكة إلى المدينة، وصـار يغير منه على قوافل المشـركين التي بدأت في العودة

(١) الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن، تحقيق: أحمد شاكر، ط١ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٠م)، ٢٢/ ٢٥٩.

(٢) يشبه الأمر في عصرنا الحاضر ما تفرضه أمريكا من العقوبات الاقتصادية على عدد من الدول التي تراها مارقة، إن التعامل مع هذه الدول يساوي الدخول في أزمة مع أمريكا. وكذلك الحال في الدول الإقليمية أيضا، فحين توجد دولتان بينهما عداوة فإن التعامل مع إحداهما يساوي خسارة الأخرى.

(٣) دينيه، محمد رسول الله، ص٢٥٠.

إلى سيرها الطبيعي مع وجود الهدنة، وصار أبو بصير ملجأً لكل مسلم لا يستطيع البقاء بين المشركين ولا يستطيع الوصول إلى المدينة لالتزام النبي بالمعاهدة، وبهذا تشكلت فرقة تمارس حرب العصابات وتغير على القوافل. فلما صار الأمر غير محتمل أرسلت قريش إلى النبي أنها تتنازل عن هذا الشرط وتناشده أن يقبل أولئك الخارجين عنها في دولته فيشملهم الاتفاق.

وهنا نرى كيف يمكن للمسلم المستضعف، وللمجموعة الصغيرة أن تؤدي إلى تغيرات قوية في السياسة الإقليمية، وأنهم بتحررهم من التزامات الساسة واتفاقياتهم يستطيعون أن يفعلوا ما لا يفعله أولئك الساسة أنفسهم. كما نرى أن النبي ﷺ لم يمنعهم من هذا ولم يُدِن ما يفعلونه، وهذا من حسن توظيف السياسي الحكيم للطاقات والفئات جميعها.

من المؤسف في واقعنا المعاصر أن صلح الحديبية يستدل به المؤمنون بالحراك السياسي على ما فيه من التنازل، ولكنهم لا يتناولون هذا الجانب الخطير الذي قام به أبو بصير، بل تراهم إذا وقع لهم ما يشبه هذا يسارعون في إدانة هؤلاء والإنكار عليهم ووصفهم بالإرهاب والتطرف، بل يصلون إلى التحريض عليهم والمساهمة في الإيقاع بهم. فكأنهم يؤمنون ببعض الحديبية ويكفرون ببعضها الآخر!!

وبعد أن انتهى النبي ﷺ من حرب قريش، التفت إلى مركز الشر في الجزيرة العربية، إلى حيث يلجأ المتآمرون وإلى حيث تخرج المؤامرات، إلى يهود الجزيرة العربية، وكانوا متمركزين في خيبر التي كانت حصونا منيعة وثراءا ماليا، وإليها لجأ بعض بني قينقاع وزعماء النضير، ومنها خرجت مؤامرة الأحزاب التي كانت محنة وزلزلة عظيمة كادت تودي بالدولة الإسلامية.

فبعد شهرين فقط من صلح الحديبية (ذو القعدة ٦هـ)، انطلق النبي إلى خيبر، وفتح

حصونها السبعة المنيعة (المحرم ٧هـ)(١)، ثم تتبع الجيوب اليهودية الأخرى الأقل شأنا في تيماء وفدك حتى خضعت لسلطانه وحكمة. وبهذا يكون النبي ﷺ قد تخلص من الخطر اليهودي في أقل من عام واحد.

وعند انصراف النبي من فتح خيبر، قدم عليه المهاجرون من الحبشة بقيادة جعفر بن أبي طالب(٢)، وعندها قال النبي قولته المشهورة «لا أدري بأيهما أفرح: بفتح خيبر أم بقدوم جعفر؟»(٣)، وكان قد أرسل إليهم بعد الحديبية ليقدموا عليه، وهذا القدوم في هذا التوقيت دليلٌ على أن المهاجرين إلى الحبشة كانوا بمثابة الاحتياطي الاستراتيجي للدعوة الإسلامية، فلو لم يكن ذلك ما ظلوا في الحبشة حتى أمنت الدولة الإسلامية وانتزعت الاعتراف السياسي بها(٤)، أو على الأقل بمثابة الطلائع التي تبحث عن قاعدة حرة آمنة للدعوة إذا لم تستجب لها أرض العرب، وقد نجحوا بالفعل في أن يكسبوا النجاشي إلى الإسلام(٥)، وحيث قد أمنت الدولة الإسلامية وها هم العرب قد بدؤوا يدخلون الدين فقد كان هذا نهاية لمهتهم وبداية لعودتهم.

ثم توجه النبي إلى غطفان، وهم القوة الثانية في منطقة نجد بعد قوة اليهود في خيبر(٦)، فغزا النبي بني محارب وبني ثعلبة من غطفان، وهي غزوة ذات الرقاع (المحرم ٧هـ)(٧)، ويبدو من

---

(١) البخاري، صحيح البخاري، ٢/ ١٥٣٦ وما بعدها؛ مسلم، صحيح مسلم، ٣/ ١٤٢٥ وما بعدها.

(٢) البخاري (٣٩٩٠)، مسلم (٢٥٠٢).

(٣) الصوياني، السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة، ٣/ ٢٧٦؛ سعد المرصفي، الجامع الصحيح للسيرة النبوية، ط١ (الكويت: مكتبة ابن كثير، ٢٠٠٩م)، ٤/ ١٢٨٢

(٤) منير الغضبان، المنهج الحركي للسيرة النبوية، ١/ ٦٨.

(٥) سيد قطب، في ظلال القرآن، ط٣٤ (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٤م)، ١/ ٢٩.

(٦) أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ٢/ ٤٦٣.

(٧) وقع في تحديد تاريخ غزوة ذات الرقاع خلاف مشهور بين المحدثين وأصحاب السير، فعامة أهل السير أنها كانت قبل الخندق، والمحدثون وعلى رأسهم البخاري والمحققون كابن كثير وابن القيم على أنها بعد خيبر، والمعاصرون

أخبار الغزوة أنها كانت للردع، إذ أن النبي فاجأ جموعهم في مكانها، فالتقوا وتقاربوا ولكن لم يقع قتال، ولكن حين نرى الموقف العسكري متجمدا لا يجرؤ أهل الديار أن يقاتلوا في ديارهم من جاءهم إليها، فهذا دليل على تحقق معنى الردع والتخويف المقصود[1].

ومن أهم ما ترتب على صلح الحديبية، وحصول الاعتراف السياسي بدولة الإسلام، أن بدأت المرحلة التالية: **مرحلة الدعوة العالمية!**

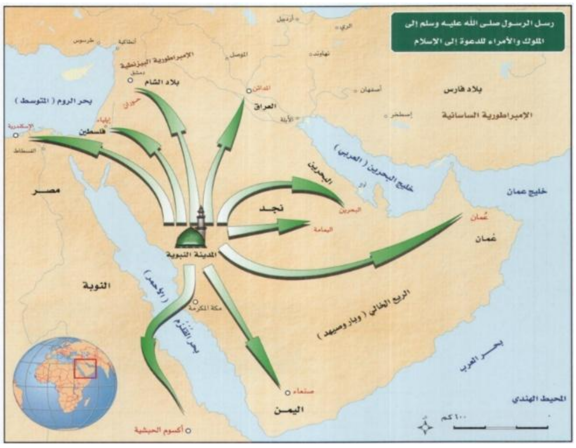


ومن ثَمَّ فقد بدأ النبي ﷺ مكاتباته للقوى السياسية المحيطة به، فأرسل رسله ورسائله إلى المراكز التسعة التي تنتشر حول الحجاز: الشام والعراق ومصر والحبشة والبحرين وعُمان واليمن وبني حنيفة في اليمامة والغساسنة.

وكانت رسائل النبي ﷺ تحمل الدعوة إلى الإسلام، واتباع الرسول ﷺ، وقد تعددت ردود الأفعال على هذا النحو:

- أسلم ثلاثة من الأمراء وهم: حكام البحرين وعمان واليمن.
- ردَّ ثلاثةٌ منهم ردًّا لطيفا دون أن يسلموا: وهم النجاشي ملك الحبشة، وهرقل قيصر الروم، والمقوقس حاكم مصر.
- جحد اثنان وعاندوا، وهم كسرى فارس، وزعيم اليمامة الذي اشترط لكي يؤمن

---

ممن اهتموا بصحيح السيرة كأكرم العمري وإبراهيم العلي، وكاد الأمر يسلم لهم لولا أن البوطي من المعاصرين خرج بتحليل ينصر فيه رأي أهل المغازي وتبعه فيه آخرون كمهدي رزق الله والصلابي، ولكن ردَّ عليهم بردٍّ حسنٍ حسامُ عبد الله حمشو في كتابه: السيرة النبوية من خلال الكتب الستة، ص٤٥٦ وما بعدها، فنصر رأي المحدثين والمحققين وأثبته.

(١) سليمان المنصورفوري، رحمة للعالمين، ص٤٦١.

ويتابع أن يرث النبي ﷺ بعد وفاته.

- واحدٌ من أولئك الأمراء بلغ به الفجور أن قتل رسـول رسـول الله، وذلك هو شرحبيل بن عمرو الغساني الذي قتل الحارث بن عمير الأزدي.

### ٠٣ جهاد السيادة

هذا الحادث الأخير، حادث قتل رسـول رسـول الله ﷺ، هو الذي حمل النبي على تجهيز جيش من ثلاثة آلاف مقاتل، بقيادة ثلاثة من كبار قادة المسـلمين وهم: زيد بن حارثة، جعفر بن أبي طالب، عبد الله بن رواحة. ليهاجموا الغسـاسـنة، وكانت هذه قفزة كبرى في مسار الدولة الإسلامية، أنها تُجَيِّش جيشًا لمهاجمة الغساسنة، حلفاء الروم، وفي ديارهم بالشام!!

ويرى بعض علماء السـير أن الحادث لم يكن وحده السـبب، وإنما كان هذا تطورا طبيعيا لتوسع نفوذ الدولة الإسلامية، التي كان عليها خصوصا بعد سقوط خيبر والجيوب اليهودية في الشمال أن تمدّ سلطانها إلى قبائل الشمال لا سيما القبائل النصرانية التي توالي الروم، وقد وقع من بعض تلك القبائل هجوم على الدولة الإسـلامية وقوافلها ودعاتها مما استلزم إرسال سرايا إليها مثل سرية عكاشة بن محصن إلى الغمر (ربيع الأول ٦هـ) وسريتا زيد بن حارثة إلى حِسْـمَى في الشـمال الغربي وإلى الطرف في الشـمال الشـرقي وكلاهما (جمادى الآخرة ٦هـ) و سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل ( شعبان ٦هـ) و سرية زيد بن حارثة إلى وادي القرى (رمضـان ٦هـ) وسـرية كعب بن عمير الغفاري المعروفة بذات أطلاع (ربيع الأول ٨هـ). وقد استمرت السرايا كذلك بعد غزوة مؤتة.

ولكن التقدير الخاص لمؤتة أنها كانت انتقالا من حروب العرب إلى حروب الغسـاسـنة، وهم دولة ولهم ملوك، كما أنهم حلفاء الروم الذين هم قوة عظمى لا يفكر العرب بمعاداتها ولا بمعاداة حلفائها، ثم إن المسلمين هم من خرجوا إليهم وتوغلوا حتى

وصلوا إلى مؤتة قريبا من البحر الميت، أي في عقر ديارهم!

وقد خاض هذا الجيش معركة مؤتة المشهورة، وتصدى ثلاثة آلاف لنحو مائتي ألف مقاتل من الروم ومن قبائل العرب النصرانية، واستشهد القادة الثلاثة، ثم استطاع خالد بن الوليد تنفيذ انسحاب حكيم بعد أن تهيب الروم والغساسنة جيش المسلمين وظنوا أنهم يتأهبون للهجوم وينفذون كمينا، فوصل إلى المدينة بسلام، وكان عدد الشهداء قليلا بين المسلمين(١).

ومع أن المسلمين انسحبوا بسلام، ومع أن النبي سمَّى هذا الانسحاب فتحا، إلا أن أطفال المسلمين كانوا يحثون التراب في وجه الجيش ويقولون لهم: يا فُرَّار يا فُرَّار، لولا أن تدخل النبي فقال: «ليسوا بالفرار ولكنهم الكُرَّار إن شاء الله»، وهو ما يعبر عن طبيعة المجتمع المسلم ومدى عمق الوعي الإسلامي في تلك الفترة(٢).

لكن الأثر الذي أحدثته هذه الغزوة كان واسعا وفارقا! وقد قرأه بعض العرب على أنه قوة، ولكن قبائل الشمال تعلقت بأمانيها وقرأت هذا الانسحاب ضعفا، فما هو إلا أن حاولت قبائل قضاعة التجمع للهجوم على المدينة بمعاونة بعض فرق الروم، وهو الخبر الذي نقلته المخابرات الإسلامية بسرعة، فما هي إلا أيام بعد عودة المسلمين من مؤتة إلا وأخرج النبي سرية يقودها عمرو بن العاص، عرفت باسم سرية ذات السلاسل، في ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار لكي يبادرو إليهم قبل التجمع، ثم إن عمرو بن العاص وجد جمعهم كبيرا فأرسل للنبي يستمده فأرسل مائتين فيهما أبو بكر وعمر. ثم أغار الجيش على قضاعة وتوغل في ديارها فهربوا وتفرقوا، مما أعاد الهيبة للمسلمين في هذه

---

(١) البخاري، صحيح البخاري، ٤/ ١٥٥٣ وما بعدها؛ الصوياني، السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة، ٣/ ٣٢٤؛ إبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية، ص٣٨٨ وما بعدها.

(٢) أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ٢/ ٤٦٩.

الأنحاء(١).

ولم تقع حوادث مهمة، فيما يخص سـياق بحثنا هذا، بعد مؤتة حتى فتح مكة وهو الفتح الأعظم واللحظة الكبرى والمعركة الحاسمة..

إن اتفاقيات السياسة إنما تظل محروسة بالقوة، وبقدرة أطراف الاتفاقية على حمايتها، فالاتفاقيات لا تنعقد أصلا إلا حين يُقدر الطرفان أنهما بحاجة إليها، وأن الاتفاقية أحسن لكليهما من استمرار الحرب، فإذا تغيرت أوزان القوة فلا تلبث الاتفاقية أن تفقد معناها وأن يخرقها الطرف الذي يرى نفسه الأقوى وأنه لم يعد بحاجة إليها، بل يراها عندئذ كأنها القيد الذي يعيقه. وفي عالم السياسة الذي هو عالم الأطماع نَدَر أن يوجد الذي يلتزم بعهده ويحفظه وهو قادر على نقضه. ولهذا فبقدر ما أمر الله المسلمين بالوفاء بالعهد والمواثيق أمرهم كذلك بالاستعداد الدائم والإعداد الدائم للقوة ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾[الأنفال: ٦٠].

ومن أبرز ما يدل على هذا الاستعداد الدائم ما فعله النبي ﷺ في عمرة القضاء، حيث خرج المسلمون بسلاحهم حذرا من غدر قريش حتى إذا ظهر له أن لا نية للغدر جعل السلاح في وادي يأجج وعليه حراسة من الصحابة، ثم اعتمر والمسلمون متوشحون بالسيوف من حوله محدقون به، ثم بعث بعض الصحابة الذين اعتمروا ليحرسوا السلاح وليأتي الذين حرسوه ليعتمروا. وهكذا تظل الاتفاقيات محروسة لا بنفسها بل بقوة أطرافها.

وأحيانا يبلغ أهل الباطل من الحقد والتغيظ ما يجعلهم يخرقون الاتفاق حتى وهم في الحال الأضـعف، لا يطيقون صـبرا على فرصـة تلوح لهم يُنَفِّسـون فيها عما في نفوسـهم ويسفكون ما يقدرون عليه من الدماء. وذلك ما وقع من قريش.

منذ اللحظة الأولى لتوقيع اتفاق الحديبية حاولت فرقة من ثمانين رجلا أن تغير على

---

(١) أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ٢/ ٤٧١.

معسكر المسلمين فجأة، لكن الاستعداد العالي للجيش المسلم جعلهم يقعون أسرى، فعفا عنهم رسول الله وأطلقهم[١]، ولا يُعرف هل كان هذا نوعا من الضغط الذي تبديه قريش للاستفادة به في المفاوضات أم أنه فعل بعض أفرادهم الطائشين[٢].

ثم هدأت الأحوال بعد توقيع الصلح الذي ينص على هدنة تستمر لعشر سنين، حتى غدرت قبيلة بكر –التي دخلت في حلف قريش في صلح الحديبية- بقبيلة خزاعة التي دخلت في حلف المسلمين، فأمدت قريشٌ حلفاءها بالسلاح والرجال من عبيدهم[٣]. وهذا النوع من الغدر والنقض هو من أنواع الغدر الخفي، فالإعانة بالسلاح وببعض العبيد تمكن فيه المراوغة والتظاهر بعدم العلم أو بوقوع القتال عفوا دون تدبير وتآمر.

وقد أسفر هذا الغدر عن قتلى من خزاعة، فاستجار عمرو بن سالم بالنبي ﷺ فأرسل إلى قريش يُخيِّرهم بين دفع ديات القتلى أو البراءة من بكر أو القتال، فاختاروا القتال[٤]. وأغلب الظن أنهم إنما كانوا يتمسكون بكونهم لم يعينوا بكرا بشيء، أو أنهم كانوا يتجلّدون ويظنون أنهم باختيارهم القتال يُصَعِّبون الأمر على النبي ﷺ، فلما أن تبينوا خطورة الموقف سارعوا فندموا وأرسلوا أبا سفيان لتجديد المعاقدة فلم يقبل النبي ﷺ بهذا. وبهذا تكون الاتفاقية قد سقطت، وعادت حالة الحرب بين الفريقيْن.

سيبدو هنا أهيمة الاستعداد الذي يستمر في فترة السلم والهدوء، لقد كثر الرجال المسلمون وتضاعفوا، فلقد كان عدد الذين خرجوا مع النبي في الحديبية ألفا وأربعمائة، فإذا بالنبي الآن يجمع عشرة آلاف مقاتل.

---

(١) مسلم (١٨٠٨).

(٢) أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ٢/ ٤٤٥.

(٣) أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ٢/ ٤٧٣.

(٤) أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ٢/ ٤٧٣.

ثم إن حالة السرايا المستمرة في الدولة الإسلامية كانت تجعل حالة التعبئة مستمرة ولا يُمكن توقع وجهتها، فلقد دخل المسلمون في اشتباك مع الروم وحلفائهم من قبائل العرب النصارى في الشمال في مؤتة وغيرها من السرايا، مما يجعل الأمر بالتعبئة الكبيرة واردًا لقتال الروم وحلفائهم، كما توقع آخرون أن النبي ﷺ سيقصد إلى الطائف إذ لم يبق بعد مكة في الحجاز عدوٌّ كبير إلا هم[1].

وقد استنفر النبي العرب، وعمَّى على وجهته، واستطاع الجيش المسلم أن يخرج بهذا العدد الكبير دون أن تشعر قريش بشيء، بل إن أبا سفيان فوجئ وهو على تخوم مكة يتجول بنيران الجيش المسلم فارتاع لهذا المشهد، ووقع في قلبه الرعب، ثم إن العباس توسط له فدخل على النبي ﷺ فأسلم، وأمر النبي ﷺ العباسَ أن يوقفه في مكان بحيث يرى الجيش المسلم، فزاد رعب أبي سفيان وهلعه إذ وجد عشرة آلاف مقاتل، ووجد الكتيبة الخضراء -وهي كتيبة رسول الله التي فيها المهاجرين والأنصار- تلبس الدروع الحديدية حتى لا يظهر منهم سوى الأعين، فوقع في نفسه أن الاستسلام هو أفضل الحلول.

فعاد أبو سفيان إلى قريش فأخبرهم أنه قد جاءهم جيش لا قبل لهم به، وأعلن فيهم ما أعلنه له رسول الله: «من دخل داره فهو آمن، ومن دخل البيت فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن»[2]، وهذا ما يسمى باصطلاح العصر: فرض حظر التجول. وهو القرار الذي لا بد منه لكل سلطة جديدة لم يستتب أمرها بعد، لكي تجعل المقاومة لها في الحد الأدنى، ولكي تطلق يدها في التصدي لمن يقاوم استيلاءها على المدينة.

---

(١) الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ١٥٦، ١٥٨.

(٢) البخاري (٤٠٣٠)، مسلم (١٧٨٠).

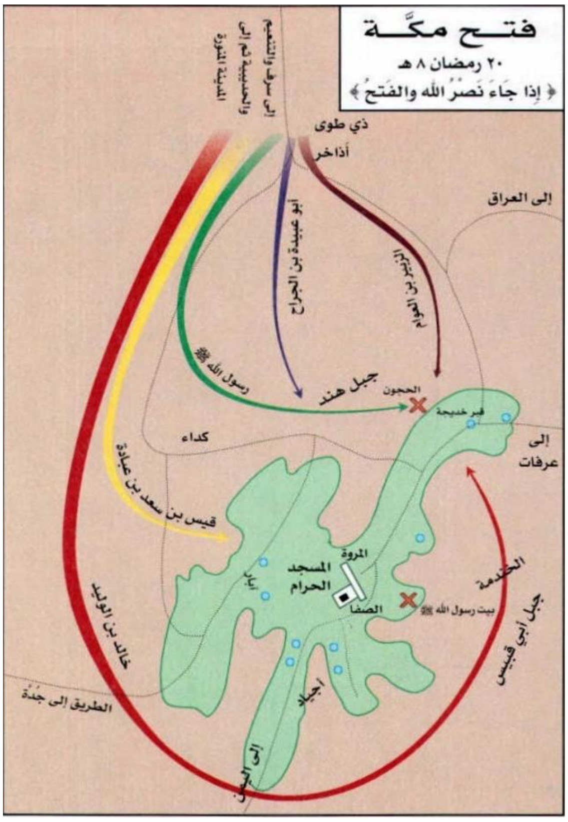


ورتب النبي ﷺ دخول فرق الجيش المسلم من أنحاء مكة، فكانت خمسة جيوش على رأسها قادة المهاجرين، وكان لواء الأنصار مع قيس بن سعد بن عبادة، وجعل على كل فرقة قائدا، وقد كانت سرعة النبي ﷺ في حركته، والرعب الذي دخل على أبي سفيان، مما حسم المعركة مبكرا، وجعل فتح مكة سهلا ميسورا، فلم يجد الجيش الإسلامي مقاومة إلا من شرذمة قليلة وجدها خالد بن الوليد في طريقه فسرعان ما شتتهم.

وبهذا فُتِحَت مكة، عاصمة العرب، وخضعت قريش سيدة العرب، وعاد محمد ﷺ إلى مكة «لا باعتباره منفيا نال عفوا شاملا، ولكنه عاد إلى مكة سيد نصف الجزيرة العربية»[١].

طفق النبي ﷺ والصحابة يهدمون الأصنام[٢] التي طالما تعلق بها العرب حتى صارت دينهم الذي يقاتلون عليه ويموتون في سبيله، فانقشع بهذا الوهم وسقطت الخرافة وانهارت الوثنية، وأشرق في العقول والقلوب شمس الحق والحقيقة.

وهذا أمر يطول شرحه، وقد تخصصت فيه مباحث من علوم النفس والاجتماع، وذلك هو سلطة الغالب؛ فليست هي مجرد سلطة عسكرية مسلحة، بل إن لها سلطة فكرية وثقافية مهيمنة وراسخة، وما إن يسقط النظام حتى يسقط معه سائر ما تدثر به وما أحاط به

(١) توينبي، مختصر دراسة التاريخ، ١/ ٣٨٢.

(٢) البخاري (٤٠٣٦)، مسلم (١٧٨١).

نفســه من أفكار، فبقدر ما تنتصــر الفكرة بانتصــار أهلها في الحروب تنهزم الفكرة بهزيمة أهلها أيضــا. والعادة أن ينقلب الناس مع الغالب كأن لم يكونوا يوما في حكم المغلوب. ونحن نرى في واقعنا المعا صر كيف انقشعت الفكرة الشيوعية بسقوط الاتحاد السوفيتي كأنها لم تكن يوما عقيدة راســخة في نفوس مئات الملايين يقاتلون من أجلها طوعا قبل أن يقاتلوا كرها، وكانت مرحلة الثورات العربية كذلك، إذ ســرعان ما ينتقل الناس من حال إلى حال بانهيار النظام القديم، وكأنه قد أشــرقت في نفوســهم أفكارٌ أخرى، فإذا عاد النظام القديم واستقر وتمكن واستبد فكأنهم يعودون من جديد لما كانوا عليه.

لقد كانت مكة عاصــمة العرب، وكان العرب قريبي العهد بحادثة الفيل، فوقع في نفوســهم أن الله لا يُمَكِّن من بيته من لا يرضــاه، فلما فتح الله مكة لنبيه ﷺ ولم ينزل الطير الأبابيل، ولما سقطت الأصنام على الأرض ولم ينزل من السماء عقابٌ، علمت العرب أن الإســلام هو دين الله الذي ارتضــاه، فأقبلوا يدخلون الإســلام أفواجا[1]. قال ابن إســحاق: «كانت العرب تربص بالإســلام أمر هذا الحي من قريش وأمر رســول الله ﷺ، وذلك أن قريشــا كانوا إمام الناس وهاديهم، وأهل البيت الحرام، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما الســلام، وقادة العرب لا ينكرون ذلك، وكانت قريش هي التي نصــبت لحرب رســول الله ﷺ وخلافه، فلما افتتحت مكة، ودانت له قريش، ودوخها الإســلام، وعرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رســول الله ﷺ ولا عداوته، فدخلوا في دين الله، كما قال عز وجل، أفواجا»[2].

كان فتح مكة في العام الثامن للهجرة، في شهر رمضان، وسُمِّي العام التالي: عام الوفود، لكثرة الوفود التي جاءت النبيَّ ﷺ تبايعه على الإســلام وتدخل فيه. وهذا الأمر يُذَكِّر من

(١) البخاري (٤٠٥١).

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ٢/ ٥٦٠.

جديد بأهمية العاصـــمة وخطورتها في محيطها الإقليمي، وأن أية دعوة أو فكرة أو محاولة إصلاح لن يمكن لها أن تنتصر إلا إذا أسقطت عاصمة خصمها، وسيطرت عليها[١].

ولكن ثمة إجراءات اتخذها النبي ﷺ يجب التنبه إليها وفهمها، من أهمها فيما يخص بحثنا هنا:

١. قراره ﷺ بحظر التجول وقد ذكرناه.

٢. أصـــدر النبي ﷺ عفوه العام عن أهل مكة، ولكنه أصـــدر كذلك ما نســـميه اليوم «القائمة السـوداء» التي تمثل أركان النظام القديم وأخطر عناصـره، أو بعض الذين ارتكبوا جرائم خطيرة لا يمكن التهاون معها، فقد أمر النبي ﷺ بقتل هؤلاء ولو تعلقوا بأســـتار الكعبة، وجعلهم اســتثناءًا من العفو العام لأهل مكة. وهذه الخطوة لا بد منها لكل نظام جديد، لكي يتخلص من أخطر خصـــومه الذين يعني بقاؤهم أحرارا تهديد ما تحقق من الفتح والإنجاز.

**وبالتأمل في هذه القائمة السوداء سنجد فيها**[٢]:

- رؤوس النظام القديم وأخطر عناصره مثل: عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، والحارث بن هشـــام بن المغيرة (أخي أبي جهل وعم عكرمة)، وزهير بن أبي أمية.

- الأبواق الإعلامية للنظام القديم الذين ســـخَّروا أنفســـهم للســخرية من النبي والمســـلمين وهجائهم، مثل: قينتان لعبد الله بن خطل، وســـارة مولاة لبعض بني المطلب، ويقال: هند بنت عتبة.

---

(١) يراجع في هذا: ما ذكرناه في الكلام عن المرحلة المكية.

(٢) اختلفت الروايات في عددهم وأسمائهم، ووقع ضمّ الشبيه إلى الشبيه، وليس ها هنا موضع تحرير العدد والأسماء، وإنما المقصود العبرة العامة بما وقع، وبنوعية الشخصيات التي وضعها النبي في القائمة السوداء.

- الذين ارتكبوا جرائم عظيمة كالخيانة والردة والقتل العمد، مثل: عبد الله بن سعد بن أبي السرح، ومقيس بن صبابة، والحويرث بن نقيذ، وهبار بن الأسود.

ولكن لم يُقتل من هؤلاء إلا ثلاثة أو أربعة فقط، وهم: عبد الله بن خطل، فقد قُتِل وهو متعلق بأستار الكعبة[1]، وقُتِل مقيس بن صبابة في سوق مكة، وواحدة من قينتيْ عبد الله بن خطل، بينما تمكن الآخرون من الوصول إلى النبي بالشفاعة والأمان بينما استطاع عبد الله بن سعد بن أبي سرح أن يصل إلى النبي ﷺ قبل أن يُقتل وتشفع له عثمان بن عفان وهو أخوه في الرضاعة، وتوسط عمير بن وهب لدى النبي ليؤمن صديقه وابن عمه صفوان بن أمية، وكذلك سعت أم حكيم لتأمين عكرمة بن أبي جهل من النبي ﷺ فأمَّنه وكاد أن يهرب، وأجارت أم هانئ الحارث بن هشام وزهير بن أبي أمية، وانتهز غيرهم فرصة من النبي فأخذوا الأمان لأنفسهم.

ومن المهم للغاية أن نفهم أن هذا العفو كان من موقع القوة والتمكن والمقدرة، وذلك أن كثيرا من الحركات المعاصرة تستعمل شعار العفو بينما الحقيقة هي العجز والخوف، ولقد أسلم هؤلاء الذين عفا عنهم النبي ﷺ وحسن إسلامهم، وجاهدوا في سبيل الله، وكانوا من أبطال الفتوحات، وبعضهم تولى الولايات فضبطها وأحسن فيها ونشر الإسلام، فكانت خاتمة الله لهم خيرا.

إن النبي ﷺ وهو رحمة الله للعالمين، وفي ظل العفو العام، استثنى بعض الناس من هذا العفو. ولن يكون أحدٌ أرحم بالناس من نبينا ﷺ، إن الذين تسول لهم أنفسهم أن العفو العام عن الجميع هو القرار الصحيح يخالفون نبيهم وسياسته قبل أن يخالفوا العقل والمنطق وطبيعة الأشياء، وقد مرَّ بالحركات الإسلامية تجارب

---

(١) البخاري (٤٠٣٥).

مريرة للغاية تحت عنوان العفو العام هذا، حتى انقلب عليهم من أعاد افتراســهم بلا رحمة! وقد كان الإسلاميون هم من حفظ هؤلاء وحرسهم من القصاص المستحق!!

٣. كذلك أباح النبي ﷺ لخزاعة أن تثأر من بني بكر في اليوم الأول من فتح مكة حتى العصـر[١]. وهذا درسٌ تحتاج أن تفقهه الحركات الإسـلامية أيضـا؛ فاللحظات الأولى يجب أن تستثمر أحسن استثمار في عقوبة المجرمين والقضاء على من أمكن منهم.

٤. مسـارعة النبي ﷺ وصـحابته إلى هدم رموز النظام القديم في لحظة الانتصـار، فتلك أمور لا تحتمل التأجيل ولا التدرج، وأولها وأهمها:

- هدم الأصــنام تلك التي بُنِي حولها النظام القرشــي كله: الدين والســياســة والاجتماع والاقتصــاد والثقافة والتجارة. فهُدِمت الأصــنام حول الكعبة وكانت ثلاثمائة وستين صنما[٢]، ثم أرسل النبي سرايا لهدم الأصنام الكبرى في مناطق نفوذ قريش، فأرسل خالد بن الوليد لهدم صنم العزى (في نخلة) وأرسل عمرو بن العاص لهدم صـنم هذيل (في سـواع) وأرسـل علي بن أبي طالب أو سـعد بن زيد الأشـهلي لهدم مناة (في المشـلل) وأرسـل الطفيل بن عمرو الدوسـي لإحراق الصـنم المعروف باسم «ذي الكفيْن».

- صـعود بلال بن رباح على ظهر الكعبة وأن يصـدح بالأذان من فوقها. إن هذا يكســر ما في النفس الجاهلية من الكبر والاعتداد ويهدم ما فيها من العنجهية، إذ يجد العبد الأسـود الحبشـي، يطلق الآذان من فوق الكعبة وما كان يجرؤ قديما أن يقترب

(١) أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ٢/ ٤٨٠.

(٢) البخاري (٤٠٣٦).

منها.

- إزالة الصور والأنصاب من الكعبة، وكانت فيها صورٌ منحولة لإبراهيم وإسماعيل ومريم، ثم دخلها النبي ﷺ فصلى فيها ركعتين.

- أخذ النبي ﷺ مفتاح الكعبة، فنظر الناس من الذي سيأخذ شرف الحجابة أي العناية بالبيت الحرام، فأعطاها النبي ﷺ إلى عثمان بن طلحة، وهم ذات البيت الذين كان لديهم مفتاح الكعبة من قبل. فلئن كان النبي لن يغير من الحال فلماذا فعل ذلك؟ فعله ليثبت أن شرعية هذا البيت في رعاية الكعبة إنما هي من محمد ﷺ وليست من الإرث الجاهلي القديم.

- خطب النبي ﷺ في أهل مكة، وهي الخطبة التي تسمى في مصطلحاتنا المعاصرة «البيان رقم ١» أو «إعلان الاستقلال»، ألغى فيها مآثر الجاهلية، وأنهى فيها الثارات القديمة ومعاملات الربا، وبدأ بثارات بني هاشم وبربا عمه العباس، وأبطل أحلاف الجاهلية إلا ما كان منها في الخير ونصرة الحق وصلة الأرحام[١].

- اتخذ النبي ﷺ مقرَّه بعد فتح مكة، وهو مقر الحكم حينئذ، في موضع الحجون، وهو ذات الموضع الذي تعاقدت فيه قريشٌ على مقاطعة بني هاشم والمسلمين. وقد التفت الباحثون هنا إلى الحكم الفقهي المتعلق بالمسألة وهو ألا يرث المسلم الكافر فالنبي لم يأخذ داره التي استولى عليها الكفار من عشيرته عند الهجرة. ولكن يجب الانتباه إلى الرسالة السياسية في هذا المكان على وجه الخصوص.

إن هذه الإجراءات المحملة بالرموز السياسية إنما هي أمورٌ تخاطب عقول الناس

(١) أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ٢/ ٤٨٥.

ونفوسهم، تخبرهم بانقضاء النظام القديم وعصره وسياسته، وأن الزمن غير الزمن، وقد جاء العصر الجديد والنظام الجديد وانتصر واستقر وورث أملاك القديم وهدم نهجه وطريقته وسياسته.

ما إن استقر الأمر في فتح مكة، حتى كان الدور على العاصمة الثانية للعرب، وهي الطائف، حيث قبيلتي هوازن وثقيف، ففي الطائف وأنحائها كانت تُعقد أسواق العرب التجارية وأسواقهم الثقافية الأدبية كسوق عكاظ وسوق ذي المجاز وسوق مجنة، كما أن أجواءها وطبيعة أرضها سمحت بالزراعة فكان فيها البساتين والفواكه، كما كانت منزلا مناسبا في الصيف، ولكونها قريبة من مكة فقد انعقدت صلات التجارة والنسب والمصاهرات بينها وبين قريش، وقد عاد هذا كله على الطائف وأهلها بالمكانة الرفيعة والثراء الاقتصادي[1]، وبَلَّغهم أن يكونوا في المرتبة الثانية بعد قريش.

وقد شعر هؤلاء بخطورة أن تُفْتَح مكة للمسلمين، ومثلما كانوا يرون في أنفسهم أنهم حاملوا لواء الشرك والوثنية بعد مكة وقريش كان يرى المسلمون فيهم كونهم العاصمة الثانية والخطر التالي بعد مكة، ولقد كانت سرية خالد بن الوليد لهدم العزى في منطقة نخلة وهي من ديار ثقيف.

ولم يتأخر القوم فما لبثت ثقيف وهوازن أن جمعوا جموعهم بعد أسبوعين من فتح مكة، وتقدموا لمهاجمة المسلمين، فوقعت غزوة حنين المشهورة، وهي التي شهد فيها المسلمون انتكاسة في بدايتها لما دخل عليهم من العجب بأنفسهم، ثم تماسكوا من جديد وأنزلوا بثقيف هزيمة قاسية[2].

---

(١) أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ٢/ ٤٨٩.

(٢) البخاري، صحيح البخاري، ٤/ ١٥٦٧ وما بعدها؛ مسلم، صحيح مسلم، ٣/ ١٣٩٧ وما بعدها.

وهذه الهزيمة هي التي مَهَّدَت الطريق فيما بعد لفتح الطائف، وقد تأخر هذا الفتح قليلا لمناعة حصون الطائف.

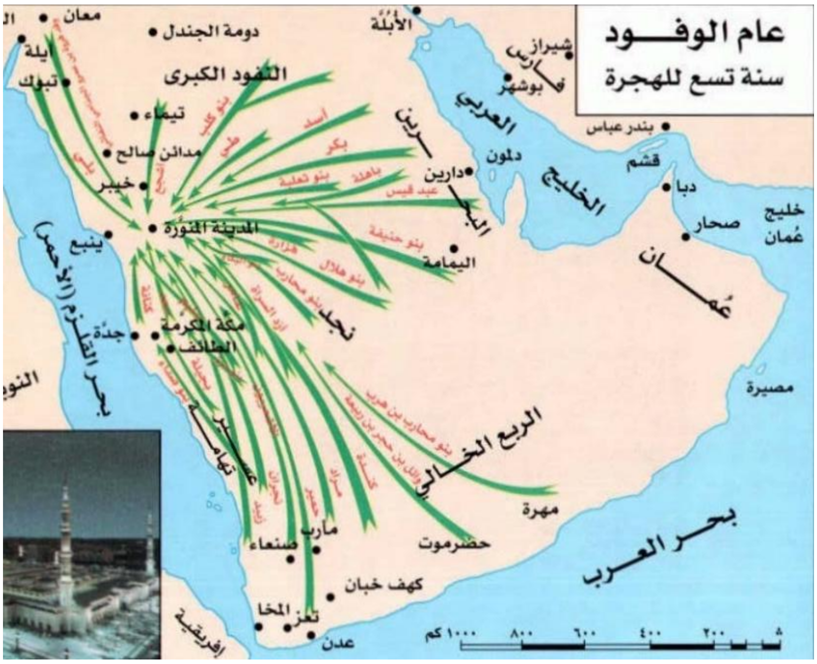


وبفتح الطائف وإسلام أهلها تكون المعركة قد انتهت تقريبا في الجزيرة العربية، وظل النبي بقية حياته يستقبل الوفود التي تتابع على الإسلام، ولم يغزُ بعدها إلا غزوة وحيدة هي غزوة تبوك.

وغزوة تبوك هي بداية الجهاد العالمي، ففيها توجه النبي ﷺ على رأس ثلاثين ألفا إلى تبوك لقتال الروم، ولكنهم سمعوا بمقدمه فانصرفوا ولم يلق قتالا، وتوفي النبي ﷺ وهو يجهز جيشا بقيادة أسامة بن زيد لغزو الروم.

وأما في الشأن الداخلي للجزيرة العربية، فقد بث النبي عُمَّاله وولاته ودعاته، يعلمون الناس الدين ويجمعون الصدقات ويقيمون أحكام الإسلام في ديار الجزيرة العربية، وفي هذه الفترة القصيرة، لقد كان يدير «تلك الحكومة الشاقة، حكومة العرب الذين اتحدوا لأول مرة في تاريخهم، فكوّنوا دولة متآخية الأفراد. فأبان الرسول في عمله هذا، كمُشَرِّع ومصلح، عن براعة توازي على أدنى تقدير براعته كقائد على

رأس جنده»[1].

وفي حج العام التاسع أرسل النبي ﷺ أبا بكر ثم أرسل عليا ليأمر بإزالة مظاهر الوثنية من الحج، ثم حج بنفسه ﷺ في العام العاشر فوضع للناس مناسكهم وخطب فيهم خطبة الوداع التي لخّص فيها معالم الإسلام، وبهذا تمّت رسالة رسول الله ﷺ، وتوفي بعدها بثلاثة أشهر (ربيع الأول ١١هـ).

---

(١) دينيه، محمد رسول الله، ص٣٠٣.

# وقفة مع سياسة الجهاد

١ . يلاحظ أن السـيرة النبوية كانت أسـرع تجربة بشـرية في بناء دولة ونقلها لتكون قوة عظمى، فقد جرى هذا الانتقال وفصـوله في عشر سنوات فحسـب، والأصـل في التجارب التاريخية أنها تقضي عقودا في المرحلة الواحدة، وربما احتاجت قرونا قبل أن تصل إلى أن تكون قوة عظمى، هذا إن وصلت!

وهي مع كونها أسرع تجربة بشرية فإنها أكثرها رسوخا وتجذرا، فالعادة أنه إذا وقع نمو سـريع لدولة ما فإن انهيارها وزوالها يكون سـريعا، مثلما وقع للتوسـع المغولي –مثلا– ولكن التجربة النبوية كانت الأكثر سـرعة ورسـوخا، فوق أنها صـنعت دولة في بيئة تنفر من الدولة والنظام والجماعة. وتلك هي المعجزة التي عبَّر كثيرٌ من المؤرخين غير المسـلمين عن ذهولهم ودهشتهم إزاءها[1].

(١) انظر: محمد إلهامي، في أروقة التاريخ: الجزء الأول، ط١ (القاهرة: دار التقوى، ٢٠١٧م)، ص٢٣ وما بعدها؛ برنامج «السيرة النبوية الفرنسية»، الحلقة الثالثة حتى الخامسة، ففيها عدد من المنقولات عن المؤرخين والمستشرقين عن هذا الموضوع.

وإذا تأملنا في الزمن المستغرق لهذه المراحل الثلاث، فسنجد أن أطولها هي المرحلة الأولى: جهاد التأسيس إذ استغرقت خمس سنوات، بينما استغرقت الثانية عاما واحدا، واستغرقت الثالثة أربعة أعوام. وذلك بالرغم من أن المرحلة الأولى كانت تدور حول المدينة وأنحائها فقط، بينما المرحلة الثالثة شملت كل الجزيرة العربية. وليس ذلك غريبا، فالمرحلة الأصعب دائما هو بناء النواة الصلبة وتحقيق الانتصارات الأولى ثم تنهمر التطورات مع الاعتراف السياسي ومع فتح عاصمة الإقليم.

وإذا تأملنا في هذه الخريطة[1]، فسنجد أن الوقت الأطول قد أنفق في تحقيق التمكن والسيطرة على هذه البقعة الصغيرة: المدينة وما حولها، بينما انهارت بقية المساحات الواسعة تباعا في فترة قليلة. إن الأمر يشبه التأسيس العميق الذي يقضي وقتا طويلا ثم يخرج البناء الشامخ في أوقت أقصر من ذلك.

---

(١) سامي المغلوث، أطلس الأديان، ط١ (الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٠٧م)، ص٣٥٩.

٢. من بين غزوات الرسـول، وهي ثمان وعشـرون غزوة، نجد ثلاثا فقط إلى جهة الشـمال بعيدا عن مكة، وهي: دومة الجندل وخيبر وتبوك، بينما كانت بقية الغزوات إما في المدينة وما حولها لتثبيت الوضع الداخلي وإما في جهة مكة.

وهذه الغزوات الثلاث كانت كالآتي:

- واحدة منها بعد المعاهدة والهدنة مع مكة، وهي خيبر
- وكانت الأخرى بعد فتح مكة وهي تبوك.
- والغزوة الوحيدة التي كانت في غير اتجاه مكة وفي أثناء الصـراع مع مكة كانت مع دومة الجندل، كانت حربا اسـتباقية بعدما بلغَ النبي أن قومها يحشـدون لمهاجمة المدينة، فكان في المبادرة إليها فوائد كثيرة ولم يقع فيها قتال.

ويبدو هذا من الخريطة التي وضعت غزوات النبي باللون الأحمر، فيُلاحَظ تكدسها في المنطقة التي بين مكة والمدينة، إلا هذه الثلاث المذكورة.

وفي الخريطة المقابلة نرى الغزوات التي وقع فيها قتال، و سنجد أنها تسع غزوات فقط من بين ثمان وعشـرين غزوة، وسـنرى فيها ذات القاعدة الحاكمة للغزوات وهي كونها منحصرة في أنحاء المدينة وفي اتجاه مكة.

**الغزوات[١]**

**الغزوات التي وقع فيها القتال[٢]**

٣. أن الغزوات كانت فعلا مستمرا للدولة الإسلامية، فلم يمض عام دون غزوة، وهكذا شهدت الأعوام التسعة –منذ الغزوة الأولى إلى وفاة النبي– ثمانية وعشرين غزوة، بمعدل يزيد عن الثلاث غزوات في العام الواحد.

كما نلاحظ بوضوح كثرة الغزوات في السنة الثانية، وأنها أكثر من سائر السنوات، وهذا يدل على ضرورة التأسيس، فالدولة تجند طاقتها لتثبيت وجودها عسكريا، على نحو ما قال ابن خلدون «الحاجة في أوّل الدّولة إلى السّيف ما دام أهلها في تمهيد أمرهم أشدّ من الحاجة إلى القلم»[٣].

ثم بدأ عدد الغزوات يقل، بينما بدأ عدد السرايا يزيد، ومنه نفهم أن النبي ﷺ كان

(١) سامي المغلوث، الأطلس التاريخي لسيرة الرسول ﷺ، ط٣ (الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٠٤م)، ص١٥٠.

(٢) سامي المغلوث، الأطلس التاريخي لسيرة الرسول ﷺ، ص١٥٢.

(٣) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ١/ ٣١٨.

يخرج بنفسه في الغزوات الأولى، أي جهاد التأسيس، حتى إذا تمكن الأمر له رويدا رويدا صار يُخرج السرايا والبعوث ولا يخرج هو بنفسه إلا في المهمات الكبيرة، كما أن الدولة التي تأخذ في التمكن تزداد فيها التفاصيل الإدارية والشؤون المدنية فكان النبي ﷺ يقوم عليها.

**وفي هذه الصورة تبدو المقارنة بين عدد الغزوات والسرايا، مرتبة على السنين:**

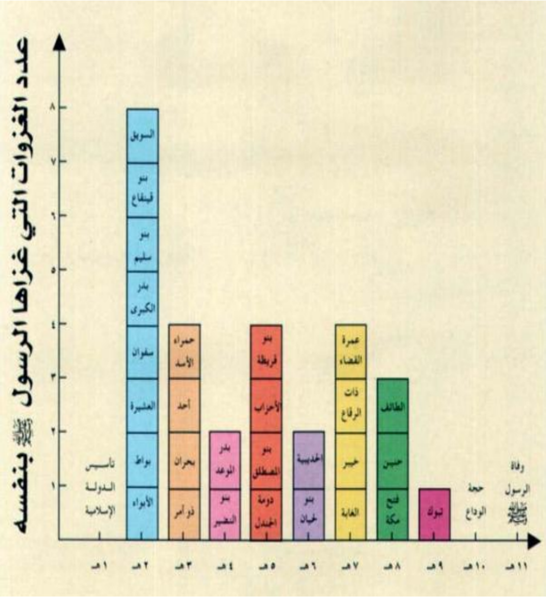


**الغزوات**[1]

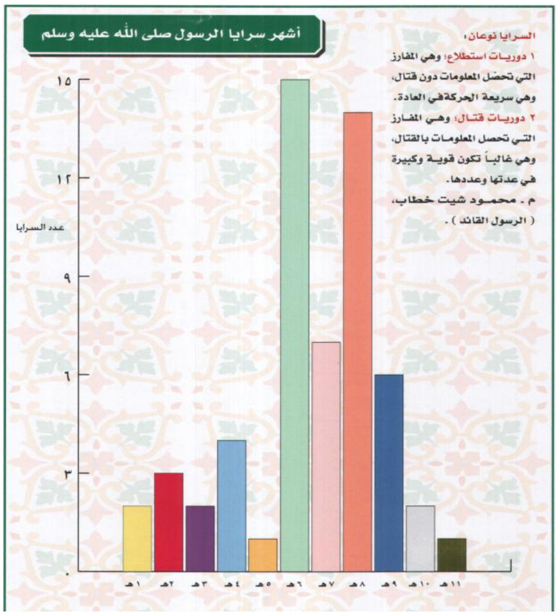


**السرايا**[2]

٤ . نلاحظ أيضا الحضور الدائم لعنصر المبادرة، فالنبي ﷺ كان هو المبادر بالحركة، مما يجعل خصومه في موقع رد الفعل، صحيحٌ أن النبي لم يبدأ بعداوة أحد، لكنه استثمر كل حركة له في إنشاء وضع جديد، فعداوته مع مكة وتهديدها لأمن الدولة الإسلامية في المدينة و حالة الحرب القائمة بينهما حملته على المبادرة بالغزوات والسرايا الأولى وا ستثمرها في إنشاء معاهدات تأمين وتحالف كما حصل مع عمرو بن مخشي الضمري، ولم ينتظر النبي أن تبادر قريش إليه في المدينة.

---

(١) سامي المغلوث، الأطلس التاريخي لسيرة الرسول ﷺ، ص١٥١.

(٢) سامي المغلوث، أطلس الأديان، ص٣٤١.

وكذلك إذا وصله نبأ بتجمعٍ يقصد المدينة، فإنه كان يسير إليه فيفاجئه في داره.

وحتى في انتزاع الاعتراف السياسي كان النبي هو الذي يبادر في بالعمرة وصناعة الحدث وتكون قريش في موقع ردة الفعل. ومثل هذا كانت سياسته بعيد الحديبية إذ بدأ في إرسال الرسائل للملوك والحكام.

لقد كان عمل النبي هادرا لا يهدأ، ونشطا لا يفتر، وتشهد على هذا النتائج الكبرى التي تحققت في أقصر وقت، فكيف بدولة تبلغ في عشر سنوات أن تنتقل من الصفر إلى أن تكون قوة عظمى؟!

ومع هذا فيجب أن يُقال بأن عددا من السرايا قد أخفقت في هدفها، واستشهد المجاهدون فيها، بل إن بعض السرايا لم ينجُ منها إلا واحد فقط، كذلك فإن محاولة البعض أن يغير على المدينة لم تنقطع حتى قبيل فتح مكة[1]، فمهما ضعف الخصوم أو كُبِتوا، فسيظل البعض يحاول مستميتا، ويظل ثمة مغامرون يظنون أنهم يستطيعون أن يحققوا ما عجز عنه غيرهم، كذلك أخفقت بعض عمليات الاغتيال التي أمر بها النبي[2].

ولهذا فإن العمل العسكري والعمل الاستخباري مهما بلغ من القوة والتأثير فلا بد أن يشهد بعض الإخفاقات التي هي من طبيعة البشر.

ومن جهة أخرى فقد كان يقع النزاع بين المسلمين في بعض الغزوات، فالنبي ﷺ حَكَم مجتمعا أسلم حديثا ولا يمكن أن تخلص النفوس للإسلام فجأة بل لا تزال تبقى فيها بعض الرواسب:

(١) انظر قائمة مختصرة للسرايا والغزوات ونتائجها عند: سليمان المنصورفوري، رحمة للعالمين، ص٤٣٣ وما بعدها.

(٢) الشافعي، الأم، (بيروت: دار المعرفة، ١٩٩٠م)، ٤/ ٣٠٩؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ٢/ ٦٣٣ وما بعدها.

- فقد كادت قبيلتان من الأنصار أن تفشلا في بدر ونزل فيهما ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ [آل عمران: ١٢٢]
- وقد اضطرب المسلمون في حنين لمن كان فيهم من مسلمة الفتح وهم حديثو عهد بالدين، بل قال بعضهم «اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط»
- وقد أخطأ خالد في سرية بني جذيمة فقتل وسبى منهم لكونهم لم يُحسنوا أن يقولوا «أسلمنا» وقالوا «صبأنا»، فظنهم يتمسكون بكفرهم، وتبرأ النبي مما فعل خالد[١].

بل إن بعض المسلمين كان بينهم في الجاهلية نزاع قديم كما كان بين الأوس والخزرج على عظيم فضلهم ورفيع مكانتهم، وسنرى في سيرة النبي ﷺ دروسا تربوية رفيعة في استلال ما في الصدور وإصلاح ما يقع من النزاعات:

- لقد تكرر أكثر من مرة أن كاد الأوس والخزرج يتنازعون كما في بداية الفترة المدنية مع مؤامرة شاس بن قيس[٢]
- وكما وقع من قولٍ سيئ من عبد الله بن سلول للنبي ﷺ فردَّ عليه أنصاريٌّ فتعصَّب له قومه فكادوا أن يقتتلوا فخفضهم رسول الله حتى نزل فيهم ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩][٣]
- بل استمر هذا حتى العام الخامس أو ما بعده، حين وقع نزاع بين مهاجري

(١) البخاري (٤٠٨٤).

(٢) جاءت هذه الرواية في كتب السير والتاريخ بأسانيد ضعيفة، ولكن قال عصام الحميدان محقق أسباب النزول للواحدي: «ولعلهُ يشدّ بعضها بعضًا فيثبت أصل الرواية»، انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ١/ ٥٥٥ وما بعدها؛ الواحدي، أسباب النزول، ص١١٥ وما بعدها.

(٣) البخاري (٢٥٤٥)، مسلم (١٧٩٩).

وأنصاري في غزوة بني المصطلق[١]

- ثم بعدها حين تعصب سعد بن عبادة لابن أبي لأنه من الخزرج ضد أسيد بن حضير في حادثة الإفك وكادوا أن يقتتلوا[٢]
- ثم حين وجد الأنصار في نفوسهم لما أعطى رسولُ الله الغنائم الكثيرة لمن أسلم حديثا من قريش ولم يعطهم[٣]، وغير ذلك.

والقصد من كل هذا أن مسيرة الجهاد هذه يقع فيها الخطأ والنزاع والإخفاق، ومع هذا فإنها لا تتعطل ولا يتخذ ما فيها من الخلل ذريعة لإيقافها أو للبحث عن وسائل أخرى غير الجهاد.

٥. نلاحظ أيضا من المسيرة العامة للجهاد أن النبي ﷺ كان حريصا على تأليف القلوب وتقليل الأعداء وتحييد الخصوم، «فكان رسول الله يتأول في العفو عنهم»[٤]، فإذا لم يكن من العداوة بُدّ فإنه يُقدِّم الأهم على المهم، إذ «ليس من العقل منازعة كل مخالف بل يُسالَم الأدنى للانشغال بالأعلى، فلم ينازع النبي اليهود حتى أضعف المشركين ولم يواجه النفاق حتى هجّر اليهود»! بل قد «كان المنافقون يجالسون النبي وربما رافقوه حتى في الجهاد» وذلك تأليفا لهم ودفعا لمزيد عداوتهم! وبالعموم فإن «من حكمة الإسلام وسياسته أن لا تواجه طائفةً تصارع أمامك طائفة أخرى أخطر منها، فالعداوة دركات كما أن المودة درجات»[٥].

---

(١) البخاري (٤٦٢٤)، مسلم (٢٥٨٤).

(٢) البخاري (٤٤٧٣)، مسلم (٢٧٧٠).

(٣) البخاري (٢٩٧٨)، مسلم (١٠٥٩).

(٤) البخاري (٥٨٥٤).

(٥) العبارات المقتبسة من تغريدات الشيخ عبد العزيز الطريفي.

وقد فصَّل العلماء في مراحل تشريع الجهاد وتطوره بما يلائم واقعية نمو الدولة المسلمة وتطورها[1].

لهذا فالواقعية شعار المراحل كلها، والواقعية ضد التهور وضد التنازل، وهي في الواقع وسطيةٌ لا يدركها غير الحكيم الحصيف الذي جمع إلى الذكاء القوة، ولم يختر نبينا أن يتصارع مع جهتين في وقت واحد أبدا، فإذا اجتمعوا سعى في تفريقهم، ولو ببذل بعض المال وبعض التنازل.

(١) ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، ط٢٧ (بيروت – الكويت: مؤسسة الرسالة، مكتبة المنار، ١٩٩٤م)، ٣/ ١٤٣ وما بعدها؛ وانظر تعليقا نفيسا على كلام ابن القيم عند: سيد قطب، في ظلال القرآن، ٣/ ١٤٣٢، ١٤٣٣.

# خلاصة

سعينا من خلال ا ستعراض المرحلة المدنية، التي تمثل تجربة إنشاء الدولة الإ سلامية وتطورها حتى صــارت قوة عظمى، إلى تبين خلاصــة تجربة تحول الدعوة إلى دولة، **وقد استخلصنا ثلاثة ملامح أساسية:**

الأولى: ما قبل تأسيس الدولة، وفيها يجب أن يتحقق أصحاب الفكرة بضرورة الحكم والســلطة والدولة، وهو ما يدفعهم إلى العمل عليها، وإلا فإن هذه الفكرة لا تلبث أن تُهْزَم وتذبل وتضــمر. وفيها يجب اســتثمار اللحظات الفارقة التي تمثل فرصــا نادرة التكرار في حياة الأمم، وهي اللحظة التي يضـطرب فيها النظام القديم ويفقد تماسكه أو أكابر رجاله. وألقت الضوء أيضا على أهمية الهيمنة الر سالية والإيمانية التي شملت المجتمع المسلم في سائر فصوله فاستطاعت أن تحل كثيرا من الأزمات وتتجاوز كثيرا من المشكلات.

والثانية: ضــرورات التأســيس حيث تكون الأولوية لتحقيق الأمن والتمكن وحماية القيادة الجديدة وتقنين ســلطانها ومرجعيتها، ثم يأتي العمل على تقوية المجتمع وتمتين علاقاته وهو الأمر الذي يتمتع فيه الإسلام بمزية لا يصل إليها منهج آخر بما يشتمل عليه

من العبادات والشعائر وأنواع المعاملات، ويساهم هذان الأمران مع الهيمنة الإيمانية في تحقيق العنصر الثالث من ضرورات التأسيس وهو الاستقلال المالي الاقتصادي، الذي لا يعني بالضرورة تحقق الغنى والثراء، بل يعني أساسا أن لا ترتهن الأمة لأحد من خارجها، ذلك أن قدرة أهلها على العيش بأبسط التكاليف وخوض الحروب في أشق الظروف هو ما يجعل هذا الاستقلال حقيقة قائمة.

والثالثة: مرحلة التوسع، وذلك أن التوسع هو ضرورة لأي دولة وإلا فإنها تُغْزَى، والدولة النبوية حققت هذا التوسع عبر ثلاثة فصول: جهاد التأسيس الذي يستهدف تثبيت وجود الدولة حتى تستعصي على الإسقاط، ثم انتزاع الاعتراف السياسي بالدولة وتحقيق القدرة على الدخول في المعاهدات والاتفاقيات، ثم جهاد السيادة بالسيطرة على العاصمة الكبرى في الإقليم وإسقاط النظام القديم وإخضاع رموزه.

# الفصل الثالث:

# الخلافة الراشدة

بداية ينبغي التذكير والتأكيد على أن غرضنا في هذه الفصول: تكوين تصور موجز ومنضبط عن التاريخ الإسلامي ومراحله المختلفة، في ضوء حاجاتنا المعاصرة، وهذه الحاجات المعاصرة هي ما تحدد المنظور وطبيعة التناول.

إن المرحلة المكية تمثل القدوة في تأسيس الدعوة والوصول بها إلى مرحلة الدولة، وإن المرحلة المدنية تمثل القدوة في بناء الدولة والوصول بها إلى السيادة. ثم تأتي مرحلة الخلافة الراشدة لتمثل القدوة في إدارة الحكم والدولة في غياب النبي ﷺ وانقطاع الوحي. ولذلك فإن فترة الخلافة الراشدة هي الفترة المتممة للعهد النبوي، إنها «خلافة على منهاج النبوة»، وهي مرحلة ضرورية ولا بد منها كي يتعلم المسلمون كيف يُسَيِّرون حياتهم من خلال الاجتهاد البشري وحده، وسيأتي معنا مزيدٌ من التفصيل لهذه الأهمية.

سنتناول بالبحث فترة الخلافة الراشدة منذ بدايتها وحتى قبيل مقتل عثمان رضي الله عنه، أي ما قبل عصر الفتنة، وأما فترة الفتنة فسنفردها إن شاء الله في فصل مستقل لأهميتها وخطورتها ولوجود الحاجة الشديدة لفهمها واستيعابها.

ولأننا الآن نشرع في الحديث عن عصور التاريخ الإسلامي، فسنسلك بداية من هذه اللحظة أسلوبا جديدا لتحقيق أفضل فائدة ممكنة، وذلك أن سيرة النبي ﷺ تحظى بالشهرة والمعرفة التي لا تحظى بمثلها بقية العصور، لهذا سنكون في حاجة للبدء بموجز تاريخي لأحداث هذا العصر، ثم نتوقف بعد ذلك للتركيز على أهم القضايا التي نحتاج أن نستوعبها. فنحقق بذلك الهدف المنشود في بناء التصور المنضبط عن الأحداث التاريخية وعن القضايا المهمة.

# موجز الأحداث التاريخية

حدد النبي ﷺ بنفسه زمن الخلافة الراشدة، فقال: «الخلافة ثلاثون سنة»[1]، وقد توفي ﷺ في ربيع الأول ١١هـ، وتنازل الحسن بن علي لمعاوية عن الخلافة في ربيع الأول ٤١هـ، فلهذا كان الخلفاء الراشدون خمسة: أبو بكر وعمر عثمان وعلي والحسن بن علي، إلا أن عددا من الأسباب جعل كون الحسن من الخلفاء الراشدين موضع نزاع، منها قصر الفترة (ستة أشهر فحسب) وقلة ما كان فيها من الحوادث المهمة، مما جعل أثره في سنة الحكم لا يكاد يذكر، كذلك فإن البعض ينازع في كونه من الخلفاء الراشدين لكون الأمة لم تجتمع عليه، وأن بيعته بالخلافة كانت في الكوفة لا في المدينة وهي موضع بقية الصحابة. لهذا وغيره يكاد يكون الحديث عن الخلفاء الراشدين محصورا في الخلفاء الأربعة و سنتهم في

---

(١) أحمد بن حنبل، المسند، (القاهرة: مؤسسة قرطبة، د. ت)، ٥/ ١٨٥، برقم (٢١٩٧٨)، أبو داود، سنن أبي داود، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، (بيروت: دار الفكر، ١٩٨٦م)، (٤٦٤٦)، الترمذي سنن الترمذي، تحقيق: أحمد شاكر وآخرين، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د. ت)، (٢٢٢٦)، النسائي، سنن النسائي، تحقيق: عبد الغفار البنداري وسيد كسروي، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩١م)، (٨١٥٥)، وصححه الألباني، وحسنه شعيب الأرناؤوط.

الخلافة.

وهذه الثلاثين سـنة مرت على هذا النحو: سـنتان وأشـهرا (ربيع الأول ١١ – جمادى الآخرة ١٣هـ) حكم فيها أبو بكر الصديق، ثم عشر سنوات ونصف السنة (جمادى الآخرة ١٣ – ذو الحجة ٢٣هـ) حكم فيها عمر بن الخطاب، ثم اثنتا عشـرة سنة (المحرم ٢٤ – ذو الحجة ٣٥هـ) حكم فيها عثمان بن عفان، ثم خمس سـنوات إلا أشـهرا حكم فيها علي بن أبي طالب (المحرم ٣٦ – رمضان ٤٠هـ)، ثم ستة أشهر للحسن بن علي (شوال ٤٠ – ربيع الأول ٤١هـ).

وكانت أهم أحداثها على هذا النحو:

## عهد أبي بكر الصديق: إعادة تأسيس الدولة

توفي النبي ﷺ وقد عمّ الإسـلام جزيرة العرب وأقبلت إليه وفود القبائل تبايعه على السـمع والطاعة، أي على الدخول في الدين الذي هو في نفس اللحظة دخول في طاعة الدولة، فكانت بيعتهم على الصـلاة والزكاة والصـيام والحج والامتناع عن المحرمات كالزنا والربا والسـرقة، وتلك أمورٌ يتحد فيها معنى العبادة الخاصـة التي يرجو بها المسـلم ثواب الله ومعنى الالتزام بالشريعة التي هي مرجعية الدولة، ويبدو هذا كأوضح ما يكون في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فالناحية التي لا تُقام فيها الصلاة أو تمتنع عن أداء الزكاة تكون متمردة على نظام الإسلام، وتستحق المحاربة لإعادة إخضاعها للدين الذي هو متضمنٌ معنى الدولة في نفس الوقت.

وفي حجة الوداع نزل قول الله تعالى ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣]، وأسقط النبي ﷺ ما كان من شأن الجاهلية، فأسقط الربا وبدأ بربا العباس، وأسقط الثارات وبدأ بثارات بني هاشم. وبذلك سقطت قوانين الجاهلية وأنظمتها، وهيمن نظام الإسلام. «وحين ينظر المرء إلى مجتمع الجزيرة العربية

قبل محمد وبعده، فإنه يرى الرحلة الداخلية كانت أبعد من أن تقاس»[1].

وكعادة أي ظاهرة ناجحة، فقد أثار نجاح النبي ﷺ في دعوته أذهان عدد من زعماء العرب، ظنوا أنه يمكنهم أن يبلغوا مثل هذا الشأن وأن يملكوا العرب إذا هم ادَّعوا النبوة وزعموا لأنفسهم الرسالة، فبدأت حركة الردة في أواخر أيام النبي ﷺ، ومات النبي بعدما شهد ارتداد مسيلمة الكذاب في بني حنيفة والأسود العنسي في اليمن، ولكن قبل أن يتحرك لحربهما.

ولأن الصحابة، وهم أعلم الناس بالإسلام، كانوا يعرفون بالبديهة أن النبي ﷺ كان إمامًا، أي حاكما سياسيا، فإن الأنصار سرعان ما اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة لينظروا فيمن يختارون لخلافته، لم يفكروا بطبيعة الحال في أنهم يختارون نبيا وإنما يختارون خليفة حاكما. و جاء الخبر إلى المهاجرين فانطلق إليهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح، وناقشوهم في الأمر، وأخبرهم أبو بكر أن أمر الأمة لا يستقيم إلا إن كان الخليفة من قريش، وذلك أن العرب لا ترى هذا الأمر إلا فيهم، وسرعان ما انتهى النقاش إلى اختيار أبي بكر الصديق خليفةً، وكان نقاش سلميا كرّر فيه الأنصار مواقفهم العظيمة في تاريخ الإسلام، وأعلنوا أنهم مثلما كانوا أنصار رسول الله فسيكونون أنصار خليفته من بعده[2].

---

(١) إيرا م. لابيدس، تاريخ المجتمعات الإسلامية، ترجمة: فاضل جتكر، ط٢ (بيروت: دار الكتاب العربي، ٢٠١١م)، ١/ ٩٥.

(٢) البخاري صحيح البخاري، تحقيق: مصطفي البغا، ط٣ (بيروت: دار ابن كثير، ١٩٨٧م)، (٦٤٤٢)؛ أحمد (٢١٦٥٧) بسند قال عنه شعيب الأرناؤوط: صحيح على شرط مسلم؛ الحاكم، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٠م)، برقم (٤٤٥٧) وقال: صحيح على شرط الشيخين؛ البيهقي، السنن الكبرى، ط١ (حيدر آباد، مجلس دائرة المعارف النظامية، ١٣٤٤هـ)، ٨/ ١٤٣، برقم (١٦٩٧٩)، الذهبي، تاريخ الإسلام، تحقيق: بشار عواد معروف، ط١ (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٣م)، ٢/ ٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، ط١ (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٨م)، ٥/ ٢٦٩.

كان الذي جرى في سقيفة بني ساعدة هو البيعة الخاصة، أو ما يُعرف باختيار أهل الحل والعقد، الذي هو بمثابة الترشيح، ثم في اليوم التالي بايع المسلمون البيعة العامة في المسجد[1]، وهي بمثابة الاختيار العام أو الرضا العام بترشيح أهل الحل والعقد. وكانت خطبة الصديق الأولى بعد توليه الخلافة هي البذرة التي تفرع عنها النظام الإسلامي، أو – بعبارة أخرى- هي خلاصة النظام الإسلامي ومختصره، وسيأتي هذا معنا فيما بعد.

وكان أبو بكر هو أفضل المسلمين وخيرهم، وهو الوزير الأول لرسول الله ﷺ، ومناقبه كثيرة، والصحابة هم أعرف الناس به. وقد تولى أبو بكر الخلافة في ظرف بالغ الدقة والخطورة؛ فلقد جاءت وفاة النبي ﷺ فكانت أشد مصيبة نزلت على المسلمين، فكان هو رضي الله عنه أثبت الجميع وأسرعهم إفاقة حين صدح بقولته الشهيرة: «من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت». ثم تلا قول الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾[آل عمران: ١٤٤][2].

وإذا كانت وفاة النبي قد أثارت مثل هذه الحالة من الانزعاج والصدمة بين الصحابة، فليس من الغريب أن تثير حالة من الارتداد بين القبائل العربية، فمن طبائع الحياة والاجتماع أن غياب الزعيم الكبير والقائد العظيم يتسبب بزلزال وفوضى بين الناس، وتكون المسؤولية عظيمة على عاتق الذي يليه، فإما أن يكون على مستوى المرحلة فيستأنف ما أسسه القائد العظيم، وإما أن ينفلت الأمر ويبدأ تضعضع السلطان إذا لم يكن خلفه على قدر المهمة.

بدأ الصديق خلافته بمواجهة حركة الردة التي فشت في القبائل العربية بعدما انتشر فيها خبر وفاة رسول الله ﷺ، لا سيما تلك القبائل التي أسلمت حديثا ولم يتمكن الإسلام

---

(١) البخاري (٦٧٩٣).

(٢) البخاري (١١٨٥).

فيها، فبعضهم ارتد عن الدين جملة، وبعضهم أقر بالإسلام ولكنه امتنع عن دفع الزكاة، ووصل الحال ببعض أولئك القريبين من المدينة أن يجهز لحرب المسلمين ومهاجمة المدينة المنورة!

وقد أثار هذا الوضع الجديد خلافا داخل المدينة بين الصحابة، فمن ذلك أن بعض الصحابة أشار باستبقاء جيش أسامة بن زيد الذي كان خارجا لقتال الروم، وهو الجيش الذي جهَّزه النبي وعقد لواءه بنفسه، وأوصى ﷺ وهو على فراش الموت بإنفاذه، فقد رأى هؤلاء الصحابة أن وجوده ضرورة لحماية المدينة من احتمالات الهجوم فيها، ففي هذا الجيش صفوة المهاجرين والأنصار. ولكن أبا بكر رفض هذا الرأي بإصرار، ورأى بأن تجهيز النبي ﷺ للجيش ووصيته وهو على فراش الموت بإنفاذه هو نصٌّ لا يجوز معه الاجتهاد.

كذلك فقد أثير الخلاف حول قتال مانعي الزكاة، وذلك أنهم لم يعلنوا الارتداد على الدين ولم يخرجوا منه، وإنما منعوا الزكاة قائلين إنهم كانوا يؤدونها لرسول الله فلا يؤدونها لأحد من بعده، فرأى بعض الصحابة أن يؤجل قتالُ هؤلاء، واختلط في كلامهم الحكم الشرعي والأولوية الأمنية والعسكرية، فثمة من يرى أنهم ليسوا كالمرتدين، وثمة من يرى أن خطرهم أهون فيمكن أن يُقَرُّوا على امتناعهم هذا حتى ينقضي الخطر الأشد: خطر المرتدين.

ولكن أبا بكر أبصر ما في هذا الامتناع من خروج على الإسلام، دينا ونظاما، وبيَّن أن الامتناع عن الزكاة كالامتناع عن الصلاة، وكلاهما حق الله، وأوضح أن خليفة رسول الله يجب أن يكون قائما بكل عمله، وإلا نقص الدين، وأطلق شعاره القوي «أينقص الدين وأنا حي؟!»، فلما استبان ذلك اتفق رأي الصحابة مع رأي أبي بكر، وصار عملهم في قتال المرتدين إجماعا للصحابة، بل هو أقوى الإجماعات، لأنه إجماع حصل بعد خلاف كما يقول الأصوليون.

وهكذا تحرك جيش أسامة إلى وجهته في أرض الروم، وكانت حركته تلك مما ألقى الهيبة في قبائل العرب، لا سيما قبائل الشمال، التي وقع في نفسها أن المسلمين لا يُخرجون مثل هذا الجيش لقتال الروم إلا وهم في حالٍ من القوة والاستعداد، فكانت هذه الهيبة التي منعت بعضهم من الردة ومنعت بعضهم من مهاجمة المدينة من بركات اتباع نص النبي ﷺ. وفي أثناء غياب جيش أسامة هوجمت المدينة فتصدى لهم من بقي من الصحابة فردوهم عنها، ولما عاد جيش أسامة، أراحهم أبو بكر قليلا، ثم بدأ في إخراج الجيوش لحرب المرتدين فأخرج أحد عشر جيشا للقضاء على حركة الردة، واستطاعت هذه الجيوش أن تنتصر تباعا على زعماء الردة، وتخمد هذه الحركات، وكان أخطر المعارك وأشدها قوة هي المعارك مع بني حنيفة بقيادة مسيلمة الكذاب، حتى قضي عليهم في معركة اليمامة، وقُتِل زعيم الردة: مسيلمة ومساعده: الرجال بن عنفوة، وخسر المسلمون في هذه المعركة صفوة من السابقين كزيد بن الخطاب وعبد الله بن سهيل بن عمرو وسالم مولى أبي حذيفة وأخاه أبا حذيفة بن عتبة، وكان من بين الشهداء حوالي خمسين من حفظة القرآن الكريم.

وبهذه الانتصارات المتتالية استردت الدولة الإسلامية هيبتها في أنحاء الجزيرة العربية، وعادت القبائل إلى الإسلام: دينا ودولة، ولكن هذه الحروب أسفرت عن عدد من النتائج الأخرى، من أهمها: جمع القرآن الكريم.

لقد كان استشهاد العدد الكبير من حفظة القرآن، لا سيما في اليمامة، هو السبب المباشر الذي دعا الصحابة إلى جمع القرآن الكريم، فعرض عمرٌ على أبي بكر البدء بجمع القرآن من الصدور والصحف والرقاع، وهي المهمة التي عهد بها أبو بكر إلى زيد بن ثابت، في أهم وأدق عمل توثيقي في التاريخ، إذ كان زيد –وهو من حفاظ القرآن- لا يكتب الآية إلا إذا رآها مكتوبة وشهد على نزولها اثنان من المسلمين[1]، حتى تمَّ جمع القرآن وكان هذا الجمعُ تحقيقا لوعد الله الخالد ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

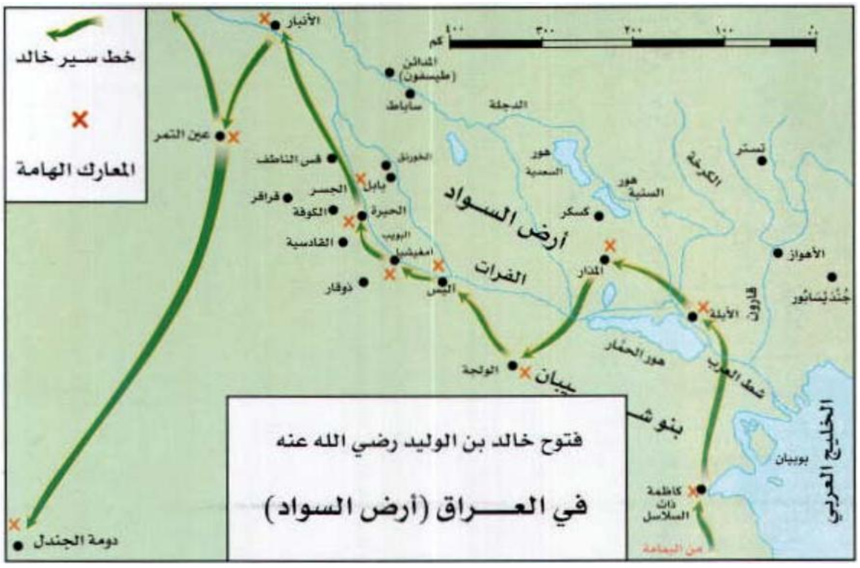


وبعد أن انتهت حروب الردة، بدأت الفتوح الإسلامية، وأولُّ ذلك أن بعض القوات الفارسية ساعدت بعض المرتدين العرب، فتعقب المثنى بن حارثة الشيباني فلول المرتدين ومن عاونهم من الفرس، وأرسل إلى أبي بكر يطلب منه أن يُؤَمِّرَه على أهله وأن يمده بالمدد، فأمَّره أبو بكر، ثم عهد إلى خالد بن الوليد أن إذا قضى مهمته في حرب المرتدين فليبدأ في فتح العراق، وخرج إلى العراق جيشان؛ أحدهما: بقيادة خالد بن الوليد، والثاني: بقيادة عياض بن غنم الفهري، يسلكان طريقين مختلفين حتى الحيرة التي هي عاصمة العراق العربية والتي كان فيها مُلك المناذرة –العرب التابعين للفرس- على أن يكون أسبقهما إليها هو القائد على الجيشين إذا اجتمعا، فكان خالد بن الوليد هو السابق إليها فقد فتح الحيرة بعد أربعين يوما فقط خاض فيها خمسة معارك قوية، فأدخل بها كل منطقة غرب نهر الفرات في

(١) البخاري (٤٤٠٢).

النفوذ الإسلامي.

وفي المدينة استشار أبو بكر الصحابة في البدء بفتح الروم فوافقوا، فأخرج إليه خمسة جيوش، محاولا بذلك تفريق جيش الروم الكبير لكي يكسر من حدة التفوق العددي الهائل، فكانت جيوش الشام بقيادة عمرو بن العاص في جبهة فلسطين، وشرحبيل بن حسنة في جبهة الأردن، ويزيد بن أبي سفيان في جبهة دمشق، وأبو عبيدة بن الجراح في جبهة حمص وهو في ذات الوقت القائد العام للجيوش، وجيش متأخر قليلا بقيادة خالد بن سعيد بن العاص.

إلا أن هرقل –إمبراطور الروم- فطن لهذه الخطة، فلم يفرق جيشه، وإنما وضع قطعة من الجيش أمام جيش عمرو بن العاص، وجعل القسم الأكبر من جيشه مُوَحَّدًا، يحاول به تطويق الجيوش الإسلامية واحدا تلو الآخر، ولم يكن يأبه باسترداد المدن التي يفتحها المسلمون بل يتوغل جنوبا ليحاول تطويق الجيش الإسلامي واحدا تلو الآخر، وهي السياسة التي كانت تجبر المسلمين في الشام على الخروج من المدينة بعد فتحها والانسحاب جنوبا تجنبا للتطويق، فكانوا يردون الجزية لأهلها بعد أخذها، وكان انسحابهم هذا مما يشجع المدن على نقض عهدها مع المسلمين. وفي ظل هذا الجمود في الوضع الحربي قرَّر أبو بكر الصديق أن يقسم جيش العراق نصفين، فيرسل نصفه مع خالد بن الوليد إلى الشام، ويبقى النصف الآخر في العراق بقيادة المثنى بن حارثة الشيباني، مع إعطاء القيادة العامة على جيوش الشام لخالد بن الوليد. وقد نفذ خالد مغامرة جريئة بعبوره صحراء السماوة من طريق مجهولة فأصبح في زمن قصير ضمن جيوش الشام، وبوصول خالد بن الوليد إلى الشام انتعش الموقف الحربي هناك، فأعاد خالد جمع

الجيوش تحت قيادته، وخاض بهم معارك كبيرة مظفرة ضد جنود الروم أشهرها أجنادين وفحل بيسان. ولكن انتعاش الموقف الحربي في الشام قابله نوع من الجمود والتوقف في الجبهة الفارسية التي لم يعد بها إلا تسعة آلاف فحسب، فخرج المثنى بن حارثة الشيباني إلى المدينة يطلب المدد من أبي بكر، فوجده على فراش الموت، وكان من وصايا أبي بكر: استنفار الناس مع المثنى لكيلا تنهار المكاسب في الجبهة الفارسية.

وبهذا استطاعت الدولة الإسلامية الوليدة، والتي خرجت لتوها من حرب داخلية طاحنة، أن تدخل مواجهة ضخمة مع القوتين العالميتيْن في ذلك الزمن: الفرس والروم، ويزيد من الدهشة أنها خاضت هذه المواجهة مع كليهما في وقت واحد، مما يعد من غرائب التاريخ وحوادثه المدهشة!

وقد نشرت هذه الفتوحات موجة هائلة من هيبة المسلمين، وأقبل الناس على المسلمين الفاتحين مرحبين، لقد كانت الفتوح الإسلامية أوسع عملية لإنقاذ البشر في التاريخ، وسيأتي معنا فيما بعد حديث خاص عن الفتوحات وطبيعتها وسياساتها.

وبينما كانت جيوش الفتح تجوس خلال الديار الفارسية والرومية، كان الصديق في المدينة يُطَوِّر التنظيم الإداري للدولة، ويقرر من خلال سلوكه وسوابقه صلاحيات الحاكم والمحكوم، وطبيعة العلاقة بين الخليفة والولاة، وما للخليفة على الناس من الحقوق وما عليه لهم من الواجبات، وشؤون الشورى والأموال وطرق توزيعها. وتلك هي بذور النظام

السياسي والإداري في الإسلام كما سنعود إليه بعد قليل إن شاء الله.

تبلغ الدهشة منتهاها حين نعلم أن كل هذا قد تم في عامين فحسب؛ هما فترة ولاية الصديق، فأي رجل هذا الذي تسلم زمام الحكم والعاصمة مهددة بالاجتياح والنهاية، ثم ترك الحكم بعد عامين فقط وقد وضع دولته بين القوى العالمية العظمى؟! لقد أنجز الصديق في عامين فحسب ما عجز عنه أبطال التاريخ وشخصياته الكبرى في أعمارهم المديدة؛ وذلك من إقرار الوضع الداخلي، ثم تثبيت أقدام المسلمين على الساحة العالمية، ولا يُعرف مثل هذا الإنجاز لغيره من الحكام والأباطرة والملوك، فهي معجزة تاريخية خاصة بأبي بكر وحده[1]. ثم هو بعد كل هذا رجل كغيره من الناس يتفقد الأيتام، ويقوم بحاجة الأرامل والفقراء والمحتاجين بنفسه، ويضرب المثل في الزهد والورع والخوف من الله.. إنها حقا شخصية لا تحيط بها الكلمات!

وبهذا أعاد الصديق تأسيس الدولة التي تركها النبي ﷺ، وأضاف إليها مزيدا من الأرض المفتوحة، وهكذا «خلال أقل من سنتين، باتت قوة المجتمع الإسلامي، بعد إعادة تشكيله، أكبر وأوسع مما كانت عليه في زمن محمد»[2].

ولما شعر الصديق بدنو الأجل، استشار الصحابة فيمن يصلح للخلافة بعده، ففوضوه

(١) يعد من أبطال التاريخ وعظمائه الكبار من فعل واحدة فقط مما فعله أبو بكر: حفظ الدولة فينقلها من الاضطراب إلى الأمن ومن تهديد التفكك إلى الوحدة، أو أن ينقلها من كونها دولة عادية لتكون قوة عظمى عالمية، فإن فعل هذه أو تلك في عشرات السنين فهو من عظماء التاريخ وبناة الإمبراطوريات ومؤسسي الدول. وأما الصديق فقد فعل كلا هذين الأمرين في عامَيْن فحسب، فتجاوز بذلك كل إنجاز ينسب إلى أمثال: رمسيس الثاني، قورش، الإسكندر، شارلمان، سليمان القانوني، نابليون، ما وتسي تونج، بسمارك، لينين.. إلخ!

(٢) هودجسون، مغامرة الإسلام، مغامرة الإسلام، ترجمة: أسامة غاوجي، ط١ (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث، ٢٠٢١م)، ١/٣٥٨.

بالترشيح، فاقترح عمر بن الخطاب، فكان موضع قبولهم ورضاهم!

## عهد عمر بن الخطاب: الدولة الإسلامية القوة العظمى

صنع عمر منذ لحظة إسلامه فارقا في قوة المسلمين، فكان إسلامه عزا كما وصفه عبد الله بن مسعود، وما هو إلا أن صار الوزير الثاني للنبي ﷺ بعد أبي بكر، وكان شديدا في الحق حتى لقبه النبي بالفاروق، كما كان بصيرا ألمعيا حتى نزل القرآن في غير مرة موافقا لرأيه في مسائل كأسرى بدر وحجاب أمهات المؤمنين وغيرها[1].

وقد لقي اقتراح أبي بكر موافقة المسلمين ورضاهم، إذ بايعوا عمر بن الخطاب في اليوم التالي لوفاة أبي بكر، وخطب خطبة الولاية التي أَكَّد فيها على ذات المعاني التي قالها أبو بكر في خطبة خلافته، وامتد حكم عمر بن الخطاب لعشر سنوات تطورت فيهما الدولة الإسلامية تطورا كبيرا على مستوى المساحة، وعلى مستوى التنظيم الإداري.

ففي عهد عمر وقعت المعركتان الفاصلتان الكبيرتان: القادسية على الجبهة الفارسية، واليرموك على الجبهة الرومية، وهما المعركتان اللتان تواجه فيهما الجيش الإسلامي مع الجيش الرئيسي لكل من الإمبراطوريتَيْن وأسفرتان عن انتصار عظيم للمسلمين، ومن مدهشات التاريخ أنهما كانتا في نفس الوقت، فقد وقع انتصار اليرموك (٥ رجب ١٥ه)، ووقع انتصار القادسية (١٦ شعبان ١٥ه). ثم اتجه الجيش الإسلامي إلى المدائن، وهي عاصمة الإمبراطورية الفارسية، ففتحها (صفر ١٦ه)، ثم أخذ في فتح المناطق الفارسية والتوغل فيها، وخاض معارك كثيرة أبرزها معركة نهاوند (المحرم ١٩ه) التي سميت فتح الفتوح، والتي كانت بمثابة القضاء الأخير على الجيش الفارسي، وبهزيمة الفرس في هذه المعركة غربت شمس الإمبراطورية إلى الأبد. وعلى الجبهة الرومية استكمل المسلمون

---

(١) البخاري (٣٩٣)، مسلم، صحيح مسلم، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د. ت)، (٢٣٩٩).

فتح الشـــام، ففتحت دمشـــق (رجب ١٤هـ) وبيت المقدس (ربيع الآخر ١٦هـ)، ثم انحدر عمرو بن العاص بجيشـــه إلى فتح مصـــر فتمّ له فتحها خلال عامي ٢٠، ٢١ للهجرة، ثم تقدمت الجيوش غربا حتى فتحت طرابلس وصبراته (٢٣هـ).

وبهـذا يـكـون عـهـد عـمـر بـن الخطاب قد ســدد الضــربة القاضــية لــلإمــبراطــوريــة الفارســية، وســدد ضــربــة قــاصــمــة لــلإمــبراطــوريــة الرومانية الشرقية (البيزنطية) فاستلب منها درة بلادها: مصر والشـام وقطعة من الشـمال الإفريقي، وبهذا صـارت الدولة الإسـلامية تتمدد على هذه المسـاحة الواسـعة، وارتفعت بهذا لتكون القوة العظمى العالمية في زمنها.

وتحقق في هذا التمدد الكبير قول رســول الله ﷺ في رؤية رآها: «بينما أنا على بئر أنزع منها جاءني أبو بكر وعمر، فأخذ أبو بكر الدلو، فنزع ذنوبا أو ذنوبين، وفي نزعه ضـــعف، والله يغفر له. ثم أخذها ابن الخطاب من يد أبي بكر فاسـتحالت في يده غربا، فلم أرَ عبقريا من الناس يفري فريه، فنزع حتى ضـرب الناس بعطن»[(١)]. والمعنى كما قال الشـــافعي: «قِصَـر مُدَّتِه وعَجَلَة موته وشُـغْلِه بالحرب لأهل الردة عن الافتتاح والتزيد الذي بلغه عمر

(١) البخاري (٣٤٣٤)، مسلم (٢٣٩٢).

في طول مدته»[1]. قال ابن حجر عن قول الشـافعي هذا: «فجمع في كلامه ما تفرق في كلام غيره»[2].

وقد اسـتلزمت حركة الفتوح الواسـعة نشـاطا عظيما في الجوانب العمرانية والمالية والإدارية، ففي عهد عمر بُنيت المدن الإسلامية الأولى مثل البصرة والكوفة والفسطاط، وكانت في أول أمرها بمثابة مراكز للجيوش العربية ثم ما لبثت أن تحولت إلى عواصم حضارية تعج بالعلم والفقه، ويتزاوج فيها شأن المدنية والحضارة مع شأن الجهاد. وإن حاجة البلاد المفتوحة إلى الدعاة لم تكن أقل من حاجتها إلى الولاة، ولهذا فقد بثَّ عمر فيها الولاة والدعاة من الصحابة وكبار التابعين، ونشأ من ذلك كله النظام الإداري والمالي للدولة الإسلامية، لقد كانت حركة الدعوة إلى الإسلام وتعليمه الشعوب المفتوحة بمثابة الحاضنة الشعبية والمدد البشري الدائم لعمليات الفتوح، كما كانت بمثابة تثبيت الفتح وتأمين المناطق، بتحول أهلها إلى الإسلام.

وجراء هذا كله شهد عصر عمر كثيرا من السوابق الفقهية والاجتهاد العلمي في شؤون الإدارة والمال والولايات، كما وقعت فيه عدد من الحوادث التي مَثَّلَت نوازل جديدة كوقوع الزلزال والمجاعة والطاعون، وأثر ذلك كله على أمور تطبيق الحدود ودفع الزكاة وابتكار الحجر الصحي وتقسيم المواريث ونحوها.

ودفعت هذه الأمور المتشعبة إلى تأسيس ما يطلق عليه الآن «مؤسسات الدولة»، حيث أنشأ عمر الدواوين (الوزارات) لضبط شؤون الأموال الواردة والمنصرفة وموارد جمعها وتوزيعها، والعمل على حصر الناس في سجلات لتوفيتهم حقوقهم وعطاياهم، وضبط مقادير النقود ومعيارها لضبط المعاملات المالية، وابتدأ التأريخ من الهجرة لضبط

(١) الشافعي، الأم، (بيروت: دار المعرفة، ١٩٩٠م)، ١/ ١٨٩، ١٩٠.

(٢) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، (بيروت: دار المعرفة، ١٣٧٩ه)، ٧/ ٣٩.

المراسلات والوثائق[1]، واهتم عمر بمراقبة الأسواق ومراقبة الولاة، وكان يتلقى شكاوى الرعية كما كان يذهب في رحلات إلى الولايات، وعُدَّت له خمس زيارات إلى الشـــام، فضلا عن المتابعة السنوية للولاة في الحج، وإلى عمر يرجع إليه إنشاء العسس (وهو بذرة جهاز الشرطة) الذي يهتم بمتابعة أحوال الناس ويفتش عما لا يمكنه أن يصل إلى الأمير، ولكثرة الوقائع وتعددها تطور شـــأن القضـــاء، ولكل هذا فإن الفقه المأثور عن عمر غزير وفير[2]، وأُفْرِدت سوابقه وأولياته في دراسات مستقلة.

ومن أهم ما ابتدأه عمر هو حبس أرض السـواد في العراق وعدم توزيعها على الفاتحين كما هي العادة، وهو الأمر الذي أثار خلافا بينه وبين الصـــحابة حتى طال النقاش فيه، ثم نزلوا على رأي عمر، وكان رأيه أن هذه الأرض أرض واســـعة خصـــبة، فهي وفيرة الثراء، فيكون توزيعها الآن على الفاتحين مما يؤدي إلى تكوين طبقة قليلة واســـعة الثراء بما يصـــحب ذلك من اختلالات اجتماعية، كما أنه يحرم الأجيال الجديدة من هذا المال الكثير، فكان الرأي عند عمر وغيره من الصـــحابة أن تحبس هذه الموارد لتكون لصـــالح بيت مال المسلمين[3].

ومع أن عمر يحكم نحو ثلث العالم المعروف حينذاك، فلقد كان ذروة في الزهد والتقشف والتشـديد على نفسـه، وكان ذروة في الخوف من الله حتى لقد حفرت دموعه في خديه مسارا، واجتمع الناس على حبه وكان له من المهابة في نفوسهم القدر الأعظم، وكان عهده عهدا فارقا وخالدا لا تزال تتذكره صفحات التاريخ الإنساني.

---

(١) ابن حجر، فتح الباري، ٧/ ٢٦٨، ٢٦٩.

(٢) وقد اجتهد في جمعه الأستاذ الدكتور محمد رواس قلعه جي في كتابه: «موسوعة فقه عمر بن الخطاب»، وصدرت طبعته الأولى عن مكتبة الفلاح، الكويت، منذ أربعين عاما (١٤٠١ هـ= ١٩٨١م).

(٣) البخاري (٢٢٠٩)؛ القاسم بن سلام، الأموال، تحقيق: خليل هراس، (بيروت: دار الفكر، د. ت)، ص٧٤؛ ابن زنجويه، الأموال، تحقيق: شاكر ذيب فياض، ط١ (الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث، ١٩٨٦م)، ص٢٣٠.

ثم كانت نهايته على يد أبي لؤلؤة فيروز المجوسي، العبد الذي أكل الحقد قلبه لما نزل بقومه الفرس من الهزائم، وكان سيده المغيرة بن شعبة قد استأذن عمر في أن يسمح لهذا العبد بالبقاء بالمدينة، وكان عمر قد منع العجم من سكنى المدينة، فوافق عمر[1]، فكانت تلك الثغرة هي التي جاءت منها الطعنة الغادرة القاتلة، أثناء صلاة الصبح (ذي الحجة ٢٣ه)، فمكث أياما ثم توفي رضي الله عنه. وبينما هو يعالج الموت ترك عمر للمسلمين مأثرته الأخيرة: اقتراحا بطريقة انتخاب الخليفة القادم، فاختار ستة –وهم بقية العشرة المبشرين بالجنة بعد استبعاد ابن عمه سعيد بن زيد– ليختار المسلمون منهم خليفتهم القادم[2]، وهو الانتخاب الذي أسفر عن اختيار المسلمين للرجل الثالث في المنزلة والمكانة والفضل والمقام.. ذلك هو: عثمان بن عفان[3].

## عهد عثمان بن عفان: الرخاء وابتداء جيل جديد

سار عثمان بن عفان رضي الله عنه سير الخلفتيْن الراشديْن من قبله، ويلاحظ في خطبته الأولى التأكيد على ذات المعاني التي أكد عليها الشيخان من حقوق الأمة وواجبات الخليفة وأصول العدل والشورى، إلا أنه ظهرت فيها وصيته بالزهد، وذلك أن الدولة الإسلامية كانت قد تدفقت عليها الأموال، وبدأ يظهر فيها تبدل الجيل؛ إن الذي وُلِد يوم وفاة النبي ﷺ قد صار يوم تولي عثمان في الثالثة والعشرين من عمره، كذلك فإن الأبناء الذين وُلِدوا من أمهات فارسيات وروميات ممن أسلمن أو كنَّ من السبايا قد صار بعضهم في سن العشرين. وهذا ما سيكون له أثر واسع في التغيير الاجتماعي الذي شهده العصر الإسلامي في ذلك الوقت. وفي رسائل عثمان التي أرسلها إلى الولاة والقادة أكَّد على أن النظام الذي وضعه عمر مستمر، لكونه كان على مسمع ومرأى ومشورة من أهل الحل والعقد، ومنهم عثمان نفسه.

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٠م)، ٣/ ٢٦٣ بسند صححه ابن حجر في الفتح، ٧/ ٦٢.

(٢) البخاري (٣٤٩٧).

(٣) البخاري (٣٤٩٧)، (٦٧٨١).

وقع اضــطراب في بعض المناطق الفارســية إثر وفاة عمر بن الخطاب، ولكن الجيوش الإســلامية ســرعان ما اســتطاعت اســتعادة زمام الأمور، ثم ما لبثت أن اســتأنفت الفتوحات من جديد، وامتدت خطوط الفتح حتى فُتِحَتْ في زمن عثمان بلادُ أذربيجان، وطبرســتان، والمناطق في جنوبي وغربي بحر قزوين وبلاد القوقاز، وقتل الملك الفارســي الأخير يزدجرد، ووصــلت الفتوحات إلى خراســان[١]، وتجاوزت كل الجنس الإيراني، ثم بدأت مواجهة الجنس التركي - الذي يقطن مناطق وسـط آسيا- من بعد نهر المرغاب، وفتحت بلاد النوبة في مصـر، وغيرها من الأنحاء في الشمال الإفريقي.

كما دخلت الفتوحات مرحلة أخرى جديدة في عهد عثمان، وذلك هو الجهاد البحري، حيث كان معاوية بن أبي ســفيان والي الشــام يحاول أن يحصــل على إذن عمر بالغزو في البحر إلا أن عمر كان يتخوف على المســلمين من البحر، فمنعه من هذا، فعاود معاوية اســتئذان عثمان فأذن له، فبدأ معاوية في بناء الأسطول الإسلامي، واستطاع أن يفتح قبرص وأن يخوض معركة فاصلة في التاريخ الإســلامي وتاريخ البحر المتوســط، وهي معركة ذات الصــواري التي اســتطاع فيها

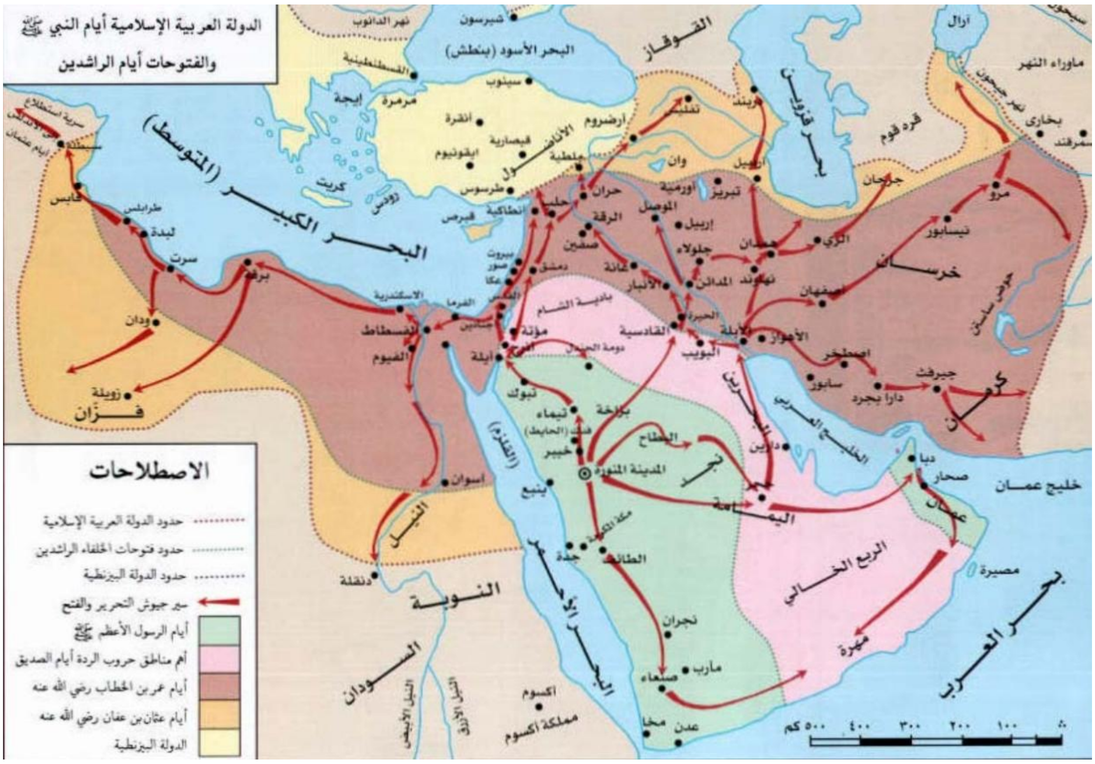


(١) بلاد خراسان تشمل الآن تشمل معظم إيران (الجزء الشمالي الشرقي)، وأفغانستان (الجزء الشمالي)، وتركمانيا (الجزء الجنوبي).

الأسطول الإسلامي الوليد أن يوقع هزيمة نكراء بالأسطول البيزنطي العتيق، حتى لقد أصيب الإمبراطور البيزنطي نفسه قسطنطين بن هرقل، وكان من نتائج هذه المعركة أن انهارت السيادة البيزنطية على شرق البحر المتوسط، وابتدأ عصر السيادة الإسلامية فيه.

وكما يبدو من الخريطة فإن المناطق المفتوحة التي أضيفت للدولة الإسلامية في زمن عثمان ليست كبيرة، والسبب في ذلك أن عهد عثمان كان عهدًا نمت فيه ونضجت مؤسسات الدولة التي صارت تدير هذه المساحة الشاسعة، والتي كان عمر قد وضع أصولها وأسسها، فاستمرت هذه المؤسسات في عملها وتطور معها اجتهادات أخرى بحسب ما جاءت به النوازل والمسائل الجديدة، فالتهم هذا التوسع الإداري كثيرا من المجهود الإسلامي في زمن عثمان، وأثمر هذا كله النمو المالي والرخاء الاقتصادي الذي اشتهر به ذلك العهد[١].

وواصل عثمان مراقبة الولاة، وكان يسهر على متابعة شؤون الدولة، وكان حضوره الحج بمثابة المتابعة السنوية لأعمال الولاة كما يعبر عنها وفود الحجيج من البلدان المختلفة، وكان يسأل القادمين إلى المدينة عن الأحوال في بلادهم، وكان كعمر رضي الله عنه يعزل الوالي إذا كرهه الناس وإن لم يثبت عليه خطأ، وأقام الحدّ على أحد ولاته وأقاربه رغم عدم كفاية الأدلة، وكان له من يكتب التقارير عن الولاة في الأنحاء، وغير ذلك.

ومع اتساع الفتوح وانتشار المسلمين في الأنحاء المختلفة ظهرت ظاهرة خطيرة،

---

(١) بلغ مستوى الرخاء المالي أن تراوحت جباية سواد العراق في عهد عثمان ما بين مائة وعشرين مليون درهم ومائة وثمانية وعشرين مليون درهم، وتضاعفت جباية مصر عما كانت عليه في عهد عمر حتى وصلت إلى أربعة ملايين دينار، وانتعش الوضع المالي لأهل المدينة حتى كان يُنادى عليهم لأخذ الأموال والعطايا مرة بعد مرة. أكرم العمري، عصر الخلافة الراشدة: محاولة لنقد الرواية التاريخية وفق مناهج المحدثين، ط١ (الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٠٩م)، ص٦١.

وهي اختلاف المسلمين في قراءة القرآن، وذلك أن تباعد الفاتحين واختلاف اللهجات أنتج اختلافا في قراءة القرآن، ووقع التنازع بين بعض القراء في القراءة الصحيحة، ونُقِل ذلك إلى عثمان فجمع أهل الشورى واتخذوا قرارهم العظيم الذي يمثل إنجازات تهون معه سائر إنجازات الفتح والإدارة، ذلك هو: جمع الأمة على مصحف واحد، تجنبا أن يتحول هذا الاختلاف في القراءة بمرور الوقت إلى ما هو أشد وأخطر، فعمد عثمان إلى المصحف الذي جمعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فجعله المصحف المعتمد، ونسخه عددا من النسخ أرسلها إلى الأمصار ليكون هو المعتمد الذي تُحاكَم إليه سائر المصاحف التي كتبها البعض لأنفسهم أو لناحيتهم، وأمر بإحراق سائر المصاحف التي تخالف هذا المصحف[1]. وعرفت هذه العملية بالجمع الثاني للمصحف، وبه حُفِظَت وحدة المسلمين إلى آخر الدهر، وترسخت بذلك الحماية التي صان الله بها كتابه مما أصاب كتب الأمم الأخرى من التبديل والتحريف.

عُرِف عثمان رضي الله عنه بأخلاقه الرقيقة السهلة، فكان أكثر الناس حياءًا، وكان نموذجا في اللين والعفو والحلم، كما كان مثالا في الخوف من الله والزهد في الدنيا، مع أنه من الأثرياء، ولا ينافي هذا كله أو ينقص ما كان عليه من الحزم والشجاعة. إلا أن الحلم الذي غلب عليه مع ما شهده عصره من تدفق المال وتبدل الجيل والتغير في الأحوال الاجتماعية قد دفع في النهاية إلى فتنة عظيمة انتهت باستشهاده رحمه الله، وهذا ما نتناوله في الفصل المخصص للفتنة إن شاء الله تعالى.

---

(١) البخاري (٤٧٠٢).

# القضايا المهمة في عصر الخلافة الراشدة

يمثل عصر الخلافة الراشدة عصر الإنجاز الضخم لهذه الأمة، فلئن كان نبينا ﷺ قد أخرج هذه الأمة من العدم وأسس لها دينا ودولة، فإن عصر الخلافة الراشدة هو الذي جعل هذه الدولة القوة العظمى، وأسس لمرحلة تاريخية حاسمة، ذلك أن إنجاز عصر الخلافة الراشدة لم يذهب حتى الآن، إذ لا تزال المناطق التي فتحها المسلمون في ذلك العصر حتى هذه اللحظة إسلامية، بل هي قلب الإسلام. وقد جرى هذا كله في ثلاثين عامًا فقط، بما يعد أسرع انطلاقة لأمة في التاريخ، كما أنه الأكثر رسوخا وثباتا. كذلك فإن قدرة العرب المسلمين، الذين خرجوا توًّا من الصحراء، على هزيمة الإمبراطوريات العظمى العريقة، وقدرتهم على أن لا يذوبوا في ثقافاتها بل أن ينشروا هم ثقافتهم فيها، يمثل استثناءًا تاريخيا كما يرصده مؤرخ الحضارات وفيلسوفها أرنولد توينبي[1].

ومن البديهي لكل أمة في حال ضعفها أن ترجع إلى تاريخها وتراثها لتحفظ به نفسها

(١) أرنولد توينبي، مختصر دراسة التاريخ، ترجمة: فؤاد محمد شبل، (القاهرة، المركز القومي للترجمة، ٢٠١١). ٢/ ٢٤٨، ٢٤٩.

من الذوبان في الغالب أولا، ولكي تستلهم منه عوامل قوتها وأسباب نهضتها، فلذلك لا يمكن الحديث عن نهضة لهذه الأمة لا يُستوعب فيها تاريخ عصر الخلافة الراشدة استيعابا قويا وعميقا. إلا أن عصر الخلافة الراشدة يمثل أهمية أخرى فوق كونه عصرا قويا تحتاجه أمة مستضعفة، إنه على الحقيقة جزء من الدين!

لقد أخبر النبي ﷺ أن هذا العصر هو «خلافة على منهاج النبوة»، وأوصى باتباع سنة الخلفاء الراشدين بل أوصى بالعض عليها بالنواجذ، ورسم النبي ﷺ في عدد من الأحاديث ملامح هذا العصر، وفصل بأقواله في عدد من القضايا والنزاعات التي ستحدث فيه! ما يعني أن فهم هذا العصر واستيعاب أحداثه ودروسه إنما هو جزء من الاقتداء الديني وليس مجرد اعتبار من صفحات التاريخ.

لقد كان الخلفاء الراشدون هم المثال الكامل لتطبيق الإسلام بعد وفاة النبي ﷺ، وحيث قد قضى الله تعالى على نبيه بالوفاة فقد كان لا بد أن يكون للمسلمين نموذج يقتدون به في سائر تاريخهم من بعد، نموذج للحكم والإدارة بعدما انقطع الوحي وصار الحاكم بشرا لا نبيا، حيث يجتهد في الأمر ولا ينزل عليه تصحيح أو إرشاد من السماء، وحيث الحاكم بشرا يخطئ ويجد من يُقَوِّمه وينصح له ويعارضه ويخرج عليه، وذلك كله ليس مُتَصَوَّرًا في حال وجود النبي الذي يأتيه الوحي من السماء! فمعارضة النبي أو محاربته كفرٌ!

ومن هنا كانت وصية النبي ﷺ باتباع سنة الخلفاء الراشدين ضرورية، والمعنى هنا هو سنتهم في الحكم والسياسة والإدارة، إذ ليس لهم سنة في العبادات أو الشعائر أو المعاملات فذلك كله قد أتمّه النبي ﷺ بما نزل عليه من الوحي، ولهذا يفرق الأصوليون بين الآراء الفقهية للخلفاء الراشدين في غير الحكم والسياسة فهم في ذلك كغيرهم من الصحابة، وأما سنتهم في الحكم والسياسة فهي معتبرة يُقتدى بها.

وهذا المدخل يفتح عددا من القضايا المهمة، التي نأخذ منها الآن ما نحن أحوج إليه

من غيره، ومن أهمها:

## العصر الذهبي للحضارة الإسلامية

في كل حضارةٍ يُطلق على فترة الذروة لقب «العصر الذهبي»، حيث تبلغ الحضارة أوجها، وتعدُّ مسألة العصر الذهبي مسألة حاسمة في تصور الأمة لنفسها ولدورها ورسالتها. وإذا سُئل عدد من الناس عن: ما هو العصر الذهبي للحضارة الإسلامية؟ فربما ذهب بهم التفكير إلى العصر الأموي أو العباسي أو الأندلسي أو العثماني، يشدهم إلى ذلك ما كان في تلك العصور من أنواع الرخاء والرفاهية وبدائع البنيان والعمران وروائع الزخارف والأبهة والجمال كما في العصر العباسي والأندلسي والمملوكي، أو ما كان فيها من الاتساع والوحدة والقوة كما في العصر الأموي والعثماني.

بينما الجواب الصحيح أن العصر الذهبي في الحضارة الإسلامية هو عصر الخلافة الراشدة، وهذا أمرٌ راسخٌ إلى درجة أنه يكون لا شعوريًّا لدى العاملين للإسلام، إذ ما من حركة إسلامية نهضت في واقعها إلا وهي تنشد أن تعيد عصر الخلافة الراشدة لا عصر الأمويين أو العباسيين أو العثمانيين، ويضطرد في إنتاجها الفكري الحديث عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي بما لا يُقارن معه الحديث عن معاوية أو عبد الملك بن مروان أو أبي جعفر المنصور أو هارون الرشيد أو سليمان القانوني.

وأصل هذا الجواب هو قول النبي ﷺ: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»[1]، ووصيته التي ذكرناها سابقا «فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ»[2].

---

(١) البخاري (٢٥٠٩)، مسلم (٢٥٣٣).

(٢) أبو داود (٤٦٠٧)، الترمذي (٢٦٧٦)، ابن ماجه القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار الفكر، د. ت)، (٤٢)، وصححه الألباني.

هذا الجوابُ، وهذا التحديد لعصرنا الذهبي كأمة مسلمة، يحسم خياراتنا في أكثر الأمور الفكرية الفلسفية المنهجية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية، كما أنه يضع أمامنا نموذجا تطبيقيا عمليا واقعيا وليس كبقية الفلسفات الأخرى التي تحاول أن تصل إلى ما لم يتحقق، وأجهدت نفسها عبر القرون في تصور «مدينة فاضلة» لم تتحقق أبدا. ومن أمثلة الأمور التي حسمها هذا الاختيار:

١. إن وجود عصر تاريخي يمثل القدوة الدينية والنموذج العملي يعصم من التيه بين الخيارات المتضاربة الكثيرة لفلسفات الحكم العديدة، والتي هلكت فيها عقول الفلاسفة والمفكرين، في تحديد صلاحيات الحاكم وحقوقه وواجباته وعلاقته بالشعب وطرق تنصيبه ومراقبته وعزله، وحدود تدخله في نشاط المجتمع و... و... و... إلخ! ومثل ذلك الانحيازات الاجتماعية بين الفردية والجماعية والانحيازات الأخلاقية بين المادية والروحية وما ينبني على هذا كله من أنظمة وأنماط اقتصادية وثقافية واجتماعية، وكل تلك الأمور التي لا تزال موضع جدل ضخم ولا يُتَصَوَّر أن ينتهي. وقد تسببت هذه الرؤى المتضاربة في انتقالات دموية هائلة وحروب طاحنة بين حملة هذه الأفكار.

٢. امتداد فترة الخلافة الراشدة إلى ثلاثين سنة، يجعل النموذج العملي ثريا، فعصر الخلافة الراشدة يشمل كل مراحل الدولة: مخاضات التأسيس (في عهد أبي بكر) ثم مرحلة التوسع والنمو والنضج (في عهد عمر) ثم الرخاء والازدهار (عهد عثمان) ثم الفتن الداخلية (أواخر عهد عثمان إلى عهد الحسن بن علي)، مع ما شهده كل هذا من تعديلات في بنية النظام وانتقال للسلطة وتأسيس للمؤسسات وسياسة للأموال وتعامل مع المعارضة السلمية والمسلحة... وغير ذلك! وكل هذه الأمور وغيرها تختلف العقول بشأنها إن غاب النص وغاب النموذج التطبيقي له، وإن الأمة التي تسعى لاستعادة نموذج سبق وتعامل مع الأوضاع السياسية لهي أكثر بصيرة وأوضح طريقا من أمة تبحث عن نموذج لم تر ملامحه

ولا تحسم كثيرا من أسئلته الجوهرية[1].

٣. عصر الخلافة الراشدة دليلٌ على صلاحية الإسلام للتطبيق العملي، فهو عصرٌ حقيقي تحقق في التاريخ، وليس تصورا فلسفيا خياليا نسعى وراء تحقيقه. بل إن عودة الخلافة الراشدة هي من الوعود النبوية، مما يزيد المؤمن إيمانا وحماسة وعملا وبذلا لإعادته. لا تحظى فكرة أخرى بشرية بمثل هذه القوة ولا يمكنها أن تثير في نفوس الملايين مثل هذا الإيمان. فلم يتحقق في التاريخ البشري نموذج واحد لمدينة فاضلة تصورها فيلسوف[2]، ولا استطاع منهجٌ ما أن يحقق لحظته المثلى –التي تسمى عادة: نهاية التاريخ- بما في ذلك الشيوعية والليبرالية والحداثة. وهذا ما جعل بعض الباحثين الغربيين المعاصرين يفضل الأخذ من النظام الإسلامي دون غيره من الفلسفات الغربية التي لم يتحقق منها نموذج واحد[3].

٤. عصر الخلافة الراشدة يُعَلِّم الأمة الواقعية ويعصمهم من متاهات المثاليات الحالمة، ويعلمنا أن البشر لن يتحولوا إلى ملائكة، وأنهم متفاوتون في الفهم والموهبة

---

(١) على سبيل المثال، شهد عصر أبي بكر فقها في نوازل سياسية مثل قرشية الخليفة، وتولية الفاضل، وأن يكون للخليفة راتب من بيت المال ومقداره، وما إن كانت الشورى معلمة أم ملزمة، ومعاملة الممتنعين عن الشعائر. وجاءت ولاية عمر بمسائل أخرى كترشيح الخليفة السابق، واختلاف الخلفاء في الاجتهاد السياسي، وأبواب في الأموال والأراضي ومعاملة الشعوب المفتوحة وغيرها. وجاءت ولاية عثمان بمسائل أخرى كتعدد المرشحين للخلافة، وعملية الانتخاب، وفقه مواجهة المعارضة السلمية والمتمردة، وجاءت ولاية علي بمسائل أخرى كاختيار الخليفة في الفتنة، وتحويل العاصمة، وتمرد الوالي على الخليفة، وانبعاث طائفة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بغير إذن الإمام. وغيرها من المسائل التي مثلت هداية وإرشادا للأمة، وعليها بُني فقه الأمة السياسي كله.

(٢) كتبت الباحثة الإيطالية ماريا لويزا برنيري كتابها «المدينة الفاضلة عبر التاريخ» وتتبعت فيه تصورات الفلاسفة والمصلحين والزعماء عن المدينة الفاضلة، منذ أقدم العصوم حتى الآن، وكان أول نتائجه أن كل تصورات المدينة الفاضلة لم تتحقق، لم يستطع أحد صناعة مدينته الفاضلة حتى الذين امتلكوا سلطة تنفيذ أفكارهم!

(٣) وائل حلاق، الدولة المستحيلة، ترجمة: عمرو عثمان، ط١ (الدوحة: المركز العربي للأبحاث، ٢٠١٢م)، ص٣٧، ٣٨.

والقدرات والاستجابة لدواعي الخير والشر، وسيظل سلوكهم حتى في أفضل عصورهم سلوكا يحتوي على الذنوب والآثام بل قد تنشب بين الفضلاء الفتن والحروب، إلا أنه حتى تلك الحروب ستكون محفوفة بقوانين أخلاقية تجعلها أقل الحروب سوءا وأكثرها رحمة عبر التاريخ[١].

٥. الخليفة الراشد هو نموذج الحاكم المسلم المنشود، وكل حاكم مسلم يُحاكَم إلى نموذج الخلفاء الراشدين، ومهما كان إنجاز الحاكم عظيما في باب الدنيا فإنه لا يكون موضع قدوة وأسوة تامّة، وكم في الخلفاء من عظماء أنجزوا إنجازا ضخما ولكنهم ظلوا في الضمير المسلم أقل من أن يكونوا قدوة، إما لأنهم لم يتولوا باختيار الأمة، أو لأن بعضهم أخطأ فارتكب القتل أو شرب الخمر أو استكثر من الجواري أو كان فيه ظلم وقسوة. وتلك أمورٌ لا يهتم لها النظرُ غير الإسلامي! فكم من عظماء أمتنا من سيئاتهم هي حسنات عظماء الأمم الأخرى. إن أمثال يزيد بن معاوية والحجاج وأبي مسلم الخراساني، وهي أمثلة مدانة في الضمير المسلم، هم عظماء الأمم الأخرى بغير تثريب ولا لوم. وما ذلك إلا لأن الحساسية الأخلاقية الشديدة ونموذج الخلفاء الراشدين هو المعيار الذي يُقاس إليه الحكام في ضمير المسلمين. إن النظام السياسي الإسلامي يجعل الحق فوق القوة، بينما انعدام المعيار في النموذج الغربي يؤدي لأن تكون القوة هي معيار الحق.

٦. عصر الخلافة الراشدة لم يكن عصر القصور المشيدة ولا المباني الفاخرة ولا

---

(١) تتحدث ماريا لويزا برنيري في بداية بحثها «المدينة الفاضلة عبر التاريخ» عن أن الواقع قد تجاوز المثاليين الحالمين، تقول: «الحالمون من أصحاب الرؤى أصبحوا موضع السخرية أو الاحتقار، والناس «العمليون» هم الذين يحكمون حياتنا»، بل لقد صار العالم عقيما من الحالمين الذين ينتجون مدينة فاضلة في الكتب وحدها، لقد أصيب الجميع بما تسميه «عدوى الواقعية»، فلم تستطع التصورات الحالمة أن ترفع من مستوى الواقع، بل حصل العكس: استطاع الواقع أن يجعل التصورات أقل حلما ومثالية.

ماريا لويزا برنيري، المدينة الفاضلة عبر التاريخ، سلسلة عالم المعرفة ٢٢٥ (الكويت: المجلس الوطنيّ للثّقافة والفنون والآداب، سبتمبر ١٩٩٧)، ص١٥، ١٦، ١٩.

الزخارف البديعة ولا الرفاهية المترفة، وإنما كان عصر العدل والأخلاق والسمو الروحي، لقد كان عصر الإنسان لا البنيان، حيث يأمن الإنسان فيه على نفسه وعلى حقه، ولا يخاف على نفسه أو أهله أو ماله ولو كان الخليفة خصمه. بل إن الذين يكفرون الخليفة لهم حقوق يلتزم لهم بها، ولهم حتى في قتاله إياهم حقوق يلتزم بها! إن هذا كله يعدل تصورنا عن طبيعة المجتمع المنشود، فلو وقع الخيار بين أن تسود العدالة والأخلاق ونحن في بيوت الشعر والطين أو أن نحيا في الترف وناطحات السحاب ولكن تحت حكم الطغاة والظالمين لكان المسلم غير متردد في أن ينحاز للاختيار الأول! إن الذين يغرقون في المادة هم من يقبلون بقاء الظلم والطغيان، وهم الذين يساومهم الطاغية على رفاهيتهم مقابل حريتهم وكرامتهم، ثم لا يبقى لهم بعد ذلك لا رفاهية ولا كرامة. وحين نجد بعضنا منبهرٌ بروائع قصور الحمراء وتاج محل وفنون الزخارف الإسلامية أكثر من انبهاره بعصر الخلافة الراشدة نعلم أن قد أصابه نصيب من المادية التي تحكم تصوره وتشكل عقله وروحه. ربما نستدل بهذه الأمور على ما شهدته حضارتنا في فصولها من تقدم علمي، لكن يجب أن يبقى تصورنا سليما منحازا إلى عصر العدل وعصر الإنسان وتفضيله على سائر العصور!

٧. عصر الخلافة الراشدة يحسم اختيارنا تجاه وحدة الأمة، فهي هدف جوهري قاتل عليه أبو بكر في أول هذا العصر كما قاتل عليه علي في آخره، والحفاظ على وحدة الأمة كان هدف الراشدين جميعا، فلا يقبل المسلم فرقة الأقطار الإسلامية وتعدد حكامها، بل ولا يقبل أن تكون العلاقة بينها مجرد تنسيق أو تعاون، وإنما يسعى دائما في تحقيق الوحدة تحت خليفة واحد(١).

هذه مجرد أمثلة يتبين معها أهمية استيعاب عصر الخلافة الراشدة، وأن تلك الأهمية

---

(١) محمد إلهامي، قيمة ومعنى وجود نظام سياسي إسلامي، بتاريخ ٤ إبريل ٢٠١٦م؛ محمد إلهامي، الفارق الجوهري بين الإسلام والفلسفات الغربية، بتاريخ ٢٣ يونيو ٢٠١٠م.

هي أهمية دينية تتعلق بمصـير المسـلم في الآخرة، بالإضـافة إلى كونها ضـرورة دنيوية يحتاجها المسلم في بناء تصوره عن الدولة المنشودة والمجتمع المنشود، كما يحتاجها في دعوته لغير المسـلمين، إذ يسـتطيع أن يبرهن من خلال هذا العصـر على تفوق النموذج الإسـلامي على غيره من الأنظمة. إذ «لا يعد ماضـي الدولة الإسـلامية أمرا جاثما على الصدور، ولكنه المادة الحية المتنفسة التي سيُبنى منها المستقبل»[١].

ومن المؤكد أن المساحة هنا لن تتسع لمناقشة كل القضايا التي نستخرجها من عصر الخلفاء الراشـدين، وإنما سـنتناول ما نرى أنه أشـدها أهمية وضـرورة للمسـلم المعاصـر، ونتناول منها خطوطها العامة الرئيسـية التي يتبين منها طبيعة الموضـوع وروحه، ليكون أساسا يستند إليه المسلم إذا أراد التوسع والتفصيل.

وقد وقع الاختيار على أربع قضايا أساسية وهي:

١. تكوين النظام السياسي الإسلامي لا سيما ما يتعلق بصلاحيات الحاكم وحقوق الأمة عليه

٢. النظام الاجتماعي الإسلامي لا سيما استثمار التكتلات الاجتماعية

٣. العلاقات الدولية للدولة الإسلامية لا سيما ما يتعلق بالجهاد والفتوحات

٤. النظام الأخلاقي الإسلامي لا سيما دور السلطة في رعاية الأخلاق

تلك القضـايا بحسـب اجتهادنا هي أشـد القضـايا إلحاحا وأكثرها أهمية ليسـتوعبها المسلم في الوقت الحاضر.

## وقفة تنبيه!

(١) نوح فيلدمان، سقوط الدولة الإسلامية ونهوضها، ترجمة: الطاهر بوساحية، ط١ (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث، ٢٠١٤م)، ص٤١.

ومع كل ما سبق تقريره، يجب القول والتنبيه إلى أن عصر الخلافة الراشدة، لم يجزم بقول فصل في كل المسائل والقضايا، مثله في هذا مثل العصر النبوي الذي هو عصر القدوة والتشريع، وإنما كان عصر النبوة وعصر الخلافة الراشدة هو عصر التطبيق المثالي تأسيسا للثوابت الكبرى ووضعا للإطار العام وحدود المباح والمحظور وتمثلا لروح الإسلام، ولذلك سنجد بعض الأمور اختلف فيها الخلفاء الراشدون أنفسهم، أو حتى اختلف فيها الخليفة الواحد إذا تغيَّر الزمان أو المكان فتغيَّرت بذلك طبيعة القضية، وقد انصب جهد العلماء المسلمين عبر القرون في التمييز بين أفعال النبي ﷺ وتصرفاته باعتباره نبيا أو قاضيا أو إماما (أي حاكما)، وأفعال الراشدين من بعده، لكي تتميز مواضع السنة الدينية التي يجب اتباعها ومواضع الاجتهاد البشري التي يجوز العمل بخلافها إن كانت المصلحة الشرعية وتحقيق الشريعة تقتضي ذلك.

فمما اختلف فيه الراشدون فظهر لنا أن الأمر فيها اجتهادي: صلاحياتُ الوالي، فلقد كان أبو بكر يمنح الولاة صلاحيات التصرف أوسع مما يمنحه عمر الذي كان يحرص على متابعة أقوى ومتابعة أكثر تفصيلا(١)، وكان عثمان أقرب إلى طريقة أبي بكر(٢). وكذلك اختلف أبو بكر وعمر في طريقة توزيع المال، فقد كان أبو بكر يوزع المال بالسويَّة، لا ينظر إلى السابقة في الإسلام أو القرب من النبي، بينما كان عمر يوزعه على المراتب فلا يجعل من آمن برسول الله كمن حاربه ويبدو أن المال ازداد في أواخر خلافته فعزم أن يرجع

---

(١) ابن عساكر، تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو العمروي، ط١ (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٥م)، ١٦/ ٢٦٢، ٢٦٣. بإسناد رجاله ثقات؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ط٣ (مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥م)، ١/ ٣٧٩، ٣٨٠؛ ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: عادل عبد الموجود وعلى معوض، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ)، ٢/ ٢١٩.

(٢) عبد العزيز العمري، الولاية على البلدان في عصر الخلفاء الراشدين، ط١ (الرياض: دار إشبيليا، ٢٠٠١م)، ص٢٩٦، ٢٩٧.

إلى رأي أبي بكر في توزيعه بالسوية[١]. وكذلك اختلف أبو بكر وعمر في صدقة النبي ﷺ بالمدينة فقد أمسكها أبو بكر كأنه يرى أنها لولي الأمر بينما أعطاها عمر لعلي والعباس[٢]. وكذلك اختلفوا في قسمة الخمس فلم يكن أبو بكر يعطي قربى رسول الله ﷺ من الخمس بينما كان يعطيهم منه عمر وعثمان[٣]، وكذلك اختلفوا في تولية الأقارب، فلقد كان عمر بن الخطاب لا يُوَلِّي أقاربه، بينما لم يكن عثمان وعليٌّ يرون بأسا في ذلك[٤]، وكذلك اختلفوا في مقدار الجلد في حد الخمر فجلد أبو بكر أربعين وعمر ثمانين وعثمان أربعين وثمانين وعليٌّ أربعين[٥].

ومما اختلف فيه الراشدون طريقتهم في إقرار الأمن؛ لقد حرصوا جميعا على إقرار الأمن ومواجهة التحديات الأمنية، حتى إن أبا بكر الصديق لما هزم المرتدين من أسد وغطفان جاء وفدهم يطلب الصلح، ففرض عليهم نزع السلاح منهم حتى يرى أبو بكر أن توبتهم صادقة، وأنهم لم يعودوا يمثلون خطرا، ولم يرد مثل هذا -على حد علمي- في أقوام آخرين، ربما لم تصلنا الروايات بشأنهم، وربما لأن أسد وغطفان على وجه التحديد كانت خطورتهم أشد لقربهم من المدينة، وربما لأن أسد وغطفان هم الذين هاجموا المدينة من بين قبائل المرتدين التي بقيت في مناطقها. وهذا نصُّ مقالة أبي بكر للوفد وفيها شروطه عليهم: «تدون قتلانا ولا ندي قتلاكم، وتشهدون على قتلاكم أنهم في النار، وتردون إلينا من أخذتم منا، ولا نرد إليكم ما أخذنا منكم، وننزع منكم الحلقة والكراع – أي السلاح والخيل- وتُتْرَكون تتبعون أذناب البقر حتى يرى الله خليفة رسول الله

(١) البخاري (٣٧٩٧)، (٣٧٠٠)؛ أكرم العمري، عصر الخلافة الراشدة، ص٢٢٩، ٢٣٣ وما بعدها.

(٢) البخاري (٢٩٢٦)، (٢٩٢٧)، (٦٣٩٧)؛ مسلم (١٧٠٦)، (١٧٠٧)، (١٧٥٧).

(٣) أبو داود (٢٩٧٨)، وصححه الألباني.

(٤) أكرم العمري، عصر الخلافة الراشدة، ص١٢٨.

(٥) البخاري (٦٣٩١)، مسلم (١٧٠٦)، مجموعة من العلماء، الموسوعة الفقهية الكويتية، ط١ (الكويت – مصر: وزارة الأوقاف الكويتية – دار الصفوة)، ١٥/ ٢٤٦.

والمؤمنين رأيا يعذرونكم عليه»[١].

وفي عهد عمر أثار انزعاجه وغضبه أن معاوية بن أبي سفيان –الوالي على الشام– يركب في موكب وله حاجب على بابه، غير أن معاية اعتذر له بأنه في بلاد «العدو بها قريب منا، ولهم عيون وجواسيس، فأردت يا أمير المؤمنين أن يروا للإسلام عزًّا. فقال له عمر: إن هذا لكيد رجل لبيب أو خدعة رجل أريب. فقال معاوية: يا أمير المؤمنين مُرْني بما شئت أصر إليه. قال: ويحك ما ناظرتك في أمرٍ أعيب عليك فيه إلا تركتني ما أدري آمرك أم أنهاك»[٢]، والشاهد هو أن القرب من العدو ووجود الجواسيس غيَّر طبيعة المُلْك والإجراءات الخاصة التي يتخذها الحاكم. وقد ورد في لفظ رواية أخرى أنه يخاف أيضا «الابتذال وجرأة الرعية» فتلك الرعية هي التي اعتادت أن يكون ملوكها في مواكب وحراسات ودون الوصول إليهم أبواب وحُجَّاب وإلا سقط من نظرهم هيبة الوالي، وهو الأمر الذي لم يكن بالوسع تجاهله فأقره عُمَر وإن كان لم يفصل فيه برأي فقال له: «لا آمرك ولا أنهاك». وهكذا يظهر أن ما كان مرفوضا مزعجا ويُعدّ من صور التكبر والتجبر في بيئة الجزيرة العربية كان مقبولا في بيئة الثغور وفي مجتمع تأصَّلت فيه تقاليدُ اجتماعية جعلت تخفف الوالي من الحراسة والهيبة خطرا عليه!

وقد جعل القرافيُّ تزين الوالي واتخاذه الزخارف وما إليها مما يبعث الهيبة له، جعلها القرافي من البدع المستحبة مثلها مثل جمع لناس على صلاة التراويح، فقال في أنواع البدع: «ومندوبة كصلاة التراويح وإقامة صور الأيمة والقضاة بالملابس وغيرها من الزخارف والسياسات وربما وجبت»[٣].

---

(١) البخاري (٦٧٩٥) مختصرا؛ ابن حجر، فتح الباري، ١٣/ ٢١٠.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، تحقيق: سهيل زكار ورياض الزركلي، ط١ (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٦م)، ٥/ ١٤٧؛ الطبري، تاريخ الطبري، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٥م)، ٣/ ٢٦٥.

(٣) القرافي، الذخيرة، تحقيق: مجموعة، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٤م)، ١٣/ ٢٣٥.

وزاد القرافي تفصيل ما يقول في كتاب الفروق حيث قال: «القسم الثالث من البدع: مندوب إليه، وهو ما تناولته قواعد الندب وأدلته من الشريعة كصلاة التراويح وإقامة صور الأئمة والقضاة وولاة الأمور على خلاف ما كان عليه أمر الصحابة بسبب أن المصالح والمقاصد الشرعية لا تحصل إلا بعظمة الولاة في نفوس الناس، وكان الناس في زمن الصحابة معظم تعظيمهم إنما هو بالدين وسابق الهجرة ثم اختل النظام وذهب ذلك القرن وحدث قرن آخر لا يعظمون إلا بالصور فيتعين تفخيم الصور حتى تحصل المصالح، وقد كان عمر يأكل خبز الشعير والملح ويفرض لعامله نصف شاة كل يوم لعلمه بأن الحالة التي هو عليها لو عملها غيره لهان في نفوس الناس، ولم يحترموه وتجاسروا عليه بالمخالفة فاحتاج إلى أن يضع غيره في صورة أخرى لحفظ النظام؛ ولذلك لما قدم الشام ووجد معاوية بن أبي سفيان قد اتخذ الحجاب وأرخى الحجاب، واتخذ المراكب النفيسة والثياب الهائلة العلية، وسلك ما يسلكه الملوك، فسأله عن ذلك فقال: إنا بأرض نحن فيها محتاجون لهذا فقال له لا آمرك، ولا أنهاك ومعناه أنت أعلم بحالك هل أنت محتاج إلى هذا فيكون حسنا أو غير محتاج إليه فدل ذلك من عمر وغيره على أن أحوال الأئمة وولاة الأمور تختلف باختلاف الأعصار والأمصار والقرون والأحوال فلذلك يحتاجون إلى تجديد زخارف وسياسات لم تكن قديما وربما وجبت في بعض الأحوال»[1].

ويلفت النظر أثناء متابعة التطور الاجتماعي والأمني للعصر النبوي وعصر الخلافة الراشدة أنه لم يرد شيء عن نظام العسس –الشرطة الليلية– في زمن النبي، وإنما جاء أنه تولاها عمر وابن مسعود في زمن أبي بكر، ثم تولاها عمر بنفسه في زمنه وكان يصطحب معه مولاه أسلم أو عبد الرحمن بن عوف[2].

---

(١) القرافي، الفروق: أنوار البروق في أنواء الفروق، (الرياض: دار عالم الكتب، د. ت)، ٤/ ٢٠٣، ٢٠٤.

(٢) عبد الحي الكتاني، نظام الحكومة النبوية أو التراتيب الإدارية، تحقيق: عبد الله الخالدي، (بيروت: دار الأرقم، د. ت)، ١/ ٢٤٤، ٢٤٥.

وذلك مُشْعِرٌ بأن شأن المدينة كان على حال العرب الأولى من استقباح الغدر والنقب ليلا وما إلى ذلك. ويبدو أن تطور المَدَنيّة وتطور حال الدولة وشـأنها قد جاء بما جعل العس ضرورة ومهمة يتولاها أحد الناس، ومما يؤيد هذا الرأي ما ورد من أن عليا هو أول من اتخذ السجون، وكانت الخلفاء قبله يحبسون في الآبار(١) أو في المسجد(٢).

ويظهر من سيرة علي رضي الله عنه أن مواجهة خطر تفرق الأمة، وهو أعظم التهديدات الأمنية لوجود أي أمة، كانت على رأس أولوياته، حتى إنه قاتل الحروب الثلاثة الشهيرة في زمنه بغرض الوحدة ولئلا تتفرق الأمة: الجمل وصفين والنهروان، وسكت عن الأخذ بالقصاص من قتلة عثمان والذين كان بعضهم أمراء في جيشه أو في بعض ولاياته، وكان يقول -كما نقل القعقاع عنه لعائشة وطلحة والزبير- «هذا أمرٌ دواؤه التسكين»، يقصد أن التعجيل في أخذ القصاص من قتلة عثمان يزيد الفرقة ويثير الحروب.

ومع أن الخوارج كفَّروا عليا إلا أنه لم يقاتلهم إلا بعد أن بدؤوا بارتكاب الجرائم وقتل المسلمين. وهذه الأمور المتعلقة بالفتنة في زمن علي رضي الله عنه سنتناولها بالتفصيل في مكانها إن شاء الله.

فيظهر من مجموع ما جاء عن الخلفاء الراشدين اختلاف الوسائل في تحقيق الأمن، وأنها أمور اجتهادية، فعلها بعض الخلفاء ولم يفعلها الآخر، أو قبلها الخليفة في مكان دون آخر، وهكذا.

لقد حكم الخلفاء الراشدون ثلاثين سنة، فأقاموا الحدود ووسعوا الدولة وضبطوا مصارف بيت المال وموارده، وكانت الغنائم الهائلة الجليلة تأتي من فارس والشام ومصر والمغرب الأدنى إلى المدينة المنورة، فتصل إليها آمنة لا يتعرض لها أحد بسوء، ولم يكن للخلفاء حراسة ولا مواكب ولا فرق خاصة ولا احتياطات أمنية، وهذا دليل على قدرتهم

---

(١) الآبار لفظ يُطلق على الأماكن المُتَّخذة تحت الأرض، كالسراديب والمطامير.

(٢) عبد الحي الكتاني، التراتيب الإدارية، ١/ ٢٤٧.

وقوتهم وتمكنهم من إقرار الأمن، وبأقل قدرٍ من اتخاذ إجراءات خاصة.

إن تحقيق الأمن والتمكن هو أولوية كل حُكْم، بل لا يستحق نظام الحكم أن يوصف بأنه نظام حكم إذا لم يكن متمكنا وقادرا على إقرار الأمن، وعبر التاريخ يأتي تحقيق الأمن والتمكن أولا قبل تحقيق النمو الاقتصادي أو التطور الإداري للدولة، بل ليس ممكنا حصول هذا النمو الاقتصادي أو الإداري قبل تحقيق الأمن والتمكن. والغفلة عن هذا الأمر كان ثمنه فادحا في التجارب الإسلامية المعاصرة.

ولئن تعددت الوسائل في حفظ الأمن، فإن الخط العام لعصر الخلافة الراشدة يكشف عن الانحياز إلى الحرية في مقابل الأمن، أو بصياغة أخرى: الانحياز إلى أمن الناس في مقابل أمن السلطة، فلقد كان الخليفة قريبا من الناس، يصلي بهم الصلوات ويخطب لهم الجمعة، ويستطيع سائر الناس أن يصل إليه ويحادثه، أو أن يقوم له معارضا أو مُذَكِّرا، فلا يجد الخليفة بأسا أن يعود عن قوله إن رأى الحق خلاف ما كان عنده.

ولقد استطاع أبو لؤلؤة المجوسي أن يهدد عمر مع مهابته ويقول له: «لأصنعن لك رحى تتحدث بها العرب»، وتبين عمر في قولته هذه التهديد وقال «أوعدني العبد»[1]. لقد استطاع العبد الفارسي أن يهدد عمرا قبل أن يقتله ويحيا في المدينة لا يمسه سوء، ثم استطاع هذا العبد أن يصلي في الصف الأول خلف عمر وأن يطعنه!!

وخرج عثمان يوما للصلاة فأبصر رجلا يقبل إليه ففهم في حركته الخطر فقال انظروا: فإذا رجل معه خنجر أو سيف. فقال له عثمان رضي الله عنه: ما هذا؟ قال: أردت أن أقتلك. قال: سبحان الله!! ويحك، علام تقتلني؟ قال: ظلمني عاملك باليمن. قال: أفلا رفعت ظلامتك إليَّ فإن لم أنصفك أو أعديك على عاملي أردت ذلك مني؟ ثم قال لمن حوله: ما تقولون؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين، عدو أمكنك الله منه. فقال: عبد همَّ بذنب فكفه

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣/ ٢٦٣، بإسناد صححه ابن حجر في الفتح ٧/ ٦٢، ٦٣.

الله عني، ائتني بمن يكفل بك، لا تدخل المدينة ما وليت أمر المسلمين، فأتاه برجل من قومه فكفل به فخلى عنه[1]. وبهذا عفا الخليفة عمن أراد قتله ظلما، واكتفى بحظر دخوله المدينة.

ثم انتهت حياة عثمان –رضي الله عنه– مقتولا وقد مَنَعَ أحدًا أن يدافع عنه ضد أهل الفتنة، ثم قُتِل علي رضي الله عنه على يد رجل من الخوارج، وهم فريق جهر بالمعارضة وجهر بالحرب، وسنتعرض لتفاصيل هذا في مكانه إن شاء الله.

ولكن الشاهد هنا أن عصر الخلافة الراشدة كان عصرا يستطيع فيه خصوم الخليفة الوصول إليه ومواجهته بالقول وبالسيف، دون أن يعبر بطوابير من الجيوش والحراسات ولا أن يسير المسافات الطويلة في دهاليز القصور ودون أن يخشى السجون المرعبة أو العقوبات الفظيعة كالتي كان يواجهها أي خصم لإمبراطور آخر في الصين أو الهند أو فارس أو الروم أو حتى في عصرنا الحاضر الذي يتغنى بحق الشعوب في الاختيار وفي المعارضة[2].

---

(١) ابن شبه، تاريخ المدينة، تحقيق: فهيم شلتوت، (جدة: على نفقة السيد حبيب محمود، ١٣٩٩ه)، ٣/ ١٠٢٨.

(٢) مما يجب أن أسجله هنا وأعترف بحيرتي فيه هو هذه المسألة الأمنية لدى الخلفاء الراشدين، وإنما أفعل ذلك رغبة في أن يتفرغ باحث لهذا الموضوع حتى يخرج برأي محرر فيه يمكن الاطمئنان إليه لتقرير سنة الخلفاء الراشدين في المسألة الأمنية.

لقد قُتِل ثلاثة من الخلفاء الراشدين، ويمكن أن نرى في هذا نوعا من التراخي الأمني، كما يمكن أن نبرره بأن الخلفاء الراشدين قدَّموا ما نسميه في المصطلح المعاصر «الحرية على الأمن»، وهي المعضلة الفلسفية الكبرى في الفكر السياسي، حيث تنحاز النظم إما إلى الحرية فيتسبب هذا في التراخي الأمني وربما الفوضى الأمنية، أو تنحاز إلى الأمن فيتسبب هذا في انتشار الجواسيس وتغول الأجهزة الأمنية وكثرة المظالم. ومع ذلك نقول: إذا كان الانحياز إلى الحرية سيتسبب في قتل خيار الناس وسادتهم فليس هذا خيارا مقبولا، لأنه يعود على الأمة كلها بالضرر.

ربما يُقال: كان الخلفاء حريصين على أمن الأمة جماعة ونظاما، بينما لم يحرصوا على أنفسهم، فقد ظل أبو لؤلؤة المجوسي بالمدينة حتى بعد أن شعر عمر بأنه يهدده، وعفا عثمان عمن حاول اغتياله، ثم إن عثمان منع الصحابة

من قتال الخارجين عليه وهو يعلم أنهم سيقتلونه، ومع أن عليًّا قاتل أهل الشام وقاتل الخوارج إلا أن خارجيا استطاع أن يقتله في المسجد ولم يكن معه حراسة.

قد يقال هذا ولا نستطيع أن نوافق عليه، إذا لا يُظنّ بالخلفاء الراشدين وهم سادة الناس في السياسة والفهم ألا يدركوا خطورة اغتيال الخليفة على الوضع العام للأمة. إن الخليفة العادل هو أهم مكسب يجب على الأمة أن تحافظ عليه كما يجب أن يحافظ هو على نفسه، فالقادة الصالحون الأكفاء نادرون، والخسارة بهم لا يمكن تعويضها، وما من عظيم مات ثم خلفه من هو خيرٌ منه!

إن أقرب الأقوال التي أميل إليها حتى الآن، وأحسب أنها تجمع بين النصوص العديدة، أن أولئك الخلفاء أرادوا استتباب الوضع الأمني بأقل قدر من القوة، وبأوسع قدر من العفو، ذلك ما يفسر بقاء المجوسي في المدينة بعد تهديده لعمر، ويفسر اكتفاء عثمان بمنع دخول المدينة لمن حاول اغتياله من أهل اليمن، ويفسر سهولة دخول خارجي إلى مسجد الكوفة واقترابه من الخليفة وهو يحمل سلاحه، دون أن يمنعه –وربما دون أن يكتشفه- أحد! ولو صحَّ هذا القول الذي أقول به لكان ذلك يستلزم أن يكون موقف أبي بكر القاضي بتجريد أسد وغطفان من السلاح هو الاجتهاد الصحيح في المسألة الأمنية، لكونه أعلى درجات الاحتياط.

ومع ذلك، لا يزال في النفس شيء من هذا القول، وما زلت أرجو أن يتفرغ باحثٌ لتقرير الرأي المحرر في سنة الخلفاء الراشدين في المسألة الأمنية.

على أنه يجب أن نؤكد ونقول بوضوح: إن قتل أولئك الخلفاء من جهة أخرى يمثل مفخرة للمسلمين في ظل العالم الأمني الذي نحياه الآن في حاضرنا المُعاصِر، حيث صارت أجهزة الأمن هي أقوى الأجهزة إطلاقا في كل دولة. وإن قتل ثلاثة من الراشدين إنما جاء بعد عشرة أعوام لعمر، واثني عشر عاما لعثمان، وخمسة أعوام لعلي، وكل هؤلاء الخلفاء يغشى الناس ويخطب فيهم كل جمعة على الأقل ويصلي بهم خمس مرات في اليوم ولا يحتجب عنهم بحرس ولا خدم ولا حشم! فأين ذلك من حكام اليوم وليس فيهم من يستطيع أن يعيش ساعة بلا حراسة!

كذلك فإن الذين قتلوا الخلفاء لم يكونوا من خُلَّص رعيتهم وإنما هو غريب طارئ كالمجوسي الذي قتل عمر أو متمردون رفض الخليفة قتالهم ومنع الصحابة منه أو متسلل متآمر، بينما حُكَّام هذا العصر إذا تخلوا عن الحراسة أكلهم الناس من رعيتهم لا يترددون!

ومن أشدّ ما يجد المسلم من الإجرام في هذا الأمر أن بعض العلمانيين والمجرمين الذين تخصصوا في تزوير التاريخ ينتقصون من عصر الخلافة الراشدة لأنهم ثلاثة من خلفائه قُتِلوا، يريدون بذلك أن يقولوا إنهم لم يكونوا صالحين ولا عادلين، ويتجاهل هؤلاء الكذابون ويتناسون أن الخلفاء حين قُتِلوا فإنهم لم يُقتلوا لظلم وقع منهم وإنما لاتساع هامش المساحة الممنوحة للجميع، فمن أغرب الغريب أن يُعايَر النموذج الإسلامي بأن ثلاثة من خلفائه الأربعة قُتِلوا! وأن يصدر هذا ممن عاش في زمن تهلك فيه الأمم والشعوب والجماعات بدعوى حماية النظام والحفاظ على الأمن القومي ويُشنق فيه الناس بتهم تكدير السلم العام!! أو لعل هذا هو الطبيعي، وهو نتائج تخريب العقول والنفوس وتضييع الكرامة، فإن الذي نشأ وتربى وتشرب الاستبداد والفرعونية لم يعرف معنى الحرية والعزة والكرامة، فهو أخوف على أمنه منه على حريته وكرامته!

وبعد هذا التنبيه والوقفة السريعة، التي قصدنا منها بيان أن الوسائل الاجتهادية قد اختلفت حتى لدى الراشدين أنفسهم، فليس للعصر الراشدي إجابات لكل المسائل ولكل التفاصيل، ومن ثم فدائرة الاجتهاد لا تزال واسعة، وإنما يُستفاد منهم فيما ثبت عنهم ويُمَيَّز بين أعمالهم.

بعد هذا التنبيه والوقفة السريعة، نعود لفتح القضايا المهمة في عصر الخلافة الراشدة:

# تكوين النظام السياسي الإسلامي: الأمة والحاكم

لئن كان في تاريخ أمة ما شيئًا تفتخر به فلن يكون بحال أعظم من فخرنا بعصر الخلافة الراشدة، فنحن الأمة الوحيدة التي حكمت ثلث العالم المعروف وقتها بعدل ورحمة، فلئن افتخر الغرب بأنه اخترع الديمقراطية فلقد كانت ديمقراطية المدن الصغيرة في اليونان (البلد ذات الجزر الصغيرة المحدودة) فأما حين بلغوا الإمبراطورية فلا عدل ولا رحمة ولا ديمقراطية بل امتصاص شعوب العالم وقهرها لخدمة أمة اليونان والرومان، وهو الأمر الذي نظَّر له فلاسفة الغرب الأوائل وعدُّوه أمرًا طبيعيًّا[1]، وهو الأمر المستمر حتى يومنا هذا.

قبل أن يُدفن النبي ﷺ كان الصحابة قد اختاروا خليفته الأول، إذ بينما كان أهل بيت النبي ﷺ يُجَهِّزونه اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة لاختيار من يخلف النبي على

(١) انظر مثلًا: برتراند رسل، حكمة الغرب: عرض تاريخي للفلسفة الغربية في إطارها الاجتماعي والسياسي، ترجمة: د. فؤاد زكريا، سلسلة عالم المعرفة ٦٢ (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، فبراير ١٩٨٣م)؛ ١/ ١٠٠، ١٤٣، ١٥٧، أرنولد توينبي، مختصر دراسة التاريخ، ١/ ٩٣؛ مونتسكيو، روح الشرائع، ترجمة: عادل زعيتر، (القاهرة: اللجنة الدولية لترجمة الروائع الإنسانية، ١٩٥٤م)، ٢/ ١٤٦.

المسلمين، فوصل هذا الخبر إلى المهاجرين، فانطلق منهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح، وجرى بينهم النقاش في الخليفة القادم، فأراد الأنصار أن يُنَصِّبوا زعيمهم سعد بن عبادة، فأوضح لهم أبو بكر أن العرب لن تخضع إلا لخليفة من قريش إذ هم أوسط العرب نسبا ودارا، فاقترح الحباب بن المنذر أن يكون الحكم شركة بين الأنصار والمهاجرين «منا أمير ومنكم أمير»، فاعترض أبو بكر وقال: بل نحن الأمراء وأنتم الوزراء. فقام زيد بن ثابت –وهو خزرجي من قبيلة سعد بن عبادة المرشح للخلافة- فأعلن أن النبي كان من المهاجرين وأن الأنصار مثلما كانوا أنصارا له فسيكونون أنصارا لخليفته، وبعد الكلام والمحاورة انتهى الأمر إلى بيعة أبي بكر الصديق[(١)].

وأول ما يُستفاد من هذا أن اختيار الخليفة ونصب الإمام كان إجماعا بين الصحابة لم يتعرض للنقاش ولم يقع فيه أدنى خلاف، وهذا أقوى الأدلة على أن الإسلام دولة ونظام، وأن نصب الخليفة أولى الأولويات وأعلى الضرورات. ومن هنا فإن كل دعوة لتخلية الإسلام من جانبه السياسي هي دعوة ساقطة متهافتة!

إن شمول الإسلام لكل جوانب الحياة يجعل من المحتم كونه في موقع السلطة والدولة والنظام، فالإمامة هي خلافة للنبوة، فهي «ركن من أركان الدين الذي به قوام المسلمين»[(٢)]، «بل لا قيام للدين ولا للدنيا إلا بها»[(٣)].

---

(١) البخاري (٦٤٤٢)؛ أحمد (٢١٦٥٧) بسند قال عنه شعيب الأرناؤوط: صحيح على شرط مسلم؛ الحاكم (٤٤٥٧) وقال: صحيح على شرط الشيخين؛ البيهقي، السنن الكبرى، ٨/ ١٤٣ برقم (١٦٩٧٩)؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣/ ١٣٥، ١٣٦ بسند قال عنه ابن حجر: «صحيح من مرسل القاسم بن محمد»؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ٢/ ٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٥/ ٢٦٩؛ ابن حجر، فتح الباري، ١٢/ ١٥٣.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط٢ (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٦٤م)، ١/ ٢٦٥.

(٣) ابن تيمية، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ط١ (الرياض: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف، ١٤١٨ه)، ص١٢٩.

ومن هنا صار نصب الإمام الذي هو رأس النظام السياسي واجبا متفقا عليه، فإن «الإمامة موضوعةٌ لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا، وعَقْدُها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع»(١)، «ولا خلاف في وجوب ذلك بين الأمة ولا بين الأئمة»(٢).

وفي سيرة الراشدين لم تمر ثلاثة أيام على وفاة الخليفة السابق، إلا وكان قد استقر الأمر للخليفة الجديد، وبهذا تقرر أن نصب الخليفة هو أول الواجبات، وأن المدة يجب ألا تزيد عن ثلاثة أيام كي لا ينتثر عقد الأمة وينفرط نظامها.

فمن هذه اللحظة، لحظة سقيفة بني ساعدة، ابتدأ تَكَوُّن النظام السياسي الإسلامي.

وأول ما يطرحه هذا الاختيار من مسائل هو الاختلاف الكبير بين النبي والخليفة؛ فلقد كان النبي ﷺ مختارًا من قِبَل الله، ومتصلا بالوحي، وهو المعصوم صاحب الرسالة، فلما مات رسول الله ﷺ انقطع الوحي، واختار المسلمون من بينهم رجلا يكون خليفة لرسول الله، فهو اختيار منهم وليس اصطفاءًا من الله، وهذا الخليفة بَشَرٌ منقطع عن الوحي، فلا بد له من الاجتهاد بالرأي، وهو يصيب ويخطئ ويسهو ويغفل، ويقع له من المسلمين النصح والتقويم والمعارضة والمخالفة بل والخروج عليه وعزله وكل هذا مما لا يجوز في حق النبي ﷺ.

إن من تمام الدين وضروراته أن يوجد بشرٌ حُكَّامٌ منقطعون عن الوحي، يُقتدى بهم في سيرتهم، ويكونون أمثلة تطبيق الإسلام في غياب النبوة، فكان أولئك هم الخلفاء الراشدون. فمن خلال سيرتهم تَكَوَّنَ النظام السياسي الإسلامي.

وقد علم أولئك الخلفاء أن سيرتهم ستكون موضع قدوة للأمة وأنها سوابق تشريعية، فمن أجل هذا تحرزوا وتحققوا في أقوالهم وأفعالهم، وكان أهم ما حرصوا على بيانه

---

(١) الماوردي، الأحكام السلطانية، (القاهرة: دار الحديث، د. ت)، ص١٥؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د. ت)، ١/ ٢٣٩.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١/ ٢٦٤.

وتوضيحه للأمة هو شأن السياسة والحكم، وتُعَدّ خطبة أبي بكر الصديق المتن الجامع الموجز لعلم السياسة الشرعية، ففيها أوضح اختيار الحاكم وصلاحياته وسبل نصحه وتقويمه وعزله، وهذه الخطبة تكررت معانيها في خطب الخلافة لعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين.

ستتخذ هنا من خطبة أبي بكر مرشدا لنرى تحققها في عصر الخلافة الراشدة.

## ١. اختيار الحاكم: «وُلِّيتُ عليكم»

مما أجمع عليه الراشدون واستقر عليه الفقه السياسي أن الحاكم تختاره الأمة، قال أبو بكر: «وُلِّيت عليكم، ولست بخيركم»[١]، فهو تأكيد على أنه وُلِّي ولم يزعمها لنفسه ولم يغلب على الحكم قهرا ولم يكن له نصٌّ من السماء بولايته -كما هو مذهب الشيعة في النص على الأئمة- ولم يستحقها لكونه سليل عائلة. ومع أنه خير هذه الأمة إلا أنه قال «ولست بخيركم» ليقطع الطريق على من يزعم لنفسه خيرية خاصة تخوله أن يتولى على الأمة. ومن هذه العبارة استنبط العلماء جواز «تولية المفضول في وجود الفاضل» إن تعذر نصب الأفضل!

وكان ﷺ قد توفي دون أن يُسَمِي أحدا للخلافة مع وجود الداعي وانتفاء المانع، ليكون الاختيار سنة تولية الأمراء من بعده[٢]، إلا أنه ترك عددا من الإلماحات لأبي بكر كقوله لما اشتد عليه المرض: «مروا أبا بكر فليصلّ بالناس»[٣]، وقوله: «يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر»[٤]. ولما توفي رسول الله ﷺ انتهى اجتماع السقيفة إلى اختيار أبي بكر، ورضي به

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ٢/ ٦٦١، وقال ابن كثير (البداية والنهاية ٥/ ٢٦٩): هذا إسناد صحيح.

(٢) البخاري (٦٧٩٢)، مسلم (١٨٢٣).

(٣) البخاري (٦٤٦)، مسلم (٤١٨).

(٤) مسلم (٢٣٨٧).

المسلمون وبايعوه في اليوم التالي البيعةَ العامة في المسجد.

كذلك لما دنت الوفاة من أبي بكر جمع كبار الصحابة فقال لهم: «إنه قد نزل بي ما ترون، ولا أظنني إلا لمأتي، و قد أطلق الله أيمانكم من بيعتي، و حلّ عنكم عقدتي، ورد عليكم أمركم، فأمِّروا عليكم من أحببتم، فإنكم إن أمَّرْتُم عليكم في حياة مني كان أجدر ألا تختلفوا بعدي»، فتشاوروا ثم جعلوا أمرهم إليه، فاختار عمر بن الخطاب[1]، فرضوا به وكان هذا بمثابة البيعة الخاصة من أهل الحل والعقد، ثم رضي به المسلمون وبايعوه البيعة العامة في المسجد.

وفي الحجة الأخيرة من عهد عمر سمع أن بعض الناس يقول: لو مات عمر لبايعت فلانًا، فغضب وقال: «إني إن شاء الله لقائم العشية في الناس فمحذرهم هؤلاء الذين يريدون أن يغصبوهم أمورهم...»، ثم خطب خطبة طويلة ختمها بقوله: «من بايع رجلا عن غير مشورة من المسلمين فلا يُبايع هو ولا الذي بايعه تغرة[2] أن يُقْتَلا»[3]، وبيَّن أن بيعة أبي بكر كانت «فلتة»، أي في حال من المفاجأة والمبادرة التي لم يتسع معها التروي وطول المشاورة، وأن الله تعالى «وقى شرَّها»، وذلك أنه ليس في المسلمين «من تُقْطَع الأعناق إليه مثل أبي بكر»[4]، أي ليس فيهم رجل سابق في المكانة والفضل عن سائر المسلمين بفارق وو ضوح كما كان أبو بكر، ولهذا فإن أي محاولة بعد هذا للإ سراع ببيعة أحد عن غير تمهل وتروي ومشورة بين المسلمين إنما هي غصب لحق الأمة.

ومع أن عمر قد طُعِن فجأة، إلا أنه رتَّب أن يكون اختيار الخليفة من بعده على حال من التروي وإيفاء الشورى حقها، ففي أيامه الأخيرة رشَّح ستة، هم بقية العشرة المبشرين

---

(١) أصل اختيار أبي بكر لعمر موجود في الصحيحين، في حديث عمر عند وفاته: البخاري (٦٧٩٢)، مسلم (١٨٢٣).

(٢) تغرة أن يقتلا: أي من فعل ذلك فقد غرر بنفسه وصاحبه وتعرض للقتل.

(٣) البخاري (٦٤٤٢).

(٤) البخاري (٦٤٤٢).

بالجنة، وكلهم تولى عملا أيام النبي ﷺ: عثمان بن عفان، علي بن أبي طالب، عبد الرحمن بن عوف، طلحة بن عبيد الله، الزبير بن العوام، سعد بن أبي وقاص. واستبعد سابع العشرة المبشرين بالجنة وهو سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل لأنه من قرابة عمر (فهو عمر بن الخطاب بن نفيل).

وقد تولى عبد الرحمن بن عوف إدارة هذه الانتخابات، فاقترح على الستة أن يتنازل بعضهم لبعض، لتقليل العدد وتسريع الاختيار، فتنازل الزبير لصالح علي، وتنازل طلحة لصالح عثمان، وتنازل سعد لصالح عبد الرحمن، فصار المرشحون ثلاثة: عثمان، علي، عبد الرحمن بن عوف. فاقترح عبد الرحمن بن عوف أن يتنازل أحدهم عن الترشح للخلافة على أن يدير هو مسألة الاختيار، فسكت الشيخان عثمان وعلي، فعرض عليهما أن يتنازل هو عن الترشح فيكون إليه إدارة هذا الاختيار مشترطا عليهما أن يكون كلامه ملزما ومشترطا على نفسه أن لا يبتغي باختياره إلا وجه الله، فوافقا. فقضى عبد الرحمن بن عوف ثلاثة أيام يسأل ويشاور أهل الشورى وأهل المدينة حتى النساء في البيوت والقادمين إلى المدينة[1]، ثم جمع من كان حاضرا بالمدينة من المهاجرين والأنصار وأمراء الأجناد الذين كانوا في المدينة لأنهم حجوا مع عمر في هذه السنة (٢٣هـ)، ثم أعلن قائلا: «يا علي، إني قد نظرت في أمر الناس، فلم أرهم يعدلون بعثمان، فلا تجعلن على نفسك سبيلا»، ثم بايع لعثمان قائلا: «أبايعك على سنة الله ورسوله والخليفتين من بعده»، ثم بايعه المهاجرون والأنصار وأمراء الأجناد والمسلمون[2]. وهكذا صار عثمان بن عفان

(١) البخاري (٣٤٩٧)، (٦٧٨١)، ولفظه: «فمال الناس على عبد الرحمن حتى ما أرى أحدا من الناس يتبع أولئك الرهط (الخمسة المرشحين للخلافة)، ولا يطأ عقبه، ومال الناس على عبد الرحمن يشاورونه تلك الليالي». وفي رواية: «فانثال الناس» أي انهمروا (ابن حجر: فتح الباري ١٣/ ١٩٦)، بل ذكر ابن كثير (البداية والنهاية ٧/ ١٦٤) أن عبد الرحمن – رضي الله عنه – استشار «رءوس الناس وأقيادهم جميعا وأشتاتا، مثنى وفرادى، ومجتمعين، سرا وجهرا، حتى خلص إلى النساء المخدرات في حجابهن، وحتى سأل الولدان في المكاتب، وحتى سأل من يرد من الركبان والأعراب إلى المدينة».

(٢) البخاري (٣٤٩٧).

إماما.

ولما وقعت الفتنة وقُتِل عثمان رضي الله عنه، انقسم أهل الفتنة فبعضهم ذهب إلى ابن عمر وبعضهم إلى الزبير وبعضهم إلى طلحة، فعلموا أنهم أعجز من أن يستعملوا قوتهم في تنصيب خليفة، وأن أمر نصبه إنما هو للمهاجرين والأنصار وأهل بدر فهؤلاء هم الذين يتبعهم الناس، بل إن عليا حين ذهبوا إليه قال لهم: «إني لأستحيي أن أبايع قوما قتلوا رجلا قال فيه رسول الله ﷺ: «ألا أستحيي ممن تستحيي منه الملائكة؟»، وإني لأستحيي من الله أن أُبايَع وعثمان قتيل على الأرض لم يُدفن بعد»[1]. فانصرفوا عنه ثم عادوا إليه بعدما دفن عثمان، فظل يدافعهم ويقولون: لا بد للناس من خليفة، وهو يقول: إني لكم وزير خير مني أمير، وهم يقولون: لا أحد أحق بها منك. فاتخذ علي إجراءً يجعل بيعته بيعة عامة مشهودة ولا ينفرد أولئك المتمردون بعقد بيعة خاصة لهم كأنما صاروا أهل حل وعقد. وبذلك يكون أمره متروكا لعامة أهل المدينة الذين فيهم السابقون من المهاجرين والأنصار. وقال: «فإذا أبيتم عليَّ، فإن بيعتي لا تكون سرًّا، ولكن أخرج إلى المسجد فمن شاء أن يبايعني بايعني»[2]. وبهذا بايعه الناس عن رضا واختيار، وبهذه البيعة العامة انعقدت الإمامة لعلي رضي الله عنه.

ومن هذا يتبين لنا أن:

- الخلفاء الأربعة تولوا باختيار الأمة، لم يغتصبها أحدٌ منهم بنصٍّ أو بحرب وغلبة، ولا ادعى أحدهم لنفسه فضلا يتميز به عن الناس.
- اختيار أهل الحل والعقد وبيعتهم لخليفة هو بمثابة الترشيح الذي لا يكون ماضيا ولا نافذا إلا بالبيعة العامة التي تمثل اختيار الأمة ورضاها.

(١) الحاكم (٤٥٢٧)، وقال: على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٢) أحمد بن حنبل، فضائل الصحابة، (٩٦٩) بإسناد صحيح كما قال محققه وصي الله؛ الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ٦٩٦، وانظر: البرزنجي، صحيح تاريخ الطبري، ٣/ ٣٧١.

- الصحابة اختاروا للخلافة أفضلهم، ناظرين في هذا إلى الدين والكفاءة، ولقد كان أبو بكر وعمر من بني تيم وبني عدي وهما من القبائل الضعيفة في قريش ليسوا كبني هاشم أو بني أمية، فتقدما على عثمان وهو من بني أمية بل تقدما على علي وهو أقرب الصحابة نسبا للنبي. ووضع الصحابةُ ولا سيما الأنصار قوة عصبتهم وشوكتهم في طاعة خليفة رسول الله الذي تختاره الأمة. وضرب الأنصار مثالا عظيما في تنازلهم عن الحكم في دارهم للمهاجرين فكانوا أنصار الخلفاء كما كانوا أنصارا للنبي. كان الصحابة أمثلة في التجرد والإخلاص لله ولمصلحة المسلمين، ولم يشغب على اختيارهم حسابات قبلية أو عصبيات جاهلية.

وقد ترتب على هذا الاختيار من الأمة أن يو صف الخليفة بأنه وكيل عنها، بل بأنه أجيرٌ لديها، فلم يرث الخليفة الحقوق المالية التي كانت للنبي ﷺ، بل صار إليه تدبير أمر المال الذي كان يأتي للنبي بصفته إمامًا، وإنما صار الخليفة ينفق على نفسه من راتبٍ تقرر له ليقوم بأمر الخلافة:

فلما استخلف أبو بكر «أصبح غاديًا إلى السوق وعلى رقبته أثواب يتّجر بها، فلقيه عمر بن الخطاب، وأبو عبيدة بن الجراح فقالا له: أين تريد يا خليفة رسول الله؟ قال: السوق. قالا: تصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين؟ قال: فمن أين أطعم عيالي؟ قالا له: انطلق حتى نفرض لك شيئًا فانطلق معهما، ففرضوا له كل يوم شطر شاة وكسوة في الرأس والبطن»[1]، وفي رواية أخرى يظهر النقاش الذي دار بينه وبين كبار الصحابة: «لما استخلف أبو بكر جعلوا له ألفين، قال: زيدوني فإن لي عيالا، وقد شغلتموني عن التجارة، فزادوه خمسمائة»[2]. وذلك دليل واضح على أن راتب الخليفة يقرره المسلمون، وأن الخليفة

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣/ ١٣٧ . بإسناد قال فيه ابن حجر: مرسل رجاله ثقات. ابن حجر، فتح الباري، ٤/ ٣٠٥.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣/ ١٣٨؛ وثمة تفصيل فيما يتعلق براتب أبي بكر عند: أكرم العمري، عصر الخلافة الراشدة، ص٢٢٩.

ليس طليق اليد في التصرف بالمال، فضلا عن أن يستأثر بشيء منه. وظهر ذلك عندما شعر بدون الأجل فردَّ إلى بيت المال ما بقي معه منه، وكان قليلا حتى قال عمر «لقد أتعب من بعده تعبا شديدا»(١).

كذلك صرَّح عمر أن الخليفة ليس أحق بمال المسلمين من أي أحد من المسلمين، فقال: «والله ما أحدٌ أحق بهذا المال من أحد، والله ما من المسلمين أحد إلا وله في هذا المال نصيب»(٢)، وقال موضحا سياسته المالية «إني أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة قيّم اليتيم، إن استغنيتُ عنه تركت، وإن افتقرتُ إليه أكلتُ بالمعروف»(٣)، وتعفف أن يعطي زوجته أم كلثوم بنت علي ثوبا ضمن قسمة أثواب ورأى غيرها أحق به منها(٤)، ومع ذلك فقد مات وعليه نحو ستٍّ وثمانين ألف درهم(٥).

## ٢. مراقبة الحاكم: «إن أحسنتُ فأعينوني، وإن أسأتُ فقوِّموني»

في خطبة الخلافة الأولى قال أبو بكر: «إن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوِّموني»(٦)، وبهذا قرر أبو بكر ثلاثة أمور:

- أن الأمة رقيبة على الحاكم ومشاركة له، فهم أعوانه إذا أحسن وهم من ينصح له ويعارضه ويُقَوِّمُه إذا أساء.

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣/ ١٤٣ بإسناد صحيح كما قال ابن حجر في فتح الباري، ٤/ ٣٠٤.

(٢) أحمد (٢٩٢) بإسناد ضعفه شعيب الأرناؤوط وصححه الشيخ أحمد شاكر، أبو داود (٢٩٥٠) وحسنه الألباني، ووجدت ابن تيمية يحتج بالخبر في مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، (المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف، ١٩٩٥م)، ٢٨/ ٢٨٧، ٥٨٢ وفي منهاج السنة النبوية، تحقيق: محمد رشاد سالم، ط١ (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٩٨٦م)، ٦/ ٣٨.

(٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣/ ٢٠٩، بسند صححه ابن حجر في الفتح ١٣/ ١٥١.

(٤) البخاري (٢٧٢٥).

(٥) البخاري (٣٤٩٧).

(٦) ابن هشام، السيرة النبوية، ٢/ ٦٦١، وقال ابن كثير (البداية والنهاية ٥/ ٢٦٩): هذا إسناد صحيح.

▪ أن الخليفة، خاضـعٌ لمرجعية عليا، وهي الإسـلام، والناس يقيسـون الإحسـان والإساءة وفقا لهذه المرجعية.

▪ أن مراقبة الحاكم والنصـح له ليس مجرد حق تمارسـه الأمة، فلها أن تنزل عنه، بل هو في ذات الوقت واجبٌ عليها أيضا.

وقد وقع لأبي بكر أن رجلا اشـتد عليه وأغلظ عليه القول حتى ظهر الغضـب في وجه أبي بكر، فقال أبو برزة الأسـلمي: ألا أضـرب عنقه يا خليفة رسـول الله؟ فإذا أبو بكر يتجنب الأمر، فلما انفض المجلس قال أبو بكر لأبي برزة: أرأيت حين رأيتني غضـبت على رجل فقلت أضـرب عنقه يا خليفة رسـول الله أَوَ كنت فاعلا ذلك؟! قلت: نعم والله والآن إن أمرتني فعلتُ. قال: والله ما هي لأحد بعد محمد ﷺ»[١]. وبهذا يقرر أبي بكر أن معارضة الخلفاء مهما كانت غلظة صاحبها لا تستوجب القتل كما كان ذلك في حق رسول الله ﷺ.

وقد تعددت الروايات في مناصـحة الصـحابة للخلفاء سـرًّا وجهرا؛ فما ثبت في ذلك مراجعة عمر لأبي بكر في حرب المرتدين ومانعي الزكاة[٢]، ومناصـحة علي[٣] وأسـامة بن زيد[٤] لعثمان، ويكاد عَصْرُ علي كله أن يكون أخبارا في الاعتراض على علي.

وحيث كان الخليفةُ وكيلا عن الأمة، وكان بشـرا منقطعا عن الوحي، يصـيب ويخطئ، وهو خاضـع لرقابة الأمة، فقد كان لا بد من اعتماد الشـورى ركنا أسـاسـيا في باب الحكم والسياسة، وكان عصر الخلافة الراشدة هو التأسيس العملي لهذا، فلئن كان رسول الله ﷺ

---

(١) أحمد (٦١)، أبو داود (٤٣٦٣)، النسائي (٣٥٣٥)، الحاكم (٨٠٤٥) وقال: على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وصححه الألباني وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده قوي.

(٢) البخاري (٦٨٥٥)، مسلم (٢٠).

(٣) البخاري (٢٩٤٤)؛ ابن حجر، فتح الباري، ٦/ ٢١٤، ٢١٥.

(٤) البخاري (٣٠٩٤).

قد عمل بالشورى وهو المعصوم المؤيد بالوحي، فالشورى في حق غيره أوجب.

ونقلت لنا الروايات شأن الخلفاء في الشورى:

فقد كان أبو بكر إذا لم يجد للمسألة نصا في كتاب الله سأل الناس: هل بلغهم شيء في هذا عن رسول الله، فإن لم يجد جمع لها رؤوس الصحابة فاستشارهم، فإذا اجتمعوا على رأي أخذ به[1].

وكان عمر يجمع للشورى ما أمكنه من الصحابة الكبار، لا سيما في المسائل الكبرى والنوازل، ويوحي فِعْلُه في طاعون عمواس أن شوراه كانت على ثلاث مستويات، فقد جمع من كان لديه من المهاجرين ثم من الأنصار ثم مشيخة قريش من مسلمة الفتح حتى صدر عن رأيهم، وذلك قبل أن يلقى عبد الرحمن بن عوف فيخبره بحديث النبي «إذا سمعتم الطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها»[2]، وكان القراء أهل مشاورته شبابا كانوا أو كهولا[3]، وكان يستشير الشباب حتى كان من أهل مشورته الصحابي الشاب عبد الله بن عباس[4]، حتى إن الإمام الزهري قال لبعض الغلمان من الناشئة: «لا تحقروا أنفسكم لحداثة أسنانكم فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا نزل به الأمر المعضل دعا الفتيان فاستشارهم يبتغي حدة عقولهم»[5]، واستشار من أسلم من العدو كما في استشارته الهرمزان في فتوح فارس[6]، ونقلت إلينا الروايات

---

(١) البيهقي، السنن الكبرى، ١٠/ ١١٤ بسند صححه ابن حجر. انظر: ابن حجر، فتح الباري، ١٣/ ٣٤٢.

(٢) البخاري (٥٣٩٧)، مسلم (٢٢١٩).

(٣) البخاري (٤٣٦٦).

(٤) البخاري (٣٤٢٨)، (٤٠٤٣).

(٥) البيهقي، السنن الكبرى، ١٠/ ١٠٣؛ ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، ط١ (الرياض: دار ابن الجوزي، ١٩٩٤م)، ١/ ٣٦٤.

(٦) البخاري (٢٩٨٩).

استشاراته حين كثرت الأموال في مصارفها وفي إنشاء الديوان[١]، وانعقد مجلس للمشورة في شأن تقسيم الأراضي الواسعة الخصبة في العراق وما إن كانت تقسم على الفاتحين أم يُحتفظ بحق فيها للأجيال القادمة[٢]، وقد ختم عمر حياته بمجلس للشورى في شأن انتخاب الخليفة من بعده[٣].

وافتتح عثمان عهده بالشورى في شأن عبيد الله بن عمر الذي قتل الهرمزان ثأرا لأبيه لما حامت حوله شبهة الاشتراك مع أبي لؤلؤة، فكان أكثر الناس مع دفع الدية فدفعها عثمان من ماله[٤]، وكانت خطواته في جمع الأمة على مصحف واحد وحرق بقية النسخ على ملأ من الصحابة كما قال علي بن أبي طالب[٥]، بداية من كاتب المصحف والمُحَكَّم في اللهجة ونشر النسخ من المصحف المعتمد، وغير ذلك حتى آخر حياته حيث ثبتت أخبار مشاوراته للصحابة في الفتنة التي انتهت باستشهاده[٦].

وكذلك كان علي يستشير كما في وقف القتال في صفين وفي التعامل مع الولاة في الأمصار ومع المشركين المتظاهرين بالإسلام[٧].

وأبرز ما يبدو فيه شأن الأمة مع الحاكم هو أن يعزل الأمير الوالي عنهم إذا لم يرغبوا

---

(١) أكرم العمري، عصر الخلافة الراشدة، ص١٠٣.

(٢) البيهقي، السنن الكبرى، ٦/ ٣٥١، وصححه الألباني في: إرواء الغليل تخريج أحاديث منار السبيل، ط٢ (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٩٨٥م)، (١٢٤٥).

(٣) البخاري (٣٤٩٧).

(٤) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣/ ٢٧١، بسند حسّنه ابن حجر في الفتح ١٣/ ٣٤٣.

(٥) ابن أبي داود، كتاب المصاحف، تحقيق: محمد بن عبده، ط١ (القاهرة: مكتبة الفاروق الحديثة، ٢٠٠٢م)، ٩٦، بإسناد صححه ابن حجر في الفتح ٩/ ١٨.

(٦) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣/ ٤٨؛ أحمد بن حنبل، فضائل الصحابة، تحقيق: وصي الله محمد عباس، ط١ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٣م)، ١/ ٤٧٣؛ ابن شبة، تاريخ المدينة، ٤/ ١٢٢٣.

(٧) أكرم العمري، عصر الخلافة الراشدة، ص١٠٤.

فيه، وقد شهد عصر الراشدين عزل ولاة لمجرد طلب أهل البلد، فربما اتهموهم بما هو كذب أو بما لا يثبت، ومهما كان هذا الوالي من الصحابة المشهورين بالفضل والسابقة والكفاءة، فقد عُزل عن الكوفة سعد بن أبي وقاص وعمار بن ياسر وأبي موسى الأشعري والمغيرة بن شعبة[١]، حتى ليُروى أن عمر قال: «هان شيء أُصلح به قومـًا: أن أُبدلهم أميراً مكان أمير»[٢].

وقد تكرر مثل هذا المعنى في قول عثمان الذي ردَّ أبا موسى الأشعري إلى الكوفة وعزل سعيد بن العاص، ومعه رسالة لأهل الكوفة تقول: «قد أَمَّرْتُ عليكم من اخترتم، وأعفيتكم من سعيد، والله لأُفْرِشَنَّكم عرضي، ولأبذلن لكم صبري، ولأستصلحنكم بجهدي، فلا تدعوا شيئا أحببتموه لا يعصى الله فيه إلا سألتموه، ولا شيئا كرهتموه لا يعصى الله فيه إلا ا استعفيتم منه، أنزل فيه عند ما أحببتم، حتى لا يكون لكم علي حجة»[٣]. وإن ترشيح عمر لسعد بن أبي وقاص ليكون خليفة من بعده ضمن الستة لدليلٌ قوي على أنه إنما عزله عن الكوفة لرغبة أهلها لا لنقص في كفاءته أو لِعَيْبٍ رآه منه!

## ٠٣ عزل الحاكم: «أطيعوني ما أطعت اللَّه، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم»

جاء في خطبة أبي بكر قولُه: «أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي

(١) عبد العزيز العمري، الولاية على البلدان، ص١٦٨ وما بعدها.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣/ ٢١٥؛ ابن شبة، تاريخ المدينة، ٣/ ٨٠٥، بإسناد فيه انقطاع، ولكن سنة عمر العملية تشهد له وتجعل معناه صحيحا.

(٣) الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ٦٤٤؛ والمعنى صحيحٌ وإن كان سند القول ضعيفا، انظر: البرزنجي، ضعيف تاريخ الطبري، ط١ (دمشق – بيروت: دار ابن كثير، ٢٠٠٧م)، ٨/ ٥٤٢، ٥٤٣.

عليكم»[1]، وبهذا يتقرر أن الخروج على المرجعية العليا، وهي الدين، مُسْقِطٌ لشرعية حكم الخليفة ومسْقِطٌ لحقه في الطاعة، إذ الطاعة في المعروف، ولا طاعة في المعصية[2]. وكان نصُّ البيعة للصديق هو قولُه لمن يبايعه «بايعوني على السمع والطاعة لله ولكتابه ثم للأمير»[3].

فالخليفة –في الإسلام- لا يخترع من عنده القانونَ الذي يحكم به، بل هو نفسه محكوم بالإسلام، والأمة رقيبة عليه. فلا يجوز للحاكم مثلا أن يظلم ويقسو بحجة «مصلحة الدولة» أو أن يسمح بانتشار الفحش والرذيلة لأنها تزيد من «الدخل القومي» أو يسمح بإجراءات اقتصادية فيها احتكار أو غش مراعاة لرجال الأعمال لجذب استثماراتهم. كل هذه الأمور وأمثالها لا تسمح به الأمة المسلمة ولو كان فيها ازدهار للأموال والرفاهية والطعام والمباني، إنما معيار ومقياس طاعة الأمة لحاكمها بقدر طاعته لله ورسوله.

ومن أوضح ما يحقق هذا، ما جاء في كتاب أبي بكر الذي كتبه لأنس بن مالك حين أرسله واليا على البحرين، أي أنه بمثابة خطاب التكليف الذي يشتمل الحقوق والواجبات، فكان مما جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذه فريضة الصدقة التي فرض رسول الله ﷺ على المسلمين، والتي أمر الله بها رسوله، فمن سألها من المسلمين على وجهها فليعطها، ومن سئل فوقها فلا يعط»[4]، فهنا نرى الأمير يحرض المسلمين على عصيان السلطة إن كانت تطلب ما هو فوق حقها المقرر في شرع الله، وأن يمتنع عن أدائه، ونقل بعض العلماء «الاتفاق على ترجيحه، وقيل معناه: فليمنع الساعي وليتول هو إخراجه بنفسه، أو بساع آخر، فإن الساعي الذي طلب الزيادة يكون بذلك متعديا و شرطه

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ٢/ ٦٦١، وقال ابن كثير (البداية والنهاية ٥/ ٢٦٩): هذا إسناد صحيح.

(٢) البخاري (٤٠٨٥)، (٦٧٢٥)، (٦٧٢٦)، (٦٨٣٠).

(٣) أكرم العمري، عصر الخلافة الراشدة، ص٥٢.

(٤) البخاري (١٣٨٦).

أن يكون أمينا»[١].

ويُلاحَظ فارقٌ واضحٌ بين عبارة «إن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوِّموني» وبين عبارة «أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله فلا طاعة لي عليكم»، فالعبارة الأولى تتعلق بتصرفات الخليفة في الأمور الاجتهادية بينما العبارة الثانية تتعلق بالتزامة أو خرقه المرجعية العليا، ففي التصرفات الاجتهادية يحتمل الأمر الإحسان أو الإساءة وهنا تكون الإعانة أو التقويم دون العصيان والخروج، وأما في شأن الأصول والثوابت فإن خرقها يحمل الأمة على عصيان الخليفة والخروج عليه بحسب ما فعل وبحسب ما يستطيعون. يقول عبد القاهر البغدادي: «فمتى أقام (أي: الحاكم) في الظاهر على موافقة الشريعة كان أمره في الإمامة منتظما، ومتى زاغ عن ذلك كانت الأمة عيارا عليه في العدول به من خطئه إلى صواب أو في العدول عنه إلى غيره. وسبيلهم معه فيها كسبيله مع خلفائه وقضاته وعُمَّاله وسُعاته، إن زاغوا عن سننه عدل بهم أو عدل عنهم»[٢]. وهذا شأن الأمة فيمن خرج عن الشريعة، فكيف بمن خرج عليها وحاربها وأهلها؟!

ومثلما لم يزعم خليفة من الراشدين أنه تولى بنصٍّ أو فضيلة زائدة على الناس، لم يزعم أحدٌ منهم أنه مُحَصَّنٌ من العزل، وقد بدا هذا بوضوح حين تمرد أهل الفتنة على عثمان فحاورهم ودافع عن نفسه ودفع عنها الشبهات التي زعموا بها أنه غيَّر وبدَّل، وقد أطال معهم الجدال وكرره[٣]، وقد اجتمع على بقائه في الخلافة الصحابةُ والتابعون، حتى قال له ابن عمر: «لا تخلع قميص الخلافة عنك فتكون سنة، كلما كره قوم أميرهم خلعوه»[٤]، يقصد بذلك أن الخليفة لو خلع نفسه كلما تمردت عليه قلة فلن يبقى

(١) ابن حجر، فتح الباري، ٣/ ٣١٩.

(٢) عبد القاهر البغدادي، أصول الدين، ط١ (اسطنبول: مدرسة الإلهيات بدار الفنون، ١٩٢٨م)، ص٢٧٨.

(٣) البخاري (٢٦٢٦).

(٤) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣/ ٤٨؛ أحمد بن حنبل، فضائل الصحابة، ١/ ٤٧٣؛ ابن شبة، تاريخ المدينة، ٤/ ١٢٢٣.

للمسلمين نظام ولا للخلافة هيبة!

إن هذه العبارة التي نطق بها الصديق هي التي حدَّدت معنى الشرعية في النظام الإسلامي، والشرعية هي الأمر الذي تهتم به كل سلطة، إذ لا تستطيع سلطةٌ أن تحكم وهي تجاهر بأنها تحكم بالغلبة والقهر بلا حق ولا مُسَوِّغ! فلا بد لها من تبرير هيمنتها، فتخترع لذلك روايتها للتاريخ وتنتج أفكارها وفلسفتها، ويدعي الملك أنه إله أو شبه إله أو من نسل الآلهة أو من عرق مقدس أو نحو ذلك أو يزعم لنفسه شرعية الإنجاز والرخاء، وقد اجتمع ذلك في فرعون لما قال ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾[القصص: ٣٨] وقال ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الزخرف: ٥١]، وبهذه الشرعية تطلب السلطة من الناس الخضوع لها وتُجَرِّم الخروج عليها. فالشرعية في أي نظام وضعي هي إنتاج النظام نفسُه، بما في ذلك الدساتير والقوانين التي ليست في الواقع سوى رغبات الأقوياء التي كتبوها بعد انتصارهم وسيطرتهم[1].

إن شرعية السلطة في النظام السياسي الإسلامي تتفرد عن سائر النظم السياسية، في كونها تستند إلى الدين، إلى نص مقدس معصوم، هو القرآن والسنة، لم يكتبه بشر في لحظة انتصاره وغلبته، وهو محفوظ لا يمكن تغييره ولا تحريفه، ويحظى بقداسة في ضمير الناس تجعل من الخطورة إقدام الحاكم على تجاوزه أو خرقه، وليس ثمة فئة كهنوتية تحتكر تفسيره أو تملك تبديل أحكامه وإنما شأن تعلمه والتفقه فيه متاح لكل مسلم. بالتأكيد سيحاول الحاكم تبرير انحرافه واختيار علماء يبررون ويشرعنون له أخطاءه، لكن كل هذا يظل أمرا مفضوحا ومحفوفا بالخطر[2].

---

(١) يقول الفيلسوف الألماني المشهور نيتشه «القانون ما هو إلا تعبير عن رغبات الأقوياء». وكان القانوني المصري المشهور عبد الرزاق السنهوري يقول: «القانون يحكم بين متكافئين في القوة، فإذا لم يكن ثمة تكافؤ فالقوة هي القانون».

(٢) انظر: محمد إلهامي، «شرعية السلطة بين الإسلام والعلمانية»، بتاريخ ٢٠ مارس ٢٠١٦م.

ويعد هذا من أسـباب قوة المجتمع الإسـلامي وقدرته المتجددة على الثورة، إذ كانت الثورات في التاريخ الإسلامي تحت ظل مرجعية الإسلام نفسها، فهي تخرج على الحاكم لكونه انحرف عن مرجعية الإسلام، سواءٌ كان خروجهم هذا بالحق أو بالباطل.

ويُعَدُّ التاريخ الإسلامي من أخصب أحقاب التاريخ الإنساني في النزعة الثورية والنجاة من الهيمنة الطغيانية للحُكَّام حتى قال الشهرستاني «ما سل سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سـل على الإمامة في كل زمان»[1]، وهي كلمة تدلّ على مبلغ تشـبع المجتمع المسلم بالأفكار الثورية ومدى قدرته على إشعال ثورة[2].

(١) الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق: محمد سيد كيلاني، ط٢ (بيروت: دار المعرفة، ١٩٧٥م)، ١/ ٢٤.

(٢) للمزيد، انظر: محمد إلهامي، «أخطاء فهم الحديث في ضوء الثقافة المعاصرة: أحاديث طاعة الأمراء في البخاري نموذجا»، ضمن: سردار دميرل وآخران (تحرير)، صحيح البخاري: مقاربة تراثية ورؤية معاصرة، ط١ (اسطنبول: جامعة ابن خلدون، ٢٠٢٠م)، ٢/ ٢٩٧ وما بعدها.

# النظام الاجتماعي الإسلامي: التكتل الاجتماعي

لا ينفصل النظام السياسي عن النظام الاجتماعي، فكُلًّا منهما يؤثر في الآخر ويصنعه، إلا أن كفة القوة تميل إلى النظام السياسي، فالنظام السياسي في النهاية أقدر على التأثير في الوضع الاجتماعي من قدرة الوضع الاجتماعي على التأثير في النظام السياسي.

وتعد المعضلة الأبرز في الفكر السياسي صورة من صور العلاقة بين النظام السياسي والاجتماعي، وهي المعضلة المتعلقة بثنائية الأمن والحرية، فالسلطة القوية تفرض الأمن ولكنها بقوتها تتغول وتذهب إلى الاستبداد، كما أن السلطة الضعيفة تعجز عن الاستبداد فتتعاظم الحرية في المجتمع ولكنها لضعفها تعجز عن إقرار الأمن فيذهب الاستقرار وتعم الفوضى أو يقع المجتمع فريسة الغزو الأجنبي.

وعبر التاريخ فقد انتهت النتيجة إلى صالح السلطة وفرض الأمن والاستقرار على حساب الحرية، فكافة ما نراه من حضارات العالم وآثاره الضخمة إنما هي نتيجة دول استبدت فيها السلطة بالرعية، وخلف كل مأثرة حضارية فخمة قصة شعب مستذل مستعبد! وحتى في سياق الفِكْر السياسي، فأغلب المدارس الفكرية السياسية نَحَتْ نحو

جانب السلطة وقوتها، بما في ذلك المدرسة الليبرالية، لكن هذه المدرسة بذلت جهدها في محاولة جعل السلطة صورة معبرة عن المجتمع من خلال الانتخابات والفصل بين السلطات، وإن كانت في النهاية قد أخفقت في ذلك، وتحولت التجربة العملية إلى أن صاحب القوة هو من يملك التحكم بالسلطات الثلاث ويوظفها لصالحه[١].

وقد جاء الإسلام بالحل المثالي لهذه المعضلة، وهو الحل الذي لا يمكن أن تنتجه حضارة أو ثقافة أخرى، وذلك أنه تنظيم لا للمجال السياسي وحده بل للمجال الاجتماعي والاقتصادي أيضا، بينما اقتصرت فلسفات الفكر السياسي في العادة على تنظيم المجال السياسي من خلال طريقة تكوين السلطة عبر الانتخابات أو توزيع صلاحيات السلطة بين عدد من المؤسسات لجعل بعضها رقيبا على بعض.

وحين نقول بأن الحل الذي جاء به الإسلام هو الحل المثالي فإن هذا لا يعني بحال أن المسلمين استطاعوا دائما تطبيقه كما هو أو أنهم لم ينحرفوا عنه طوال تاريخهم، وهذا ظاهرٌ في واقعنا المعاصر حيث وصلنا إلى حال بائسة من الضعف والتمزق، ولكن إدراكنا للنظام الإسلامي وطبيعته هو الذي يجعلنا ندرك أن انحرافنا عنه هو سبب هذا الحال البائس، وهو سبب الضعف والتمزق. لا أن هذا النظام الإسلامي هو سبب ما نحن فيه من بؤس كما يطرح ذلك العلمانيون والمتغربون.

يتمثل هذا الحل الإسلامي في أنه أنشأ نظاما متوازن القوى بين السلطة والمجتمع، حيث عمل الإسلام على تقوية المجتمع وتكتيله وتمتين روابطه وعلاقاته، وعمل على نزع عوامل الاستبداد من يد السلطة. وهذا النظام الإسلامي صُنِع من خلال النصوص القرآنية والنبوية والتي لها من القداسة ما يفوق أي دستور، ولها من الحكمة والصلاحية ما لا يناله أيُّ نصٍّ كتبه بشرٌ قاصرُ العلمِ والحكمة، ولها من المفارقة لضغط الزمان والمكان

(١) للمزيد: محمد إلهامي، «الإسناد الاجتماعي والاقتصادي بين الديمقراطية والنظام الإسلامي»، مؤتمر الحوكمة والسلطة السياسية في العالم الإسلامي، اسطنبول، ديسمبر ٢٠٢٠م.

ما لا يتوفر لأي نصٍّ قانوني أو دستوري كُتِب في لحظة ما وبيئة ما بغرض تثبيت نصرِ المنتصر أو الحفاظ على مصالح الغالب القوي. وبالإضافة إلى هذه النصوص فقد صُنِع هذا النظام من خلال العبادات والشعائر والمعاملات والأخلاق التي تتغلغل في حياة المسلمين وتنظم حياتهم الاجتماعية ومعاملاتهم الاقتصادية بما يجعلهم مجتمعا قويا متكتلا. وبالإضافة إلى هذا كله فإن الإسلام قرر شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجعل لها قيمة عليا لتكون بمثابة جهاز المناعة وجهاز الإنذار المبكر للمجتمع المسلم، وقد مُنِح حق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكل مسلم، وكانت ذروة هذا الحق ما يكون في مواجهة السلطة، حتى إن القائم بالحق في وجه السلطان الجائر هو في منزلة سيد الشهداء[1].

ومن خلال هذا المجتمع المتماسك المتكتل يحدث التوازن الذي يرفع من قوة المجتمع أمام قوة السلطة، ويُمَكِّنه من مراقبتها ومقاومتها، وأشد من ذلك أن من واجبات السلطة المحافظة على إقامة العبادات والشعائر التي تعمل على زيادة تكتل المجتمع وقوته.

لقد ظهرت العناية بالروابط الاجتماعية في اللحظات الأولى لعصر الخلافة الراشدة، حين خاطب أبو بكرٍ الأنصار بأن العرب لا ترضى بالحكم إلا أن يكون في قريش، «هم أوسط العرب نسبا ودارا»[2]، وهو الأمر الذي فقهه الأنصار وخضعوا له، فكان ذلك من أعظم مآثرهم في الحفاظ على وحدة المسلمين في أحرج لحظة مرت بالأمة[3].

وتعددت الإجراءات التي نرى فيها هذه الموازنة الاجتماعية؛ فلقد كان عمر لا يولي

(١) للمزيد: محمد إلهامي، منهج الإسلام في بناء المجتمع، ط١ (القاهرة: دار التقوى، ٢٠١٥م)، ص١١٣ وما بعدها.

(٢) البخاري (٦٤٤٢).

(٣) في مسألة شرط القرشية في الخلافة، يراجع: محمد إلهامي، «حديث الأئمة من قريش في العصر العثماني»، مؤتمر علم الحديث في الدولة العثمانية، وقف اسطنبول للبحوث والعلوم (ISAR)، اسطنبول، ديسمبر ٢٠١٤م.

رجلًا من البادية على أهل الحاضرة[١] ويظهر أن هذا لكي لا يكون اختلاف الطبع مما ينفر بعضهم من بعض.

وكذلك تعددّ من أبي بكر وعمر أنهما يجعلان الرجلَ على قومه، فقد كان عامة ولاة اليمن في عهد أبي بكر من أهل اليمن[٢]، وقد ولَّى عمر جرير البجلي على قومه بجيلة حين وجههم إلى العراق، ونافع بن الحارث على مكة، وعثمان بن أبي العاص على الطائف، وسلمان الفارسي على المدائن[٣] ويظهر منه أن هذا أقوى لتكتلهم واجتماعهم ورضاهم بأميرهم. وجاء في وصية عمر لأبي موسى الأشعري إكرام «وجوه الناس» الذين هم القيادات الاجتماعية التي تحمل حوائج الناس إلى الوالي[٤]. ونرى في قوائم الولاة في عهد عثمان نماذج من تولي رجال على أقوامهم وهم منهم مثل: خالد بن العاص بن هشام ثم علي بن ربيعة العبشمي على مكة، والقاسم بن ربيعة الثقفي على الطائف[٥]، ولما شُكِي إلى عثمان تقصيرا من واليه على الكوفة في تقديم ذوي الشرف والسابقة حتى ارتفع شأن الأعراب والروادف، أرسل إليه عثمان يقول: «ففضِّل أهل السابقة والقُدْمة ممن فتح الله عليه تلك البلاد، وليكن مَن نزلها بسببهم تبعًا لهم؛ إلّا أن يكونوا تثاقلُوا عن الحقّ، وتركوا القيام به، وقام به هؤلاء. واحفظ لكلٍّ منزلته، وأعطهم جميعًا بقسطهم من الحقّ، فإنّ المعرفة بالناس بها يصاب العدْل»[٦].

وقد حافظ الراشدون على التنظيم الاجتماعي المستند إلى القبيلة، فقد تحركت

(١) أكرم العمري، عصر الخلافة الراشدة، ص١٢٨.

(٢) عبد العزيز العمري، الولاية على البلدان، ص٧٧؛ أكرم العمري، عصر الخلافة الراشدة، ص١١٢.

(٣) عبد العزيز العمري، الولاية على البلدان، ص١٩١. وتكشف قوائم الولاة عن أسماء أخرى ولاها عمر على أقوامهم كخالد بن العاص المخزومي على مكة وسفيان بن عبد الله الثقفي على الطائف وغيرهما، وإنما المذكور في المتن أمثلة.

(٤) الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ٥٦٦.

(٥) أكرم العمري، عصر الخلافة الراشدة، ص١٣٧-١٣٨.

(٦) الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ٦١٣.

الجيوش الإسلامية في الفتوحات فكانت كتائبها على هيئة القبائل، فالدراسة المعمقة تجزم بأن «قبائل المسلمين العرب كانت تتحرك كوحدات حربية في الميدان، خلافا لما ذهب إليه كثير من الكتاب المحدثين من أن الإسلام قضى على النزعة القبلية، وصهر القبائل كلها في بوتقة واحدة لا تدين بالولاء للقبيلة.. كلا، إن ما أذابه الإسلام وقاومه هو العصبية القبلية والتفاخر بالأنساب؛ ولكنه لم يحارب القبيلة في حد ذاتها كوحدة لها وجود عميق في البيئة العربية، لقد ظلت القبيلة هي الوحدة الاجتماعية والوحدة الحربية المعترف بها في الفتوح الأولى، واستفاد الكيان الإسلامي من هذا الوجود إلى أقصى حد»(١).

ويرى بعض المؤرخين أن سر قوة الفتوحات أنها استندت إلى «تقنية حربية كانت تحترم تشكيل وحدة القبيلة»(٢). وأشهر ما نُقِل في هذا ما حصل في موقعة اليمامة، أشد حروب الردة، فقد ميز خالد بن الوليد الجيش المقاتل في اليمامة إلى القبائل؛ ليمتاز الناس ويعرف من أين يؤتى الخلل، فدافع كل قوم أشد المدافعة لئلا يقال أتي المسلمون من قبلهم(٣).

وقد قُسِّمت المدن التي أنشأها المسلمون، في عصر الخلافة الراشدة وفيما بعدها، على هيئة القبائل، فكانت خطط المدينة موزعة على القبائل، جرى هذا في البصرة والكوفة والفسطاط وغيرها(٤).

---

(١) أحمد عادل كمال، الطريق إلى المدائن، ط٦ (بيروت: دار النفائس، ١٩٨٦م)، ص٢٠.

(٢) جاك ريسلر، الحضارة العربية، ترجمة: خليل أحمد خليل، ط١ (بيروت: منشورات عويدات، ١٩٩٣م)، ص٤٦.

(٣) الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ٢٧٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٦/ ٣٥٧؛ محمد بن طاهر البرزنجي، صحيح تاريخ الطبري، ٣/ ٦٣؛ أكرم العمري، عصر الخلافة الراشدة، ص٤٠٧، ٤٠٨.

(٤) شاكر مصطفى، المدن في الإسلام حتى العصر العثماني، ط٢ (دمشق: دار طلاس، ١٩٩٧م)، ١/ ٣٢١، ٣٤٨ وما بعدها؛ محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، ص٤٩، ٥٧، ٥٨، ٦١؛ عبد الجبار ناجي، المدن العربية الإسلامية، ط٢ (بيروت: شركة المطبوعات، ٢٠٠٩م)، ص١٦٣، ١٩١، ٢١٤، ٢٥٧، ٣٠٥، ٣٢٩، ٤٠٣، ٤٢٨، ٤٧١.

كذلك فقد كانت الأموال والغنائم وقسـمة الدواوين تُوَزَّع وفق الانتماء القبلي، فلما زاد الناس ووضعت الدواوين في عهد عمر، عَّرف العرفاء أي: سمَّى لكل قوم عريفا[1].

ومن اللافت للنظر والمثير للاهتمام في هذا الأمر أن التنظيم الاقتصـادي والإداري للدولة الإسـلامية إنما نشـأ بغرض تحقيق كفاءة توزيع المال على الرعية، وليس بغرض تحقيق كفاءة السلطة في جمع المال واستخلاصه. فلقد كان أبو بكر يوزع الأموال بمجرد قدومها، وظلَّ الأمر كذلك في خلافة عمر حتى إذا كثرت الأموال وكثر الداخلون في الإسـلام ظهرت الحاجة إلى تدوين الدواوين، ومنها: ديوان العطاء، ليحسـن توزيع المال[2].

إن النظام الإسلامي أنشأ سلطة محدودة الصلاحيات، يقتصر عملها على تحقيق الأمن والدفاع وما يتعلق بهما، دون تضخم يسيطر على الأموال والأنشطة العلمية والاجتماعية التي يمارسـها المجتمع، إن السـلطة في النظام الإسـلامي تشـبه شـرطي المرور الذي لا يتدخل إلا إذا وقعت حادثة أو بدا أن ثمة حادثة سـوف تقع، إن «تدخل الحكومة في المجتمع والقانون هو الاسـتثناء وليس القاعدة»[3]، ومن هنا يمكن فهم الاجتهاد العمري في حبس أرض السـواد وجعلها موردا تابعا للدولة، لقد كان هذا اجتهادا منه حين رأى أن توزيع هذا المال الضخم سيُحدث فروقا طبقية قوية، بتكديس الأموال لدى فئة الفاتحين دون غيرهم من المسلمين ومن الأجيال القادمة، فلهذا اجتهد في حبس المال وجعله موردا تابعا للدولة[4]، وكان حريصا –مع ذلك- ألا تُحَمَّل الأرضُ ما لا تطيق، أي أن يُفرض عليها من الجزية أكثر من المقدار[5]. إن هذا الاجتهاد نفسه دليلٌ على أن الأصل هو توزيع

---

(١) أكرم العمري، عصر الخلافة الراشدة، ص٢٣١.

(٢) أكرم العمري، عصر الخلافة الراشدة، ص٢٢٨ وما بعدها.

(٣) وائل حلاق، الدولة المستحيلة، ص١٠٨، وهو ينقل هنا عن شيرمان جاكسون في كتابه «الشريعة والدولة».

(٤) البخاري (٢٢٠٩)؛ القاسم بن سلام، الأموال، ص٧٤؛ ابن زنجويه، الأموال، ص٢٣٠.

(٥) البخاري (٣٤٩٧).

المال على الرعية أولا بأول، إلا أن يؤدي هذا التوزيع إلى ضـــررٍ ما، وبذلك نرى أن تقوية المجتمع كان جزءا من واجبات السـلطة، وأن تغير الاجتهاد فيه إنما هو خوفا من الضـــرر والخلل الذي يمكن أن يصيب المجتمع إذا انفتح على قسمٍ منه موردٌ مالي كبير.

وقد وصــلت العناية بالروابط الاجتماعية إلى التفاصــيل الصــغيرة، فلقد كان أبو بكر وعمر وعثمان يكرهون زواج الرجل من القريبتيْن مخافة الضغائن التي تتولد من المنافسة بين المرأة وضــرتها[١]. وحثَّ عمر رجلا من قريش أن يُزَوِّج أخته رجلا من الموالي طالما كان صــالحا وطالما كانت الأخت راضــية[٢]، وهذه تُحْسَــب في ســياســة تقريب القبائل وتكتيلها وشدّ علاقتها بعضا إلى بعض.

وكانت النتيجة أنه «لم تكن هناك أي طبقة اجتماعية منغلقة على ذاتها، أو طبقة اجتماعية تسـبب صــدعا أو خللا في وحدة المؤمنين، ولا مزايا اســتثنائية فيما عدا الشـعور الذاتي بالتفوق لأولئـك الـذين قبلوا وآمنوا بـاليقين الجـديـد، في مواجهـة الـذين رفضــوا طواعيـة الإيمـان الحقيقي»[٣].

ومما يدل على قوة التكتل الاجتماعي في عصـر الراشـدين أن عمر بن الخطاب تخوف في آخر عهده من بعض المظاهر أن تنزلق إلى التعصــب والاختلاف، فأوصــى بألا تقتصــر مجالس القوم على أنفســهم بل أن تكون عامة، لتزداد الألفة وتتوثق العرى بين المؤمنين فتكون الأخوة الإيمانية حافظة وعاصـمة أن تنزلق قوة العشـيرة إلى التفرق والتحزب، قال عمر لناس من قريش: «بلغني أنكم تتخذون مجالس، لا يجلس اثنان معا حتى يقال: من صــحابة فلان؟ من جلســاء فلان؟ حتى تُحُومِيَت المجالس. وايم الله إن هذا لســريع في

---

(١) ابن حجر، فتح الباري، ٩/ ١٥٥، ١٥٦.

(٢) المحب الطبري، الرياض النضرة في مناقب العشرة، ط٢ (بيروت: دار الكتب العلمية، د. ت)، ٢/ ٣٩٣.

(٣) برنارد لويس، الإسلام في التاريخ: الأفكار والناس والأحداث في الشرق الأوسط، ترجمة مدحت طه، ط١ (القاهرة: دار آفاق، ٢٠١٨م)، ص٤٤٣.

دينكم، سـريع في شـرفكم، سـريع في ذات بينكم، ولكأني بمن يأتي بعدكم يقول: هذا رأي فلان، قد قسـموا الإسـلام أقسـاما، أفيضـوا مجالسـكم بينكم، وتجالسـوا معا، فإنه أدوم لألفتكم وأهيب لكم في الناس»[1].

وبالتأمل في موقفٍ كهذا نرى أن التخوف في عصر عمر كان من عودة العصبية، مما يدل على رعاية الإسلام لهذا الترابط الاجتماعي.

وهذا الوضـع يناقض تماما ما هو قائم في نظام الدولة الحديثة المهيمنة على واقعنا المعاصـر، فالدولة الحديثة تريد دائما أن يظل الشـعب مجموعة من الأفراد بحيث تعامل الدولة كلا منهم بشكل منفرد، وتحاول الفلسفات كسر هذه الطغيانية من خلال منظمات المجتمع المدني التي تحاول إيجاد روابط بين أصـحاب المهنة الواحدة أو الاهتمامات المشتركة كالنقابات المهنية والهيئات الإغاثية ونحوها، والآن يعاني الغرب مستوعا مريعا من التشـتت الاجتماعي يصـل إلى حد التفكك الكامل للأسـرة التي هي أصـغر مُكَوِّن في النظام الاجتماعي. وهو ما يجعل الغرب مرشـحا في أي ظرف لينتج اسـتبدادا صـريحا، فالسلطة المتغولة لا يقابلها مجتمع متماسك متكتل[2].

والخلاصـة التي يجب التأكيد عليها أن انحراف النظام السـياسـي لا يمكن أن يكون علاجه محاولات قاصرة من داخل المجال السياسي، كتوزيع السلطات أو تعديل الهياكل أو تطوير البيروقراطية والرقمنة وما إلى ذلك من الأدوات، كما أن انحراف النظام السياسي

---

(١) الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ٥٧٢.

(٢) مسألة السلطة المتغولة التي تملك الهيمنة الكامنة على المجتمع مثارة في تنظير المفكرين الغربيين، ولكن أقرب من عبَّر عنها في تقديري كان جورجيو أجامبين في كتابه «حالة الاستثناء» حيث يتحدث بوضوح أن السلطة التي تملك إعلان حالة الطوارئ تنفرد بالتصرف وتستبد بالقرار دون المجتمع، فهي التي تحدد متى تبدأ حالة الطوارئ وماذا تفعل في أثنائها ومتى تنتهي، وتنسف بذلك كل معنى لحرية الشعب واختياراته. وكلامه هذا هو تطوير لأفكار كارل شميت في كتابه «اللاهوت السياسي» الذي صدر قبل نحو مائة عام (١٩٢٢) حيث قرر شميت أن صاحب السيادة هو من يملك فرض حالة الاستثناء.

لا يعتمد بالضــرورة على طبيعته الملكية أو الجمهورية أو نظامه الفيدرالي والكونفدرالي، بل إن انحراف النظام الســياســي لا يمكن أن يُواجَه بقوة المجتمع، والمجتمع بدوره لا يمكنه أن يكون كذلك إلا بتقاليد راســخة ونظام اجتماعي قوي، فهذا وحده أقوى من أي نص دستوري وقانوني وأقوى من تطوير هيكل السلطة.

ووفقـا لهـذا المنظور فلن يكون ثمـة نظـام اجتمـاعي يوازن ويعـادل وينـاظر النظـام السياسي إلا في الإسلام وحده.

# العلاقات الدولية: الجهاد والفتوحات الإسلامية

إن مسألة العلاقات الدولية أوسع كثيرا من موضوع الجهاد والفتوحات الإسلامية، وفي العصر الراشدي وقائع متعددة عن السفارات والمراسلات والمعاهدات، بل والمهاداة، مثلما ورد من أن أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب وهي زوجة عمر بن الخطاب أرسلت هدية إلى إمبراطورة الروم فأرسلت إليها الإمبراطورة هدية فاخرة فلم يسمح عمر لها إلا بأخذ المثل وردَّ الهدية إلى بيت المال[1]. إلا أننا نركز على موضوع الجهاد والفتوحات بشكل خاص لكونه أشد ضرورة وإلحاحا في واقعنا المعاصر.

## ١. ضرورة الجهاد: الجهاد أو الذل

في خطبة الخلافة الأولى، التي وضع فيها أصول النظام السياسي الإسلامي، لم يتكلم أبو بكر في مجال العلاقات الدولية إلا بهذه العبارة: «لم يدع قوم الجهاد في سبيل الله، إلا ضربهم الله بالذلّ»، وأبو بكر شاهد عيان على تاريخ الإسلام فقد رأى كيف يكون توحش

---

(١) الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ٦٠١.

الكفر وفِعله في المؤمنين إذا غلب عليهم، كما كان في مكة: قتلا وتعذيبا وحصارا وتوجيعا ومطاردة، ورأى كيف استرد الحق مكانته شيئا فشيئا حتى صار عزيزا مرهوبا مهيبا عبر الجهاد، وشهد أبو بكر نزول الإذن بالقتال في قوله تعالى ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١﴾[الحج: ٣٩-٤١] ثم حضر المشاهد كلها حتى كان قبيل وفاة النبي في جيش أسامة الذي يغزو الروم! ومما أدركه أبو بكر أن الدول إما غازية وإما مغزوة، فلا سكون في هذه الحياة، والدول إما تتوسع أو تنكمش. والضعفاء هم من يدفعون ثمن ضعفهم في هذه الحياة أنواعا من الذل والقهر والتنكيل! إن من حقائق الحياة أن الناس لا يهتدون بمجرد معرفتهم للحق، ولو كان الأمر كذلك ما احتاج نبي أو داعية أن يجاهد، ولما احتاج الناس إلى جيوش أو شرطة أو أي مظهر للقوة، إن وجود هذا هو أوضح دليل على أن بيان الحق وحده ليس كافيا لخضوع البشر له، والإنسان يرى في نفسه أنه يندفع تحت ضغط الشهوة أو العادة أو الطمع لارتكاب الخطأ والخطايا وهو يعلم. والمجرمون لا يرتدعون بمجرد الوعظ بل بالخوف من العقوبة. لكل هذا احتاج الحق ومن يحمله إلى قوة تحميهم من الباطل، وتعينهم على إنقاذ الناس منه، وتمكنهم من نشر العدل ورفع المظالم(١).

والجهاد مما أجمع عليه الخلفاء الراشدون، فكلهم جاهدوا وأرسلوا الجيوش، فقاتل أبو بكر أهل الردة ثم بدأ الفتوحات، واستمرت الفتوحات تتوسع في عهد عمر وعثمان، وقاتل علي البغاة والخوارج.

ويختلف الفقهاء: هل الأصل في علاقة الدولة الإسلامية بغيرها هو السلم أم هو

---

(١) للمزيد: محمد إلهامي، «ضربهم الله بالذل!»، بتاريخ ٤ أكتوبر ٢٠١٧م.

الحرب؟ ولهم في هذا كلام طويل وردود وتفصـيل[1]، وهذا الخلاف لا يهمنا هنا فهو أقرب لأن يكون خلافا نظريا، وأما الواقع العملي كما جرت به سـنة التاريخ وطبائع الاجتماع، فهو أن تجاور الحق والباطل أمر غير ممكن، ولا بد أن يشـعل نزاعا، إذ كل منهما يقوم على هدم الآخر وحربه، وكل منهما تهديد وجودي للآخر. ولذلك يستحيل أن يستمر سلامٌ بين كيانيْن متناقضيْن، ولا بد أن تؤول الأوضاع إلى الحرب.

وقد ابتدأت العداوة بين المسـلمين وبين الفرس والروم في زمن النبي ﷺ فقد أرسـل كسرى إلى عامله على اليمن أن يعتقل النبي ﷺ وذلك لما وصلته رسالة النبي التي تدعوه إلى الإسـلام، ثم إن الفرس عاونوا المرتدين في شـرق الجزيرة العربية، فقاتلهم المثنى بن حارثة الشيباني. كذلك فإن العداوة مع الروم بدأت بإعانتهم الغساسنة الذين قتلوا رسول رسول الله ﷺ في غزوة مؤتة، ودعموا قبائل الشمال ضد المسلمين، فالبداية إذن كانت من عند الفرس والروم وكان هذا هو ردُّهم العملي على رسالة دعوية ليس فيها تهديد ولا نذير حرب.

ومع ذلك فلم يكن فتح المسلمين لهذه الديار انتقاما من أهلها، بل كان إنقاذا لهم، وقد عبَّر عن هذا المعنى سفراء الجيوش الإسلامية، كما قال ربعي بن عامر لرستم قائد الفرس قبيل المعركة الفاصلة في القادسية، هذه العبارات القوية الواضحة الفصيحة: «لقد ابتعثنا الله لنخرج من شـاء من عبادة العباد إلى عبادة الله رب العباد، ومن ضـيق الدنيا إلى سـعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»[2].

إنه لولا هذا الجهاد وهذه الفتوحات ما كان ليكون للإسلام دولة وحضارة ذات فضل على العالمين، بل ولكان مصيرنا الآن أن نكون من عبدة الأصـنام أو الخرافات والأوهام

---

(١) انظر للمزيد: محمد خير هيكل، الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، ط٢ (بيروت: دار البيارق، ١٩٩٦م)، ١/ ٨٢١ وما بعدها.

(٢) الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ٤٠١.

أو الملوك والحكام. إن جهاد عصر الراشدين هو الذي أخرجنا من الظلمات إلى النور.

### ٢. الفتوحات المذهلة

إن المزيـة العظمى التي يتميز بها الجهـاد الإسـلامي عن غيره من سـائر الغزوات والحروب التي توسـعت بها الممالك والإمبراطوريات هي أنه جهاد رسـالي أخلاقي، لا يبتغي الطمع في الثروات أو اسـتعباد البشـر، بل يهدف لإنقاذ الناس ونشـر العدل، وكان الخليفة في المدينة هو أزهد الناس في الأموال والغنائم التي تتدفق عليه. ولا يمكن أن نعدّ المواقف والأدلة على أنه جهاد أخلاقي ورسـالي، لإنقاذ الناس ونشـر العدل، فهي كثيرة للغاية.

وفي بحثٍ قديم كنتُ قد جمعتُ مزايا الفتوحات الإسـلامية من كتابات المؤرخين والمستشرقين غير المسلمين[١]، فألتقطُ هنا منه شذرات سريعة مع إضافات جديدة:

ثمة اتفاق عام على أن الفتوح الإسـلامية من الأحداث والوقائع الاسـتثنائية والمعجزة في التاريخ البشـري، إذ يصـفها المؤرخ وعالم الاجتماع الإنجليزي هــ. ج. ويلز بأنها «أعجب قصص الفتوح التي مرت على مسرح تاريخ الجنس البشري»[٢]، ووصفها دهقان السياسة الأمريكية المعاصر هنري كيسنجر فقال: «تمخضت جولة توسع غير مسبوقة عن تحويل صـعود الإسـلام إلى أحد أكثر الأحداث خطورة في التاريخ»[٣]، ويرتبط هذا بعدد من الظواهر التي صاحبت هذه الفتوح، منها:

---

(١) محمد إلهامي، في أروقة التاريخ: الجزء الأول، ط١ (القاهرة: دار التقوى، ٢٠١٧م)، ص٢٣ وما بعدها.

(٢) هـ. ج. ويلز، موجز تاريخ العالم، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٧م)، ص٢٠٤.

(٣) هنري كيسنجر، النظام العالمي: تأملات حول طلائع الأمم ومسار التاريخ، ترجمة: فاضل جتكر، (بيروت: دار الكتاب العربي، ٢٠١٥م)، ص١٠٢.

١ . أن الفتوح الإسلامية استطاعت أن تُدخل الشعوب في ثقافتها، وهو الاستثناء التاريخي الذي يرصده مؤرخ الحضارات أرنولد توينبي، حيث يقرر أنه ما من غازٍ استطاع البقاء في أرض غزاها إلا بعد أن اصطبغ بصبغتها، إلا ما كان من الفتوح الإسلامية فإنها أدخلت المجتمع في الإسلام، وهذا الاستثناء الوحيد هو ما يجعل الفتوحات حالة خاصة في التاريخ[١]. وهو ما يفسره الباحث الفرنسي جاك ريسلر بأن الإسلام لم يكن الغالب وإنما كان «الفاتح» فانتشرت لغته العربية في البلاد المفتوحة، وعجز عن مثل ذلك كل الغزاة الآخرين في الديار الإسلامية[٢].

٢ . عادة الغزوات عبر التاريخية أن تكون سريعة غير راسخة كما تضخمت إمبراطورية المغول ثم تفككت وانتهت بعد وقت قصير، أو تكون الفتوحات بطيئة راسخة كما هو حال الإمبراطورية الرومانية التي قضت ثمانية قرون في سيطرتها على أوسع مساحة لها، ولكن الفتوحات الإسلامية حققت الأمرين معا: الاتساع السريع مع الرسوخ:

- فأما الرسوخ: فلا تزال خريطة العالم الإسلامي باقية بعد أربعة عشر قرنا مع أنها جرت في غضون مائة عام فقط، حتى عدَّها المؤرخ البلجيكي هنري بيرين «النقطة التي تميز النهاية الحقيقية للحقبة القديمة في التاريخ» وعدَّها مؤرخون آخرون كالألماني فلهاوزن والأمريكي بيكر والإيطالي كايتاني على أنها «العامل الرئيسي في تاريخ العالم»[٣]، وقرر المؤرخ النمساوي جوستاف جرونيباوم أنها «التي جعلت توزيع العالم المتحضر

(١) أرنولد توينبي، مختصر دراسة التاريخ، ٢/ ٢٤٨، ٢٤٩.

(٢) جاك ريسلر، الحضارة العربية، ص٥٢.

(٣) فرانشيسكو جابرييلي، «الإسلام في عالم البحر المتوسط»، ضمن: جوزيف شاخت وكليفورد بوزورث (إشراف)، تراث الإسلام، ترجمة: د. محمد زهير السمهوري وآخرون، سلسلة عالم المعرفة ١١ (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٧م)، ١/ ٨٨، ٨٩.

نهائيا ثابتا منذ زمن باكر»[1]، كذلك وُصِف رسوخ الفتوح الإسلامية بأنه «نشاط فائق أدهش العالم، وقلبه رأسا على عقب»[2]، ذلك أن «معظم البلاد التي غزتها جيوش المسلمين ظلت عربية إسلامية حتى يومنا هذا»[3].

- وأما السرعة: فقد خرقت الفتوحات الإسلامية القاعدة التي وضعها ابن خلدون وهي أن الدول المستجدة إنما تستولي على الدول المستقرة بالمطاولة لا بالمناجزة، بمعنى أن الدول الجديد تطاول الدول القديمة في قتالها ولا تنهيها بضربة واحدة سريعة، ولذلك قال ابن خلدون في تفسير سرعة الفتوح الإسلامية بأنه «اعلم أنّ ذلك إنّما كان معجزة من معجزات نبيّنا سرّها ا ستماتة المسلمين في جهاد عدوّهم ا ستبعادا بالإيمان وما أوقع الله في قلوب عدوهم من الرّعب والتّخاذل فكان ذلك كلّه خارقا للعادة المقرّرة في مطاولة الدّول المستجدّة للمستقرّة»[4]، وقد أفاض المؤرخون المعاصرون في وصف سرعة الفتوحات الإسلامية فوُصفت بأنها « سرعة لا يكاد يصدقها عقل»[5]، وأنها « سرعة خارقة لكل مألوف»[6]، وأن هذه الفتوحات «انبسطت في قرن واحد (ابتداء من سنة ٦٣٥) هيمنة العرب على نحو صاعق، فلم تتوقف، وقد خارت قواها المتقدمة إلا عند أبواب

---

(١) جوستاف جرونيباوم، حضارة الإسلام، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٤م)، ص١٥.

(٢) جواهر لال نهرو، لمحات من تاريخ العالم، ترجمة: عبد العزيز عتيق، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٨م)، ص٢٣، ٢٤.

(٣) مايكل هارت، الخالدون مائة أعظمهم محمد ﷺ، ترجمة: أنيس منصور، ط٦ (القاهرة: المكتب المصري الحديث، ١٩٨٥م)، ص٢١١.

(٤) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ١/ ٣٧٥.

(٥) جوستاف جرونيباوم، حضارة الإسلام، ص١٦.

(٦) برتراند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية، ترجمة: د. زكي نجيب محمود، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠م)، ٢/ ١٨١.

بواتييه [شمال فرنسا] سنة ٧٣٢ والتركستان الصيني سنة ٧٥١»[١]، «لم يكن التقدم هنا تدريجيا، بل في سلسلة من الوثبات كانت تتخللها فترات من الهدوء والتوطيد»[٢].

ولجمعها بين هذيْن الأمرين عدَّها مؤرخ الحضارة ول ديورانت «أعظم الأعمال إثارة للدهشة في التاريخ الحربي كله»[٣]، وعدَّها «توسعا كان أعجب ما شهده التاريخ كله»[٤]، وعدَّها مايكل هارت «أعظم غزوات عرفتها البشرية»[٥]، ويقول هنري كيسنجر «في قرن من الجهود اللافتة، قُلِب هذا العالم رأسا على عقب، لم يكن الإسلام التوسعي والتسووي جذريا -من نواح معينة- شبيها بأي مجتمع آخر في التاريخ»[٦].

٣. ضربت الفتوحات الإسلامية مثالا لا نظير له في تهاوي القوى السياسية والدينية أمامها، فالمسيحية الشرقية «قابلت الدين الجديد (الإسلام) دون أي مقاومة، بل وبالترحاب في كثير من المناطق»[٧]، حتى «بدا كأن الناس قد أصيبوا بالشلل في مواجهة هذه الحماسة الدينية الجامحة»[٨]، ومن ثَمَّ «تهاوت الدول أمام الدفع العربي الإسلامي كالأكر، وتدحرجت التيجان عن رؤوس الملوك كحبات سبحة انفرط عقدها النظيم، وهذه الأديان التي سيطرت على الشعوب والأقوام الضاربة بين سيرداريا والسنغال، ذابت

---

(١) إميل برهييه، تاريخ الفلسفة، ترجمة: جورج طرابيشي، (بيروت: دار الطليعة، بدون تاريخ)، ٣/ ١١٥.

(٢) مونتجمري وات، في تاريخ إسبانيا الإسلامية، ترجمة: محمد رضا المصري، ط٢ (بيروت: شركة المطبوعات، بيروت، ١٩٩٨م)، ص٢٠.

(٣) ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة: مجموعة، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م)، ١٣/ ٧٣.

(٤) ول ديورانت، قصة الحضارة، ١٣/ ٦٩.

(٥) مايكل هارت، الخالدون مائة أعظمهم محمد ﷺ، ص١٥، ١٦.

(٦) كيسنجر، النظام العالمي، ص١٠٣.

(٧) أليسكي جورافيسكي، الإسلام والمسيحية، ترجمة: د. خلف محمد الجراد، سلسلة عالم المعرفة ٢١٥ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، نوفمبر ١٩٩٦م)، ص١٤٩.

(٨) إ. ه. جومبريتش، مختصر تاريخ العالم، ترجمة: د. ابتهال الخطيب، سلسلة عالم المعرفة ٤٠٠ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، مايو ٢٠١٣م)، ص١٦٤.

كما يذوب الشمع أمام النار»[1].

٤ . كانت الفتوحات الإســلامية وثبة حضــارية للشـعوب والبلاد المفتوحة، ولم تكن كعادة الغزوات الأخرى موجة إفقار واستبداد وامتصاص للثروات، لقد حملت الجيوش الإســلامية الحضــارة إلى المناطق التي فتحتها، إن «بين تاريخ العرب المظلم قبل ظهور محمد، وبين توســعاتهم المثيرة للإعجاب، تقف حقيقة الإســلام العظيمة، بالعقيدة الجديدة»[2]، «كان الفرسان المسلمون يبدون أنهم لا يُقهرون، كما أنهم لم يكونوا يجلبون معهم الفوضى وإنما نظاما جديدا»[3]، لقد «كان الإسـلام دينا أولا، دولة متعددة الإثنيات ثانيا، ونظاما عالميا جديدا ثالثا، في الوقت عينه»[4]، وبهذا جددت الفتوحات الإســلامية الحضارة «ليس فقط في إقليم الجزيرة الهامشي بل وفي المناطق المركزية للحضارة الشرق أوســطية المتطورة أســاســا»[5]، ولذلك يقرر أولئك المؤرخون أن «للفتوح العربية طابع خاصٌّ لا تَجِدُ مِثْلَه لدى الفاتحين الذين جاءوا بعد العرب، وبيانُ ذلك أن البرابرة الذين استولَوْا على العالم الرومانيِّ والتركَ وغيرَهم، وإن استطاعوا أن يؤسسوا دولاً عظيمة، لم يؤســســوا حضــارة، وكانت غاية جهودهم أن يسـتفيدوا بمَشَــقَّةٍ من حضــارة الأمم التي قهروها، وعكسُ ذلك أمرُ العرب الذين أنشئوا بسرعةٍ حضارة جديدة كثيرةَ الاختلاف عن الحضــارات التي ظهرت قبلها، والذين تَمَكَّنُوا من اجتذاب أممٍ كثيرة إلى دينهم ولغتهم،

---

(١) إدوارد بروي، القرون الوسطى، ضمن: موريس كروزيه (إشراف)، تاريخ الحضارات العام، ط٢ (بيروت: منشورات عويدات، ١٩٨٦م)، ٣/ ١٠٩.

(٢) فرانشيسكو جابرييلي، محمد والفتوحات الإسلامية، ترجمة: د. عبد الجبار ناجي، ط١ (بغداد: المركز الأكاديمي للأبحاث، ٢٠١١م)، ص١٧٩.

(٣) جان كلود بارو وغيوم بيغو، التاريخ الكامل للعالم، ترجمة: لحسن عيساني، (دبي: مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، بيروت: دار الفارابي، ٢٠٠٨)، ص٩٤.

(٤) كيسنجر، النظام العالمي، ص١٠٣.

(٥) لابيدس، تاريخ المجتمعات الإسلامية، ١/ ٩٧.

فضـــلاً عن حضـــارتهم الجديدة»[١]، ويقررون أن «قصـــة انتشـــار العرب في آســيا وأوربا وإفريقيا، والحضـــارة الراقية، والمدنية الزاهرة التي قدمو ها للعالم، هي أعجو بة من أعجوبات التاريخ»[٢]، إن « هذه الفتو حات التي يبدو ذكر ها مهيبا و مدهشـــا، لا بد من معرفتها لأنها هي التي سمحت للإسلام بالانطلاق كدين عالمي انتشرت معه بذات الوقت وتنامت الحضارة المرتبطة به»[٣]. لقد «وُلد الإسلام في منطقة من أكثر مناطق العالم القديم بدائية وتخلفا، ولكنه ســرعان ما تجاوز حدوده وتطور من ظاهرة محلية وعامل داخلي في حياة الأمة العربية إلى عقيدة كونية وقوة عالمية، وذلك في عملية لا يزال المؤرخون يختلفون حولها حتى اليوم. إنها بالنسبة لأولئك الذين يدر سون الديناميكية الغامضة لهذه العملية، لا تعد شــرقية ولا غربية، كما لا يُمكن إعطاؤها أي تحديد جغرافي أو ثقافي. إنها فقط القوة العجيبة التي تشــع من العقيدة الجديدة، ومن الدولة التي أقامتها هذه العقيدة، والتي نَمَتْ في كل اتجاه، وأنتجت حضارة موحدة إلى حد يدعو إلى الدهشة، وذلك رغم الاختلاف الشــديد بين البيئات والمســتويات الثقافية التي ازدهرت عليها»[٤]، لقد «انجلى غبار الفتح و صلصلة السلاح عن إمبراطورية جديدة ولا أوسع، وعن حضارة ولا أسطع، وعن مدنية ولا أروع، عوَّل عليها الغرب في تطوره الصـــاعد ورقيه البناء، بعد أن نفخ الإســلام في قســم موات من التراث الإنســاني القديم روحا جديدة عادت معه إليه الحياة، فنبض وشعّ وسرى»[٥].

---

(١) جوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، (القاهرة: الهيئة العامة المصرية للكتاب، ٢٠٠٠م)، ص١٣٥.

(٢) جواهر لال نهرو، لمحات من تاريخ العالم، ص٢٣، ٢٤.

(٣) دومينيك سورديل، الإسلام: العقيدة السياسة الحضارة، ترجمة: سليم قندلفت، ط٢ (دمشق: دار حوران، ٢٠٠٣م)، ص٣٥.

(٤) فرانشيسكو جابرييلي، «الإسلام في عالم البحر المتوسط»، ضمن: شاخت وبوزوروث (إشراف)، تراث الإسلام، ١/ ٨٥.

(٥) إدوارد بروي، القرون الوسطى، ضمن: موريس كروزيه (إشراف)، تاريخ الحضارات العام، ٣/ ١٠٩.

ونستطيع أن نعدد الأنحاء التي لم تشهد تفوقا حضاريا بارزا إلا في الفترة الإسلامية مثل إسبانيا وصقلية وعواصم آسيا الوسطى، فلقد دخل الإسلام هذه المناطق ولم تكن قبله شيئا، ثم أُخْرج منها فعادت بعده لا شيء في مسرح التاريخ. ومن أوضح الأدلة على أن الفتوح الإسلامية كانت نشرا للخير والخضارة أن العواصم الحضارية الإسلامية عبر التاريخ امتدت من آسيا الوسطى حتى الأندلس، وسائر هذه المناطق خارج الجزيرة العربية، أي أن الإسلام أطلق الحضارة في سائر هذه الأنحاء، وهو الأمر الذي يستحيل أن يحدث في أي حركة احتلال، فالاحتلال يستخلص موارد البلاد لحساب تحقيق رفاهية بلاده، ولم يوجد في التاريخ عاصمة خضعت لاحتلال الفرنسيين أو الإنجليز أو الأمريكان أو الروس واستطاعت أن تفوق باريس أو لندن أو واشنطن أو موسكو.

٥ . ومن أعجب ظواهر الفتوحات الإسلامية أن المسلمين لم يكونوا يملكون تفوقا حربيا على خصومهم، بل العكس هو الصحيح، يقول المستشرق الأمريكي اليهودي المتعصب برنارد لويس «خلافا لبناة الإمبراطوريات الآخرين، لم يكن لدى العرب أي وسيلة خاصة تكتيكية أو فنية من شأنها أن تعلهم يتفوقون على خصومهم، فلم يكن عندهم ما يشبه الكتيبة المقدونية أو الفيلق الروماني أو جياد غزاة أمريكا الـ conquistedores أو القوة النارية للمستعمرين (الغربيين). بل إنهم، باعتبارهم دخلاء جاءوا ليهاجموا الإمبراطوريتين العظيمتين في ذلك الوقت، كانوا –على العكس– يعانون من نقص في المهارات والتسلح، وكذلك في العدد، ولم تكن لديهم خبرة قتالية في تشكيلات كبيرة. وفي الأيام الأولى لم تكن لديهم معدات الحصار ولا أسلحة الحصار، ومن ثم كان كل ما يمكنهم هو أن يطوقوا المدن المحصنة لا أن يحاصروها. ولم يكن لديهم أي أسطول. وحتى في البر لم يكن يوجد لديهم ما يقابل سلاح الفرسان المدرع والكتائب cotophracts الموجودة لدى

بيزنطة وبلاد الفرس»[1]، وهذه النقطة يتوقف عندها المؤرخون العسكريون على وجه الخصوص مندهشين[2].

وهذا التعليق الأخير من برنارد لويس لا بد أن يوقفنا عند أمر في غاية الأهمية؛ إنه ما من شكٍّ في أن الفتوحات الإسلامية تمَّت تحت هيمنة هادرة من إيمان قوي عظيم، إلا أن هذا الإيمان كان تفعيلا لطاقات ومواهب عظيمة الكفاءة والقدرة، لقد كانت الخطط الحربية التي وضعها القادة الميدانيون وأشرفت عليها القيادة العامة في مناطق الفتح والقيادة العليا في العاصمة نماذج في الاحتراف والكفاءة، وهو الأمر الذي عنيت ببحثه وبيانه الكتب التي تناولت الفتوحات من جانبها العسكري[3].

## ٣. الفتوحات الأخلاقية

لا يمكن فهم فضيلة الفتوحات الإسلامية وما هيمن عليها من الروح الأخلاقية إلا باستحضار كيف كانت الحروب قبل الإسلام وكيف صارت بعده حتى يومنا هذا، فلا يعرف عظمة الإسلام وقدره من لم يعرف الجاهلية، بما في ذلك الجاهلية المعاصرة التي تفننت في القتل بأنواع الأسلحة الشنيعة، فضلا عن أنواع الإذلال من التعذيب وانتهاك الأعراض والتجارة بالأطفال وبالأعضاء البشرية. إن ذاكرة البشرية مثقلة بالصفحات السوداء الطويلة في تاريخ الحروب قديما وحديثا، وما صاحبها من أصناف العذاب والاستعباد مما لا يتسع له المقام هنا!

---

(١) برنارد لويس، «السياسة والحرب»، ضمن: شاخت وبوزوروث (إشراف)، تراث الإسلام، ١/ ٢١٢.

(٢) فيلد مارشال مونتجمري، الحرب عبر التاريخ، ترجمة: فتحي النمر، (القاهرة: مكتبة الأنجلو، د. ت)، ص١٨٨.

(٣) أفضل ما كتب في التفاصيل الحربية للفتوحات الإسلامية فيما نعلم هي مؤلفات الأستاذ أحمد عادل كمال في سلسلته «استراتيجية الفتوحات الإسلامية»، وتشمل: «الطريق إلى المدائن، سقوط المدائن ونهاية الدولة الساسانية، الطريق إلى دمشق، القادسية، الفتح الإسلامي لمصر»، ثم كتابه «أطلس الفتوحات الإسلامية».. ثم يأتي بعدها مؤلفات اللواء محمود شيت خطاب، والركن بسام العسلي وغيرهم.

لقد كان أهم ما تميزت به الفتوحات الإسلامية على الإطلاق ما كانت محفوفة به من الانضباط الأخلاقي الإسلامي، ففي الضمير المسلم حُصِر وصف الشهيد على من قاتل في سبيل الله، فلو اختلطت نيته بالعصبية أو الرياء أو طلب الشهرة والمجد فقد ضاع ثوابه وخسر آخرته ودنياه. لقد كانت أخلاق الحروب دينا يسكن ضمير المسلم وليس مجرد أوراق مكتوبة تسمى اتفاقيات أو معاهدات لا تساوي الحبر الذي كُتِبَت به، فكان التزام الجندي المسلم التزاما مع الله قبل أن يكون التزاما بأخلاق الدولة وتقاليدها في الحروب، بخلاف الجندي المعاصر الذي يعرف تماما أنه لن يُعاقب إلا إذا انتهك أوامر قيادته فحسب!

وبهذه الأخلاق فسَّر كثيرٌ من المؤرخين قدرة هذه الفتوحات على الانتشار الواسع في الزمن القصير ثم رسوخها إلى مدى الزمن الطويل. لقد كانت معاملة المسلمين للشعوب المفتوحة مثالا نادرا بل لا نظير له في تاريخ التوسع والانتشار، ولذلك تناظرت ظاهرتان: توسع الأرض الذي تم بالسيوف، ودخول الناس في دين الله أفواجا وهذا الذي تمَّ بالعدل والرحمة. لقد كان الفاتحون المسلمون في عمومهم رجالا يشبهون الأساطير وحكايات الخيال في النبل والمروءة والتعفف.

وكانت للقيادة المسلمة حساسية عالية في الجانب الأخلاقي، فبينما كان خالد بن الوليد يواصل انتصاراته في حروب الردة، وقع الجدال بين أبي بكر وعمر في شأن خالد، إذ يرى عمر أن خالدًا فيه من الشدة والاندفاع ما يجب معه أن يُعْزَل، بينما كان أبو بكر يرى أن أشد ما يؤخذ على خالد لا يزيد على أن يكون خطئًا في الاجتهاد لا يستحق عليه أن يُعاقب بالعزل ولا أن يُعاقب المسلمون بعزله، وإنما يُنَبَّه على ما يقع منه. ولما تولى عمر الخلافة من بعد أبي بكر كان من أول ما فعله أن عزل خالدًا وجعله تحت إمارة أبي عبيدة

بن الجراح[١]، وكان يخشى أن يفتتن الناس ببطولته فيخدش ذلك إيمانهم أن الله ناصر دينه[٢]، ثم إن عمر عزل خالدًا عن ولاية قنسرين -وهي مدينة بالشام- لتصرفٍ ماليٍّ لخالد لم يرض عنه عمر، وهو التصرف الذي ليس فيه أية شبهة انتفاع شخصي، بل هو اختلاف في تقدير المصلحة العامة[٣]. وهذا المشهد لا يمكن أن يقع في أي حضارة أخرى: يُناقش في عزل القائد المنتصر لتجاوزات يُختلف في تقييمها وتبريرها ضد أعداءٍ حاولوا تقسيم الدولة والخروج عليها.

وحفظت كتب التاريخ وصية أبي بكر لجيوش الفتح، وفيها: «إنك ستجد قوما زعموا انهم حبسوا أنفسهم لله فذرهم وما زعموا انهم حبسوا أنفسهم له... وإني موصيك بعشر: لا تقتلن امرأة ولا صبيا ولا كبيرا هرما، ولا تقطعن شجرا مثمرا، ولا تخربن عامرا، ولا تعقرن شاة ولا بعيرا إلا لمأكلة، ولا تحرقن نخلا ولا تفرقنه، ولا تغلل، ولا تجبن»[٤]. فهل عرف التاريخ إمبراطورا في أول توسع الدولة كان يوصي قائده الفاتح بالحفاظ على الشجر والحجر فضلا عن النساء والصبيان!

وقد بلغ عمرَ أن بعض الجنود المسلمين غدروا بالأمان الذي أعطوه لبعض أعدائهم، فأرسل إليهم: «إنه بلغني أن رجالا منكم يطلبون العلج (الكافر)، حتى إذا اشتد في الجبل وامتنع، يقول له: «لا تخف»، فإذا أدركه قتله، وإني والذي نفسي بيده، لا يبلغني أن أحدا

---

(١) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ١٦/ ٢٦٢، ٢٦٣. بإسناد رجاله ثقات؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١/ ٣٧٩، ٣٨٠؛ ابن حجر، الإصابة، ٢/ ٢١٩.

(٢) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: أكرم العمري، ط٢ (دمشق - بيروت: دار القلم - مؤسسة الرسالة، ١٣٩٧ه)، ص١٢٢.

(٣) أحمد (١٥٩٤٦) بإسناد قال فيه شعيب الأرناؤوط: رجاله ثقات؛ البخاري، التاريخ الكبير، عناية: محمد عبد المعيد خان، (حيدر آباد، دائرة المعارف العثمانية، د. ت)، ٩/ ٥٤.

(٤) مالك بن أنس، الموطأ: رواية يحيى الليثي، ٢/ ٤٤٧؛ البيهقي، السنن الكبرى، ٩/ ٨٩.

فعل ذلك إلا قطعت عنقه»[١].

وتكرر في أقوال سفراء الإسلام في الفتوح قولهم: «فاقبلوا نصيحتنا فوالله لإسلامكم أحب إلينا من غنائمكم»[٢]، ولا يمكن أن يصدر مثل هذا إلا عن داعية خير وحامل رسالة! لا عمن يريد التوسع للاستزادة من الأموال والغنائم والسلطان!

ولم يُعرف عن المسلمين تمثيل بالجثث، وقد كان هذا شائعا في التاريخ بل هو لا يزال موجودا في حروب العصر الحديث، لقد كان ذلك استجابة لنهي النبي ﷺ عن التمثيل بالجثث[٣].

كذلك لم يعرف عن المسلمين ارتكابهم إبادة جماعية، مع أن ذلك كان في قدرتهم واستطاعتهم، ولم يرد بمثل هذا شيء في التاريخ، وكيف لقوم يحافظون على الشجر والحجر أن يرتكبوا إبادة البشر؟!.. ولا تزال هذه الأخلاق مفقودة حتى اليوم في الحروب المعاصرة.

ويتمثل الدليل الأوضح والأكبر على الرسالة الأخلاقية للفتوح الإسلامية في إعادة المسلمين للجزية من المناطق التي فتحوها حين اقتضت الضرورة الحربية الانسحاب منها، وقد تكرر هذا في الشام[٤]، فكان هذا السموّ الأخلاقي الإسلامي مما لا نظير له في التاريخ، إذ كيف لجيش أن يعيد أموالا لأهل البلد مرة أخرى، وذلك قبيل خوضه معارك فاصلة!! وقد فرض هذا السلوك الإسلامي على الناس أن يقارنوا بينه وبين سلوك الجيش البيزنطي حين يدخل المدينة!

وقد وقع في فتوح أرمينية أن جيشا للمسلمين بعدما توغلوا في أرضها وقعوا في كمينٍ

(١) مالك بن أنس، الموطأ: رواية يحيى الليثي، ٢/ ٤٤٨؛ وله أصل عند البخاري ٣/ ١١٥٧.

(٢) الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ٤٠٦؛ أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ص٣٤.

(٣) البخاري (٢٣٤٢).

(٤) أحمد عادل كمال، الطريق إلى دمشق، ط٤ (بيروت: دار النفائس، ١٩٩٠م)، ص٤١٠، ٤١١.

أعدَّه القائد الأرمني تيودور الرشتوني، والذي تحالف مع البيزنطيين لصد الجيوش الإسلامية، وقد نجح في هذا فأوقع هزيمة بالجيش الإسلامي الذي استشهد قائده سلمان بن ربيعة الباهلي، واستعاد تيودور بعض البلاد التي فتحها المسلمون، ثم جاء جيش الروم البيزنطيين فما كان منهم بعد أن دخلوا بلاد الأرمن إلا أن حاولوا مرة أخرى إجبارهم على مذهبهم المسيحي، ما أثار قلقا واضطرابا كبيرا لدى الأرمن، فانقلب عليهم القائد الأرمني تيودور، وراسل المسلمين ليساعدوه ضد الروم، فساعدوه ورضي الأرمن بالصلح ودفع الجزية وتمتعهم بحماية المسلمين، وكان ذلك مع معاوية والي الشام في عهد عثمان رضي الله عنه[١].

وتأثر المؤرخون على وجه خاص بما جرى في فتح بيت المقدس، حيث فرضت المقارنة نفسها، فلقد كان الفتح العمري لبيت المقدس هو الوحيد الذي غلبت عليه الرحمة والسلام من بين سائر الغزوات التي شهدتها المدينة المقدسة، تقول مؤرخة القدس كارين أرمسترونج بأن هذا الفتح «كان أكثر غزو للمدينة سلاما ودون أي إراقة للدماء، لقد كان فتحا لم تشهد مثله المدينة في تاريخها الطويل والمأساوي في غالب الأحوال»[٢]، ويدين جوستاف لوبون قومه الفرنسيين إذ يقول: «يثبت لنا سلوك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في مدينة القدس مقدار الرفق العظيم الذي كان يُعَامِل به العربُ الفاتحون الأممَ المغلوبة، والذي ناقضه ما اقترفه الصليبيون في القدس بعد بضعة قرون مناقضة تامَّة»[٣]، ويتحدث الزعيم الهندي جواهر لال نهرو عن هذا فيقول: «إن العرب كانوا في بداية يقظتهم متقدين حماسًا لعقيدتهم، وإنهم كانوا مع ذلك قومًا متسامحين؛ لأن

(١) أحمد عادل كمال، أطلس الفتوحات الإسلامية، ط٢ (القاهرة: دار السلام، ٢٠١٤م)، ص١٠٠ وما بعدها.

(٢) كارين أرمسترونج، القدس: مدينة واحدة عقائد ثلاث، ترجمة: د. فاطمة نصر ود. محمد عناني، (القاهرة: سطور، ١٩٩٨م)، ص٣٨٦.

(٣) جوستاف لوبون، حضارة العرب، ص١٣٥.

دينهم يأمر في مواضع عديدة بالتسامح والصفح، وكان عمر بن الخطاب شديد الحرص على التسامح عندما دخل بيت المقدس»[1].

لقد ظلت الفضيلة الدائمة والخالدة للفتوحات الإسلامية أنها لم تجبر أحدا على اعتناق الإسلام، وقد تتبع المستشرق البريطاني المعروف توماس أرنولد انتشار الإسلام في كل الأرض، و ساعدته حصيلته اللغوية الوا سعة في الا ستفادة من مصادر قديمة ومتعددة، وسجَّل نتائجه في كتابه الأشهر «الدعوة إلى الإسلام»، الذي يعد وثيقة في غاية القوة على طبيعة الفتوحات الإسلامية، وأن انتشار الإسلام لم يكن أبدا بواسطة القوة والسيف، وأبسط الأدلة على ذلك وأوضحها هو بقاء أصحاب الديانات حتى هذه اللحظة، يقول أرنولد: «من هذه الأمثلة التي قدمناها آنفا عن ذلك التسامح، الذي بسطه المسلمون الظافرون على العرب المسيحيين في القرن الأول من الهجرة، واستمر في الأجيال المتعاقبة، نستطيع أن نستخلص بحق أن هذه القبائل المسيحية التي اعتنقت الإ سلام إنما فعلت ذلك عن اختيار، وإرادة حرة، وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح»[2].

وذلك أمر يخالف تماما سيرة الغالبين في المغلوبين! لقد «كان يمكن أن تعمي فتوح العرب الأولى أبصارهم، وأن يقترفوا من المظالم ما يقترفه الفاتحون عادة، ويسيئوا معاملة المغلوبين، ويكرهوهم على اعتناق دينهم، الذي كانوا يرغبون في نشره في العالم... فالحق أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب، ولا دينا مثل دينهم»[3].

وبهذه الأخلاق فسَّر عدد من المؤرخين سرعة انتشار الفتوحات الإسلامية، يقول جاك

(١) جواهر لال نهرو، لمحات من تاريخ العالم، ص٣١.

(٢) تومارس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٠م)، ص٧٠.

(٣) جوستاف لوبون، حضارة العرب، ص٦٠٥.

ريسلر: «تقوم انتصارات العرب الباهرة على أمور متنوعة، يكمن أهمها في الروح الأخلاقية الرفيعة التي كانوا يستمدونها من الدين الجديد؛ فقد كان الإسلام قد علمهم الشجاعة وازدراء الموت اللذين جعلاهم أشداء لا يُقهرون»(١)، ويقول رونالد فيكتور بودلي: «خير دليل على العلاقة الطيبة السلمية بين المسلمين وأصحاب البلاد المفتوحة، أن جميع هذه البلاد (ما عدا إسبانيا) ظلت أمينة للإسلام من القرن السابع إلى القرن الرابع عشر»(٢)، ويقول لوبون: «ما جهله المؤرخون من حلم العرب الفاتحين وتسامحهم، كان من الأسباب السريعة في اتساع فتوحهم، وفي سهولة اعتناق كثير من الأمم لدينهم ونظمهم ولغتهم، التي رسخت وقاومت جميع الغارات، وبقيت قائمة حتى بعد تواري سلطان العرب عن مسرح العالم، ونعد من الواضح خاصة أمر مصر التي لم يوفق فاتحوها من الفرس والإغريق والرومان أن يقلبوا الحضارة الفرعونية القديمة فيها وأن يقيموا حضارتهم مقامها»(٣)، ويقول القائد العسكري البريطاني الشهير مونتجمري: «وصلت الفتوحات الإسلامية مدى لم تصله في أي عهد سابق، وذلك ليس فقط لأنهم كانوا أكثر عددا بل أيضا لأنهم كانوا يستقبلوا في كل مكان يصلون إليه كمحررين للشعوب من العبودية وذلك لما اتسموا به من تسامح وإنسانية وحضارة، فزاد إيمان الشعوب بهم، علاوة على تميزهم في نفس الوقت بالصلابة والشجاعة في القتال. وقد أدى كل هذا إلى اعتناق معظم الشعوب التي انتصر عليها العرب الدين الإسلامي»(٤).

إن الفتوحات الإسلامية، دون أي مبالغة، كانت أوسع عملية تحرير للشعوب المضطهدة، وأوسع عملية إنقاذ للشعوب من الظلم والطغيان، يتحدث المؤرخ الأمريكي

(١) جاك ريسلر، الحضارة العربية، ص٤٦.

(٢) رونالد ف بودلي، الرسول: حياة محمد، ترجمة محمد فرج وعبد الحميد جودة السحار، (القاهرة: مكتبة مصر، د. ت)، ص٩٣.

(٣) جوستاف لوبون، حضارة العرب، ص٦٠٥.

(٤) فيلد مارشال مونتجمري، الحرب عبر التاريخ، ص١٨٩.

نورمان ف. كانتور عن خرافة السيف فيقول: «منذ زمن بعيد تم دحض وتفنيد الأسطورة التي تزعم بأن العرب اندفعوا بالسيف في يد والقرآن في اليد الأخرى يُخَيِّرون شعوب البحر المتوسط بين اعتناق الإسلام أو الموت، فالحقيقة أن المسلمين تسامحوا مع من قهروهم من المسيحيين واليهود، ولم يفرضوا سوى ضريبة الجزية وبعض القيود على الحقوق السياسية لأولئك الذين لم يعترفوا بأن محمد عليه الصلاة والسلام نبي الله، وهكذا لم يحاول المسلمون إجبار رعاياهم على اعتناق الإسلام»[1]. ولقد منح الفتح الإسلامي لليهود أملا جديدا في الحياة كما تقول الباحثة البريطانية في مقارنة الأديان كارين أرمسترونج؛ «فقد كان الأباطرة البيزنطيون قد جرَّموا الديانة اليهودية، كما أوشك هرقل على إجبار اليهود على أن يُعَمَّدوا مسيحيين، لذا كان اليهود على استعداد لمؤازة المسلمين كما سبق لهم أن آزروا الفرس، كما أن المسلمين لم يحرروهم فقط من ظلم بيزنطة، لكنهم أيضا منحوهم حق الإقامة الدائمة في المدينة المقدسة، وظهرت قصيدة عبرية قرب نهاية القرن السابع ترحب بالعرب المبشرين بالمسيح المنتظر وتترقب آملة أن يجتمع شمل يهود الشتات وأن يُعاد بناء المعبد، وحينما لم يصل المسيح المنتظر، استمرت نظرة اليهود الراضية عن الحكم الإسلامي في أورشليم. ففي خطاب كتبه حاخامات أورشليم في القرن الحادي عشر، تذكر هؤلاء الرحمة التي أظهرها الإله لشعبه حين سمح «لمملكة إسماعيل» أن تفتح فلسطين وعبروا عن غبطتهم لو صول المسلمين إلى أورشليم»[2].

وهم لم يرحبوا فقط بل ساعدوا في الفتوح كما يقرر المستشرق البريطاني الخبير توماس أرنولد: «وكان من أثر هذه الاضطهادات أن رَحَّب اليهود بالعرب الغزاة وعَدُّوهم

(١) نورمان ف. كانتور، التاريخ الوسيط: قصة حضارة، ترجمة وتعليق: د. قاسم عبده قاسم، ط٥ (الجيزة: عين للدراسات والبحوث، ١٩٩٧م)، ص١٩٧.

(٢) كارين أرمسترونج، القدس، ص٣٩٤ باختصار.

مُخَلِّصِين لهم مما حلَّ بهم من المظالم، فساعدوهم على فتح أبواب المدن، كما استعان بهم الفاتحون في حماية المدن التي وقعت بأيديهم»[١]. «لم تقف الشعوب المغلوبة عند قبول الدين، بل تعدته، فساعدت أحيانا بنشاط في تأسيسه»[٢]، وهذا أمر متكرر مثير للدهشة في الفتوحات الإسلامية، وهو أمرٌ لا مثيل له في التاريخ، حيث أن الشعوب المفتوحة قد انخرطت في مسيرة الفتوحات لتفتح المناطق التي تليها، «من العجيب أن القوة الرئيسية للجيوش الإسلامية في فتح إسبانيا بين عامي ٧١٠ – ٧١٣ كانت مُشَكَّلَةً من الليبيين والتونسيين»[٣]، ونجد أمثالا له في سائر جبهات الفتوح: فتوح فارس[٤] وفتوح ما وراء النهر[٥] وفتوح الهند[٦] وفتح صقلية[٧].

لقد وجدت الفتوحات الإسلامية من يدافع عنها بعد أكثر من ألف سنة، ومن غير المسلمين، فلقد تحسر جوستاف لوبون أن المسلمين لم يتمكنوا من فتح باريس، واعتقد أن السبب لم يكن هزيمتهم في بلاط الشهداء بل كان جوّ فرنسا البارد غير المناسب لهم، فقال: «لنفرض جدلاً أن النصارى عجزوا عن دحر العرب، وأن العرب وجدوا جَوَّ شمال فرنسا غيرَ باردٍ ولا ممطر كجوِّ إسبانيا، فطابت لهم الإقامة الدائمة به، فماذا كان يصيب أوربا؟ كان يصيب أوربا النصرانية المتبربرة مثلُ ما أصاب إسبانيا من الحضارة الزاهرة تحت راية النبي العربي، وكان لا يحدثُ في أوربا التي تكون قد هُذِّبت ما حَدَثَ فيها من

(١) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص١٥٥.

(٢) برنارد لويس، العرب في التاريخ، تعريب: نبيه فارس ومحمود زايد، ط١ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٥٤م)، ص٧٩.

(٣) فيلد مارشال مونتجمري، الحرب عبر التاريخ، ص١٨٨.

(٤) أحمد عادل كمال، سقوط المدائن ونهاية الدولة الساسانية، ط١ (القاهرة: د. ن، ٢٠٠٦م)، ص١٢٩، ١٣٠.

(٥) الطبري، تاريخ الطبري، ٤/ ١٥.

(٦) حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ط١ (القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٧م)، ص١٣٢.

(٧) إحسان عباس، العرب في صقلية، ط١ (بيروت: دار الثقافة، ١٩٧٥م)، ص٦٣.

الكبائر كالحروب الدينية، وملحمة سان بارتملي، ومظالم محاكم التفتيش وكل ما لم يَعْرِفْه المسلمون من الوقائع الخطيرة التي ضَرَّجَت أوربا بالدماء عِدَّة قرون»[1].

بقي أن نختم بتنبيه في غاية الأهمية، ذلك هو أن حسن الأخلاق ليس هو الضعف ولا هو التنازل، ولا يعني بحال ضعف العزم أو إحسان الظن في غير موضعه، فالشدة في موضعها من حسن الخلق، ولم تكن الفتوحات الإسلامية خالية من القوة والبأس والشدة، بل هذا هو الأصل في الحروب، وإنما يجري الحديث عن الأخلاق في الحروب لأن الحروب بطبيعتها لا أخلاق فيها، وهي مظنة الخسة والغدر والجريمة والاستباحة، فيجب ألا يظن أحدٌ قرأ السطور السابقة أن الفتوح الإسلامية لم تكن فيها شدة على المرتدين أو على الجيوش الفارسية والرومية، وإنما تميزت الفتوحات الإسلامية بأنها وضعت الشدة في موضعها والبأس في موضعه، كما وضعت الرحمة واللين والعفو في موضعها، وذلك بعد حصول الانتصار وانحسام المعارك.

(١) جوستاف لوبون، حضارة العرب، ص٣١٧؛ وانظر: محمد كرد علي، الإسلام والحضارة العربية، (المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، ٢٠١٧م)، ص٥٥.

# النظام الأخلاقي الإسلامي: السلطة والأخلاق

في عصرنا هذا الذي تتفوق فيه حضارة الغرب العلمانية، تبرز الضرورة لتناول النظام الأخلاقي الإسلامي. إن الهيمنة الأخلاقية على الحياة الإسلامية تبدو في هذا العصر أشد تألقا وسُمُوًّا، وقد عبَّر عدد من الباحثين الغربيين عن تأسفه أن الغرب لم يستفد من الميراث الأخلاقي الإسلامي، كما نادى آخرون بأن مشكلات الحداثة يمكن أن تجد لها حلولا في الميراث الأخلاقي الإسلامي[1].

عندما قامت العلمانية على مناقضة الدين كان جانب الأخلاق هو الأكثر تضررا، وكانت النتائج مروعة، فمهما وُجِد في التاريخ ملوكٌ بلا أخلاق أو وُجِد مجرمون ولصوص، فإن الأجواء الأخلاقية التي تهيمن على مجتمع ما تكسر ولا شك من غلواء

---

(١) رجاء جارودي، وعود الإسلام، ترجمة: د. طوقان قرقوط، ط٢ (بيروت: دار الرقي، ١٩٨٥م)، ص١٧ وما بعدها؛ وتأسف جوستاف لوبون أن المسلمين أخفقوا في فتح باريس وإنقاذ فرنسا. جوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، (القاهرة: الهيئة العامة المصرية للكتاب، ٢٠٠٠م)، ص٣١٧؛ ويعد كتاب وائل حلاق «الدولة المستحيلة» دعوة صريحة للغرب إلى النظر في الميراث الإسلامي لمعالجة أزمات الحداثة. انظر: وائل حلاق، الدولة المستحيلة، ص٣٦، ٣٧.

اللا أخلاقيين، وتجبرهم على قدرٍ ضروري من الأخلاق. وأما إذا كانت الفكرة التي تهيمن على مجتمع ما ترفض الدين وكل ما هو غير مادي وغير ملموس فإن الأخلاق تصبح حينئذ نوعا من العبث ومن الخرافة، بل تصبح نوعا من الغباء، ويزول الفاصل بين المهارة والكفاءة وبين المكر والخداع والكذب، إنه لا معنى للأخلاق إذا تحطَّم الإيمان بالدين وبالمقدس، فالأخلاق ليست أمرا ماديًّا بل هي أمر معنوي(1)، وحين تتعارض الأخلاق مع المنفعة أو اللذة فلا بد من خرقها وانتهاكها، إذ ما المنفعة في الالتزام بالأخلاق إذا كانت ضد المكاسب؟! إن ما يبدو في المجتمعات العلمانية من أخلاق اجتماعية لا يعدو أن يكون أحد أمرين: إما أنه من رواسب الدين الذي لا يزال موجودا في تلك المجتمعات كرفض الإجهاض ومكافحة التعذيب ونحوه، أو أنه من ضرورات تحقيق المنفعة واللذة كالشفافية والتبسم والاحترام التي تمارسها الشركات والمتاجر لمجرد الاحتفاظ بالعميل. بينما تختفي الأخلاق وتظهر شراسة الطباع وفوران الصراع فيما عدا ذلك. بل إن العلمانية المهيمنة على العالم الغربي أنتجت من النظريات والفلسفات ما جعل «الأخلاق» مجالا وضعيا لا معياريا، أي أنه يبحث ما هو كائن لا ما يجب أن يكون، وبهذا صار علم الأخلاق علما وضعيا يبحث في أخلاق قومٍ ما في مكانٍ ما وزمانٍ ما، دون أن يكون من شأنه الحكم عليها بالحسن أو القبح، بالصلاح أو الفساد.

لقد كانت الأخلاق من أركان النظام السياسي الإسلامي، وكانت الهيمنة الأخلاقية جلية واضحة في عصر الخلافة الراشدة، ومنذ اللحظة الأولى لهذا العصر في خطبة أبي بكر للخلافة قال: «الصدق أمانة والكذب خيانة»، وقال أيضا: «ولم تظهر الفاحشة في قوم إلا عمَّهم الله بالبلاء». وسنلقي هنا بعض الأضواء على هذه الهيمنة الأخلاقية لدى الخلفاء ولدى المجتمع الإسلامي.

---

(1) انظر عرضا بديعا لهذه الفكرة عند: علي عزت بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، ط1 (ميونخ – القاهرة: مؤسسة بافاريا – دار الجامعات، 1997م)، ص177 وما بعدها، 231 وما بعدها.

### ١. أخلاق الخلفاء

أول ما يلفت النظر في السيرة الأخلاقية للخلفاء الراشدين أنهم كانوا جميعا أهل ورع وزهد وتخفف من الدنيا، مع أنهم كانوا يحكمون دولة ما حكمها أحدٌ قبلهم من العرب، بل وصلت إلى أن يحكموا قرابة ثلث العالم المعروف حينها، وقد تدفقت عليهم الغنائم من المدن الفارسية والرومية وفيها الكنوز الفريدة والعجائب والدرر النادرة. ومع ذلك لم يتكسب أحدٌ منهم من الخلافة، بل لم يُتَّهم أحدهم في نزاهته وتعففه، ولم يتخذ أحدهم مظاهر السلطان من الخدم والحشم والمواكب، ولم يحرص أحدهم على توريث الخلافة لقرابته أو التمهيد له لوراثته.

وكانوا أحسن ما يكون الحكام من الحلم والرأفة والرحمة، وقد بادلتهم رعيتهم حبًّا بحبّ، فلم يكونوا محتاجين إلى حراسة ولا إلى مظاهر تأمين خاصة، وقد مات أبو بكر على فراشه، وأما عمر فقد قتله عبدٌ فارسي لا هو من أهل المدينة ولا من العرب على الجملة، بل هو من الأعداء وكانت إقامته بالمدينة على وجه الاستثناء الخاص. وهذا عثمان حكم اثنا عشر عاما ثم لم يحدث التمرد عليه إلا في السنتين الأخيرتيْن، وقد اختار هو ألا يدافع عنه أحد، ولولا ذلك ما استطاع أحدٌ أن يصل إليه. وأما عليٌّ فقد اغتاله أحد الخوارج الذين خرجوا على الأمة كلها فكفَّروها وقاتلوا أبرارها وخيارها. والشاهد هنا أنه وإن كان ثلاثةٌ من الخلفاء الراشدين قد قُتِلوا فإن هذا القتل لم يكن من رعيتهم وإنما من خصومهم وأعدائهم، وهذا من أوضح الأدلة على ما تمتعوا به من حب رعيتهم لهم. بل إن قتل عمر وعلي في المسجد ليدل دلالة قاطعة على أنه ما كان بوسع القاتل الغادر أن يفكر في قتلهم في غير هذا المكان وهذا الزمان: المسجد ووقت الصلاة، كأن هذيْن الخليفتيْن كانا دائما محفوفين برعيتهم وأن أنصارهما يشكلون حولهما حماية لا يمكن اختراقها، فاختار كلا الغادرين –أبو لؤلؤة المجوسي وعبد الرحمن بن ملجم– اللحظة التي يدخلون فيها في الصلاة ليتسنى لهم الوصول إلى الخليفتيْن العظيميْن، ولقد كانت

محاولتهما انتحارية إذ ما هو إلا أن نحر المجوسي نفسه لما قُبِض عليه، وقد قُبِض كذلك على ابن ملجم. إننا نرى في هذا دليلا على شدة التصاق الرعية بالخليفتين وعلى الحماية الطبيعية التي تمتعوا بها بما لهم من الحب والهيبة. وأما عثمان، فما كانوا ليصل إليه أهل الفتنة لولا أنه أمر بصرف المدافعين عنه، وهو أمر سنتناوله إن شاء الله في الفصل القادم.

وُصِفَ الناس حين طُعِن عمر أنهم «يبكون كأنما فقدوا أبكار أولادهم»[١]، ووُصِف عليٌّ في قول ضرار الكناني بأنه «كان فينا كأحدنا، يجيبنا إذا سألناه، وينبئنا إذا استنبأناه، ونحن والله -مع تقريبه إيانا وقربه منا- لا نكاد نكلمه هيبة له، يعظم أهل الدين ويقرب المساكين، لا يطمع القوى في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله»[٢].

ومما يبرز في سيرتهم الأخلاقية أنهم ما أساء أحدهم إلى الآخر، ولا انتقص من حقه، بل لكل منهم ثناءه البليغ على غيره، وهو أمرٌ يندر وجوده في سيرة الحكام الذي يحب كلٌّ منهم أن يطمس عمل سابقيه ليرفع شأن نفسه، فهذا عمر يقول: «لأن تضرب عنقي لا يقربني ذلك من إثم أحب إلي من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر»[٣]، وقال عثمان عن عمر: «ومن يطيق ما يطيق عمر»[٤]، واعترف عليٌّ بخيرية أبي بكر وعمر وتوعد بجلد من يفضله عليهما وكاد يقتل من سَبَّهما[٥]، وجَزَم ابنه ابن الحنفية أنه ما ذكر عثمان أبدًا بسوء[٦].

---

(١) ابن حجر، فتح الباري، ٧/ ٦٤.

(٢) ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي محمد البجاوي، ط١ (بيروت: دار الجيل، ١٩٩٢م)، ٣/ ١١٠٨.

(٣) البخاري (٦٤٤٢).

(٤) الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ٦٨١.

(٥) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ٣٥/ ١٨٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٩/ ٣٤٠.

(٦) البخاري (٢٩٤٤)؛ ابن حجر، فتح الباري، ٦/ ٢١٤، ٢١٥.

ومما يبرز أيضا من أخلاقهم أيضا أنه لم يكن منهم أحدٌ حريصا على السلطة، وكلهم حاول دفعها عن نفسه، فأبو بكر في سقيفة بني ساعدة أراد أن يقدم عمر وأبي عبيدة[١]، وهو القائل: «والله ما كنت حريصـا على الإمارة يوما ولا ليلة قط، ولا كنت راغبا فيها، ولا سألتها الله في سر ولا علانية، ولكـني أشفقت من الفتنة، ومـا لي في الإمارة من راحـة، لقد قُلدت أمرا عظيما ما لي به من طاقة ولا يد إلا بتقوية الله»[٢]، وعمر لم يقبلها إلا بحمل الصحابة وأبو بكر له عليها، وعثمان إنما تولاها باختيار المسلمين له[٣]، وحاول علي أن يتملص منها لولا الموقف الخطر الذي كانت فيه الأمة وقد بايعه المهاجرون والأنصار[٤].

ومن أعظم ما يبرز من أخلاقهم قوتهم في الحق ولو على أنفسـهم أو أقاربهم، فقد منع أبو بكر الميراث عن أزواج النبي وفيهم ابنته لما علمه من قول النبي «لا نورث»، وشـرب ابنٌ لعمر بن الخطاب الخمر بمصـر فجلده أميرها عمرو بن العاص في البيت، فلما علم ذلك عمر أنكر عليه واسـتدعاه إلى المدينة فجلده الحد جهرا، وهذه من المبالغة في التأديب إذ جمهور أهل العلم على أن إقامة الحد لا يلزم فيها الجهر[٥]. وجلد عثمان أخاه لأمه الوليد بن عقبة حدّ الخمر[٦].

لقد كان الراشـدون علامة فارقة في التاريخ جذبت أنظار المؤرخين والزعماء، يقول الزعيم الهنـدي المعروف جواهر لال نهرو: «كـان أبو بكر وعمر رجلين عظيمين، وقـد

---

(١) البخاري (٦٤٤٢).

(٢) الحاكم (٤٤٢٢) وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي؛ البيهقي، السنن الكبرى، ٨/ ١٥٢؛ وقال ابن كثير: إسناده جيد في البداية والنهاية، ٥/ ٢٧٠.

(٣) البخاري (٦٧٨١).

(٤) أكرم العمري، عصر الخلافة الراشدة، ص٥٩.

(٥) عبد الرزاق، المصنف، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، ط٢ (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٣ه)، ٩/ ٢٣٢، بسند صححه ابن حجر في الفتح ١٢/ ٦٥.

(٦) البخاري (٣٤٩٣)، مسلم (١٧٠٧).

وَضَــعَا الأســاس الذي بُنِيَتْ عليه عظمة العرب والمســلمين، وكانَا خليفتين يجمعان في يديهما السـلطة الزمنية والسـلطة الدينية معًا، ولكنهما -وبالرغم من عظم المنصـب وقوة الدولة- زهدَا في متاع الحياة الدنيا بما فيها من أبهة وعظمة»[١]، ويُسَــلِّم ول ديورانت بأن «الخلفاء الأولين من أبي بكر إلى المأمون، قد وضـعوا النظم الصــالحة الموفقة للحياة الإنسانية في رقعة واسعة من العالم، وأنهم كانوا من أقدر الحُكَّام في التاريخ كله، ولقد كان في مقدورهم أن يُصادروا كل شيء، أو أن يُخَرِّبُوا كل شيء، كما فعل المغول أو المجر أو أهل الشمال من الأوربيين؛ لكنهم لم يفعلوا هذا»[٢].

إن أبا بكر كان نموذجا في الرحمة والرأفة، حتى قال فيه النبي «أرحم أمتي بهم أبو بكر»[٣]، وكان رقيقا إلى الحدِّ الذي حمل عائشة ابنته أن تراجع رسول الله في أمْرِه أن يصلي بالناس، قالت: «إنه رجل رقيق إذا قام مقامك لم يستطع أن يصـلي بالناس»[٤]، واشـتهرت مواقفه في بذل نفسه للعجائز والمعوزين والمساكين، وأخباره في هذا كثيرة.

وإن عمر بن الخطاب يمثل معجزة تاريخية، إذ هو الوحيد الذي حكم مســاحة هائلة تبلغ نحو ثُلُث العالم المعروف وقتها بالعدل والرحمة، مع اكتظاظها بالأعراق واللغات والأديان، فعادة الحُكَّام الأقوياء الذين يقودون توسـع الإمبراطوريات الظلمُ والمذابح والفتك الشديد، وتلك ظاهرة مضطردة إلى الحد الذي لا يتوقف المؤرخون عندها كثيرا، فالمذابح صِنْو التوسعات وقرينتها، وهي عند أغلب المؤرخين من ضـرورات التوسع لا مناص منها. ولا يكاد يُذكر أن توسـعا لإمبراطورية ما عبر التاريخ لم يكن مقترنا بسـيل من الدماء والمظالم. ثم لا يكاد يُذكر أن تلك المذابح كانت تخدش صورة الإمبراطور الغازي

(١) جواهر لال نهرو، لمحات من تاريخ العالم، ص٢٦.

(٢) ول ديورانت، قصة الحضارة، ١٣/ ١٥٠.

(٣) أحمد (١٢٩٢٧)، الترمذي (٣٧٩٠)، النسائي (٨٢٤٢)، ابن ماجه (١٥٤)، وصححه الألباني وشعيب الأرناؤوط.

(٤) البخاري (٦٤٦)، مسلم (٤١٨).

في نظر أمته التي تظل تذكره وتمجده باعتباره مُوَحِّدًا للإمبراطورية أو صانعا لمجدها.

ومع ذلك كله، فقد كان عمر بن الخطاب قريبا من الناس يملك أيُّ واحدٍ منهم أن يكلمه ويراجعه وينصح له، وتعددت مواقفه في ذلك، كما يملك الواحد من الرعية أن يقاضيه ويغضب عمر إذا لم يُنزله القاضي منزلة أي مسلم[1] وكان يمكن للقاضي أن يحكم عليه[2]، وأعجب من ذلك أن يُولّي عمر قاتل أخيه زيدِ بنِ الخطاب قاضيا على البصرة[3].

وكان عثمان مثالا سامقا في العفة واللين والسماحة والعفو، وهو أشدّ هذه الأمة حياءً[4] حتى إن الملائكة لتستحيي منه، وكان النبي ﷺ يستحيي منه[5]، وقد أُكْرِم بمكرمة لا يشاركه فيها أحد من العالمين: تزوج بنتي نبي!! وأخباره في الإنفاق والبذل والجود كثيرة مشهورة.

وأما علي بن أبي طالب فقد ضرب المثل بأخلاقه، إذ كان أكرم الناس لخصومه ومعارضيه، فهو الخليفة الصحيح البيعة، ولكنه لم يحمل أحدا على الخروج معه في حربه إذا لم يشأ أو رغب في اعتزال القتال، وفي قتاله كان أشرف الناس قتالا: اجتهد وسعه في تجنب الحرب، ثم لما اشتعلت نهى عن قتل الأسير والإجهاز على الجريح ومطاردة الفارّ، ونهى عن غنيمة الأموال وسبي النساء، فكان يقول: «لا يُقتَلَنَّ مدبر ولا يذفف على جريح،

(١) البيهقي، السنن الكبرى، ١٠/ ١٣٦.

(٢) البيهقي، السنن الكبرى، ٥/ ٢٧٤؛ وقال مشهور حسن في تحقيقه لإعلام الموقعين: مرسل رواته ثقات وله شواهد كثيرة، انظر: ابن القيم، إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق: مشهور حسن آل سلمان، ط١ (الرياض: دار ابن الجوزي، ١٤٢٣هـ)، ٢/ ١٥٨.

(٣) وكيع الضبي، أخبار القضاة، تحقيق: عبد العزيز مصطفى المراغي، ط١ (القاهرة: المكتبة التجارية، ١٩٤٧م)، ١/ ٢٦٩ وما بعدها.

(٤) أحمد (١٢٩٢٧)، الترمذي (٣٧٩٠)، النسائي (٨٢٤٢)، ابن ماجه (١٥٤)، وصححه الألباني وشعيب الأرناؤوط.

(٥) مسلم (٢٤٠١).

ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن»[1]، وكان يقول: فينا نزلت ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾[الحجر: ٤٧][2]. وحتى حين كفَّره الخوارج وطعنوا فيه لم يبدأهم بالقتال حتى ارتكبوا القتل، وأعلن فيهم أن لهم حقوقا: «لكم علينا ثلاث: لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسم الله تعالى، ولا نمنعكم الفيء ما دامت أيديكم معنا، ولا نبدؤكم بقتال»[3]. وهو الذي دافع عنهم حين قيل له: كفار، فقال: «من الكفر فروا»، فقيل: منافقون؟ قال: «إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا، وهؤلاء يذكرون الله كثيرا»، ثم وصفهم فقال: «بعض قومنا بغوا علينا»[4]. ومن سيرة عليٍّ رضي الله عنه استمد المسلمون فقه قتال البغاة والغلاة، وما أرقاه وأسماه من فقه! لا يُقارن به حتى الآن أي قانون للتعامل مع المتمردين على الدولة! وأجلُّ ما يظهر من سيرة علي رضي الله عنه، بل تلك معجزة تاريخية له لا يشاركه فيها أحد، أنه استعمل أقصى العقوبة فيمن قدَّسه ورفعه فوق البشر، فأحرق الذين قالوا له «أنت الله»[5]، وعاقب من فضَّله على أبي بكر وعمر[6]، وحفظ حقوق من كفروه وخرجوا عليه!!! ونعم الخليفة الذي حفظ الدين ولو على حساب نفسه.

إن القيمة العظمى التي نتعلمها من الخلفاء الرا شدين هو إمكان بقاء السيا سة منضبطة بالأخلاق، لقد استطاع الراشدون بهذه السياسية الأخلاقية إدارة مجتمع كبير ودولة عظمى

---

(١) الحاكم (٢٦٦١) وصححه الذهبي؛ البيهقي، السنن الكبرى، ٨/ ١٨١.

(٢) أحمد بن حنبل، فضائل الصحابة، ٢/ ٥٩٧.

(٣) الطبري، تاريخ الطبري، ٣/ ١١٤؛ البرزنجي، صحيح تاريخ الطبري، ٣/ ٣٩٩، ٤٠٠. وقال البرزنجي: إن إسناد الطبري ضعيف لكونه من طريق أبي مخنف ولكن إسناد ابن أبي شيبة حسن.

(٤) المروزي، تعظيم قدر الصلاة، تحقيق: عبد الرحمن الفريوائي، ط١ (المدينة المنورة: مكتبة الدار، ١٤٠٦ه)، ٢/ ٥٤٣؛ وقال البرزنجي في صحيح تاريخ الطبري ٣/ ٤١٧: إسناده حسن.

(٥) العقوبة بالتحريق موجودة عند البخاري (٢٨٥٤)، وأما الكشف عن سببه وأنهم ادعوا فيه الألوهية فهو منقول بسند حسن كما قال ابن حجر في الفتح ١٢/ ٢٧٠.

(٦) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ٣٥/ ١٨٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٩/ ٣٤٠.

تظلل طوائف واسعة من البشر والأعراق والملل والنحل، كما استطاعوا بهذه السياسة إدارة الدولة في سائر أحوالها: التأسيس والذروة والفتن، ولم ير أحدٌ منهم أن عليه وضع الدين جانبا وخوض السياسة متحللا من أخلاقه. إن الخلفاء الراشدين نموذج محرج وقاهر لكل من يزعم أن السياسة بلا أخلاق، أو أنهما نقيضان.

## ٢. الهيمنة الأخلاقية في عصر الراشدين

أخبرنا الله تبارك وتعالى في أكثر من موطن في القرآن الكريم أن الناس يقع بينهم الخلاف والتفرق حتى بعد أن يأتيهم العلم، وما ذلك إلا لأنهم افتقدوا التقوى وهيمن عليهم البغي، قال تعالى ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾ [الشورى: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِۖ فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾ [الجاثية: ١٧]. وأخبرنا تبارك وتعالى أن التقوى تهدي إلى العلم، فقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ [الأنفال: ٢٩]. ويعلق الشهيد سيد قطب على هذه الآية الأخيرة فيقول: «تظل الحجة تُفحم ولكن لا تُقنع، وتُسْكِت ولكن لا يستجيب لها القلب والعقل، ويظل الجدل عبثا والمناقشة جهدا ضائعا، ذلك ما لم تكن هي التقوى»(١).

لو لم يكن المجتمع الإسلامي تغشاه الهيمنة الأخلاقية في عصر الخلافة الراشدة لكان من المؤكد أن تختلف مسيرة الإسلام عمّا حصل، لقد صنعت الأخلاق فارقا حاسما وعظيما في مواقف شديدة الحساسية، فكانت ثمرة هذا هذه القوة العظيمة وهذا الانتشار الكاسح للحضارة الإسلامية، وثبت خلال تلك المواقف عظمة التربوية النبوية، وأنه ﷺ كان أعظم مربٍّ ومعلم في التاريخ.

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ط٣٢ (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٣م)، ٣/ ١٤٩٩.

أخطر تلك المواقف ما جرى في سقيفة بني ساعدة، فلقد اجتمع الأنصار لاختيار خليفة لرسول الله منهم، فهم أهل البلد وهم عمود الدولة وهم جيشها، وما خطر ببالهم أن يكون الخليفة من المهاجرين. ولكنهم بمجرد أن استمعوا لأبي بكر وهو يحدثهم ويذكرهم بأن العرب لا تعرف هذا الأمر إلا لقريش حتى تنازلوا نصف القضية فقال قائلهم «منا أمير ومنكم أمير»، ثم ما إن سمعوا أن هذا الأمر لا يستقيم وأن في المسألة حديث قاله رسول الله عن أن يكون الأئمة من قريش حتى تنازلوا وجعلوا أنفسهم أنصار خليفة رسول الله كما كانوا أنصار رسول الله(1). لقد حُسِمت أخطر قضية في تاريخ الإسلام وفي أحرج لحظة من تاريخ الأمة بسهولة وفي مجلسٍ واحد. وحتى لو وقع في هذا المجلس أن ارتفعت الأصوات أو كثر اللغط، فإنما هو أمر بسيط وعابر بالنسبة إلى خطورة أن تُحسم مثل هذه القضية في مجلس واحد وأن يتحول المطالبون لأنفسهم بالخلافة إلى أن يضعوا قوتهم في خدمة رجل من غيرهم! إن أي مجلسٍ فرعي في هيئة مغمورة يشهد مثل هذا اللغط والخلاف في أي قضية تافهة، بل ربما نشب لأجله النزاع والتخاصم. ثم إن الذي اختلفوا فيه هو مسألة الحكم والزعامة، المسألة التي شهدت عبر التاريخ أن يقتل الرجل فيها أباه أو ولده أو أخاه حتى قيل بحق «المُلْك عقيم»، إلا أن الأنصار سمحت نفوسهم بهذا بعد نقاش قصير!! هذا الذي جرى في السقيفة نموذج عظيم يدل بقوة على ضخامة رسوخ الأخلاق من الزهد والتجرد والطاعة لله ورسوله! ولو لم يكن الأنصار على هذا القدر من الإخلاص والتجرد لكانت نكبة عامة على الأمة لا يمكن توقع أخطارها وكوارثها، لا سيما مع استحضار ما وقع من محنة الردة!

ومن أخطر هذه المواقف أيضا ما جرى عند موت عمر، الذي رشَّح ستة للخلافة، فإذا هو نقاش بسيط يُسفر عن تنازل أربعة عن الخلافة ليصير المرشحون اثنيْن فقط! تنازل

---

(1) البخاري (٦٤٤٢)؛ أحمد (٢١٦٥٧) بسند قال عنه شعيب الأرناؤوط: صحيح على شرط مسلم؛ الحاكم (٤٤٥٧) وقال: صحيح على شرط الشيخين؛ البيهقي، السنن الكبرى، ٨/ ١٤٣، برقم (١٦٩٧٩)، الذهبي، تاريخ الإسلام، ٢/ ٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٥/ ٢٦٩.

طلحة بن عبيد الله لعثمان بن عفان، وتنازل الزبير بن العوام لعلي بن أبي طالب، وتنازل سعد بن أبي وقاص لعبد الرحمن بن عوف، ثم تنازل عبد الرحمن بن عوف عن كونه مرشحا للخلافة واقترح بدلا من ذلك أن يدير أمر اختيار الخليفة! فلم يبق إلا عثمانٌ وعليٌّ[1]، مما قد يعد أسرع جولة تمهيدية للانتخابات بين المرشحين! ما كان هذا ليكون لولا أخلاق عظيمة راسخة وزهد كبير وقر في وجدان أولئك الكبار، فقطعوا بهذا طريق الاختلاف أو التحزب أو الحيرة والتردد.

ومن أخطر هذه المواقف أيضا ما كان بين عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد، لقد كان خالد قائدا عسكريا في ذروة الموهبة، وكان يكتسح بانتصاراته جيوش الفرس والروم، ولكن عمر بن الخطاب كان يرى أن خالدًا يجتهد بنفسه فيما ينبغي أن يرجع فيه إلى الخليفة، وكان هذا مما يسمح به أبو بكر ولا يستسيغه عمر، كما كان عمر يرى أن في سيف خالد رهقا ونوعا من اندفاع وتسرع فيجب أن يُحَجَّم، كذلك فقد خشي عمر من أن القدرات الهائلة لخالد قد يفتتن بها المسلمون فيحسبون أنهم إنما ينتصرون بخالد، فكان من أوائل ما فعله عمر عند توليه الخلافة عزله لخالد بن الوليد من القيادة العامة لجيوش الشام وإسنادها لأبي عبيدة. في العادة يستتبب قرارٌ كهذا في انشقاق عسكري بين القائد العسكري الموهوب الذي يتمتع بالشعبية الجارفة وبين الرئيس الذي تولى الحكم للتوّ! ولكن خالدا كان أورع وأزهد من أن يفكر في هذا. ومن المثير للإعجاب أن قرار عزل خالد وصل إلى الجيش قبيل معركة كبيرة بالشام فإذا بأبي عبيدة الذي هو الأمير الجديد يكتم خبر العزل كي لا يقع أي اضطراب في الجيش قبيل المعركة أو أثناءها أو بُعيْدها، حتى إن خالدًا لم يعلم بعزله إلا بعد المعركة بوقت، فكان أبو عبيدة مثالا في الزهد والتجرد لله ولمصلحة الأمة[2]. وقد وقع ما هو أغرب من هذا، ذلك أنه حين حانت

(١) البخاري (٣٤٩٧).

(٢) يعقوب الفسوي، المعرفة والتاريخ، تحقيق: أكرم العمري، ط٢ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨١م)، ٣/ ٢٩٦، ٢٩٧؛ البلاذري، فتوح البلدان، (القاهرة: لجنة البيان العربي، د. ت)، ١/ ١٣٨.

المعركة الفاصلة بالشام، وهي اليرموك، طلب خالدٌ من أبي عبيدة أن يتولى هو قيادة هذه المعركة، فنزل له أبو عبيدة عن قيادة المعركة حتى إذا أتمها خالد بالنصر المبين إذا به ينزل عن القيادة ويعود جنديا مرة أخرى[1]. لقد كانت أخلاق أولئك القوم هي الركن الأهم فيما صنعوه من الانتصارات العظيمة! ذلك أن مثل هذه المواقف لو داخلها شيء من الحسد والضغينة وحب الإمارة لفشلوا ولتنازعوا في الأمر ثم انهزموا!

وشبيهٌ بما كان بين عمر وخالد وأبي عبيدة، ما كان بين المثنى بن حارثة الشيباني وخالد وأبو عبيد من مسعود الثقفي؛ لقد ابتدأ المثنى بن حارثة مطاردة الفرس الذين دعموا حركة الردة في شرق الجزيرة، ثم راسل أبا بكر ليوليه على قومه وهو زعيمهم بالفعل، ولكي يمدّه أبو بكر بالمدد إذا احتاج إليه، فولّاه أبو بكر، ثم لما انتهى خالد بن الوليد من حروب الردة بدأ في فتوح العراق، فصار خالدٌ واليا على المثنى. ولما احتاج أبو بكر لخالد بن الوليد في حروب الشام انصرف خالد بنصف الجيش وعاد المثنى أميرا على بقية الجيش، وفي ظل نقص عدد جيش العراق احتاج المثنى إلى المدد فذهب إلى المدينة يطلبه فوجد أبا بكر على فراش الموت، وكان إمداده من أول المهمات في خلافة عمر. لكن عمر وجد صعوبة في استنفار الناس لقتال الفرس بعد أن خلا جيش العراق من خالد، فكان من وسائل تحفيزه للناس أن يجعل أول من يتطوع قائدا لبقية المتطوعة، فكان هذا هو أبو عبيد بن مسعود الثقفي. وهكذا عاد المثنى جنديا مرة أخرى تحت قيادة أبي عبيد، ثم خاض أبو عبيد معركة الجسر فوقع منه خطأ عسكري فهُزِم فيها وقُتِل، فتولى المثنى من جديد زمام الإمارة ونفذ انسحابا ممتازا، وأعاد توزيع القوات الإسلامية بما عفَّى على أثر الهزيمة[2]. والشاهد الذي نريد التركيز عليه هو أن ما تمتع به المثنى بن حارثة الشيباني من التجرد والإخلاص، وهو زعيم قومه، وقبوله النزول إلى موقع الجندية أكثر من مرة، كان ركنا

(١) انظر تحقيق الحوادث في اليرموك وترتيب تواريخها، وهي التي فسَّرت إمارة خالد لمعركة اليرموك مع أنه عُزِل قبلها، عند: أحمد عادل كمال، الطريق إلى دمشق، ص٤٤٢ وما بعدها.

(٢) البرزنجي، صحيح تاريخ الطبري، ٣/ ١٥٥ وما بعدها؛ أحمد عادل كمال، الطريق إلى المدائن، ص٣٧٨ وما بعدها.

أساسيا في انتصارات المسلمين في العراق، ولو أنه كان من ذوي الحرص على الإمارة والتنافس عليها لما كان للمسلمين أن يبلغوا ما بلغوا من النتائج الحاسمة الباهرة.

ومن أعظم وأجلّ ما يدل على الحساسية الأخلاقية العالية لدى المسلمين ما وقع عند مقتل عمر بن الخطاب، وهو الخليفة الذي كان حصنا منيعا يتعلق به المسلمون حتى أنه لما طُعِن بكوه كما لو فقدوا أبكارهم، ذلك أن انبه عبيد الله بن عمر اشتمله الغضب والأخذ بثأر أبيه فخرج حتى قتل من حامت حولهم الشبهة في التعاون مع أبي لؤلؤة لقتل عمر، كالهرمزان –الأسير الفارسي الذي أسلم وكان أميرا– وجفنة –وهو من نصارى الحيرة كان بالمدينة– ثم انطلق فقتل ابنة لأبي لؤلؤة المجوسي. فلما تولى عثمان الخلافة أراد قتل عبيد الله بن عمر «الذي فَتَق في الدين ما فتق» وأيده في هذا المهاجرون، بينما بقية الناس وجلوا واستعظموا أن يُقتل عمر وابنه في ثلاثة أيام في أمر تحتمله الشبهة، ثم تدخل عمرو بن العاص فقال لعثمان: «يا أمير المؤمنين إن هذه الأمر قد كان قبل أن يكون لك على الناس سلطان فأعرض عنهم»، فاستقر عثمان على أن دفع الدية عن القتلى من ماله[1].

والشاهد هنا أن المسلمين لم يغفروا لابن عمر ما فعله أثناء غضبه من قتله مشتبها بهم ومشكوكا في إسلامهم وانقسموا بين فريق يؤيد قتله وفريق يستعظمه، ثم حَكَم الخليفة بالدية للقتلى ودفعها من ماله! لا يكاد يُتَصَوَّر أن يتكرر مثل هذا الموقف في عالمنا المعاصر فيُقتل زعيم عظيم لأمة كبيرة ثم ينقسم الناس إذا قتل ابنُ هذا الزعيم مشتبها بضلوعهم في عملية الاغتيال، فيُرى أن هذا خرقٌ للدين، ثم ينتهي الأمر إلى دفع الدية عن

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣/ ٢٧١، بسند حسّنه ابن حجر في الفتح ١٣/ ٣٤٣.

دماء المقتولين المشتبه فيهم[1]!! بل ذكر الطبري في روايته أن عثمان سَلَّم عبيد الله بن عمر لابن الهرمزان ليقتله، وأن المسلمين أقرُّوا له بالحق في قتل عبيد الله وأنهم استشنعوا ما فعله، ولكنهم كانوا يرجون أن يعفو ابن الهرمزان عن ابن عمر، فلما عفا عنه فرحوا واستبشروا وحملوه على الأعناق إلى بيته[2]، وظل بعض المسلمين لا يلقى عبيد الله بن عمر إلا أذان فعلته وقال فيه شعرا يهجوه[3].

لقد أسس المسلمون مدنا جديدة كالبصرة والكوفة والفسطاط، ونزلوا في مدنٍ أخرى، وكانت المدن تقسم وفق الانتماء القبلي كما ذكرنا، يجب أن نتذكر هنا أنه لولا الإسلام لما أمكن تأسيس هذه المدن التي اشتملت جملة من القبائل، فلولا رابطة الإسلام العليا والهيمنة الأخلاقية لاندلعت بينها النزاعات كما كان يحصل في الجاهلية، لقد «شَكَّل الإسلام عاملا حاسما في تأسيس الحاميات العظيمة... لأن العقيدة جعلت الغرباء مستعدين للتعاون على قضية مشتركة. دأب الإسلام على تيسير قبول الخلافة وتبرير سلطتها»[4].

يكاد يوجد في كل تجربة إخفاق معاصرة أخلاق فاسدة أنبتت في العاملين الفتن والحزازات وأوقعت بينهم الخلافات والمنازعات، وكم من تجربة نجاح لم تكتمل ثمرتها لوقوع الخلافات بين العاملين، بل كم من تجربة وقعت فيها النزاعات قبل أن تصل إلى مرحلة النجاح!

إن ساحة العاملين هي أشد الساحات حاجة لرسوخ الأخلاق في أفرادها وقياداتها، وإن

---

(١) ومن اللافت للنظر أن هذه الحادثة ظل يرويها المؤرخون المسلمون فيرون أنها أول خرق وقع في الإسلام، وهو دليل على هذه الحساسية الأخلاقية التي تميز الضمير الإسلامي. نقل ابن سعد «أظلمت الأرض يوم قتل عبيد الله جفينة والهرمزان وابنة أبي لؤلؤة على الناس» (الطبقات الكبرى ٣/ ٢٧١).

(٢) الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ٥٩٠.

(٣) الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ٥٨٦، ٥٨٧.

(٤) لابيدس، تاريخ المجتمعات الإسلامية، ١/ ١٠٥.

الأمة دفعت ولا تزال تدفع الثمن المرير الفظيع للإخفاق الأخلاقي في صفوف أبنائها.

### ٠٣ المسؤولية الأخلاقية للسلطة الإسلامية

تطرح الفكرة العلمانية التي غلبت على عالمنا بفعل تفوق الحضارة الغربية مسألة تدخل السلطة في الأخلاق باعتبارها من الوصاية، ومن الاستبداد، ومن تدخل السلطة في الحريات الشخصية. ويجد هذا الكلام الساقطُ في بيئتنا آذانا تسمعه وقلوبا تقبله وتتشربه مع الأسف الشديد. وذلك ما يضطرنا لبيان هذا الموضوع، وللدفاع عما ننشده لمجتمعاتنا من الصلاح، وفي صلب هذا الصلاح المسؤولية الأخلاقية للسلطة الإسلامية، أي أن السلطة مسؤولة عن مكافحة الأخلاق السيئة، وأن هذا من مهماتها الأساسية.

إن السلطة في الدولة العلمانية تسمح بالإباحية والفساد الأخلاقي لأنها بنت فكرة إلحادية، فالعلمانية لا ترى في الإنسان إلا الضرورات المادية من المأكل والملبس والمسكن والشهوة، ومن ثَمَّ فدَوْر السلطة أن توفر وتحقق هذه المطالب، وبناءً على هذا تُصَمَّم القوانين والتشريعات والأجهزة والمؤسسات، فالمواطن الصالح لدى الدولة العلمانية هو الذي يعمل ضمن هذه المنظومة المادية بغض النظر عن أخلاقه الشخصية أو قناعاته الذاتية أو حتى دينه. لن تهتم الدولة –مثلا– إن كان الموظف فيها شارب خمر أم لا، فالسُّكْر حرية شخصية، لكنها تهتم –مثلا– أن لا يقود السيارة وهو سكران، لأنه في سُكْره الآن قد يمثل ضررا على الآخرين. ليس الدافع هنا أخلاقيا بل هو دافع مصلحي. ونظرة السلطة هنا لا تهتم بما يصلح الإنسان أو يفسده ويفسد عقله، بل بما يهدد النظام العام. والزنا كذلك حرية شخصية يُسمح بها طالما تلتزم الحانات بدفع الضرائب أو بالإجراءات الصحية لمنع انتشار الأمراض.

وبنفس المنطق تقبل الدول العلمانية أن ترتكب كل الجرائم اللاأخلاقية في الشعوب الأخرى الضعيفة، لأن استعمار هذه الشعوب والهيمنة عليها يوفر لمواطني الدولة

المستعمِرة الرفاهية والرخاء الاقتصادي!

إن السلطة العلمانية تُعاقِب على انتهاك ما يمس الدولة، فتلك هي الأخلاق العلمانية، فالسلطة تعاقب من يهين الدستور ومن يهين العلم الوطني، ولا تقبل أن يكون ذلك نوعا من حرية الرأي والتعبير. وبهذا فبينما لا تهتم السلطة العلمانية بأن تبيت مسلما وتصبح مسيحيا وتمسي يهوديا، تهتم للغاية بأن تبيت ملتزما بالدستور والقانون والولاء المطلق للدولة!

يقسم ابن خلدون أنواع أنظمة الحُكْم إلى ثلاثة:

١. الحكم الاستبدادي الطغياني وهو «حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة»

٢. والحكم العقلاني وهو «حمل الكافة علي مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار»

٣. والحكم الإسلامي وهو: «حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الاخروية والدنيوية الراجعة إليها إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به»(١).

وطبقا لهذا التقسيم ولفهم طبيعة الحكم الإسلامي فقد كانت الأخلاق أساسا وركنا ركينا في النظام الإسلامي، ومسؤولية في صلب مهمات السلطة الإسلامية. ذلك أن السلطة الإسلامية هي خلافة للنبي في مهمته الإصلاحية، وهي تهتم بمصير الناس في الآخرة كما تهتم بتحقيق مصالحهم في الدنيا، وتسعى ليكون هذا المجتمع إسلاميا راشدا(٢).

---

(١) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ١/ ٢٣٧ وما بعدها.

(٢) يهتم وائل حلاق بدراسة الشريعة من منظور أخلاقي، وفي هذا الإطار رصد أن العبادات الإسلامية هي بغرض تربية الذات الأخلاقية، ومن ثَمَّ فإن إنكار هذه العبادات وجحدها هو ردة، كما أن نشرها هو الجهاد، يقول: «الردة هي

ومثلما تعمل السلطة الإسلامية على إصلاح أخلاق المجتمع، فإن أخلاق القائمين على السلطة أيضا هي خاضعة لرقابة المجتمع، فلقد كان سُكْر الوالي[1] أو إساءته الصلاة[2] من الأمور التي تُرفع فيها الشكوى إلى أمير المؤمنين أو التي يُدان بها مرتكبها، مع أنها في نظر الفكرة العلمانية المعاصرة مجرد أمور شخصية!

وفي عصر الخلافة الراشدة سنرى الراشدين منتبهين لمهمتهم في إصلاح الأخلاق ورعايتها، فأبو بكر في خطبته الأولى يحذر المجتمع من ظهور الفاحشة فيقول: «ولم تظهر الفاحشة في قوم إلا عمَّهم الله بالبلاء»، وعثمان في رسالته الأولى بعد الخلافة يقول: «إن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة»[3]، وحذر عمر وُلاته من «التنعم، وزي أهل الشرك، ولبوس الحرير»[4]، ويخطب في الناس فيوضِّح ماهية الخمر وأنها من خمسة أشياء[5]، ونهى عن بيع ما تَخَمَّر لأهل الذمة[6]. وأنكر عليٌّ على من لا يتحرزون أن تخرج نساؤهم إلى الأسواق التي يكون فيها الكفار الذين لا يراعون أخلاق التعامل مع النساء، فقال: «ألا تستحيون أو تغارون؟ فإنه بلغني أن نساءكم يخرجن في الأسواق يزاحمن العلوج»[7]. وحين سأله رجل: أتؤتى النساء في أدبارهن؟ قال علي:

---

أساسا رفض الأدوات الأخلاقية التي تصوغ الذات الأخلاقية. وإذا كانت أحد وجهي العملة، فإن الجهاد هو الوجه الآخر؛ إذ يسعى قانونها إلى وقف الدمار الأخلاقي لمجال الأمة الداخلي، في حين يسعى الجهاد إلى حماية ذلك المجال وتوسيع حدوده إن أمكن». وائل حلاق، الدولة المستحيلة، ص٢٣٣.

(١) ابن حجر، فتح الباري، ٧/ ٣٢٠ بسند صحيح كما قال ابن حجر في الفتح ١٣/ ١٤١.

(٢) شكى بعض أهل الكوفة –وكذبوا– أن واليهم سعد بن أبي وقاص لا يحسن الصلاة. والشاهد هنا أن تكون العبادة موضعا للشكوى في النظام السياسي الإسلامي. البخاري (٧٢٢).

(٣) الطبري، تاريخ الطبري، ٥/ ٥٩٠.

(٤) مسلم (٢٠٦٩).

(٥) البخاري (٤٣٤٣)، مسلم (٣٠٣٢).

(٦) البخاري (٣٢٧٣)، مسلم (١٥٨٢)، ابن حجر، فتح الباري، ٤/ ٤١٥.

(٧) أحمد (١١١٨) بإسناد صححه الشيخ أحمد شاكر.

«سفلت سفل الله بك، ألم تر أن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٨﴾ [العنكبوت: ٢٨]»[١].

ولقد أنزل الراشـدون العقوبة بمن خالف الأخلاق، فقد جَلَد أبو بكر من اعترف بالزنا ونفاه ولم يجلد الجارية إذ كانت مُكرهة، وجلد عمر من شـرب الخمر في رمضـان ثمانين جلدة ونفاه إلى الشام، وسَجَن كذلك الحطيئةَ الشاعر الذي كان يُكثر من هجاء المسلمين ولم يُطلقه إلا بعدما تعهد ألا يهجو مسلما، وأعطاه مالا كي لا يكون الهجاء عملا له، وأمر بحلق شـعر نصـر بن الحجاج ونفيه من المدينة لتخنثه وغزله بالنسـاء، وقُضِـي على رجل اتخذ حانوتا لبيع الخمر بإغراق الحانوت. وجَلَد عليٌّ الشـاعر الحارثي النجاشـي مائة جلدة لأنه شـرب الخمر في نهار رمضـان، فجلده ثمانين على الخمر وعشـرين على الجرأة بالإفطار في رمضـان، وأقام عليٌّ حد الزنا على مسـلم زنى بنصـرانية ثم سـلمها لأهلها يحاكمونها على مقتضى شريعتهم[٢].

وقد ظهر من عمل الخلفاء الراشـدين فقه في العقوبات الأخلاقية، فمن ذلك طريقة إيقاع الحدود، فقد بيَّن علي كيف يكون الرجم، وذلك أن يُصَّف الناس كهيئتهم في الصلاة، فإن كان الزاني معترفا بدأ الإمام برجمه ثم الصف الأول ثم الثاني، وإن كان الزنا ثبت بأربعة شهود بدؤوا هم بالرجم ثم الإمام ثم بقية الناس[٣].

ومن ذلك أن لا يوقع الحد على المرأة إن كانت مُكرهة أو مُضْـطرّة، فقد وقع في عهد عمر أن نفد الماء من امرأة وهي ترعى في الصـحراء فعطشـت حتى كادت تهلك فطلبت

---

(١) ابن أبي شيبة، المصنف، تحقيق: كمال يوسف الحوت، ط١ (الرياض: مكتبة الرشد، ١٤٠٩هـ)، ٣/ ٥٣٠؛ البيهقي، السنن الكبرى، ٧/ ١٩٨.

(٢) أكرم العمري، عصر الخلافة الراشدة، ص١٦٢ وما بعدها، وهذه المسائل منثورة في أبواب الفقه، وفي الكتب التي عنيت بفقه الصحابة وسيرتهم ككتب د. رواس قلعجي وغيره، وخبر جلد عمر لمن شرب الخمر في رمضان ثمانين ونفيه إلى الشام عند: البخاري ٢/ ٦٩٢؛ ابن حجر، فتح الباري، ٤/ ٢٠١.

(٣) أحمد (٩٧٨) بإسناد قال عنه شعيب الأرناؤوط: صحيح رجاله ثقات؛ عبد الرزاق، المصنف، ٧/ ٣٢٦.

الماء من رجل فلم يعطها إلا أن يزني بها، فكان ذلك عذرا لها. ولا شيء على المرأة إن قتلت من اغتصبها أو حاول ذلك، فقد تنكر شابٌ يوما في ثياب فتاة وتسلل إلى امرأة فاغتصبها وهي نائمة، فقتلته، فبرأها القضاء، وبرأ أخرى قتلت رجلا دفاعا عن عرضها.

ويؤجل الحد على الحبلى من الزنا حتى تضع حملها أو يشب ولدها ويستغني عن الرضاعة منها. ولا بد أن يحصل اليقين بوقوع الزنا الكامل وأنه لم يكن عن إكراه أو اضطرار[1].

ولا بد أن يتحقق اليقين بالجُرْم على وفق المقدار الشرعي فقد قال أبو بكر: «لو وجدت رجلا على حدٍّ ما أَقَمْتُه عليه حتى يكون معي غيري»[2]، وورد مثله عن عمر[3]. ولم يكتف عمر بشاهد واحد في الخمر بل جَلَد بعدما تَثَبَّت[4]. وجلد ثلاثةً حدَّ القذف بعد أن تراجع الرابع في شهادته، ثم أوضح أن من تراجع منهم عن شهادته تُقبل منه الشهادة فيما بعد[5].

ومما يثير الإعجاب ويدل على عبقرية الفاروق أنه توقع حدوث الجدل في عقوبة الرجم من بعده، فقال موضحا: «إن الله قد بعث محمدا ﷺ بالحق وأنزل عليه الكتاب فكان مما أنزل عليه آية الرجم قرأناها ووعيناها وعقلناها فرجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل ما نجد الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله وإن الرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء

---

(١) أكرم العمري، عصر الخلافة الراشدة، ص١٦٢ وما بعدها.

(٢) ابن حجر، فتح الباري، ١٣/ ١٦٠، بسند صحيح كما قال ابن حجر.

(٣) البخاري، ٦/ ٢٦٢٢.

(٤) ابن حجر، فتح الباري، ٧/ ٣٢٠ بسند صحيح كما قال ابن حجر في الفتح ١٣/ ١٤١.

(٥) البخاري، ٢/ ٩٣٦؛ ابن حجر، فتح الباري، ٥/ ٢٥٦.

إذا قامت البينة أو كان الحمل أو الاعتراف»[١].

ومن أهم ما يجب التأكيد عليه أن إيقاع الحد هو تطهير للمذنب، وأنه صيانة له ولعرضه، وقد نهي النبي ثم نهى الراشدون عن الإساءة لمن نزلت به العقوبة، يقول شاهد عيان: «كنت مع عليّ حين رجم شراحة فقلت: لقد ماتت هذه على شر حالها، فضربني بقضيب، أو بسوط كان في يده حتى أوجعني فقلت: لقد أوجعتني، قال: وإن أوجعتك، قال: فقال: إنها لن تسأل عن ذنبها هذا أبدًا كالدَيْن»[٢].

وكل ما سبق مجرد أمثلة، وفي كتب الآثار والفقه مزيدٌ من فقه الراشدين في العقوبات الأخلاقية.

ولقد كان الصدِّيق مدققا حين قال «ولم تظهر الفاحشة في قوم»، فهو يتحدث عن «الظهور»، فالسلطة المسلمة لا تتعقب الناس ولا تتجسس عليهم ولا تشتهي أن تعاقبهم أو تفضحهم، ففي عهد عمر خطب شرحبيل بن السمط الكندي في جنوده، وكان يتولى منطقة حراسة حدودية مع الفرس، فقال: «أيها الناس، إنكم في أرضٍ الشرابُ فيها فاشٍ، والنساء فيها كثير، فمن أصاب منكم حداً فليأتنا فلنُقم عليه الحد، فإنه طهوره». فبلغ ذلك عمر فكتب إليه: «لا أحل لك أن تأمر الناس أن يهتكوا ستر الذي سترهم»، وجاء رجل من اليمن إلى عمر فأَسَرَّ إليه أن ابنة أخيه وقعت في الفاحشة، فقال عمر: «لو أفشيت عليها لعاقبتك، إذا أتاك رجل صالح ترضاه فزوجها إياه»، وقال عمر لرجل آخر في حالة مماثلة: «أنكحها نكاح العفيفة المسلمة»[٣]. وذُكر لابن مسعود -وكان قاضي الكوفة في عهد عمر- أن فلانا «تقطر لحيته خمرا». فقال: إنا قد نهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا

---

(١) البخاري (٦٤٤١).

(٢) عبد الرزاق، المصنف، ٧/ ٣٢٧.

(٣) أكرم العمري، عصر الخلافة الراشدة، ص١٦١.

شيء نأخذ به»[١].

ويظهر المستوى الرفيع من الأخلاق في العصر الراشدي في الأخبار التي تذكر قلة التقاضي، فقد ولي عمر القضاء في عهد أبي بكر فكان يأتي عليه الشهر لا يختصم إليه أحد[٢]، وفي رواية: فمكث سنة لا يأتيه رجلان[٣]. ويروي صديق سلمان بن ربيعة –أول قاض على الكوفة– أنه مكث يزوره أربعين يوما منذ تولى القضاء فيها لا يجد عنده أحدا من الخصوم[٤].

إن حاجتنا إلى هيمنة الأخلاق على المجتمع هي حاجة ضرورية لازمة لا بد منها، وإذا لم نفقه هذا من ديننا فيمكن أن نفقهه من سلوك الاحتلال الأجنبي حين غزا أرضنا، فسَلَّط جهده على إفساد أخلاق المجتمع، حتى صارت تسعة أعشار ما ينتج من الروايات والأفلام والمسلسلات ضد العفة والاحتشام والأخلاق.

لقد كان هذا الإفساد المتعمد هو الوسيلة الضرورية ليستقر لهم قرارٌ في بلادنا وليُحكموا السيطرة عليها، لقد كان ذهاب أخلاقنا من أركان ضعفنا وانهيارنا، ليس فقط لما تسرب فينا من معاني الانحلال الأخلاقي المتعلق بالشهوات، بل إن تأثر السياج الأخلاقي ضرب المعاملات الاقتصادية والتجارية والمالية، فازداد الفساد المالي والتفكك الاجتماعي واتسعت الفجوة بين الأغنياء والفقراء، واشتدت قسوة القلوب التي جعلت من رؤية المظالم والتعايش معها أمرا عاديا ومألوفا.

إن تأثير الفساد الأخلاقي أوسع من أن يزداد انتشار الزنا والخمر والتخنث، إنه يضرب صميم التماسك المجتمعي ويضرب العلاقات الإنسانية والإسلامية بين مكونات

(١) أبو داود (٤٨٩٠)، والحاكم (٨١٣٥) وقال: صحيح الإسناد، وصححه الألباني.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣/ ١٣٧. بإسناد قال فيه ابن حجر: مرسل رجاله ثقات. ابن حجر، فتح الباري، ٤/ ٣٠٥.

(٣) الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ٣٥١؛ البرزنجي، صحيح تاريخ الطبري، ٣/ ١١٩.

(٤) البخاري، التاريخ الكبير، ٤/ ١٣٦؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٦/ ١٨٢؛ وكيع الضبي، أخبار القضاة، ٢/ ١٨٦.

المجتمع، ويتحول الظالم من كونه نموذجا منبوذا ومنكرا إلى أن يكون نموذجا للنجاح والكفاءة والقدرة.

كذلك فإن عودتنا إلى أخلاقنا لا تمثل مجرد أمل لنا وحدنا، بل هي أمل للإنسـانية، يقول المستشرق الفرنسي مارسيل بوازار: «إن القرآن لم يقدر قط لإصلاح أخلاق عرب الجاهلية، إنه على العكس يحمل الشـريعة الخالدة والكاملة والمطابقة للحقائق البشـرية، والحاجات الاجتماعية في كل الأزمنة»[١].

(١) مارسيل بوازار، إنسانية الإسلام، ترجمة: عفيف دمشقية، (بيروت: دار الآداب، ١٩٨٠م)، ص١٠٩.

# الفصل الرابع:

# الفتنة بين الصحابة

ما زلنا نكرر أن غرضنا في هذه «الخلاصة» هو تكوين تصور موجز ومنضبط عن التاريخ الإسلامي ومراحله المختلفة، في ضوء حاجاتنا المعاصرة، وهذه الحاجات المعاصرة هي ما تحدد المنظور وطبيعة التناول كما أشرنا إليه سابقا.

إن المرحلة المكية تمثل القدوة في تأسيس الدعوة والوصول بها إلى مرحلة الدولة، وإن المرحلة المدنية تمثل القدوة في بناء الدولة والوصول بها إلى السيادة. ثم تأتي مرحلة الخلافة الراشدة لتمثل القدوة في إدارة الحكم والدولة في غياب النبي ﷺ وانقطاع الوحي. ولذلك فإن فترة الخلافة الراشدة هي الفترة المتممة للعهد النبوي، إنها «خلافة على منهاج النبوة»، وهي مرحلة ضرورية ولا بد منها كي يتعلم المسلمون كيف يُسَيِّرون حياتهم من خلال الاجتهاد البشري وحده.

ولأن الخلافة الراشدة شهدت سائر مراحل الدولة: الولادة والصعود والتمكن ثم الفتنة والأفول، فقد تناولنا في الفصل السابق المراحل الأولى: الولادة والصعود والتمكن في عهود الخلفاء الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان، ثم بقي أن نتناول الآن مرحلة الفتنة والأفول، فهي تتناول السنوات الأخيرة من عهد عثمان بن عفان ثم خلافة علي، رضي الله عن الجميع.

وهؤلاء الخلفاء الأربعة هم قدوة المسلمين في سائر عصورهم، وهم مبشرون بالجنة، وكلهم من السابقين إلى الإسلام، أي أنه قد سبق الحكم لهم بالصلاح، ولهذا فتقييم هؤلاء ليس كتقييم أحد من الشخصيات التاريخية، ذلك أننا نعرف حقيقة أحوالهم، بخلاف بقية شخصيات التاريخ، التي لا نعرف منها إلا الظاهر فحسب.

في هذه الفصل خرجنا عن منهجنا المعتمد في هذه «الخلاصة»، فإن منهجنا

المعتمد ألا نتوقف عند الشبهات والمطاعن ولا أن ندخل في التفاصيل الدقيقة، إذ غرض هذه «الخلاصة» تقديم قراءة تاريخية للعاملين، فليست هي للباحثين ولا المناظرين ولا المتجادلين، إلا أن حساسية الموضوع، وكثرة إثارته المغرضة في عصرنا هذا اضطرتنا إلى قدر من التوقف عند بعض التفاصيل والجزئيات، ليس الغرض منها أن نُسَلِّح القارئ بمادة علمية تُمَكِّنه من الجدل والمناظرة، بل الغرض منها أن يكون واعيا بالموضوع وأصوله وأهم ما يُطرح فيه من النقاط. ومن أراد التوسع فسيجد في ثنايا هذه السطور عددا من المصادر التي يمكنه التوسع من خلالها.

ولحساسية الموضوع، فقد عرضتُ هذا الفصل على عدد من مشايخنا وإخواننا، وقد تفضلوا بقراءته وأثنوا عليه ثناء حسنا، وانتفعت ببعض ملاحظاتهم، وتبقى مسؤولية أي خطأ أو زلل على عاتقي وحدي. من هؤلاء المشايخ: الشيخ عمر محمود أبو عمر، والشيخ محمد محفوظ بن الوالد الموريتاني، والشيخ د. عبد الحي يوسف، والشيخ محمد بن محمد الأسطل، والشيخ الحسن بن علي الكتاني، والشيخ فواز بن فرحان الشمري، وغيرهم. فجزاهم الله عني خير الجزاء.

# أصول البحث في عصر الفتنة

إن الإقدام على البحث في عصر الفتنة يستلزم استيعاب أمريْن أساسييْن، هما: فهم الفتنة في ضوء النصوص الصحيحة، وفهم الحكمة من وقوع الفتن. فإذا لم يكن الباحث المسلم فاهما لهذيْن الأمريْن فالمتوقع أن يكون بحثه في هذا العصر تخليطا وتخبيطا، سواء على مستوى المنهجية العلمية أو على مستوى الفهم التاريخي لطبيعة ما جرى. إن اعتماد النصوص الصحيحة يقيم شأن المنهجية العلمية في عقل الباحث وأدواته، كما أن فهم الحكمة الربانية من وقوع الفتن يقيم شأن الإيمان وشأن العلم والفقه في نفس الباحث وضميره.

## ١. ضرورة فهم الفتنة في ضوء النصوص الصحيحة

في كل علم، بل في كل عملية بحث، لا بد من معرفة الحقائق الأصيلة الصلبة الصحيحة، قبل الدخول إلى مجهولات العلم أو مجهولات البحث وغوامضه ودقائقه، فالحقائق الصحيحة الأصيلة هي الأصول التي يُنطلق منها ويُعتمد عليها للوصول إلى

التفاصـــيل وإلى الغوامض والمجاهيل، ولا يمكن أن يُسَـــمَّى عِلْمٌ ما عِلْمًا إذا لم تكن له حقائق أولى واضحة، إلا أن يكون ذلك على سبيل المجازفة والتنبؤ، كما لا يمكن أن تبدأ عملية بحث دون أن تستند أساسا على المبادئ الأولية التي تقررت صحتها والتسليم بها.

ومن هنا فإن البحث في عصر الفتنة كان لا بد له من استخلاص النصوص الصحيحة التي هي أصل البحث وقاعدته، وذلك ضروري من أجل:

أولا: الأمانة العلمية والمنهجية، وهو الأمر الضـــروري اللازم في كل علم وفي كل بحث.

ثانيا: لأن هذا الأمر دين، فهؤلاء الصـــحابة هم نَقَلَة الدين إلينا، وهم أنفســـهم جزء من هذا الدين إذ هم الشخصيات الأولى في الإسلام، وهم أعمدة بنائه ووسائل نشره وإبلاغه، وهم القدوة للأجيال المسـلمة كلها، ومن ثَمَّ فإن صـورة الصـحابة يجب أن تتضـح وتبرز وتتجلى بأوضح ما يمكن وبأدق التفاصيل الممكنة. كذلك فإن عصر الخلافة الراشدة هو عصر تشريع سياسي للمسلمين، كما في حديث «فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي»، فالتدقيق في سنة الراشدين هو من ضرورات الفقه في الدين.

ثالثا: لأن التهاون في شـأن الاعتماد على النصـوص الصـحيحة أفضـى إلى خليط من التصـورات والآراء والأهواء، وأفضـى في النهاية إلى ظهور الفرق المنحرفة الضـالة، ومن أبرزها –فيما يخص بحثنا هذا– طائفتا: الروافض والخوارج، وكلا الطائفتيْن كان لهما من الأثر السيئ القبيح طوال تاريخ المسـلمين ما لا يمكن إحصـاء نتائجه وضـرره، ولا تزال الأمة –منذ عصـر الفتنة وحتى هذه اللحظة وسـيتسـمر ذلك إلى ما لا يعلمه إلا الله– تدفع الثمن الغالي من أرواحها وأبنائها وأموالها، ومن هيمنة عدوها عليها، جراء هذه الفرق الضـــالة المنحرفة التي لطالما كانت طعنة نافذة في قلب الأمة من داخلها، وكانت مدخلا نفذ العدو إلى الأمة من خلالها، أو كانت معيقة لتقدم الأمة وفتوحاتها في لحظات ذهبية لا تُعَوَّض! وكثيرا ما تطور الحال إلى الخروج عن الإسـلام جُمْلَـةً كما فعلت طوائف

العلمانيين الذين قرؤوا عصـــر الفتنة على غير هدى، فتشـــكلت صـــورته في أذهانهم من النصـــوص الضـــعيفة والموضـــوعة فحملهم ذلك على ازدراء الصـــحابة وازدراء الدين، أو وجدوا في تلك الأخبار ما يوافق هواهم في الانخلاع من الدين وازدرائه!

لهذا كله فإن مسؤولية الباحث المسلم حين يُقدم على الحديث عن عصر الفتنة أن يبدأ با ستخلاص النصوص الصحيحة ليعتمد عليها، و سنجد أن هذه النصوص تقدم لنا فوائد نفيسة، من أهمها:

أو لا: تفيدنا النصوص الصحيحة في معرفة الصحابة وعدالتهم، وهنا أمرٌ مهم لا بد من الانتباه إليه، ذلك أن الصحابة ليسوا كغيرهم من الشخصيات التاريخية حين نُقَوِّمها، فسائر شـــخصـــيات التاريخ نحاول فهمها من خلال ما ظهر من أعمالها، ولســـنا نعرف ما كان في قلوبهم وما انطوت عليه بواطنهم، وأما الصحابة فقد ثبت لنا بالنصوص الصحيحة القرآنية والنبوية ثناء الله عليهم وامتداحه لهم، فنحن بذلك نعرف أن بواطنهم كانت خيرا، وأنها لا تنطوي إلا على خير، حتى وإن وقعوا في الخطأ والذنوب كما هي حال البشـــر جميعا. إن الثناء القرآني والنبوي عليهم يضـــيء لنا جانبا هو مظلم تماما لدى كل شـــخصـــيات التاريخ الأخرى، إنه ذلك الجانب العميق في أغوار النفس، ولهذا فمن الممكن دائما أن يخطئ المؤرخ تفسير عمل أي شـــخصـــية تاريخية لأنه يجهل أغراضـــها ومرادها ولاقتصـــار نظره على ظاهر الأمر منها، بينما حسمت لنا هذه النصوص الصحابة طبيعة الصحابة وفضلهم، فوجب علينا أن نلتمس لتصـــرفاتهم وأفعالهم أفضـــل تأويل لأن فضـــلهم قد أثبته خالقهم الذي هو أعلم بهم.

ثانيا: تفيدنا النصـــوص الصـــحيحة في نفي المبالغات والأكاذيب التي أدخلها القُصَّـــاص والوَضَّـــاعون وأصـــحاب الفرق الضـــالة في أخبار التاريخ، ولولا النصـــوص الصـــحيحة لم يتبين مقدار الصـــدق من الكذب ومقدار الحقيقة من المبالغة في الروايات الأخرى. إن النصـــوص الصـــحيحة ليســـت تقريرا للحقائق فحســـب، ولكنها حاكمة كذلك على مدى

الانحراف و مدى المبالغة و مدى التزوير ا لذي نطقت به الروا يات الأخرى الضــعيفة والموضوعة، ومن هنا نعرف قيمة هذه الروايات وأهميتها.

ثالثا: تفيدنا النصـوص الصـحيحة في محاكمة الروايات الأخرى التي اختلط فيها الحق بالباطل، أو اختلق فيها الحدث بتفسـير المؤرخ له، فهي تكشـف لنا عن القدر المقبول من الأخبار التي داخلها التحريف والتزييف، كما تكشف لنا عن موطن الخلل في الخبر، سواء أكان ذلك راجعا لكذب الراوي وهواه أو كان راجعا لغفلته أو لسوء تفسيره.

وقد نهض لمهمة بحث النصـوص التاريخية الصـحيحة في عصر الخلافة الراشـدة عدد من العلماء والمؤرخين المســلمين فبذلوا في ذلك جهدا عظيما، وهو موكب جليل ممتد من أصـحاب الحديث في العصـور الأولى كمالك والشـافعي وأحمد والبخاري ومسـلم، مرورا بعصر المؤرخين المُحَدِّثين المحققين كابن تيمية والذهبي وابن كثير وابن حجر.

ثم بلغ هذا الجهد ذروته في زماننا المعاصـر هذا، حيث كان اشـتداد السـطوة التغريبية الاستشراقية، ثم السطوة الشيعية الرافضية، وكلا الفريقيْن –المستشرقون والشيعة– أعاد إنتاج الروايات التشـويهية للصـحابة ولعصـر صـدر الإسـلام، فالأوّلون يريدون الطعن في الإسلام على الجملة، والآخرون يريدون الطعن في الصحابة إلا من كان منهم مع عليٍّ.

وابتدأ بعض هذا الجهد من إشــارات منثورة لدى المحدثين كالشــيخ عبد الرحمن المعلمي اليماني والشيخ أحمد شاكر والشيخ الألباني و شعيب الأرناؤوط وحسين سليم أســد ووصــي الله عباس، الذين كانت تحقيقاتهم لدواوين الســنة عملا عظيما اعتمد عليه المؤرخون.

و قد كان رائد هذه المســيرة التاريخية، مســيرة إعادة كتابة التاريخ وفق النصــوص الصحيحة، هو الدكتور أكرم ضياء العمري، الذي جَنَّد طلابه في الدراسات العليا بالجامعة الإســلامية في المدينة المنورة لتكون رســائلهم العلمية باعتماد منهج المحدثين في كتابة

التاريخ، فأشـرف على عدد من الرسـائل وضـع خلاصـتها في كتابه «السـيرة النبوية الصحيحة»، ثم أشرف على عدد من الرسائل الأخرى فوضع خلاصتها في كتابه «عصر الخلافة الراشـدة»، وأبرز هذه الدراسـات التي أشـرف عليها بنفسـه أو نسـخ آخرون على منوالها، فيما يخص موضوعنا هنا:

- فتنة مقتل عثمان بن عفان – محمد الغبان
- خلافة علي بن أبي طالب – عبد الحميد ناصر فقيهي
- الخلافة الراشدة والدولة الأموية من فتح الباري – د. يحيى بن إبراهيم اليحيى
- مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري عن عصـر الخلافة الراشـدة – د. يحيى بن إبراهيم اليحيى
- اسـتشـهاد عثمان ووقعة الجمل في مرويات سـيف بن عمر في تاريخ الطبري – د. خالد الغيث

وأوقدت هذه المسـيرة همم باحثين آخرين، بذلوا جهودا أخرى، من أبرزها الجهد الكبير للدكتور محمد طاهر البرزنجي في كتابه «صـحيح وضـعيف تاريخ الطبري» حيث اسـتخلص الروايات الصـحيحة فجعلها في خمس مجلدات تحت اسـم «صـحيح تاريخ الطبري» ثم وضـع الروايات الضـعيفة والمسـكوت عنها في المجلدات الثمانية الأخرى تحت اسم «الضعيف والمسكوت عنه».

وانتهت هذه الجهود إلى ثمرة عظيمة صـدرت مؤخرا، قبل عامين (٢٠١٩م)، وهو كتاب «صحيح أخبار صفين والنهروان وعام الجماعة» للشيخ فواز بن فرحان الشمري، ومزية هذا الكتاب أنه جمع بين ثلاثة أمور:

١. فهو أوسع الكتب في موضوعه جمعا واستيعابا للروايات فيما رأيت
٢. ثم إن صاحبه متضلع من علم الحديث ما أتاح له القدرة على التخريج والتتبع

٣. ثم إنه –وهذا أميز ما في الكتاب- كتب منهجا تاريخيا سماه «المصطلح التاريخي»، وهو المنهج الذي فَصَّل فيه للطريقة العلمية التي ينبغي التعامل بها مع روايات التاريخ، فإن الاقتصار على منهج المحدثين مُسْقِطٌ للتاريخ فلا يبقى منه إلا القليل الذي لا يكفي لتوضيح صورة الحدث التاريخي، كما أن فتح الباب للضعيف يغرقنا في الروايات التشويهية والمنحرفة وهو ما أريد تلافيه أصلا، وهذا المنهج الذي فَصَّله الباحث إنما مارسه بعض أولئك الباحثين من قبل لكنهم لم يكتبوه، وإنما طبقوه عمليا كثمرة لخبرتهم ودربتهم وممارستهم للروايات. فكان تفصيله وبيانه لهذا المنهج ثمرة ناضجة جدير بالمؤرخين المسلمين أن يفاخروا بها[١].

ولا يستطيع باحث أن يكتب في تاريخ صدر الإسلام، أن يتجاوز هذه المؤلفات الرصينة المتميزة، التي جَلَّت صورة هذا التاريخ ببحث علمي نزيه، فلله درهم، وعلى الله أجرهم.

وإني لأحسب أن أصول البحث في هذه الفترة قد اكتملت بهذا الكتاب الأخير، وسيبقى الأمر مفتوحا للإضافات والتقييد والتفاوت في التطبيق ونحو ذلك، فكم ترك السابق للاحق، وكم في الإمكان أبدع مما كان.

ويوازي هذا الجهد المبذول في الرسائل الجامعية، الجهود الأخرى المبذولة في تخريج الآثار في الموسوعات الكبرى، وأهمها فيما يخص موضوعنا هنا موسوعة المصنف لابن أبي شيبة، فإنها محتشدة بأخبار الفتنة، إذ أفرد لها ابن أبي شيبة آخر مصنفه، وقد صدر في السنوات الخمس عشرة الأخيرة ثلاث طبعات للمصنف، خرجت على التوالي، منها

(١) وقد تواصلت مع الشيخ فواز بن فرحان الشمري، وعرفت أنه يعمل على إصدار طبعة جديدة من كتابه هذا استوعب فيها كثيرا من المرويات الأخرى التي لم يكن قد وقف عليها في الطبعة الأولى، وأخبرني أن له مشروعا كبيرا في جمع مرويات كل عصر الفتنة بداية من مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه وحتى خلافة عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما. وأسأل الله تبارك وتعالى أن يوفقه لما هو خير، وأتوقع أن يكون هذا المشروع جليلا وفارقا في مسيرة كتابة التاريخ الإسلامي في حقبة الفتنة.

تحقيق الشيخ محمد عوامة، ثم الشيخ أسامة بن إبراهيم، ثم الشيخ الدكتور سعد بن ناصر الشـثري، فقد اهتمت الطبعتان الأخير تان بالحكم على الآثار الواردة في هذا الكتاب الضـخم، وبيان درجتها من الصـحة والضـعف. ومن ممارسـة الطبعتين والمقارنة بينهما أستطيع القول بأن طبعة الشيخ أسامة بن إبراهيم هي الأفضل والأكثر دقة.

ومثل هذا المجهود أيضا سلسلةُ الر سائل الجامعية بقسم السنة في كلية أ صول الدين جامعة الإمام محمد بن سـعود، وهي التي عملت على تخريج آثار كتاب الطبقات الكبرى لابن سـعد، وهو موسـوعة علمية ضـخمة لأهم الرجال في تاريخ صـدر الإسـلام، وهم – بطبيعة الحال- الرجال الذين شهدوا عصر الفتنة.

لقد قدَّم كل هؤلاء خدمة ثمينة للتاريخ الإسـلامي بهذه الجهود، وعليها سـتُبْنى جهود أخرى في خدمة هذا التاريخ، فنسأل الله أن يجازيهم خير الجزاء.

## ٠٢ ضرورة فهم الحكمة في وقوع الفتن

إن الروايات الصحيحة تفيدنا في تصور ما حصل ومعرفة التاريخ بأقرب قدر ممكن من حقيقة ما وقع، ولكن يظل أمر آخر هو وراء الفهم وتكوين الصـورة، ذلك هو فهم الحكمة في وقوع الفتن بين المسلمين، فإن المسلم يجد في نفسه ألما لوقوع هذه الفتن، ويودّ أن لو كان عصر الخلافة الرا شدة كله عصرا من السلام والوئام والنصر والفتوحات والتمكين، وإنه ليعزّ على كل مسـلم أن يرى الصـحابة يتقاتلون، فلئن كان كبيرا وعظيما على المسـلم أن يرى مسلمين يتقاتلان فكيف بالصحابة؟!

يدفعنا هذا كله إلى محاولة فهم حكمة الله في وقوع الفتن بين الصـحابة أنفسـهم، الذين هم خير الأمة كلها، وهم أزكاها قلوبا وأذكاها عقولا وأكثرها علما.

١) لقد انتفع المسـلمون مما حدث من الفتن في عصـر الخلافة الراشـدة فقها كثيرا، فيكاد يكون كل باب الفقه المتعلق بمعارضـة الحاكم والخروج عليه مأخوذًا من عمل

الراشــدين: عثمان وعلي والحســن بن علي، فقد ظهر من خلال تعاملهم مع المعارضــة السـلمية والمعارضــة المســلحة ما يجب عليهم وما يجوز لهم، وكذلك ما يجب على الحاكم وما يجوز له، وظهر من خلال هذه الفتن فقه التعامل مع النزاعات الداخلية بين المسـلمين وما تخلفه من قتلى وجرحى وما تسـفر عنه من مفاوضـات واتفاقيات، وظهر منها أيضـا فقه التعامل مع الطوائف الضـالة المنحرفة كالغلاة والبغاة، وما يجب أن يُحفظ لهم من الحقوق وما يجب أن يُعامَلوا به قبل إفسادهم أو بعد وقوعه.

إن أكثر المسائل الحرجة في باب الحكم والسياسة أُخِذ الفقه فيها من هذه الفترة، كحق الرعية في الاعتراض، وتعامل الأمير مع المخالفين والمتمردين، واختيار الخليفة في الفتنة، وامتناع الوالي عن البيعة للخليفة، والافتئات على الأمير في إقامة الحد، والتنازل عن الخلافة، وولاية المفضول في وجود الفاضل، وغيرها.

فلئن لم يكن وقع هذا في عصـر الخلافة الراشـدة، ولم يكن التعامل فيه على يد عثمان وعلي والحسن بن علي اللذين هم من الخلفاء الراشدين لكان اختلاف المسلمين واسعا وشـاسـعا جدا في التعامل مع هذه المســائل والنوازل. لقد كان من الضـروري لأجيال المسـلمين أن تحدث هذه النوازل وتُعالج هذه المسـائل على يد الصـحابة ليظهر التطبيق الإسلامي في عصر القدوة والتشريع ليُعرف فقه الإسلام في أبواب السياسة(١).

وقد جاءت النصـوص النبوية تكشـف عن الجانب الأقرب للحق، وتكشـف عن الفئة الباغية، وهي النصوص التي فَصَلَتْ في هذه المسائل، ولم يكن ممكنا فهم هذه النصوص

(١) يقول الإمام الزهري مؤكدا على هذا المعنى: «إن الفتنة الأولى ثارت **وأصحاب رسول الله ﷺ ممن شهد بدراً كثير.** فاجتمع رأيهم على أن لا يقيموا على أحدٍ حدًّا في فرج استحلوه بتأويل القرآن، ولا قصاص في قتلٍ أصابوه على تأويل القرآن، ولا يُردّ ما أصابوه على تأويل القرآن، إلا أن يوجد بعينه فيُرَدَّ على صاحبه». وموضع الشاهد هنا أن وقوع الفتن في زمن الصحابة كان مفيدا لعموم الأمة في معرفة أحكام الدين، إذ هم أعلم الناس بالدين وأحكامه.
**ينظر**: عبد الرزاق، المصنف، (١٨٥٨٤) وهذا لفظه؛ ابن أبي شيبة، المصنف، (٢٧٩٦٣)، بإسناد صحيح إلى الزهري.
انظر: أكرم العمري، عصر الخلافة الراشدة، ص٤٦٠.

قبل تحققها بالفعل، كقول النبي ﷺ «تقتل عمارا الفئة الباغية»، فهو نصٌّ لم يكن ممكنا فهمه إلا بعد مقتله بالفعل، وسنتناول هذا الأمر فيما بعد، ولكن الشاهد الآن أن النصوص النبوية هي التي حَكَمَت في التنازع الذي وقع بين المسلمين، ومنها عرفنا مَنْ مِنْ الطائفتين كان أدنى إلى الحق، وبناء على هذه النصوص وعلى ما وقع من الفتن بُنِي الفقه الذي ينير الحياة للمسلمين في سائر عصورهم.

وقد ذكرنا، ضمن الحديث عن أهمية عصر الخلافة الراشدة، أن هذا العصر هو الذي استمد منه المسلمون فقه السياسة، وكان لا بد أن تشمل فترة الراشدين سائر مراحل الدولة: التأسيس كما في عهد أبي بكر، والنمو والقوة كما في عهد عمر، والرخاء والازدهار كما في عهد عثمان، والغروب والأفول والفتن كما في أواخر عهد عثمان وعهد علي رضي الله عن الجميع.

٢) ومن فوائد الفتن ما نتعلمه منها من طبائع البشر والاجتماع والتاريخ، فإنه ليس ثمة جيل أتقى لله ولا أورع ولا أذكى من جيل الصحابة، فلئن وقعت بينهم فتن فلا يُستغرب أن يتكرر هذا بين أجيال المسلمين التالية، فالفتن لا تطعن في الخيرية ولا تحجب فضل المسلمين، ويجب ألا يتوقع عاملٌ للإسلام أنه سيصل، مهما بلغ نجاحه، إلى جيلٍ خيرٍ من جيل الصحابة.

وإن الصحابة، وهم خير الأجيال وتلاميذ خير الأنبياء، هم بشر لم تنخرق لهم السنن، وبهذا نعرف وندرك أن لا أحد فوق السنن، وهو ما يدفعنا دائما لمراقبة النفس وتحصين نوافذ الشر والخوف من وقوع الفتن، وحسن التعامل معها إذا وقعت.

ومن أهم السنن أن الرخاء لا يدوم، وكما قيل حقا: لكل شيء إذا ما تمَّ نقصان، فقد كان عصر عثمان رضي الله عنه هو عصر ذروة الازدهار وكثرة الأموال واتساع الفتوحات حتى لم يعد للمسلمين في هذه الأرض منافسٌ ولا مقارب!

كذلك فإن في دراسة أسباب الفتن والأجواء التي وقعت فيها فوائد يجب أن يتأملها المسلمون من بعدهم، سواءٌ في ذلك الأسباب المباشرة من وجود أهل الفتن والشر والتآمر أو الأسباب غير المباشرة من حصول الترف والتنازع على الدنيا وانتشار الشائعات وبزوغ الغلو في الدين وظهور الأفكار المنحرفة الضالة.

٣) وأخيرا فإن في وقوع الفتن تصديقا للنبي ﷺ وإثباتا لنبوته، فلو أنها لم تقع لكان هذا مطعنا في النبوة، وسنتعرض لهذه النصوص في سياق كلامنا، ولكن القصد هنا هو القول بأن وقوع الفتن على النحو الذي أخبر عنه النبي هو من دلائل نبوته ﷺ.

# مقتل الخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه

## جذور الفتنة ومقدماتها

درجت مصـادرنا التاريخية الإسـلامية على أن تدخل في سـرد أحداث الفتنة دون أن تشـرع في مناقشـة الأسـباب الاقتصـادية والاجتماعية الكبيرة التي وُلِدت هذه الفتنة من رحمها، ذلك أنها تنصبّ على رصد الأحداث ذاتها، وتعتمد في ذلك طريقة الإسـناد التي هي طريقة نقل الخبر دون التوقف عند تحليل مضـامينه وفحواه، وذلك كله هو المنهج المعتمد للمدرسة التاريخية الإسلامية[١].

(١) باختصار شديد، أرجو ألا يكون مخلا، لقد كانت نشأة علم التاريخ مختلفة اختلافا كبيرا في المدرسة الإسلامية عن المدرسة الغربية المعاصرة، ومن ضمن هذه الأوجه التي تهمّنا الآن أن التاريخ في الحضارة الإسلامية كان مستندا إلى رؤية إسلامية واضحة، فلم يكن يبحث عن التصور الفلسفي الأساسي للحياة، كذلك فإن التاريخ تناول سيرة النبي وخلفائه الراشدين، فكان من الضرورة الدينية تمحيص هذه الأخبار لأنها تشريعات وأحكام دينية، فأنشأت مدرسة التاريخ الإسلامية مناهج نقد صارمة للتحقق من الحدث، وتميزت بأدوات الإسناد، وبعلوم نقد السند والمتن. فأنتج هذان الأمران منهجا تاريخيا يهتم بالتثبت من الخبر بالمقام الأول.

بينما يهتم المعاصـرون كثيرا بالتوقف أمام هذه الأسـباب الاقتصـادية والاجتماعية، ويجتهدون في محاولة اسـتنتاجها من خلال المادة التاريخية المتاحة، وهم في هذا متأثرون بطبيعة المدرسـة التاريخية الغربية التي جعلت دور المؤرخ جامعا بين جمع المادة وتحليلها للخروج من ذلك بنظرية عامة في التاريخ أو الاجتماع أو الاقتصـاد. وليس هذا موطن مناقشـة الخلاف بين المدرسـتيْن وما هي المزايا والعيوب الناتجة عن كل مدرسـة منهما. ولكن المقصـود هنا أن المدرسـة التاريخية الإسـلامية تُبَيِّن لنا وزن الخبر التاريخي وقدره من الصـحة والضـعف، بينما المدرسـة التاريخية الغربية مهتمَّة بأن تسـتخرج من الأخبار كلها قِصَّـةً مكتملة العناصر والأركان، يتركب فيها فِعْلُ البشر على فِعْل المؤثرات الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية وحتى الجغرافية والمناخية وغيرها.

ولا يمنع هذا الذي قُلناه من أن تحتوي المادة التاريخية الإسـلامية على تحليلات اجتماعية واقتصـادية وغيرها، كما لا يمنع أن من المؤرخين وسـائر العلماء من كانت له جهود في تكوين نظريات عامة من المادة التاريخية، إلا أن هذا كله يأتي عرضًـا لا أصـلا(١). غير أن هذا الذي جاء عرضـا في المادة التاريخية حظي في زماننا المعاصـر بتركيز شـديد عليه، في خضـم شـغف الباحثين والمؤرخين المعاصـرين باسـتجلاء الظروف الاجتماعية والاقتصـادية والنفسـية التي أحاطت بهذا العصـر. والمشـكلة الأسـاسـية في هذا النوع من التحليلات أنه قائم أساسا على النظر العقلي النقدي، فيعتمد على قدرة المؤرخ على تمثل العصـر وتفهمه، وكلما تباعد الزمان كلما فقد المؤرخ المعاصـر أمورا أسـاسـية في فهم

---

بينما نشأ التاريخ في المدرسة الغربية المعاصرة في لحظة انتقال الغرب إلى العلمانية والانخلاع من الكنيسة، فكان التاريخ إحدى الأدوات التي استعملتها المدرسة الغربية لمحاولة الوصول إلى تصور للحياة، وتكوين رؤية فلسفية، فكان التاريخ ساحة نزاع بين فلسفات كثيرة، فنشأ علم التاريخ مهتما بجانب التحليل والتعليل والتفسير، ولم يكن له من الأدوات ما يُمَكِّنه من التثبت من الخبر التاريخي، إلا بالجهد العقلي وحده، فليس ثمة إسناد، ولا علم رجال.

(١) شرعت في كتابة «مدخل موجز لعلم التاريخ ومناهجه وحاجة المصلحين إليه»، يسَّر الله إتمامه وخروجه، وفيه توسَّعت في شرح هذا الفارق بين المدرستين الإسلامية والغربية في التاريخ، ولماذا حصل هذا الاختلاف في المناهج وآثاره على كلا الإنتاجين: الإسلامي والغربي.

المجتمع الذي يبحثه فيختل تقويمه وتقديره والتقاط إيحاءات لغته وخصوصيات ثقافته، ولذلك تتسع الاجتهادات ويكثر الخطأ ويكثر الاختلاف بين المؤرخين في تكوين الصورة عن نفس العصر.

لهذا كله فإنه قد وقع في كتابات المعاصرين اختلافٌ واسع في استخلاص التحليل الاجتماعي والاقتصادي والنفسي لعصر الفتنة، ووقع ذلك أيضا في كتابات الإسلاميين المعاصرين الذين كتبوا بغرضٍ نزيهٍ شريفٍ، وبعضهم لم ينتبه إلى لوازم تحليلاته ومقتضياتها[1].

---

(١) من أمثلة ذلك ما ذكره بعض الباحثين من أن توقف الفتوحات في النصف الثاني من خلافة عثمان كان من أسباب الفتنة، ورتَّب على ذلك كلاما ونتائج، بينما إذا نظرنا في هذا النصف الثاني من خلافته فسنرى أنه قد حصل عام (٣٠هـ) غزو طبرستان ومطاردة يزدجرد -كسرى فارس الأخير- حتى لجأ إلى خراسان، وفي عام (٣١هـ) وقعت غزوة الأساودة البحرية وغزوة ذات الصواري البحرية الحاسمة، وقتل يزدجرد، وفيها فتوح عبد الله بن عامر في خراسان، وفي عام (٣٢هـ) فتح مرو الروذ والطالقان والجوزجان وطخارستان والصلح مع بلخ، وقيل إن ذات الصواري كانت عام (٣٤هـ)، وهكذا نرى أنه إلى قبيل اندلاع الفتنة لم تكن الفتوحات متوقفة، بل لو أراد باحثٌ أن يعكس الأمر فقال بأن السبب استمرار الفتوحات لكان أقرب إلى الصحة؛ فإن المناطق التي وقع فيها التمرد وهي العراق ومصر هي التي كانت جيوشها تحارب في ذلك الوقت في خراسان وطبرستان وذات الصواري.

ومن أمثلة ذلك الحديث المطول الموسع عن فئاتٍ في المجتمع الإسلامي لم تتلق التربية الكافية ولم تتعلم الإسلام، ويأتي في هذا السياق الحديث عن اليهود والنصارى والأعاجم من الفرس والكرد والبربر وغيرهم. وهذا توسع ومبالغة، فلم يكن فيمن أثاروا الفتنة على عثمان وتصدوا لها هذه العناصر، بل كان أولئك من العرب. وقد جاء في كلام بعض هؤلاء الباحثين تلميح أو تصريح أو بطريق ما يلزم منه أن التوسع في الفتوح كان خطأً لأنه أدخل على المجتمع المسلم عناصر كثيرة كانت فوق طاقته في استيعابهم وتربيتهم وتعليمهم. وهذا السبب يُنافي السبب الأول الذي يعزو الفتنة إلى توقف الفتوحات، ومع ذلك يُطرح السببان إلى جوار بعضهما كأنما لا يشعر الكاتب بتناقضه!!

ومن أمثلة ذلك أيضا الحديث المطول عن تغير الجيل، والتوسع في العبارة، حتى يرى القارئ أن الجيل التالي كان بمثابة انقلاب على جيل الصحابة، وأنه تمثل فيه نقيض ما كان متحققا في جيل الصحابة، والواقع أن الأمر ليس كذلك فإن أهل الفتنة قلة من بين هذا الجيل، كما أن هذا مناقض للحديث الصحيح «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم». فإن هذا الجيل هو جيل التابعين، وهو أفضل الأجيال بعد الصحابة.

وإذا تقرر هذا، فإني أزعم أني سأكون حريصا في استخدام الأخبار المفيدة في التحليل الاجتماعي والاقتصادي، فلا أقتصر من ذلك إلا على ما يترجح بقوة أنه فعَّالٌ في التأثير على الأحداث، ومن جراء ذلك فإني أتعامل مع ما يرد في الروايات الضعيفة في هذا الجانب على أنه مفيدٌ في تحسين النظر والتحليل الاجتماعي دون التسليم بأن المقولة صحيحة النسبة إلى قائلها، فلو فرضنا جدلا أنها مقالة موضوعة على لسانه ومنحولة إليه، فإن الذي وضعها هو واحدٌ من نخبة ذلك العصر[1]، فهو وإن كذب في نسبتها لقائلها، إلا أنها تحمل تحليله لما حدث.

**فمن أهم ما ورد في ذلك:**

١. ما يُنْسَب إلى عثمان رضي الله عنه، أنه في أول كتابٍ كتبه للعامة، وهي أشبه بخطبة الخلافة التي يلقيها الخليفة أول تسلمه المنصب ولكنها لغير المقيمين في العاصمة، ينسب إليه أنه قال: «فإن أمر هذه صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم: تكامل النعم وبلوغ أولادكم من السبايا وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن»[2].

يشير هذا النص إلى تغير كبير في ثلاثة عوامل: الاقتصاد والاجتماع والعلم، فإذا لم

---

ومن أمثلة ذلك الحديث عن مؤامرة دولية شاركت فيها عناصر يهودية وفارسية ونصرانية لاغتيال الخلفاء، والجزم بأن اغتيال عمر لم يكن تدبيرا فرديا، وأن اغتيال عثمان وعلي بعده حلقات في سلسلة واحدة!

والخلاصة أن التحليلات التي توسعت في استخلاص الأسباب غير المباشرة كثيرا ما جاوزت الحد، وخرجت عن القصد!

انظر مثلا على بعض هذه التحليلات: يوسف العش، الدولة الأموية، (دمشق: دار الفكر، ١٩٦٥م)، ص٧٧ وما بعدها؛ أبو الحسن الندوي، المرتضى، ط٣ (دمشق: دار القلم، ٢٠١٢م)، ص١٥٤؛ محمد أمحزون، تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة، ط١ (الرياض: دار طيبة – مكتبة الكوثر، ١٩٩٤م)، ١/ ٣٤٣ وما بعدها؛ علي الصلابي، عثمان بن عفان، ط١ (اسطنبول: دار الروضة، ٢٠١٧م)، ص٢٩٩ وما بعدها؛ عبد الستار الشيخ، عثمان بن عفان، سلسلة أعلام المسلمين ٩٨، ط١ (دمشق: دار القلم، ٢٠١٤م)، ص٥٠٣ وما بعدها.

(١) وأقصد بهذا العصر عصر القرن الهجري الأول كله.

(٢) الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ٥٩١؛ بإسناد ضعيف كما قال البرزنجي، ضعيف تاريخ الطبري، ٨/ ٤٦٢.

يصحَّ أن عثمان رضي الله عنه تنبأ بهذا، فإنه يصحُّ أن هذا التغير كان مرصودا في هذا العصر الأول، وإليه ردَّ أولئك الرواة أهلُ هذا العصر سبب الفتنة:

فأولها كان «تكامل النعم» الذي يكون بكثرة الأموال المتدفقة على الديار الإسلامية من غنائم الفتوحات، ولأن السلطة في الدولة الإسلامية لا تكتنز الأموال بل تعيد توزيعها، وقد تكلم الحسن البصري، وهو شاهد عيان، عن كثرة الرخاء في عصر عثمان فقال: «أدركت عثمان وأنا يومئذ قد راهقت الحلم فسمعته يخطب، وما من يوم إلا وهم يقسمون فيه خيرا، يقال: يا معشر المسلمين اغدوا على أرزاقكم، فيغدون ويأخذونها وافرة، يا معشر المسلمين اغدوا على كسوتكم، فيجاء بالحلل فتقسم بينهم... يقال: اغدوا السمن والعسل، قال الحسن: والعدو ينفر، والأعطيات دارّة، وذات البين حسن، والخير كثير، ما على الأرض مؤمن يخاف مؤمنا»[1]. ومن طبائع الاجتماع أن حصول الترف من علامات التغير لما يكون فيه من التنافس والتنازع وفساد ذات البين، كما في الحديث «ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان من قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم»[2].

وثانيها: التغير الاجتماعي الحاصل بظهور الجيل الجديد، وهو أبناء المسلمين من السبايا، الذين آباؤهم من العرب وأمهاتهم من الفرس أو الروم أو غيرهم، وما يحصل في هذا الجيل من التأثر الطبيعي بالأمهات وثقافتهن وطبائعهن، وهو ما سيشيب البيئة العربية بما لم يكن فيها من الأخلاق والعادات والسلوك. ويرافق هذا التغير التناقص المستمر في جيل الصحابة الذي تعلم على يد النبي ورافق نزول الوحي.

وثالثها: التغير الثقافي أو العلمي، وذلك حين يكثر في الأعراب والأعاجم من يقرأ القرآن، فأما الأعراب فيفهمون القرآن لكنهم لا يعرفون فيما نزلت الآيات فيخطئون في

---

(١) ابن شبة، تاريخ المدينة، ٣/ ١٠٢٣ بإسناد صحيح كما قال العمري، عصر الخلافة الراشدة، ص٦١ (الحاشية).

(٢) البخاري (٣٧٩١)، مسلم (٢٩٦١).

فهمها ويخلطون بين منازلها ومواقعها والاستشهاد بها، وهو الأمر الذي فسَّره ابن عباس في عهد عمر، حين سأل عمر: «كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد وقبلتها واحدة؟، فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين، إنا أنزل علينا القرآن فقرأناه، وعلمنا فيم نزل، وإنه سيكون بعدنا أقوام يقرءون القرآن ولا يدرون فيم نزل، فيكون لهم فيه رأي، فإذا كان لهم فيه رأي اختلفوا، فإذا اختلفوا اقتتلوا»[1]. وإذا كان هذا في حال الأعراب الذين يفهمون لغة القرآن، فإن الأمر يزداد سوءا في حال الأعاجم الذين تعلموا العربية، فإنهم أحرى أن يخطئوا في فهم اللغة نفسها فوق الخطأ في إدراك التنزيل.

٢. ومن ذلك ما نقله الطبري أن بداية الفتنة البعيدة كانت حين سمح عثمان لمن شاء من كبار الصحابة بالخروج من المدينة، وكان عمر يحظر عليهم هذا، يقول: «فلما وليَ عثمان لم يأخذهم بالذي كان يأخذهم به عمر، فانساحوا في البلاد، فلما رأوها ورأوا الدنيا، ورآهم الناس، انقطعَ إليهم من لم يكن له طَوْل ولا مزيّة في الإسلام؛ فكان مغمومًا فى الناس، وصاروا أوزاعًا إليهم وأمّلوهم، وتقدّموا في ذلك، فقالوا: يملكون فنكون قد عرفناهم، وتقدّمنا في التقرّب والانقطاع إليهم، فكان ذلك أول وهَنٍ دخل على الإسلام؛ وأوّل فتنة كانت في العامّة، ليس إلا ذلك»[2].

فنحن هنا نرى أنفسنا أمام تحليل اجتماعي للفتنة، وهو مما نثبت به أن أسلافنا الأقدمين لم يكونوا غافلين عن هذا التعمق في الأسباب غير المباشرة إلا أنه يأتي في مصادرنا عَرَضًا لطبيعة اهتمامها بالتوثيق والتسجيل بالمقام الأول، وفي هذا نرى بروزَ فئةٍ من المتسلقين الذين تحلقوا حول كبار الصحابة والتصقوا بهم، يبتغون بذلك أن تكون لهم منزلة عندهم وعند الناس، فإذا صار الحكم إلى أولئك الصحابة صاروا هم بذلك مو ضع

---

(١) أبو عبيد القاسم بن سلام، فضائل القرآن، تحقيق: مروان العطية، وآخران، ط١ (دمشق – بيروت: دار ابن كثير، ١٩٩٥م)، ص١٠٢؛ سعيد بن منصور، التفسير من سنن سعيد بن منصور، تحقيق: سعد آل حميد، ط١ (الرياض: دار الصميعي، ١٩٩٧م)، ١/ ١٧٦.

(٢) الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ٦٧٩، والإسناد ضعيف كما قال البرزنجي، ضعيف تاريخ الطبري، ٨/ ٥٨٥.

قوة، وسيأتي في سياق الفتنة مصداق هذا، وكيف أن بعض أهل الفتنة كانوا أغمارا ليس لهم حظ في الإسلام لكنهم استطاعوا أن يكونوا قريبا من كبار الصحابة في مواقف فاصلة.

٣. ومن ذلك ما قاله ابن عمر أنه قال: «لقد عبتم على عثمان أشياء لو أن عمر فعلها ما عبتموها»(١)، وهي الكلمة التي رُوي عن عثمانَ نفسِه معناها إذ قال: «إنما جرأكم علي حلمي عنكم ولِينِي لكم لقد فعل بكم عُمَر مثل هَذَا فأقررتم ورضيتم»(٢). وهذا الكلام يندرج ضمن التحليل النفسي للأحداث، وكيف تؤثر الطبيعة النفسية لشخصية الأمير أو القائد في مسار التاريخ. فلقد كان أبو بكر وعمر مسارعين في الحزم، تعظم هيبتهما في النفوس إلى الحدّ الذي لا يجترئ فيه عليهما طامع ولا صاحب فتنة، بينما كان عثمان حليما لينا هادئا فتجرأ عليه أولئك وطمعوا فيه.

٤. ومن ذلك ما استنتجه ابن خلدون من مجموع روايات الفتنة وأحداثها من نموّ وازع العصبية القبلية، وتقدمها على وازع الدين، وهو ما دفعهم لإثارة الفتنة وإشعال شرارتها، ثم حملهم هذا التعصب حتى أنهم دافعوا عمن شاركوا في قتل عثمان رضي الله عنه، فلم يُسْلموهم حتى لو اضطرهم ذلك إلى خوض حرب ضد جيشٍ فيه عائشة وطلحة والزبير، أي فيه: أم المؤمنين وزوج النبي ﷺ، وفيه اثنان من العشرة المبشرين بالجنة من أكابر صحابة النبي ﷺ! قال ابن خلدون: «كان أكثر العرب الّذين نزلوا هذه الأمصار(٣) جفاة لم يستكثروا من صحبة النبي ﷺ ولا ارتاضوا بخلقه مع ما كان فيهم من الجاهليّة والعصبيّة

---

(١) ابن أبي شيبة، المصنف، تحقيق: كمال يوسف الحوت، ط١ (الرياض: مكتبة الرشد، ١٤٠٩م)، (٣٢٠٤٧)؛ الأجري، الشريعة، تحقيق: عبد الله الدميجي، ط٢ (الرياض: دار الوطن، ١٩٩٩م)، (١٤٥٦)؛ ابن حجر، تهذيب التهذيب، ط١ (بيروت: دار الفكر، ١٩٨٤م)، ٧/ ١٢٨.

(٢) الأزرقي، أخبار مكة، تحقيق: علي عمر، ط١ (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٤م)، ٢/ ٦٥؛ البلاذري، فتوح البلدان، (بيروت: دار الهلال، ١٩٨٨م)، ص٥٤؛ الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ٥٩٥ بإسناد ضعيف كما قال البرزنجي، ضعيف تاريخ الطبري، ٨/ ٤٦٧.

(٣) يقصد الكوفة والبصرة.

والتّفاخر، وإذا بهم عند استفحال الدّولة قد أصبحوا في ملكة المهاجرين والأنصار من قريش وأهل الحجاز ويثرب السّابقين الأوّلين إلى الإيمان، فاستنكفوا من ذلك لما يرون لأنفسهم من التقدّم بأنسابهم وكثرتهم ومصادمة فارس والرّوم، فصاروا إلى الغضّ من قريش والأَنَفَة عليهم، والتّعلّل في ذلك بالتّظلّم منهم والاستعداء عليهم، والطّعن فيهم بالعجز عن السّويّة والعدل في القسم عن السّويّة»[1].

## الأسباب المباشرة للفتنة

تحتاج كل حركة كبيرة إلى قائد، فكل دعوة أو رسالة أو ثورة أو انقلاب لا بد له من قائد، وقد اختلف الفلاسفة والمؤرخون وسائر الناس في معضلة: هل يصنع القائد الحدث أم أن الحدث يصنع القائد، وهو السؤال الذي ينتج عن معضلة: ماذا لو وُجِد هذا القائد في ظروف أخرى هل كان يستطيع أن ينجز ما فعل، أو هل لو غاب القائد عن هذه الظروف هل كان سيخرج شبيهه؟ والذي يعيننا في هذا كله أن قيادة أي حركة تستثمر وتستغل الظروف المحيطة في صالح ما تريد.

والذي سيعنينا هنا، الحديثُ عن هذيْن الأمريْن: القائد، والظروف!

ونبدأ بالحديث عن الظروف والأجواء ليكون ذلك أسهل في فهم طبيعة الفتنة التي أشعلها ابن سبأ واستثمر الظروف لتهييجها.

### (١) الظروف والأجواء في الولايات الكبرى

(١) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ١/ ٢٦٨. باختصار

يأخذنا الحديث عن الظروف إلى الكوفة[1]، فهناك كانت البداية المباشرة للظروف التي صنعت الفتنة، ولقد كانت الكوفة ولاية يكثر الشغب في أهلها، حتى لقد أرهقوا معهم الصحابة الكبار كسعد بن أبي وقاص وأبي موسى الأشعري وعمار بن ياسر وغيرهم، وقد بدأ شغبهم على الولاة من عهد عمر رضي الله عنه وهو من هو، وكان واليهم سعد بن أبي وقاص الذي كان ممن رشَّحهم عمر للخلافة من بعده! واستمر هذا مع عمار بن ياسر، فعزله عمر، ثم استشار عمر الصحابة مشورةً يظهر منها إرهاق الكوفة له، فقال: «من عذيرى من أهل الكوفة إن استعملت عليهم القوي فجَّروه. وإن وليت عليهم الضعيف حَقَّروه»، فقال المغيرة بن شعبة: «أما المؤمن الضعيف فله إيمانه وعليك ضعفه، وأما الفاجر القوي فلك قوته وعليه فجوره»، فولاه عمر عليها[2].

فإذا كان هذا في زمن عمر ومع كبار الصحابة، فينبغي أن نتوقع ازدياد الأمر سوءا في الكوفة مع طول الزمن، ومع من هم أقل في القدر والمكانة من عمر وولاته، ومع ازدياد هذه النزعة القبلية فيها.

وقد وقع أول تهجم على والي الكوفة في ولاية الوليد بن عقبة، وذلك أنه قد وقع اشتباك بين مجموعة من الشباب وواحدٌ، فقتله أولئك الشباب، وشهد عليهم الناس، فحبسهم الوليد بن عقبة وأرسل إلى عثمان بالخبر فأمر عثمان بقتلهم قصاصا، فقتلهم الوليد تنفيذا

---

(١) وسأعتمد في سوق هذه الظروف على الروايات المقبولة، التي هي إما صحيحة أو حسنة بنفسها، أو تتعضد بغيرها لتبلغ درجة الصحة أو الحسن، أو لها شواهد من روايات صحيحة أو حسنة. وقد استفدتُ في هذا بالأساس من الكتب التي ذكرتُها في مطلع هذا الفصل، مع ما زِدت فيه بما قمتُ به من التوثق والمقارنة، وما اقتضاه هذا المقام من ضرورات الاختصار والتركيب والسرد المكتمل الذي يُكَوِّن قِصَّةً مفهومة للقارئ. فغرض هذه «الخلاصة» –كما نؤكد ونكرر– ليس الغوص في التفاصيل التاريخية، بل تقديم الخلاصة للعاملين للدين، مع القيام بواجب الأمانة العلمية.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، تحقيق: سهيل زكار ورياض الزركلي، ط١ (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٦م)، ١٠/ ٣٢٥، ٣٢٦؛ الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ٥٤٥؛ وانظر: الولاية على البلدان، ص١٦٣ وما بعدها.

لحكم الله فيهم[1]. فأثار هذا العصـبيةَ القبليةَ لدى آباء أولئك الشـباب، وأبرز هؤلاء ثلاثة تتردد أسماؤهم في الروايات وهم: أبو مورع الأسدي وأبو زينب الأزدي وجندب الأزدي.

أوغرت صـدور هؤلاء على قتل أبنائهم، فصـاروا بعد ذلك يترقبون أي خطأ من الوليد بن عقبة أو يخترعونه ويفترون به عليه، فمن ذلك أن الوليد جاءه ضيف كان على النصرانية فنزل في بيته، فسـعى أحد الكذابين إلى آباء أولئك الشـباب الذين تمور صـدورهم بكراهة الوليد فأخبرهم أن الوليد و ضيفه يشربان الخمر الآن، فأسرعوا إلى تهييج الناس وقصدوا إلى بيت الوليد فاقتحموه عليه، فلم يجدوا إلا صـحنا فيه قليل من العنب، فاغتاظ الناس عليهم وسبُّوهم وهجوهم، واحتمل الوليد ذلك منهم فسكت وصبر ولم يعاقبهم ولم يبلغ عثمان شيئا[2]، ولعله أراد بذلك أن يُسَكِّن الأمور ولا يزيد الصدور اشتعالا.

ولكنهم لم يكفُّوا عن إذاعة أن الوليد بن عقبة يشرب الخمر، بل حملوا هذا الكلام إلى عبد الله بن مسعود، وهو من الصحابة الذين سكنوا الكوفة، فقالوا: «هلك الوليد بن عقبة؛ تقطر لحيته خمرا»، فقال عبد الله بن مسعود لهم: «قد نُهينا عن التجسس، فإن يظهر لنا نقم عليه»[3]، وقد أغضب هذا الردُّ الوليد بن عقبة من ابن مسعود، لأن فيه قبول أصل التهمة، فأرسـل إلى ابن مسـعود وعاتبه قائلا: «أيرضـى من مثلك بأن يجيب قوما موتورين بما أجبت علي؟! أي شـيء أسـتتر به؟! إنما يقال هذا للمريب»، وكان هذا سـببا في وقوع

(١) الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ٦٠٩. من رواية سيف بن عمر، ولكنها تنسجم مع الروايات المقبولة وتفسرها.

(٢) الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ٦٠٩، ٦١٠. من رواية سيف بن عمر، وهي تنسجم مع الروايات المقبولة.

(٣) أبو داود (٤٨٩٠)؛ الطبراني، المعجم الكبير، (٩٧٤١)؛ عبد الرزاق، المصنف، (١٨٩٤٥)، وصححه الألباني؛ الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ٦١٠. كلام ابن مسعود ثابت، ولكن رواية أبي داود فيها «هذا فلان تقطر لحيته خمرا»، والتصريح باسم الوليد في رواية عبد الرزاق، والتصريح باسم السعاة إلى ابن مسعود هو الذي في الطبري من رواية سيف بن عمر.

التغاضب بينهما[1].

وظلت تهمة الخمر هذه تشيع وتذيع حتى كثرت، ووصل خبرها إلى عثمان بالمدينة، بل صار بعض الصحابة يكره أن يبقى الوليد في ولايته بعد كثرة المقالة فيه[2]، وبينما تزداد التهمة في السريان إذ وقعت حادثة أخرى، فقد جاء إلى الكوفة رجل ساحر، ويبدو أنه كان حديث الإسلام ولم يكن يعرف أن السحر محرم من الكبائر وأن حدَّه القتل، فإذا هو يحادث أهل الكوفة ويظهر لهم مهارته في السحر، فرُفِع الأمر إلى الوليد بن عقبة، فأرسل الوليد إلى فقيه الكوفة عبد الله بن مسعود، فقرر أن حكمه القتل، وبينما هما في ذلك، إذ اندفع جندب الأزدي –والد أحد الشباب المقتولين قصاصا، وأحد الساعين في تهييج الناس على الوليد– فأخذ سيفه فقتل الساحر، وافتأت بذلك على السلطان، فليس تنفيذ الحدود متروكا لعموم الناس بل هو موكول إلى السلطان، كما أن هذا الساحر لم يُبَيَّن له أن السحر محرم، ولم تقم عليه الحجة. فحبس الوليدُ جندبا برأي ابن مسعود ومشورته، وأرسل إلى عثمان يستشيره في شأنه، فحكم عثمان أن يُعَزِّروه لافتئاته، وأرسل إلى الناس «ألا يقيموا الحدود دون السلطان، فإنا نقيد المخطئ ونؤدب المصيب»[3]، فعَزَّره الوليد بن عقبة وخلى سبيله.

فكان حبس جندب وتعزيره مما زاد في إيغار صدور هؤلاء القوم، وزاد عليهم أن غضب لجندب بعضٌ من أهله وأصحابه، فانطلق وفدٌ منهم إلى المدينة، يطالبون عثمان بعزل الوليد بن عقبة عن الكوفة، وأثاروا مسألة شربه الخمر مرة أخرى، فنهرهم عثمان وقال لهم: «تعملون بالظنون، وتخطئون في الإسلام، وتخرجون بغير إذن!» ثم أمرهم بالرجوع، فرجعوا مخذولين، فكان فشلهم ورجوعهم مما زاد في غضبهم وإيغار

(١) الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ٦١٠.

(٢) البخاري (٣٤٩٣).

(٣) الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ٦١٠.

صـدورهم، فصـاروا بهذا مركز فتنة ومؤامرة اجتمع إليه كل من كانت له ضـغينة أو كان في نفســه شــيء من الوليد أو من عثمان أو من نظام الإســلام كله، فدبروا أن يوقعوا الوليد بن عقبة في تهمة الخمر، فاســتطاع بعضــهم أن يتســلل إلى بيت الوليد وأن يســرق خاتمه، ثم مضوا إلى المدينة، فوضعوا الخاتم أمام عثمان كدليل على أن الوليد يشرب الخمر فيسكر ويغفل عن خاتمه! وشــهدوا عليه أنهم رأوه يشــرب الخمر ويقيئها[1]! ومع أن عثمان لم يكن مطمئنا لهذا الأمر، إلا أنه أمر بإنفاذ الحد على الوليد وعزله عن الكوفة، وتولى عليٌّ بن أبي طالب جلده الحدَّ[2].

ولَّى عثمان على الكوفة ســعيد بن العاص، وهو من أهل الكفاية، فهو صــاحب علم وفصاحة وبيان، وكان حَكَمًا على اللهجة القرشية في الجمع الثاني للمصحف، فوق أنه كان قائدا فارسا في فتوح جرجان وطبرستان، لكن المشكلة هنا أن سعيد بن العاص تولى على قوم نجحوا لتوِّهم في عزل واليهم بما نجحوا فيه من المكر والتدبير، فهم الآن مركز قوة خطير، يحسبون أنفسهم قادرين على عزل الوالي إذا لم يستقم لهم.

هذه الفئة التي بدأت بآباء أولئك المقتولين قصاصا، ثم انضمَّ إليها كل من كان في نفسه شيء على الوالي أو على الخليفة أو على الإسلام، كانت هي المحضن الطبيعي الذي يجد فيه ابن سبأ أنصاره، أو أن ابن سبأ أدخل بعض أنصاره وعناصر تنظيمه إلى هذه الفئة، أو وجد كل منهما في الآخر ســاعده وســنده وعونا له. ومن أبرز أســماء هذه الفئة: الأشــتر النخعي، وجندب بن عبد الله، وأبو مصعب بن جثامة.

لقد كانت الكوفة معسكرا للفاتحين الذين فتحوا العراق مع سعد بن أبي وقاص، ولكن توســع الفتوح وانتشــار الفاتحين في فارس وخراســان والجزيرة الفراتية قلل من حضــور الفاتحين الكبار الأوائل ونفوذهم، وترافق مع هذا أن الانتصــارات الكبيرة للفتوحات

(١) الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ٦١١.

(٢) البخاري (٣٤٩٣)؛ مسلم (١٧٠٧).

جاءت إلى الكوفة بأمواجٍ ممن أراد المشاركة في الفتوح بعد أن صارت مغنما أكثر منها مغرما، ولذلك طغت على الكوفة حالة من الفوضى وضعف أثر الكبار وارتفاع شأن من لا سابقة له ولا شرف. هذه الملاحظة كانت أول شيء لاحظه سعيد بن العاص حين تولى على الكوفة، فأرسل إلى عثمان يخبره ويستشيره، فأرسل إليه عثمان أن يبذل جهده في إعادة تقديم أصحاب السابقة والفاتحين الكبار وأهل البذل والجهاد الأوائل، وجعلهم وجوه الناس، وجعلهم موضع صحبته وخلصائه في مجلسه، ففعل ذلك سعيد بن العاص، وجمع إليهم من كان لاحقا وتاليا في الفضل والمكان والوقت ولكنه لا يزال على الجادة والتقوى والخير، فكان من آثار هذه الخطوة أن أبعدت أولئك الذين ظنوا أنهم مركز قوة عظيم في الكوفة، فاشتعلت صدورهم حقدا، وازدادت رابطتهم قوة، وصار استبعادهم زيادة في تكتلهم، بل ولجأ إليهم كل من ظنَّ أنه مستبعد من مجلس الوالي وأهل مشورته، فبدأت تلك المجموعة في إثارة الأقاويل والأكاذيب وتهييج الناس[1].

ولكن هذه المرة لم تكن تهمة مُوَجَّهَةً إلى والي الكوفة، بل كانت اعتراضا على النظام العام كله.. وهنا يجب أن نتوقف قليلا لبيان هذا النظام العام، لا سيما في باب المال، وكيف حنقوا عليه.

كان المال في عهد النبي ﷺ وأبي بكر قليلا، وكان النبي ﷺ وأبو بكر يسارعون إلى قسمته بين الناس، حتى إنه لم يكن في ذلك الزمن بيتٌ للمال، وكان أبو بكر يرى التسوية في العطاء، فإذا أعطى الناس رواتبهم لم يفرق بين من تقدَّم إسلامه فبذل وجاهد وبين من تأخَّر منهم، يقول: «إن هذا المعاش الأسوة فيه خير من الأثرة»[2]، وكان عمر يعارض أبا بكر في ذلك ويرى أنه لا ينبغي التسوية بين مَن قاتل مع رسول الله ومن قاتل رسول الله.

(١) الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ٦١٣.

(٢) أبو يوسف، الخراج، تحقيق: طه عبد الرءوف وسعد حسن، (القاهرة: المكتبة الأزهرية، ١٤٢٠ﻫ)، ص٥٣؛ البيهقي، السنن الكبرى، ط١ (حيدر آباد: مجلس دائرة المعارف النظامية، ١٣٤٤ﻫ)، (١٣٣٧٩).

ولعل عمر كان ينظر إلى أن إغناء أهل السابقة والفضل والتقوى وتفضيلهم في المال هو من الإكرام لهم أولا، وهو أجر الدنيا على ما بذلوه أيام غربة الإسلام وضعفه، ثم إن تقواهم ستحملهم على إنفاق المال في وجوه الخير، مما سيزيد من فضلهم وسيادتهم وارتفاع مكانتهم في المجتمع، وسيحمل المجتمع على التنافس في البر والتقوى، وتلك أمورٌ لا يمكن أن يفعلها بذات القدر من أسلموا حديثا ولم يتمكن الإيمان في قلوبهم.

فلما تولى عمر الخلافة، حصل أمرٌ جديد، وهو تدفق الأموال من الغنائم والجزية مع اتساع الفتوح، فلئن كان المال أيام أبي بكر يكاد يكفي المعاش وتحسن فيه السوية، فإن المال الكثير في أيام عمر يزيد عن المعاش. كذلك فإن كثرة الأموال استدعت تنظيم الموارد والمصارف وتسجيلها في دواوين، وهو ما حصل في أيام عمر، فلما كُتبت الدواوين قُسِّمت على القبائل، واعتمد عمر القسمة بناء على المكانة والفضل والسبق إلى الإسلام، فبدأ بآل بيت النبي ثم قبيلته والمهاجرين والأنصار، مقسمين إلى مراتبهم في السبق والفضل، فمن شهد بدرا ليس كمن شهد الحديبية، وكل أولئك ليسوا كمن أسلم بعد الفتح أو في عام الوفود[1]. وطبَّق عمر هذه السياسة على نفسه أولا، فكان أول من أُنْقِص عطاؤهم ولدُه عبد الله بن عمر، فلم يعطه عطاء المهاجرين مع أنه منهم، وذلك أنه إنما «هاجر به أبواه»[2]، وقال عمر معبرا عن سياسته هذه: «ما أنا بأحق بهذا الفيء منكم، وما أحد منا بأحق به من أحد، إلا أنّا على منازلنا من كتاب الله عز وجل، وقسم رسول الله ﷺ فالرجل وقِدمه، والرجل وبلاؤه، والرجل وعياله، والرجل وحاجته»[3]، وقال أيضا: «إني

---

(١) عبد السلام محسن آل عيسى، دراسات نقدية للروايات المالية في خلافة عمر بن الخطاب، رسالة ماجستير (المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية، ١٤١٢هـ)، ص٢٧٧ وما بعدها؛ أكرم العمري، عصر الخلافة الراشدة، ص٢٣٢ وما بعدها.

(٢) البخاري (٣٧٠٠).

(٣) أحمد (٢٩٢)، أبو داود (٢٩٥٠)، وحسنه الألباني، وصحح إسناده أحمد شاكر.

بادئ بأصحابي المهاجرين الأولين فإنا أخرجنا من ديارنا ظلما وعدوانا، ثم أشرفهم ففرض لأصحاب بدر منهم خمسة آلاف، ولمن كان شهد بدرا من الأنصار أربعة آلاف، ولمن شهد أحدا ثلاثة آلاف، قال: ومن أسرع في الهجرة أسرع به العطاء، ومن أبطأ في الهجرة أبطأ به العطاء، فلا يلومن رجل إلا مناخ راحلته»[١].

وبهذا، كانت السياسة المالية في عهد عمر تدعم السابقين إلى الإسلام، ولا شك «أن الفئة التي حازت الأموال الوفيرة في خلافته هي التي أقامت على أكتافها صرح الدولة الإسلامية، كما أنها أكثر فقهاً والتزاماً بالشرع ومقاصده، وأكثر ورعاً وصلاحاً في التعامل مع المال، وتذليله لتحقيق المقاصد الاجتماعية عن طريق الإنفاق. ودعم هذه الفئة اقتصادياً يقوي نفوذها في المجتمع، ويجعلها أقدر على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[٢].

ويبدو أن تدفق المال وكثرته جعلت عمر يرى أن سياسة التفضيل قد حققت أغراضها، فقد ورد عنه أنه عزم على التسوية بين الناس في عطاء العام المقبل برفع الرواتب[٣]، لكنه استشهد قبل أن يطبق هذا.

وسار عثمان، كما هي سياسته العامة، على ما سلف من سياسة عمر، فأخذ بالتفضيل بين الناس في توزيع العطاء باعتبار السابقة والبلاء، وبينما كان هذا الأمر مفهوما ومقبولا طوال عهد عمر، وفي معظم عهد عثمان، إلا أن ما طرأ من أجواء الفتنة والعصبية القبلية جعل لهذا الأمر منظورا آخر لدى رؤوس الفتنة هؤلاء، فلم ينظروا لهذا باعتباره تفضيلا

(١) أحمد (١٥٩٤٦)؛ البيهقي، السنن الكبرى، (١٣٣٧٧)، وقال شعيب الأرناؤوط: رجاله ثقات؛ أكرم العمري، عصر الخلافة الراشدة، ص٢٣٣.

(٢) أكرم العمري، عصر الخلافة الراشدة، ص٢٣٦.

(٣) البيهقي، السنن الكبرى، (١٣٣٨٧)؛ ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٢٨٧٤)؛ أكرم العمري، عصر الخلافة الراشدة، ص٢٣٦.

للسـابقة في الإسـلام، بل نظروا له باعتباره تفضـيلا لقريش على سـائر قبائل العرب، وأن قريشا صارت ذات أموال طائلة دون بقية القبائل ممن شاركوا في الفتوح، فصار هذا الأمر من أسـباب تهييج الفتنة في الكوفة على يد هذه الفئة التي تجتمع على الشـر! وتجمع إليها كلُّ أعرابي أو مملوك محرر ممن «اسـتحلى كلامهم، فكانوا في زيادة، وكان الناس في نقصان، حتى غلب الشر»[1].

ويرى بعضُ الباحثين أن البيئة أيضـا قد تكون ذات أثر، إذ إن قرب البصـرة والكوفة من أهل العراق قد يجعلها قابلة للتأثر بما قد يكون تسـرب إليهم من أفكار المزدكية، التي هي أقرب ما تكون إلى الأفكار الشـيوعية، أو ما تسـرب إليهم ممن أسـلموا من أهل العراق وبقيت فيهم هذه الرواسب، أو ممن أسلموا نفاقا وعملوا على نشر هذه الأفكار أو التعلل بها[2].

انفجر الأمر في مجلس سعيد بن العاص الذي كان يخصّ بمجلسه القراء وأهل الفضل والصـلاح، ويجعل يوما لمجلسـه للعامة، فكان أولئك الذين يُبْعَدون من مجلسـه الخاص يحضـرون مجلسـه العام، وبينما هم فيه، إذ تطرق الحديث إلى أملاك طلحة بن عبيد الله الكثيرة وجوده الكثير، فقال سـعيد بن العاص: لو أني لي مثل ماله لجعلت عيشـكم رغدا، فتكلم شابٌّ بأنه يودُّ لو كان لسعيد بن العاص سائر ساحل الكوفة على الفرات، فإذا بهذه الكلمة التي فيها مجاملة للأمير وثناء عليه قد مسَّـت حقد رؤوس أهل الفتنة الحاضـرين، فحملوها على أنه يُحرِّض سعيد بن العاص على أملاكهم، فقاموا إليه فضربوه وضربوا أباه حتى غشي عليهما، وذلك في مجلس سعيد بن العاص الذي لم يستطع منعهم، كان أولئك الرؤوس هم: الأشـتر النخعي، وجندب الأزدي، وصـعصـعة بن صـوحان، وابن الكواء وغيرهم. ثم كادت تنشب معركة بين القبائل لولا أن استطاع سعيد بن العاص تهدئة الوضع

(١) الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ٦١٤.

(٢) خالد الغيث، استشهاد عثمان، ص٦٣، ٦٤.

في آخر الأمر، واستشار سعيدٌ عثمان، فحثَّه على تهدئة الأمور ما استطاع. ولكن أولئك الذين أشعلوا الفتنة بعدما نجوا من انتقام القبائل بوساطة سعيد بن العاص، زادوا فيما هم عليه من التحريض والتهييج والإشاعات، حتى كتب أهل الكوفة لعثمان في شأنهم، فأمر عثمان بنفي رؤوس الفتنة[1] -وهم بضعة عشر رجلا- من الكوفة إلى الشام عند معاوية بن أبي سفيان، فجعل معاوية يجالسهم ويناقشهم، حتى احتقر أمرهم واستصغر شأنهم، وأرسل إلى عثمان أنه لا خطر من هؤلاء إن لم يكن معهم غيرهم، وسمح لهم بالخروج من الشام، فخافوا إن عادوا إلى الكوفة أن يشمت بهم الناس، فذهبوا إلى الجزيرة الفراتية، وكان واليها عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فعاملهم بالشدة والحزم حتى لم يجرؤوا أن يكلموه كما كانوا يكلمون سعيد بن العاص أو معاوية، فخضعوا وتابوا وأظهروا الذلة، ورضوا بالبقاء عند عبد الرحمن بن خالد بن الوليد[2]، وبدا بهذا أن الفتنة تخمد.

لكن جناح الفتنة الآخر، المتمثل في عناصر تنظيم ابن سبأ، كانت لا تزال تعمل في الكوفة، لكن حالة الهدوء المؤقت أغرت سعيد بن العاص على إجراء تغييرات في ولاة الأنحاء التابعين للكوفة، فولَّى وجوه الناس على تلك الولايات، ففرغت الكوفة من القيادات الإسلامية الكبيرة، ولم يبق فيها «من الرؤساء إلا منزوعا أو مفتونا»[3].

سيستغل تنظيمُ ابن سبأ حالة الفراغ هذه، وسيبرز اسمٌ جديد في رؤوس الفتنة هو يزيد بن قيس، الذي نَظَّم اجتماعا في الجامع يدعو فيه إلى خلع عثمان بن عفان، واجتمع إليه

---

(١) حادثة النفي نفسها ثابتة، أما تفاصيلها فمن روايات ضعيفة تنسجم مع ما في الروايات الصحيحة. انظر: الغبان، فتنة مقتل عثمان، ط١ (المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية، ١٩٩٩م)، ١/ ٣٨٤، ٣٨٥؛ الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ٦٣٩، وهي من طريق الواقدي، إلا أنها لا تحمل نكارة، وتعد هي وأمثالها مقبولة إذا انسجمت مع غيرها من الروايات المقبولة، حتى إن البرزنجي بعدما وضعها في قسم الضعيف من تاريخ الطبري (٨/ ٥٣٢) أشار في قسم الصحيح منه (٣/ ٣٢٣) إلى أنها مقبولة، ومال إلى رأي د. خالد الغيث الذي قال: «وهذه الأخبار تكاد تكون محل إجماع بين المصادر». خالد الغيث، استشهاد عثمان ووقعة الجمل، (نسخة إلكترونية)، ص٦٥.

(٢) الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ٦٣٤ وما بعدها.

(٣) الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ٦٤١.

تنظيم ابن سبأ، فلما انقضّ عليه القعقاع بن عمرو التميمي زعم أنه مطيع لعثمان وإنما يطالب بخلع سعيد بن العاص عن الكوفة، فأخرجه القعقاع من المسجد، ونهاه عن الاجتماع فيه، وأمره إن كان له طلب أن يرفعه إلى عثمان، فرجع مخذولا إلى بيته، ولكنه أرسل إلى أولئك المنفيين من رؤوس الفتنة يستدعيهم إلى الكوفة، فوجدها أولئك فرصة لا تعوض، وهُرعوا إلى الكوفة من جديد، واستبقهم إليها الأشتر النخعي بكذبة تقول إن سعيد بن العاص ينوي إنقاصهم الأعطيات المقررة لهم، فهو يرى -أي سعيد- أن هذه الأموال إنما هي بستان قريش، فخاطب بهذه الكذبة العصبية القبلية لأهل العصبية والحرص على المال لمن لا قبيلة لهم من الصغار والعبيد المحررين ونحوهم، فهاج الناس وانفلت الأمر، وعزم أولئك الجمع الذين هيجهم زيد بن قيس والأشتر النخعي أن يخرجوا إلى ظاهر الكوفة يمنعون سعيدَ بن العاص من دخولها، فخرجوا، فلما وصل سعيدٌ وجدهم معسكرين له، فلما عرف طلبهم، عاد فرجع إلى المدينة[1]، فسأله عثمان: ما يريدون؟ أخلعوا يدًا من طاعة؟ قال سعيد: أظهروا أنهم يريدون البَدَل. قال عثمان: فمن يريدون؟ قال: أبا موسى الأشعري. قال عثمان: قد أثبتنا أبا موسى عليهم، ووالله لا نجعل لأحد عذرا، ولا نترك لهم حجة، ولنصبرن كما أُمِرْنا حتى نبلغ ما يريدون[2].

وبالفعل، أرسل عثمان أبا موسى الأشعري، فدخل الكوفة، وجدد منهم البيعة لعثمان، ورجع إلى الكوفة بعضٌ من الكبار الذين خرجوا للولايات في فترة الهدوء الظاهر حين كان رؤوس أهل الفتنة منفيين من الكوفة، ولكن الأمر قد بلغ الآن مبلغا جديدا، فهؤلاء القوم قد عزلوا واليَيْن في وقت قريب: الوليد بن عقبة أولا وسعيد بن العاص ثانيا، ثم إن جمعهم وارتباطهم صار أقوى، وقد دخل عليهم عناصرٌ من تنظيم ابن سبأ أيضا.

(١) اليوم الذي تجمهر فيه أولئك، وردُّوا فيه سعيد بن العاص بعد أن خلعوه، يُعرف بيوم الجرعة، وقد ورد ذكر هذا اليوم إجمالا في صحيح مسلم (٢٨٩٣).

(٢) الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ٦٤٢.

هذا مجمل أوضـــاع الكوفة، التي كانت أهم مراكز الفتنة، ويمكن بعد ذلك أن نرى في الولايات الأخرى شــذرات من هذه الأجواء أو بعض هذه الظروف، ولكنه كانت في ذاتها بسـيطة وغير مؤثرة، غير أنه إذا وُجِد من يريد اسـتغلالها وتضـخيمها وترويجها فسـيكون الأمر أشد خطورة:

ففي الشام وقع خلاف بين أبي ذر ومعاوية رضي الله عنهما، فلقد كان لأبي ذر رأي في المال وكنزه انفرد به عن الصحابة، حيث كان يرى أن المال الذي يزيد عن حاجة المرء في يومه هو من الكنز الذي توعد الله صاحبه في قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾ [التوبة: ٣٤]، وكان أبو ذر قد غادر المدينة إلى الشام عملا بوصية النبي له أن يغادر المدينة إذا اتسع عمرانها وبلغ البناء فيها جبل سلع[١]، وهناك رأى أبو ذرٍّ أن معاوية يكنز المال، أي الكنز الذي يرى أبو ذرٍّ أنه داخلٌ في وعيد الله، واشتدَّ بينهم الخلاف حتى أرسل معاوية إلى عثمان يطلب منه أن يستدعي إليه أبا ذر لئلا تكون فتنة في الشام[٢]، فأرسل إليه عثمان، فعاد أبو ذر إلى المدينة[٣]، ولما أدرك أبو ذرٍّ سبب استدعائه قال لعثمان: «أَخِفْتَني؟! فوالله لو أمرتني أن أتعلق بعروة قتب حتى أموت

(١) ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٧٣١٤)؛ الحاكم (٥٤٦٨)، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٢) أبو ذر صحابي جليل، وداعية من الطراز الأول، فقد أسلم مبكرا وجاء بنفسه إلى مكة وتخفى كي يسمع كلام النبي ﷺ، وما إن استمع له حتى أسلم، ثم جهر بالدعوة متعرضا لأذى قريش، ثم دعا قبيلته غفار فأسلم نصفها قبل أن يهاجر النبي من مكة إلى المدينة، ولكن يبدو من مجمل أخباره أنه من أصحاب العاطفة الحارة والعزم الشديد، ومثل أولئك يكونون من أعلام الدعوة ولكن لا يصلحون لأمر السياسة والقيادة، ولعله لهذا أوصاه النبي ألا يتولى على اثنين ولا على الأموال (مسلم: ١٨٢٦)، ولما طلب أبو ذر أن يكون في عُمَّال النبي قال له ﷺ: «إنك ضعيف، وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة» (مسلم: ١٨٢٥). وفي ما يخص الأمر هنا فإن رفض أبي ذر للسياسة المالية لمعاوية بن أبي سفيان مع عاطفته وحماسته جعلت معاوية يناشد عثمان أن يستدعيه إلى المدينة لئلا تحدث فتنة في الشام، ولعله لهذا أوصاه النبي ﷺ بالخروج من المدينة حين تتسع عمارتها.

(٣) البخاري (١٣٤١)؛ ابن شبة، تاريخ المدينة، ٣/ ١٠٣٤ وما بعدها، وإسناده حسن كما قال الغبان، فتنة مقتل عثمان، ١/ ٤٦٠، ٤٦١.

لفعلت»[1]. واستأذن من عثمان أن ينزل الربذة لوصية النبي له بالخروج من المدينة حين يبلغ البناء فيها جبل سلع، وفي روايات أن عثمان رغب في ذلك. وفي الربذة سُئل أبو ذر عن نزوله فيها فساق الحكاية ثم قال: «ولو أمّروا علي عبدًا حبشيا لسمعت ولأطعت»[2]. ولئن كان أبو ذر رضي الله عنه يعرف حدود النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا شك أن بعضَ كلامِه ومواقفِه جرى استغلاله وتضخيمه من قِبَل بعض المفتونين والجهلاء، ومن قِبَل المُغرضين كذلك، وقد كان ابن سبأ في الشام مدة من الوقت، فلا ريب أنه عمل على الاستفادة من إنكار أبي ذر. وفي النهاية ظل الشام آمنا ساكنا لم تهدده الفتنة، بفضل يقظة معاوية وحسن سياسته!

وفي البصرة، خرجت شكوى الناس من رجل يسمى حكيم بن جبلة العبدي، فقد كان إذا خرج في الجيش للغزو والفتح يتنكر فيغادر الجيش فيغير على أهل الذمة وعلى غيرهم، ثم يلتحق بالجيش، فرُفِعت الشكوى لعثمان بن عفان، فأمر واليه على البصرة عبد الله بن عامر بن كريز أن يمنعه من مغادرة البصرة ومن المشاركة مع الجيوش، فصار حكيم موتورا، فقد حُرِم بهذا باب رزق حلال وهو غنائم الفتوح، وباب مال حرام وهو ما يصنعه في إغارته، فكان هو وقومه حاضنة مناسبة لحركة ابن سبأ، فنزل ابن سبأ في ضيافتهم مدة، فسمعوا منه وقبلوا كلامه، وصارت لهم مجموعة يجتمعون له، حتى بلغ ذلك عبدَ الله بن عامر والي البصرة، فاستدعاه إليه، ويبدو أنه تشكك فيه، فأمره بالخروج من البصرة[3].

وأما الأوضاع في مصر، فسيأتي الحديث عنها عرضا لدى تناولنا لقائد الفتنة عبد الله بن سبأ، ولشخصية أخرى غريبة: محمد بن أبي حذيفة!

وإذا كان هذا مختصر الأوضاع، فلا بد الآن من الحديث عن قائد الفتنة ورأسها الذي

---

(١) ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٧٦٩٨)، وإسناده صحيح، انظر: الغبان، فتنة مقتل عثمان، ١/ ٤٥٩.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٤/ ١٧١؛ وإسناده صحيح، انظر: الغبان، فتنة مقتل عثمان، ١/ ٤٦٢.

(٣) الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ٦٣٩.

يستطيع استغلال هذه الأجواء لتحقيق أغراضه ومراده!

## (٢) قائد الفتنة: عبد الله بن سبأ

لقد اتفقت المصادر التاريخية الإسلامية على أن باعث حركة الفتنة ضد عثمان بن عفان هو عبد الله بن سبأ، وهو يهودي يمني أظهر الإسلام وتنقل بين اليمن والشام والعراق ومصر، حتى استطاع تجييش بعض الناس واستغلال الظروف القائمة آنذاك في تحريضهم على عثمان رضي الله عنه.

وقد حاول بعض الباحثين، من الشيعة والمستشرقين ومن تأثر بهم، نفي الوجود التاريخي لعبد الله بن سبأ، والزعم بأنه شخصية غير حقيقية، وتعددت أغراضهم، ولكن تعدد الأخبار عن ابن سبأ، بما في ذلك أخبارٌ صحيحةٌ يجعل هذه الدعوى ساقطة ومتهافتة[1]، لكن الذي يجب أن يُقال ويتكرر التنبيه عليه: أن عبد الله بن سبأ وإن كان شخصية حقيقية ومؤثرة إلا أنه وبكل تأكيد لم يفعل هذا وحده، بل تدل الروايات الصحيحة على وجود تنظيم فعَّال أدار حركة التمرد على عثمان، وقام هذا التنظيم بتزوير رسائل وإيفاد مبعوثين في وقت حرج بل وإشعال حرب الجمل وغيرها مما سيظهر في تناولنا لما حدث. ومن طبيعة الأمور أن يكون حول هذا التنظيم، بل وفيه أيضا، منخدعون أغرار يسهل استعمالهم وتوظيفهم، وفيهم من التقت أغراضه مع أغراضٍ أخرى: دينية أو قبلية أو اقتصادية أو نفسية.

وتدل الروايات الصحيحة على أن عبد الله بن سبأ بعث في الناس فكرة الانتصار لعلي

---

(١) انظر في هذا الموضوع: الغبان، فتنة مقتل عثمان، ١/ ١١٨ وما بعدها؛ خالد الغيث، استشهاد عثمان، ص٧٣ وما بعدها؛ محمد أمحزون، تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة، ١/ ٢٨٤ وما بعدها. وأفرد بعض الباحثين كتبا لهذا الموضع، منها: سليمان العودة، عبد الله بن سبأ ودوره في أحداث الفتنة؛ سعدي الهاشمي، عبد الله بن سبأ حقيقة لا خيال.

بن أبي طالب، وأنه الأحق بالخلافة وأن أبا بكر وعمر وعثمان اغتصبوا هذا الحق منه، وذلك أنه الأقرب نسبا إلى النبي ﷺ، وأظهر في ذلك الأحاديث في فضل عليٍّ ثم اختلق أحاديث أخرى، يريد بذلك أن يُثبِّت دعواه في أن عليًّا أفضل الصحابة وأحقهم بالخلافة بعد النبي ﷺ، وهو ما يجرّ إلى الطعن في أبي بكر وعمر وعثمان[١]. وحيث إن أبا بكر وعمر قد ماتا فإن النتيجة العملية لهذه الدعوى هي السعي في خلع عثمان، ومن هنا بدأ في التحريض والتشنيع على عثمان بأمور سنناقشها بعد قليل.

وفيما بعد، تمادى ابن سبأ في هذه الفكرة حتى رفع عليا -رضي الله عنه- إلى مرتبة الألوهية وأنه الذي يخلق ويرزق، وقد وُجِد قومٌ في عهد علي صرَّحوا بهذا أمامه فنهرهم فلم يرجعوا، فهددهم بالقتل فلم يرجعوا، فحفر لهم أخاديد في الأرض وأشعلها نارا وقذفهم فيها[٢]، وعُرِف أولئك بالسبئية[٣]. وكان مما ساعده في اعتناق بعض الناس لهذه الفكرة أن البيئة التي عاش فيها أولئك هي بيئة قريبة العهد بنظام التوريث، فكلا الإمبراطوريتين الفارسية والرومية اللتين حكمتا العراق ومصر كان الراسخ فيهما انتقال الحكم إلى أقرب الناس نسبا إلى كسرى وقيصر.

كذلك فإن محاولة رفع البشر إلى مرتبة الألوهية خليقة باليهودية، ويُضرب المثل في

---

(١) ابن حجر، لسان الميزان، ٣/ ٢٩٠، وإسناده صحيح كما قال الغبان، فتنة مقتل عثمان، ٢/ ٧٢٦.

(٢) وسند الرواية حسن كما قال الحافظ ابن حجر، فتح الباري، ١٢/ ٢٧٠. ورواية الحرق صحيحة رواها البخاري، ولكن رواية البخاري فيها أنهم «زنادقة»، وأما هذا التفصيل الذي يذكر قولهم فهو الذي رواه أبو طاهر المخلص وحسَّن ابن حجر إسناده.

(٣) أبو الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين، تحقيق: نعيم زرزور، ط١ (بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠٥م)، ١/ ٣٢، ٣٣؛ الطبري، التبصير في معالم الدين، تحقيق: علي الشبل، ط١ (الرياض: دار العاصمة، ١٩٩٦م)؛ الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق: عبد العزيز الوكيل، (القاهرة: مؤسسة الحلبي، ١٩٦٨م)، ١/ ١٧٤؛ ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ط١ (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٣٤٨ه)، ٢/ ٩١، ٤/ ١٤٢؛ ابن حجر، فتح الباري، ١٢/ ٢٧٠.

هذا المقام ببولس، الذي يسميه النصارى بولس الرسول، وقد انتقل فجأة من اليهودية إلى النصرانية من بعد ما كان من أشد الناس عداوة لها، ونشر فكرة أن المسيح لم يكن نبيا بشرا بل إلها متجسدا في بشر، وهي الفكرة التي كانت أساس تحريف النصرانية[1].

تنقل ابن سبأ في الأمصار المهمة، ونعني بها الأمصار التي يسكنها المقاتلون العرب، فهم شوكة الدولة، وهي: البصرة والكوفة والشام ومصر، فتلك هي مراكز الجيوش الإسلامية، فجيوش البصرة والكوفة تتولى فتح مناطق الشرق في فارس وخراسان ومناطق الشمال في أرمينية وأذربيجان، وجيوش الشام تتولى مجاهدة الروم في الشمال الغربي، وجيوش مصر تتولى فتح الشمال الإفريقي والسودان.

حاول ابن سبأ في كل تلك الأنحاء ترويج أفكاره، إلا أنه عجز عن الشام ليقظة معاوية وتنبهه، بينما حقق نجاحا محدودا في البصرة والكوفة، ولكن نجاحه الأهم كان في مصر، ففيها أقام، بينما كان التابعون له بين الشام والبصرة والكوفة، وكانت خطة ابن سبأ إظهار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمناداة برفع المظالم، والمناداة بعزل الولاة، إذ لا أحد يقبل أو يفكر في ذلك الوقت بالخروج على الخليفة نفسه، وليس لهم في ذلك ذريعة أو مبرر! لكن فكرته الأساسية التي يبثها في المقربين منه، وهي فكرة تفضيل عليٍّ على سائر الصحابة، ستؤدي لا محالة إلى الخروج على عثمان وخلعه، وهذا الخروج على عثمان –وفقا لهذه الفكرة– هو من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والسعي في رفع المظالم[2].

كانت الطريقة المعتمدة هي ترويج الأكاذيب، فأخذ تنظيم ابن سبأ الذي توزع بين

---

(١) ابن حزم، الفصل، ١/ ١٦٤؛ السفاريني، لوامع الأنوار البهية، ط٢ (دمشق: مؤسسة الخافقين، ١٩٨٢م)، ١/ ٨٠؛ مايكل هارت، الخالدون مائة أعظمهم محمد ﷺ، ترجمة: أنيس منصور، ط٦ (القاهرة: المكتب المصري الحديث، ١٩٨٥م)، ص٣٥ وما بعدها.

(٢) الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ٦٤٧.

الشام ومصر والكوفة والبصرة في تبادل الرسائل، يكتب كلُّ قومٍ ما يعانونه من المظالم في ولايتهم وعلى يد واليهم، فتُقرأ الرسالة في الولايات الأخرى، ويُرَوِّجها ابن سبأ وأتباعه، فيحسب أهل كل بلد أنهم في عافية من المظالم التي تشيع في الولايات الأخرى، وأن الوالي عليهم يعدل فيهم، وأنهم في ولايتهم هذه كالاستثناء والشذوذ بين عالم من المظالم. ووصلت بعض هذه الرسائل إلى أهل المدينة باعتبارها العاصمة التي تكثر إليها حركة الناس، فظنَّ أهل المدينة أن المظالم تشيع في سائر الولايات، وبلغ الأمر عثمانَ وهو الذي يراقب عُمَّاله ووُلاته فلا يرى شيئا، فأشار عليه بعض الصحابة الذين وصلهم الكلام أن يرسل من عنده رسلا ليطالعوا الحالة عن قرب، فأرسل عثمان جماعة من كبار الصحابة إلى الولايات كعمار بن ياسر وعبد الله بن عمر وأسامة بن زيد ومحمد بن مسلمة، فذهبوا فراقبوا الأحوال فلم يَرَوْا شَرًّا، ورجعوا إلى عثمان بذلك. ثم أرسل عثمان رسائل إلى الأمصار تُقرأ على الناس، مضمونها أن من كانت له شكاية فليأت الحج، ويرفعها إلى عثمان حتى لو أنها كانت ضد الوالي، وأنه يلزم الولاة بحضور موسم الحج[1].

تورد بعض الروايات الضعيفة أن ابن سبأ لقي أبا ذر في الشام، كما لقي عمار بن ياسر حين أرسله عثمان مبعوثا لمطالعة الأحوال في مصر[2]، وهذا محتمل وممكن، بل ومن المحتمل أن يكون وقع لدى أبي ذر أو عمار نوعٌ من التأثر ببعض ما قيل لهما عن سياسة المال أو نحو ذلك، فالأخطاء لا يخلو منها مكان، والخلاف في السياسات لا يُستغرب، ولكن المؤكد أن كلا منهما لم يسهم بأدنى شيء في إثارة التمرد على عثمان رضي الله عنه، وهو ما تدل عليه سيرتهما الثابتة.

---

(١) الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ٦٤٧، ٦٤٨.

(٢) الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ٦١٥، ٦٤٨. وهما من رواية سيف بن عمر، وتلك المواضع من روايته، لا تنسجم مع الروايات الصحيحة الثابتة بل تعارضها، فتسقط بذلك. والقدر الصحيح من هذه الروايات أن أبا ذر كان في الشام، كما سبق ذكره، وأما أن عمارا هو مبعوث عثمان إلى مصر فهو مقبول، إذ ورد من غير طريق سيف عند: ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، تحقيق: محمد الحجيري، ط١ (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٦م)، ص١١٠.

وفي نهاية الأمر استكمل تنظيم ابن سبأ استعداده، واتفقوا على يوم يخرجون فيه على أمرائهم بالأمصار، فلم يتمكن أحد أن يخرج على أميره إلا أهل الكوفة حين خلعوا سعيد بن العاص في اليوم المعروف بيوم الجرعة، وقد سلف ذكره، وولى عثمان عليهم أبا موسى الأشعرى الذي جدد منهم البيعة لعثمان. ولما أخفق منهم هذا التدبير عزموا على الخروج في يوم محدد كأنهم يذهبون إلى الحج، ثم يقصدون معا إلى المدينة(١).

## حقيقة المطاعن التي طعنوها بها على عثمان

زخرت مصادر التاريخ بعدد من المطاعن التي أثيرت حول عثمان رضي الله عنه، منها ما ثبت أنهم طعنوا بها عليه، ومنها ما جاء أنهم عابوه بها من طرق ضعيفة، ومنها ما انتشر جراء الشهرة ولا يُعرف لها إسناد(٢).

(أ) **فما صحَّ أنهم تكلموا به** أن عثمان تخلف عن غزوة بدر ولم يخرج فيها، وأنه كان من الفارّين يوم أحد، وأنه لم يشهد بيعة الرضوان، وأنه أحرق المصاحف، وأنه حَمَى الأرض.

وهذه الخمسة وإن صَحَّت كلها لا تجيز الخروج عليه ولا تبيح قتله، وأنها جميعا حدثت بين الصحابة ولم يرها أحدٌ منهم مثلبة له بل اختاروه للخلافة وأطاعوه وهم أعلم الناس بها وبه، وإنما اتخاذ هذه الخمسة مطعنا في عثمان هو دليلٌ على استحكام الجهل وضيق العقل، وسنرى أن أربعة من هذه الخمسة هي من مناقب عثمان لا من المطاعن عليه:

[١] فأما تخلفه عن بدر، فإن النبي ﷺ لم يحمل الناس على الخروج إلى بدر، وإنما كان ندبا للقاء قافلة، فخرج من كان متجهزا لدواعي السرعة لئلا تفلت العير، وكان عثمان

---

(١) الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ٦٥٠.

(٢) الغبان، فتنة مقتل عثمان، ١/ ٥٩.

من أولئك إلا أن زوجته رقية بنت النبي ﷺ كانت في مرض موتها، وكان يقوم على رعايتها، وقد كاد يخرج لولا أن النبي أذن له في البقاء معها بل وأخبره بثبوت الأجر له كمن شهدها، وقسم له من غنائمها.

[٢] وأما أنه كان من الفارّين يوم أحد، فقد وقع هذا لعدد من الصحابة، ونزل القرآن بأن الله قد عفا عنهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ﴾ [آل عمران: ١٥٥]، ولا يمكن لأحد من أولئك المتمردين على عثمان أن يجزم بأن الله قد عفا عنه في ذنب. فلئن جاز أن يُقال عن هذا الفرار مثلبة فإن المنقبة في أن عفو الله عنه وعن أمثاله، وثبوت هذا العفو بالوحي الخالد، إنما هي منقبة لم يحزها إلا أقل القليل من المسلمين.

[٣] وأما أنه لم يحضر بيعة الرضوان، فذلك لأن البيعة نفسها كانت انتصارا لعثمان نفسه، إذ أرسله النبي سفيرا إلى قريش فأُشِيع أنه قُتِل، فبايع النبي ﷺ المسلمين على الموت انتصارا لعثمان، ثم وضع النبي يده اليسرى على يده اليمنى قائلا «وهذه يد عثمان»[1]، فتلك منقبة لعثمان وليست مطعنًا عليه.

[٤] وأما أنه أحرق المصاحف، فإنما كان ذلك من إتمام عملية جمع المصحف، وتجنب ما وقع في المصاحف من بعض الخلاف في القراءة، مما عرضنا له فيما سبق، فأتمَّ عثمان ما عُرِف بالجمع الثاني على لسان قريش، وأمر بإحراق ما سوى ذلك من المصاحف، وقد كان ذلك بمحضر من الصحابة، وتولى الدفاع عن ذلك عليٌّ رضي الله عنه إذ قال: « يا أيها الناس لا تغلوا في عثمان، ولا تقولوا إلا خيرا، أو قولوا له خيرا في المصاحف، فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا على ملأٍ منا... والله لو وُلِّيت

(١) البخاري (٣٤٩٥)

لفعلتُ مثل الذي فعل»[1].

[٥] وأما أنه حمى الأرض[2]، فإنه إنما زاد في الحِمَى لأن إبل الصدقة زادت وصارت تحتاج إلى أرض أوسع، وقد اضطر لهذا من قبله عمر بن الخطاب حين زادت إبل الصدقة فحمى لها منطقتي الشرف والربذة، وقد كان عصر عثمان عصر رخاء وأموال وفيرة، فزادت فيه إبل الصدقة فاحتاجت لزيادة الأرض المخصصة لها، وتلك من المصالح العامة للمسلمين. وقد ورد بسند صحيح أن عثمان قد ردَّ على هذه التهمة بهذا الردِّ فسكتوا[3]. وقد زادت رواياتٌ ضعيفةٌ أو رواياتٌ بلا سند بعضَ تفاصيل أخرى وردَّ عليها

(١) ابن أبي داود، المصاحف، ص٩٦، بإسناد صححه ابن حجر في: فتح الباري، ٩/ ١٨.

(٢) الحمى هو تحديد قطعة من الأرض ومنع الناس من استثمارها أو الرعي فيها، ويكون ذلك بتخصيصها لغرض بعينه، وكان سيد القبيلة في الجاهلية يحدد أرضا فيجعلها لنفسه ولإبله وماشيته فيمنع الناس من الرعي فيها، فلما جاء الإسلام نهى عن هذا وجاء فيه حديث النبي ﷺ «لا حِمى إلا لله ولرسوله» (البخاري)، فمنع الإسلام بذلك أن يستأثر بعض الناس بشيء من الموارد العامة ويمنعونه عن بقية الناس. وهذا موضع افتراق خطير بين الإسلام وبين الدولة الحديثة التي تجعل كل الأرض في ملكية السلطة، ويمتنع عن الناس استثمار الأرض بالزراعة أو البناء أو غيرها إلا بشرائها من الدولة أو بإذن الدولة لهم بذلك. ونحن نرى في الاعتراض على عثمان هنا مدى حساسية المجتمع الإسلامي لأمرٍ تتقبله المجتمعات المعاصرة بكل بساطة ولا ترى فيه ظُلْمًا، كما أن المجتمعات القديمة كانت تتقبله كذلك إذ كانت الملوك والسلاطين تتصرف في الأراضي بل وفي الناس كما يحلو لهم. فلئن كان أولئك المتمردون على عثمان قد اشتدوا واشتطوا وغلوا كثيرا حتى خرجوا عن العدل إلى الظلم والبغي، فإنه يجب التأمل في مبادئهم ودوافعهم التي حركتهم للاعتراض، فسنجد أنها مبادئ العدالة الإسلامية التي تحاسب الأمير على الأمر البسيط الذي لا يراه أحد في المجتمعات الجاهلية نوعا من الظلم. فكونهم يحملون هذه المبادئ وتستثيرهم هذه الدوافع فهو من فضل الإسلام عليهم الذي حررهم من عبودية الملوك والحُكّام، وأما كونهم اشتطوا وغلوا فيها وخرجوا عن العدل فهو إما من أثر الجهل والغرور أو من أثر الخبث واللؤم وإلباس الحق بالباطل والتماس الأسباب للإفساد في الأرض.

(٣) ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٧٦٩٠)؛ خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ص١٦٨، ١٦٩، وإسناده حسن كما قال الغبان، فتنة مقتل عثمان، ١/ ٣٣٢، ٣٣٣.

العلماء بالرغم من ضعفها أيضا[1].

**(ب) وأما المطاعن التي ورد من طرق ضـــعيفة أنهم طعنوا بها على عثمان،** فهي أنه أتمَّ الصلاة في منى، وأنه ضرب عمار بن ياسر.

ويكفي في ردّ هذين المطعنيْن أنهما لم يثبتا، ولم ترد بهما رواية صحيحة، ومع ذلك فإن كليْهما لا يجيز الخروج عليه ولا يبيح قتله.

[١] فأما إتمامه الصــلاة في منى، فقد جاءت في روايات يُقوي بعضــها بعضــا أن عثمان كان يقصر الصلاة في منى كما فعل النبي ﷺ وأبو بكر وعمر صـدرَ خلافته، أي في السـنين الأولى، ولكنه إنما فعل هذا حين كثر الأعراب، وكانوا يأتون إلى الحج فيتعلمون الدين، فعَلِمَ عثمانٌ أن بعض الأعراب صـار يصـلي الظهر والعصـر ركعتين كما رأى عثمان يفعل ذلك في الحج، فعندئذ أتمَّ عثمان الصـلاة في منى، وخطب يوضـح للناس ما هي السـنة في القصر والإتمام.

[٢] وأما أنه ضــرب عمار بن ياســر، فأشــهر ما فيه رواية ضــعيفة تقول بأن عمارا أراد الدخول على عثمان، وكان عثمان مشغولا، فأبى عمارٌ أن ينصرف، فضرب حاجبُ عثمانَ عمّارًا، فلما بلغ ذلك عثمان قال «هذه يدي لعمار، فليصــطبر[2]»[3]، فلئن صــحت هذه الرواية ففيها العذر لعثمان وأن الخطأ لم يكن منه، وفيها إنصافه لأخيه عمار ووضع نفسه ليؤخذ منه القصاص. وفي هذا الأمر أيضا رواية بلا إسناد يدلُّ طولها وسياقها أنها موضوعةٌ حتى لمن ليست لديه خبرة بالحديث وإسناده، وهي التي تتحدث عن أن عثمان أمر غلمانه بضــرب عمار فضــربوه ثم وطئه عثمانٌ حتى فُتِقت أمعاء عمار وغاب عن الوعي يوما

---

(١) الغبان، فتنة مقتل عثمان، ١/ ٧١، ٧٢.

(٢) أي: ليقتص.

(٣) ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٧٦٩١) بإسناد ضعيف، انظر: الغبان، فتنة مقتل عثمان، ١/ ٩٠، ٢/ ٥٠٢، ٥٠٣.

وتعصب له بنو مخزوم. وقد علَّق ابن العربي على هذه الرواية فقال «ذلك زور وإفك، ولو فَتَقَ أمعاءَه ما عاش أبدا»[1]. ومع ذلك فإنه لو صحَّ أن عثمان ضرب عمارًا فإن الصحابة بشر ويقع منهم الخطأ، وقد يكون الحق مع عثمان أو مع عمار، وقد حصل قبل ذلك أن كان عمر يضرب بالدرّة، فليس هذا مما يبيح الخروج على الأمير أو قتله، فإنه مما يجتهد فيه ويجوز أن يكون مخطئا.

**(جـ) وأما المطاعن التي اشتهرت ورُوِيَتْ بغير إسناد، فهي**: عدم إقامة الحد على عبيد الله بن عمر، ونفيه أبا ذر إلى الربذة، ومحاباته أقرباءه في الولاية.

ومن الضروري هنا التنبيه إلى أن هذه المطاعن قد تكون وُضِعت بعد زمن عثمان بكثير على ألسنة الوضَّاعين والشيعة، في سياق المساجلات والمجادلات التالية لهذا العصر، فحشد هؤلاء كل ما وجدوا فيه شبهة أو لَبْسًا ثم ألصقوا بالمتمردين على عثمان أنهم أخذوا ذلك عليه.

وهذه المطاعن الثلاثة يُقال فيها ما قيل في سابقها، فكونها بغير إسناد يكفي لإسقاطها لا سيما إن كانت مطعنا على رجل ثبت بالأحاديث الصحيحة فضله ومكانته، فلا يقف الضعيف ليُحتجّ به أمام الثابت الصحيح. ومع ذلك فإنها ساقطة في نفسها أيضا:

[١] فأما عدم إقامته الحد على عبيد الله بن عمر، فأصل ما حدث أن عبد الرحمن بن أبي بكر قال بأنه رأى أبا لؤلؤة المجوسي مع الهرمزان مع جفينة في الليلة التي قُتِل عمر في صبيحتها ومعهم خنجر له طرفان، وهذا الخنجر هو الذي قُتِل به عمر فعلا، فكان هذا شبهة قوية في أنهم تآمروا على قتله، فسارع عبيد الله بن عمر في فورة الغضب فقتل الهرمزان وجفينة وابنة لأبي لؤلؤة المجوسي. فلما تولى عثمان عَظُم على المسلمين أن يُقتل عمر بالأمس ويُقتل ولده اليوم، فحكم عثمان أنه يدفع الدية عن هؤلاء القتلى من ماله! فإن

(١) ابن العربي، العواصم من القواصم، تحقيق: محب الدين الخطيب ومحمود مهدي الإستانبولي، ط٢ (بيروت: دار الجيل، ١٩٨٧م)، ص٧٨.

الذي فعله عبيد الله مع قوة الشبهة في أنهم قتلة أبيه هو افتئات على الحاكم في تنفيذ الحدّ، وللأمير أن يُعزِّر هذا المفتئت أو يعفو عنه بما يرى أنه الأصلح، فهي من الأحكام الاجتهادية. ويجب الانتباه إلى أن عبيد الله بن عمر كان متأولا في قتلهم يعتقد حلّ قتلهم لكونهم تمالأوا على قتل أبيه، وتأوله شبهة تدرأ عنه الحد كما وقع لأسامة بن زيد الذي قتل من نطق بالشهادة إذ رأى أن قولها منه خوفا لا ينجيه من القتل فلم يُقِم الرسول عليه الحد[1]. وإذا تجاوزنا عن كل ما فات، فإن خطأ الأمير في عدم إقامة الحدّ على واحدٍ في شأنٍ ملتبس لا يجيز الخروج على الأمير ولا يبيح قتله!

[٢] وأما نفيه أبا ذر إلى الربذة، فقد أسلفنا ذكر الخلاف الذي وقع بين معاوية وأبي ذر، وما ترتب عليه، وأن أبا ذر اختار الإقامة في الربذة، وبالجملة فسائر ما ورد في أن عثمان نفى أبا ذر روايات ضعيفة[2]، بل صحَّ أن أم ذر أقسمت على خلاف ذلك فقالت: «والله ما سير عثمان أبا ذر ولكن رسول الله ﷺ قال: إذا بلغ البنيان سلعا فاخرج منها»[3]. وعلى فرض صحة ذلك فإن نَفْيَ الأمير لواحد من رعيته، ولو أخطأ في ذلك، لا يبيح الخروج عليه ولا استحلال دمه! وقد كان هذا الأمر بمحضر من الصحابة وهم أولى الناس بالإنكار عليه إن كان اجتهاده خاطئا، أو كان قد وقع في الظلم بنفيه أبا ذر!

[٣] وأما محاباته لأقاربه في الولاية، فهي أيضا من الأغلاط التي تظهر بالتدقيق والمقارنة، فقد ولَّى عثمانُ خمسةً من أقاربه من بين ثمانية عشر واليا، وقد عزل منهم اثنيْن: الوليد بن عقبة وسعيد بن العاص، ولما شهد بعض الناس على الوليد بن عقبة أنه شرب الخمر أقام عليه الحدّ وعزله، وتلك منقبة لعثمان رضي الله عنه، وقد ورد أن عمر

---

(١) ابن تيمية، منهاج السنة النبوية، تحقيق: محمد رشاد سالم، ط١ (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٩٨٦م)، ٦/ ٢٨٠ وما بعدها.

(٢) الغبان، فتنة مقتل عثمان، ١/ ١١٠.

(٣) الحاكم (٥٤٦٨) وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

بن الخطاب جَلَد وعَزَل واليه على البحرين قدامة بن مظعون في شـرب الخمر، فلم يكن هذا إلا من مناقب عمر. وقد ولَّى عليٌّ بن أبي طالب أربعة من أقربائه الولايات أيضـا[1] ولم يكن هذا مطعنا عليه. وفي العموم فإن مسـألة تولية الأقارب إنما يحكمها اجتهاد الأمير، فلا منقصـة إذا ولَّى الأمير أقاربه إن كانوا ذوي كفاية، وقد كانت قبيلة عثمان ممن يكثر فيهم الكفاءات حتى قال ابن تيمية: «لا نعرف قبيلة من قبائل قريش فيها عُمَّال لرسول الله ﷺ أكثر من بني عبد شمس»[2]، وعدَّ منهم ستَّة. وكانوا كذلك من عُمَّال الخليفتيْن أبي بكر وعمر كيزيد بن معاوية وابن أبي السرح والوليد بن عقبة، وقد كان ولاة عثمان الخمسة من أكابر الأكفاء: فمعاوية بن أبي سـفيان من دهاة العرب وأعاظم السـاسـة وقد كان كاتبا لرسول الله ﷺ وواليا لعمر على الشام فأحسن إدارتها حربا وسياسة وهي خط المواجهة مع الروم، وعبد الله بن سعد بن أبي السرح الذي كان واليا على مصر وكان بحكم موقعه مشرفا على فتوح الشمال الإفريقي وهو فاتح النوبة وهو صاحب معركة ذات الصواري الحاسـمة في تاريخ البحر المتوسـط، وعبد الله بن عامر بن كريز الذي كان يحكم العراق وفارس وخراسان وهو الذي فتح كابل وهو صاحب حفر نهر البصرة وتمهيد طريق الحج منها إلى مكة، والوليد بن عقبة الذي كان داهية في السـياسـة وباسـلا في الحرب حتى قال الشعبي يصف حسن سياسته وقوة ضبطه: «كيف لو أدركتم الوليد؟! غزوه وإمارته! إن كان ليغزو فينتهي إلى كذا وكذا، ما قصر ولا انتقض عليه أحد»[3]، وسعيد بن العاص أحد مشاهير العرب بالجود وهو أفصح العرب وكان حَكَمًا في عملية الجمع الثاني للمصحف عند اختلاف القراءات، وهو مع ذلك فاتح طبرستان وغزا مناطق جرجان وغيرها.

وكذلك ما قيل في محاباته أقاربه بالأموال، لا يخرج عن أحوال ثلاثة: إما خبر ضـعيف

---

(١) وهم أربعة من أبناء عمه العباس: عبد الله بن عباس، وعبيد الله بن عباس، وقثم بن عباس، وتمام بن عباس.

(٢) ابن تيمية، منهاج السنة، ٦/ ١٩٢.

(٣) الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ٦١٠.

مكذوب يُصَـوِّر مبالغة في العطاء للأقارب، وإما أنه عطاء لأقاربه من ماله الخاص، وإما أنه اجتهاد مقبول من الأمير في سياسة المال[١].

ومما له دلالته على أن هؤلاء الولاة لم يكونوا في هذه الولايات بدافع المحاباة القبلية، أننا سـنجد منهم ثلاثة اعتزلوا القتال بين الصـحابة بعد مقتل عثمان، مع أن المتوقع من عصبة الرجل أن تندفع إلى القتال طلبا لدمه، وهم الوليد بن عقبة وعبد الله بن سعد بن أبي السـرح وسـعيد بن العاص، وأما عبد الله بن عامر فقد قاتل في الجمل واعتزل القتال في صـفين. ولم يبق منهم غير واحد فقط هو معاوية الذي رفع لواء الأخذ بالقصـاص من قتلة عثمان!

وقد ذكرنا هذه الاعترا ضات وتفنيدها باختصار شديد، وذلك لكي نصل من ذلك إلى أمور يجب أن يهتم العاملون للإسلام بالتركيز عليها والتنبه لها، أهمها:

١. أن الإسـلام حرر البشـر من اسـتعباد الملوك، فصـار الناسُ يحاسـبون الأميرَ على الأمور البسيطة والاجتهادية، كزيادة الأرض المخصصة لرعاية إبل الصدقة، أو على تاريخٍ سابق للخلافة كتخلفه عن غزوة أو عن بيعة أو نحو ذلك، وهم أولئك الذين كانوا بالأمس عبيدا لكسـرى وقيصـر، بل كانوا خاضـعين لزعماء قبائلهم لا يُراجعونهم في أمر قَضَـوْا به، ويخوضـون معهم حروبهم التي تُشَـنُّ لأجل ناقة أو أدنى من ذلك. والأمير من جهته يرى أن لهم حق الاعتراض وعليه واجب البيان والتفنيد والسعي في تر ضيتهم وإزالة اللبس عن تصـرفاته. وهذا التحرير للشـعوب في هذا الوقت القصـير وفي هذا الزمن الذي رسـخ فيه ا ستعباد الملوك لرعاياهم هو من فضائل الإ سلام العظمى التي ما يزال البشر بحاجة إليها في عصرنا هذا.

٢. أن هذه القيم العظمى وهذا التحرير الذي جاء به الإسلام، يجب أن يكون محرو سا

---

(١) انظر: علي الصلابي، عثمان بن عفان، ط١ (اسطنبول: دار الروضة، ٢٠١٧م)، ص١٢٩ وما بعدها.

بالحزم والعدل، والأخذ على يد صُنَّاع الفتن كي لا تكون مدخلهم في إثارة الفتنة وتخريب المجتمع المسلم، وهنا يظهر فضل أبي بكر وعمر على من تلاهما، كما أشارت لهذا أحاديث نبوية، كحديث حذيفة عن النبي ﷺ أنه قال: «إني لا أدري ما بقائي فيكم، فاقتدوا باللذيْن من بعدي: أبي بكر وعمر»[١]، وحديث أبي قتادة «إن يطيعوا أبا بكر وعمر يرشدوا»[٢]، فلقد كان أبو بكر وعمر مُبَادِريْن إلى مواجهة الخلل، ولهما من الحزم والهيبة ما أقرَّ لهما الأحوال، مع شدة ما كانت فيه الدولة من فتنة الردة و شأن الفتوح التي كسرت أقوى قوتين عظميين في زمانهما.

٣. أن الكذب وترويجه من أخطر ما تُصاب به المجتمعات، حتى إن الخير والفعل الجليل ينقلب بالكذب إلى شرٍّ ومطعن ومثلبة، وإن كثيرا من الناس تتوق نفوسهم إلى تصديق الشائعات المكذوبة، وإن الآلة الإعلامية تستطيع بذلك قلب الحقائق وتهييج الناس وتحريضهم، لهذا يجب أن يدقق العاملون في صحة الأنباء، وأن ينشروا قيم الإسلام التي تحذر من الكذب وتناقل الكلام قبل التوثق منه، كما يجب عليهم الانتباه إلى خطورة أولئك الكذابين المروجين للفتن وألا يسمحوا لهم بهذا الإفساد ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

٤. أن الجماهير الواقعة تحت تأثير التحريض لا تنفع معها الردود العاقلة وتفنيد الحجة بالحجة، و هذا أمر معروف في طبائع الاجتماع، فهذه الشبهات التي طُرِحت و صارت السبب في التحريض على عثمان رضي الله عنه، كلٌّ منها متهافت في نفسه، ولكن اجتماعها مثيرٌ ومُهَيِّج، ومن هنا فينبغي على العاملين للدين الانتباه إلى الضرر الخطير الذي يسببه الإعلام الكاذب، لأنه يوصل الجماهير إلى مدى لا يمكن معالجته إلا بدماء كثيرة وحروب.

---

(١) الترمذي (٣٦٦٣) وحسنه، والحاكم (٤٤٥١) وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني.

(٢) مسلم (٦٨١)، ورواه أحمد (٢٢٥٩٩) بلفظ «إن يُطِع الناسُ أبا بكر وعمر يرشدوا».

٥ . أن التمرد في المجتمعات المسلمة، وإن كانت بذرته خبيثة حاقدة، يتدثر بالقيم الإسلامية، ويعلن أنه إنما يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وينجذب إليه الأغرار والغوغاء ممن تبلغ بهم الظنون أنهم أتقى لله وأورع من صحابة النبي ﷺ، ومما شهد به التاريخ والواقع أن هؤلاء الأغرار ومرضى النفوس الذين يظنون أنهم أصحاب المنهج النقي والصفاء العقدي هم ذراعٌ ممتاز يستعمله أعداء الدين في أغراضهم. فأولئك الغلاة هم من قتلوا عثمان وقتلوا عليا رضي الله عنهما، وهم لا يزالون واحدا من أخطر التحديات أمام العاملين للإسلام(١).

## التمرد على عثمان رضي الله عنه

لقد كان التمرد على عثمان يبدو وكأنه تمردُ من أهل الدين ممن هم حريصون على الإسلام، ويقومون بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وينهضون في رفع المظالم، وقد شهدت عائشة رضي الله عنها بأنها لم تر من أهم أشد عبادة من الصحابة إلا حين رأت هؤلاء، فقالت: «والله ما احتقرت أعمال أصحاب رسول الله ﷺ إلا حين نجم النفر الذين طعنوا على عثمان، فقالوا له قولا لا يُحسن مثله، وقرأوا قراءة لا يُحسن مثلها، وصلوا صلاة لا يُصَلَّى مثلها، فلما تدبرتُ الصنيع إذا هم والله لا يُقاربون أصحاب رسول

(١) في واقعنا القريب رأينا كيف أن أعداء الإسلام الصرحاء استعملوا طوائف من السلفيين والجهاديين في تدمير التجارب الإسلامية، مثلما حصل في مصر لدى الانقلاب العسكري على الرئيس محمد مرسي، وكتائب المداخلة التي تقاتل في ليبيا مع حفتر، ومؤخرا في أفغانستان حيث نشط تنظيم الدولة بالتفجيرات بعد انتصار طالبان وتحرير أفغانستان، وأما الثورة السورية ومن قبلها حركة مقاومة الاحتلال الأمريكي في العراق، فقد كانتا ساحة حافلة بالآلام والآثار المدمرة لأولئك الغلاة الذين أفسدوا المقاومة والثورة وعطلوا تحرر الأمة ونكبوها.

الله»[1]. ومثل ذلك ما ذكرته زوجة عثمان نائلة بنت الفرافصة حين قتلوا عثمان، فنظر بعضهم إليها وتلفظ بما لا يصدر عن متورع تقي، فقالت: «فعلمت أن عدو الله لم يرد إلا الدنيا»[2]. ومثل ذلك أن أم المؤمنين أم حبيبة حاولت الوصول إلى عثمان، ولم يخطر ببالها أن يمنعوها، ولكنهم ضربوا بغلتها وقطعوا حبل البغلة بالسيف حتى كادت أم المؤمنين تسقط فتُقْتَل[3].

وكان بعض أولئك من الذين تأثروا بدعاية ابن سبأ يطالب بعليٍّ خليفةً، فلم يكن لهم زعيمٌ يطلب الأمر لنفسه أو يرى نفسه أحق بها من عثمان، وإنما هي مظالمٌ وقعت عليهم أو بلغهم أنها وقعت على غيرهم فجاءوا يطالبون برفعها وردّ الحقوق إلى أهلها. فتلك هي الصورة العامة لهذا التمرد.

وقد أدرك بعض الصحابة مبكرا أن هذا التمرد على عثمان يهدف إلى قتله، فعندما قيل لحذيفة بن اليمان «إن هؤلاء ساروا إلى هذا الرجل فما تقول؟ قال: يقتلونه والله، فقالوا له: أين هو؟ فقال: في الجنة والله، فقالوا: فأين قتلته؟ فقال: في النار والله»[4]. وتشير ألفاظ الرواية أن قتال المسلمين كان مستغربا وغير مُتَصَوَّر، لذلك سألوا «أين هو» و«أين قتلته».

إلا أن الغالب على الأذهان والنفوس في ذلك الوقت أن الأمر مجرد معارضة أو معاتبة

---

(١) أحمد بن حنبل، فضائل الصحابة، تحقيق: وصي الله بن محمد عباس، ط١ (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، ١٩٨٣م)، (٧٥٠) بإسناد صحيح كما قال محققه وصي الله؛ البخاري، خلق أفعال العباد، (٥٦)؛ ابن شبة، تاريخ المدينة، ٤/ ١٢٣٥، والإسناد صحيح.

(٢) أحمد بن حنبل، فضائل الصحابة، (٧٦٥)؛ ابن شبة، تاريخ المدينة، ٤/ ١٢٨٦؛ ابن حبان، صحيح ابن حبان، (٦٩١٩)، وقال شعيب الأرناؤوط: رجاله ثقات، ووضعها الغبان في الروايات الصحيحة والحسنة.

(٣) أحمد بن حنبل، فضائل الصحابة، (٧٩٩) بإسناد صحيح كما قال محققه؛ الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ٦٧٢، ٦٧٣.

(٤) ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٧٦٦٧)؛ الفسوي، المعرفة والتاريخ، تحقيق: أكرم العمري، ط٢ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨١م)، ٢/ ٧٦٢، وصححه ٢/ ٧٦٨؛ وإسناده صحيح، انظر: الغبان، فتنة مقتل عثمان، ١/ ٣٩٣ وما بعدها.

لا يمكن أن يصل إلى القتل، تقول عائشة: «كان القوم يختلفون إلي في عيب عثمان، ولا أرى إلا أنها معاتبة، وأما دمه، فأعوذ بالله من دمه»[1].

وبهذا التصور فإن الأمر لا يلبث أن ينتهي برجوعهم بعد رفع الجهالة وبيان حجة الخليفة لهم، أو حتى رجوع الخليفة عما يكون قد أخطأ فيه أو أخطأ فيه أحدُ ولاته وعُمّاله، فإن لم ينفعهم ذلك فبالقتال؛ إذ الخليفة يطيعه جمهرة المهاجرين والأنصار فوق ما يستطيع أن يستدعيه من جيوش الفتح الكثيرة. ولعل حذيفة كان يستشرف هذا لأنه كان مهتمًّا بأخبار الفتن، وكان يحرص أن يأخذها من الرسول ﷺ، فتوقَّع أن هذه هي الفتنة التي سيُقتل فيها عثمان، كما أخبر بذلك النبي ﷺ.

سار أهل مصر[2]، وكذلك سار أهل العراق وهم مجموعتان: أهل البصرة وأهل الكوفة، إلى المدينة، وكان عثمان في قرية خارج المدينة فاتجهوا إليه، ووقع بينهم نقاش لم يستغرق زمنا طويلا، وخلاصة ما في الروايات التي يمكن الاعتماد عليها[3] أنهم سألوه عن زيادة الحمى فأوضح لهم أن ذلك إنما لزيادة إبل الصدقة، وأن عمر قد حمى الأرض من قبله لإبل الصدقة، فكانوا كلما سألوه عن أمر أوضح لهم حجته فيستمعون

---

(١) الخلال، السنة، تحقيق: د. عطية الزهراني، ط١ (الرياض: دار الراية، ١٩٨٩م)، (٥٤٥)، بإسناد صحيح كما قال العمري، عصر الخلافة الراشدة، ص٤٣٨. وهذا النص دفاع من عائشة عن نفسها ضد الدعاوى والأكاذيب التي راجت بأنها كانت تحرض على عثمان.

(٢) حين يقال «أهل مصر» في هذا السياق فليس المقصود بهم المصريين من أهل البلاد، بل المقصود هم العرب الذين أقاموا بمصر منذ الفتح. وأما البصرة والكوفة فقد أسسهما العرب وكانتا منطلق جيوش الفتح فلهذا لا يُظَنَّ أن معهم غيرهم.

(٣) لتيسير السرد على القارئ فإني هنا أقتطع من بعض الروايات وأدخل بعضها في بعض، وأشير عند كل مقطع إلى مصادره، لمن شاء التثبت والتوسع.

ويرضـــون[1]، ثم تعاهدوا على أن «المنفي يُقْلَب، والمحروم يُعْطَى، ويُوَفَّر الفيء، ويُعْدَل في القسم، ويُسْتَعْمَل ذو الأمانة والقوة، كتبوا ذلك في كتاب، وأن يرد ابن عامر على البصرة، وأبو موسى الأشعري على الكوفة»[2]، وأخذ عليهم العهد «ألا يشقوا عصا، ولا يفارقوا جماعة ما أقام لهم شرطهم، ثم رجعوا راضين»[3].

يجب أن نلاحظ هنا أن أهل البصرة طالبوا بعودة عبد الله بن عامر واليًا عليهم، وهو من قرابة عثمان، وأنه لما تولى البصرة أول مرة كان في الخامسة والعشرين من عمره، وهو مما يُضعف قول القائلين بأن عثمان كان يحابي قرابته، أو أن الناس ضجّوا من ولايتهم، أو أن الذين كان يوليهم كانوا حدثاء الأسنان غير أكفاء.

وفي الرواية المختصرة أن عثمان عاهدهم، ولكن في الرواية المفصلة أن عليا هو الذي تولى كتابة العهد معهم، فيُحتمل أن عليا كان حاضـــرا الأمر كله من أوله، أو أنه بعدما أوضح لهم عثمان ما اشتبه عليهم كلَّف عليا بأن يتمم معهم العهد. ويحتمل أيضا أن يكون عثمان كلَّم أهل مصر بنفسه، ثم أوفد عليا ليكلم أهل العراق: البصرة والكوفة. وأن الرواية المختصرة أجملت الحدث، والرواية الأخرى نقلت ما جرى مع وفد العراق. والذي يهمنا من هذا هو توضيح موقف علي من التمرد على عثمان رضي الله عنه، وموقفه من عثمان، ومما له أهميته هنا أن تصـدي عليٍّ لكتابة العهد معهم مما أحرج أهل الفتنة وحملهم على

---

(١) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ص١٦٩ بإسناد حسن. انظر: الغبان، فتنة مقتل عثمان ص٤٠٠ وما بعدها؛ العمري، عصر الخلافة الراشدة، ص٤١٩.

(٢) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ص١٦٩، ١٧٠ بإسناد صحيح ينتهي إلى محمد بن سيرين، لكن ابن سيرين كان ابن عامين في وقت الفتنة فلا يُعرف عمن رواها، إلا أن الرواية فيها تفصيل لرواية أبي أسيد التي فيها قدومهم واصطلاحهم ورجوعهم، فهي مقبولة، انظر: الغبان، فتنة مقتل عثمان، ٢/ ٥٢٠، ٥٢١؛ العمري، عصر الخلافة الراشدة، ص٤٢٠.

(٣) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ص١٦٩ بإسناد حسن. انظر: الغبان، فتنة مقتل عثمان ص٤٠٠ وما بعدها؛ العمري، عصر الخلافة الراشدة، ص٤١٩.

الرجوع، فقد ورد في بعض طرق الرواية أنهم شـادُّوه وشـادّهم مرتين أو ثلاثا[1]. فكأنهم لم يرغبوا في الرجوع، إلا أن عليًّا الذي يراه بعضهم أفضل الصحابة هو من تولى ذلك معهم.

وبهذا الرجوع بدا أن الأزمة قد انتهت، وأنها لم تكن أكثر من أمر عابر، غير أن أمرا حدث مع الراجعين فأعادهم أشد غضبا وحقدا مرة أخرى، وهو ما يدلّ على وجود تنظيم فعال لهذه الفتنة:

فبينما أهل مصر في طريق عودتهم إذ رأوْا راكبا يتعرض إليهم ثم يفرّ عنهم، وهو سلوك مريب، وتورد بعض الروايات أنه كان يركب بعيرا من إبل الصـدقة، وبينما هو يكرر ذلك، إذ قبضـوا عليه، فسـألوه، فقال لهم: أنا رسـول أمير المؤمنين إلى عامله بمصـر، ففتشـوه، فاستخرجوا من ثيابه رسالة منسوبة إلى عثمان، ومختومة بخاتمه، إلى عامله على مصر أن يقتلهم وينفيهم ويقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف. فشـعروا بالغدر ونقض ما تعاهدوا عليه، فعادوا مرة أخرى إلى المدينة. ولما عادوا قصـدوا إلى عليٍّ رضـي الله عنه قائلين: «ألم تر إلى عدو الله كتب فينا بكذا وكذا؟ وإن الله قد أحل دمه، فقم معنا إليه. قال: والله لا أقوم معكم. قالوا: فَلِمَ كتبت إلينا؟ قال: والله ما كتبت إليكم كتابا! فنظر بعضـهم إلى بعض. وخرج علي من المدينة»[2].

وهنا نرى أن تنظيم الفتنة اسـتطاع أن يكتب كتابا على لسـان عثمان وأن يُزَوِّروا خاتَمه عليه، وأن يبعثوا بأحدهم على هيئة المتعرض للوفد المصـري، كي يُقبض عليه ويُؤخذ بالكتاب الذي معه، وهم في ذات الوقت أرسـلوا آخر أو خرج من بين الوفد واحدٌ زعم أن عليا قد كتب لهم يأمرهم بالرجوع إلى المدينة، وهكذا جرى تزوير كتابيْن على لسـان

(١) ابن عساكر، تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو العمروي، (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٥م)، ٣٩/ ٣٢٥.

(٢) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ص١٦٩ بإسناد حسن؛ أحمد بن حنبل، فضائل الصحابة، (٧٦٥)؛ ابن شبة، تاريخ المدينة، ٤/ ١١٤٩، انظر: الغبان، فتنة مقتل عثمان، ١/ ٣٣٠ وما بعدها؛ العمري، عصر الخلافة الراشدة، ٤٢١، ٤٢٢.

عثمان وعلي رضي الله عنهما في وقت قصير.

وهذا إن صحَّت هذه التفاصيل منهم، فبعض الباحثين[1] لا يستبعد أن يكون أهل الفتنة في الوفد المصري نفسه هم من كتبوا كتابا بهذا المعنى، وزعموا قصة على هذا النحو، أو أنهم اصطنعوها، فهيَّجوا بذلك بقية الناس في الوفد، لا سيما وأنه لا يُعرف كيف وصلهم كتابُ عليٍّ أيضا!!

وفيما بعد سيظهر تزوير رسالة أخرى على لسان عائشة رضي الله عنها، فقد ذكرت عائشة إنكارها لمقتل عثمان، فقيل لها: «هذا عملك، أنتِ كتبتِ إلى الناس تأمرينهم بالخروج إليه، فقالت عائشة: لا والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون، ما كتبت إليهم بسوداء في بيضاء حتى جلست مجلسي هذا»[2].

وثمة يدٌ أخرى خفية تظهر ملامحها، فإن كان أهل مصر قد تعرض لهم هذا الراكب، فما الذي أرجع أهل البصرة وأهل الكوفة، وقد ساروا مراحل، وكيف لهم أن يعلموا بما حصل مع أهل مصر[3]؟!

تكمل الرواية فتقول بأنه لما قصد العائدون الغاضبون إلى عثمان قالوا له: «كتبت فينا بكذا وكذا، فقال: إنهما اثنتان أن تقيموا رجلين من المسلمين أو يميني بالله الذي لا إله إلا هو ما كتبت ولا أمللت ولا علمت، وقد يُكتب الكتاب على لسان الرجل، وينقش الخاتم على الخاتم. قالوا: قد أحل الله دمك، ونقضت العهد والميثاق. وحصروه في القصر»[4].

---

(١) انظر: الغبان، فتنة مقتل عثمان، ١/ ١٣١؛ عبد الستار الشيخ، عثمان بن عفان، ط١ (دمشق: دار القلم، ٢٠١٤م)، ص٦٣٦ وما بعدها.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣/ ٦٠؛ ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٢٠٥١)؛ خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ص١٧٦؛ ابن شبة، تاريخ المدينة، ٤/ ١٢٢٤، ١٢٢٥؛ بإسناد صححه ابن كثير، البداية والنهاية، ٧/ ٢١٨.

(٣) الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ٦٥٣؛ البرزنجي، صحيح تاريخ الطبري، ٣/ ٣٣٦.

(٤) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ص١٦٩ بإسناد حسن؛ أحمد بن حنبل، فضائل الصحابة، (٧٦٥)؛ انظر: الغبان، فتنة مقتل عثمان، ١/ ١٣٠ وما بعدها، ٣٣٠ وما بعدها؛ العمري، عصر الخلافة الراشدة، ٤٢١، ٤٢٢.

وهذا الردُّ منهم دليل على أن الغضب والهياج قد بلغ مبلغه، إذ لم يفكروا في سؤال أحد من الصحابة عن صحة الكتاب المنسوب إلى عثمان، ولم يأبهوا بيمينه أنه لم يكتب ولم يعلم، وإنما عقدوا العزم على قتله!

ومن أبرز الأدلة على أن الكتاب مُزَوَّر على عثمان أن عثمان نفسه قد نهى عن قتلهم قبل هذا حين أشار القعقاع بن عمرو بقتل أهل الفتنة في الكوفة، ثم إن عثمان نفسُه لم يقاتلهم حين حا صروه فيما بعد، بل ومنع الصحابة من قتالهم، فلا يُعقل -والحال هكذا- أن يرسل بقتلهم وقد عادوا وأظهروا الطاعة والإنابة[1].

وتضيف الرواية أن عليا -بعد هذا الحوار معهم- «خرج من المدينة»، ولعله أراد ألا يكون لهم بوجوده قوة فإن بعضهم يطالب به خليفة ويراه الأحق بها.

ومن هاهنا بدأ الحصار، فقد كانوا يريدون حمله على خلع نفسه من الخلافة وإلا قتلوه، وكان الحصار في أول أمره هيِّنًا، بحيث كان عثمان رضي الله عنه يستطيع الخروج إلى الصلاة والخطبة، ويستطيع من شاء الدخول إليه، ثم صاروا يشتدون في حصاره حتى منعوه الخروج إلى الفريضة، ومنعوا الناس أن تدخل إليه. وكان منعه من الخروج إلى الصلاة هو محاولة منهم لخلعه من الخلافة، فمن واجبات الخليفة أن يؤم الناس في الصلاة ويخطب فيهم الجمعة والعيديْن، وصار يصلي بالناس واحد من أئمة الفتنة، وأحيانا كان يتبادل بعضهم الإمامة، إذ نقلت بعض الروايات المقبولة عددًا من الأسماء لمن كان يصلي بالناس، وفي هذا دليل على أنهم رغم اجتماعهم على عداوة عثمان لم يكن لهم رأسٌ واحدٌ، وكذلك صلى بالناس بعض الصحابة كأبي أمامة بإذن عثمان. لقد كان ابن سبأ يقوم بالتحريض الخفي بينما كانت قيادة الجموع فعليا لزعمائهم القَبَلِيين. وأما عيد الأضحى فقد قام بالخطبة فيه علي بن أبي طالب رضي الله عنه[2]، وهو أمر مفهوم فإنه

---

(١) عبد الستار الشيخ، عثمان بن عفان، ص٦٣٧، ٦٣٨.

(٢) ابن حجر، فتح الباري، ٢/ ١٨٩.

موضع إجماع الصحابة وأهل الفتنة كذلك.

ومن هذه اللحظة تظهر سياسة عثمان معهم في ثلاثة أمور:

١. الحرص التام على مخاطبتهم ومحاججتهم ومحاولة إقناعهم بخطأ ما هم عليه شرعًا وعقلًا

٢. التجنب التام للاشتباك معهم بما يؤدي إلى وقوع قتال

٣. الرفض التام للتنازل عن الخلافة.

فأما هذا الحرص فالحكمة منه واضحة، وأما الامتناع والنهي عن الاشتباك معهم فهو الأمر المحير الذي يحتاج إلى تفسير، وكذلك رفضه التنازل عن الخلافة، وسنأتي إلى ذلك فيما بعد.

لقد اعتمد عثمان سياسة التبيين والتوضيح والمحاورة والمحاججة للمُحاصِرين، فلما تسرب إليه نيتهم في قتله قال: «ولم يقتلونني؟ وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا يحلّ دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: رجل كفر بعد إيمانه، أو زنى بعد إحصانه، أو قتل نفسًا بغير نفس؟ فو الله ما زنيت في جاهلية ولا في إسلام قط، ولا تمنيت أن لي بديني بدلاً منذ هداني، ولا قتلت نفسًا؛ ففيم يقتلونني؟»[1]، وفي بعض روايات الحديث أنه أشرف على المحاصِرين فخاطبهم بهذا.

وطلب منهم أن يختاروا من بينهم من يكلمه، فاختاروا صعصعة بن صوحان، وكان شابا من أولئك الغلاة الذين سبق منهم ما كان في الكوفة، وكان من ضمن المنفيين إلى

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣/ ٤٩ بإسناد صحيح، أحمد (٤٣٧)، أبو داود (٤٥٠٢)، الترمذي (٢١٥٨)، الحاكم (٨٠٢٨) وقال: على شرط الشيخين ووافقه الذهبي. وصححه أحمد شاكر والألباني وشعيب الأرناؤوط.

الشام، وظهر من حديثه مع عثمان قلة فقهه وغلوِّه، ووضعه الآيات في غير موضعها[1]. فإذا كان هذا متكلم القوم فهو «دليل قوي على أن القوم إما مثله أو دونه في فهم كلام الله»[2].

خاطب عثمان المحاصـرين مرارا، في كل مرة يقيم عليهم الحجة أنهم على باطل، وأن خلعه وقتله لا يجوز لهم، وأنه لا يسـتحقه، فكان مضـطرا رضـي الله عنه إلى ذكر مناقبه وفضائله، وإشهاد من حضرها من الصحابة، فمن ذلك أنه قال:

- أذكركم بالله، هل تعلمون أن حراء حين انتفض قال رسـول الله ﷺ: «اثبت حراء فليس عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد»؟ قالوا: نعم.

- قال: أذكركم بالله، هل تعلمون أن رسـول الله ﷺ قال في جيش العسـرة: من ينفق نفقة متقبلة والناس مجهدون معسرون فجهزت ذلك الجيش؟ قالوا: نعم

- قال: اذكركم بالله هل تعلمون أن بئر رومة لم يكن يشـرب منها أحد إلا بثمن، فابتعتها، فجعلتها للغني والفقير وابن السبيل ؟ قالوا: اللهم نعم.

- قال: أنشـدكم بالله والإسـلام هل تعملون أن رسـول الله ﷺ قدم المدينة وليس بها ماء يسـتعذب غير بئر رومة فقال: «من يشـتري بئر رومة فيجعل دلوه من دلاء المسـلمين بخير له منها في الجنة»، فاشتريتها من صلب مالي؟ فأنتم اليوم تمنعوني أن أشرب منها حتى أشرب ماء البحر. قالوا: اللهم نعم.

- قال: أنشدكم بالله والإسلام، هل تعلمون أن المسجد ضاق بأهله، فقال رسول الله ﷺ: من يشتري بقعة آل فلان فيزيدها في المسجد بخير منها في الجنة؟ فاشتريتها من صلب مالي، فأنتم اليوم تمنعوني أن أصلي فيها ركعتين. قالوا: اللهم نعم.

---

(١) ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٧٦٥٩)؛ خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ص١٧١؛ ابن شبة، تاريخ المدينة، ٣/ ١٠٦٣.

(٢) الغبان، فتنة مقتل عثمان، ١/ ١٥٣.

- قال: أنشد بالله رجلا شهد رسول الله ﷺ يوم بيعة الرضوان يقول: هذه يد الله وهذه يد عثمان فانتشد له رجال»[1].

ومقتضى هذا كله أنه من أهل الجنة، وأنه شهيد، فلئن كان في القوم عقول فسيكفون أيديهم أن يسفكوا دم رجل من أهل الجنة، وقد سبقت له الشهادة. وهذا إنما يؤثر في الناس إن كانوا على دين وورع وتقوى، ولهذا فإنه حدَّثهم أيضا فنصحهم عن مغبة قتله عليهم حتى في الدنيا، فقال: «أيها الناس، لا تقتلوني واستعتبوني، فوالله لئن قتلتموني لا تُقَاتِلون جميعا أبدا، ولا تجاهدون عدوًّا أبدا، لتختلفن حتى تصيروا هكذا»، وشبك بين أصابعه، وزاد في رواية «ولا تحابون بعدي أبدا»[2]. وهو ما كان!!

وكانت موعظته ونصيحته تؤثر في بعضهم، حتى صار يتردد ويخفض ويخفف، لا سيما إن كانت أول مرة، فإذا تكررت عليهم الموعظة لم تعد تبلغ فيهم، ولقد بلغ تأثرهم أحيانا أن يقولوا «مهلا عن أمير المؤمنين»، بل إن أحد رؤوس الفتنة وهو الأشتر النخعي قال يوما بعد موعظة عثمان «لعله مُكِر به وبكم»، ولكن مركز الفتنة كان سبَّاقًا إلى منع أي تعاطف مع عثمان، فصار يهجم على من يتردد ويتراجع، حتى إن الأشتر النخعي حين قال ذلك هاجموه حتى وطئه الناس[3]!

وأما سياسته في التجنب التام للاشتباك معهم، فمن ذلك أنه حين سُئل عن الصلاة

---

(١) جمعت في هذه الفقرة بين عدد من الأحاديث الصحيحة والحسنة، عند: أحمد (٤٢٠)؛ الترمذي (٣٦٩٩)، (٣٧٠٣)؛ النسائي (٦٤٣٥)، (٦٤٣٦)

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣/ ٤٩؛ ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٧٦٥٨)؛ خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ص١٧١؛ ابن شبة، تاريخ المدينة، ٤/ ١١٨٩. وإسناد الرواية حسن وتشهد طرقها لبعض.

(٣) ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٧٦٩٠) بإسناد صحيح، انظر: المصنف، تحقيق: أسامة بن إبراهيم، ط١ (القاهرة: دار الفاروق الحديثة، ٢٠٠٨م)، ١٣/ ٣٨٠؛ المصنف، تحقيق: سعد بن ناصر الشثري ط١ (الرياض: دار كنوز إشبيليا، ٢٠١٥م)، ٢١/ ٤٢٨؛ الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ٦٧١ بإسناد حسن، انظر: الغبان، فتنة مقتل عثمان، ١/ ٣٣٧؛ أكرم العمري، عصر الخلافة الراشدة، ص٤٢٣.

خلف إمام الفتنة الذي يصلي بالناس، قال: «الصلاة أحسن ما يُعمل للناس، فإذا أحسن الناس فأحسِنْ معهم، وإذا أساؤوا فاجتنب إساءتهم»[1]. ولما اشتد الحصار وبدا أنه سيصل إلى حدِّ الأذى لعثمان أو قتله، هُرِع كثير من الصحابة بأنفسهم، أو بأبنائهم، يحملون السلاح ويستعدون لمقاتلة أولئك الخارجين، فمن أولئك علي بن أبي طالب، وابناه: الحسن والحسين، والزبير بن العوام وابنه عبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، وأبو هريرة، وحارثة بن النعمان، والمغيرة بن شعبة، وجاءه كعب بن مالك وزيد بن ثابت ووراءهما الأنصار يطلبون أن يأذن لهم بالقتال فيكونوا أنصار الله مرتين، وعثمان في كل هذا يرفض أن يقاتلوا عنه، ويأمرهم أمر الإمام الخليفة أن يغمدوا سيوفهم، وأن يرجعوا إلى بيوتهم[2]، فقال لأبي هريرة: «عزمت عليك لتخرجنّ»[3]، ويقول للعصبة التي دخلت داره للدفاع عنه: «أذكر الله رجلاً أهراق فيّ دمه»[4]، ويقول لهم: «أعزم على كل من رأى أن عليه سمعا وطاعة إلا كفّ يده و سلاحه»[5]. ولما رأى الصحابة منه هذا العزم عرض عليه بعضهم أن يؤمنوا خروجه إلى مكة أو إلى الشام، فرفض ذلك أيضا[6].

وقد أبان عثمان صراحة عن موقفه، فقد سُئل: «يا أمير المؤمنين: ألا تقاتل؟ قال: لا،

---

(١) البخاري (٦٦٣).

(٢) الغبان، فتنة مقتل عثمان، ١/ ١٦٠ وما بعدها.

(٣) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ص١٧٣؛ وإسناده صحيح، انظر: الغبان، فتنة مقتل عثمان، ١/ ٣٧٠، ٣٧١.

(٤) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ص١٧٣، وإسناده صحيح، انظر: الغبان، فتنة مقتل عثمان، ١/ ٣٩٧؛ خالد الغيث، استشهاد عثمان ووقعة الجمل، ص١١٧.

(٥) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ص١٧٣؛ ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٢٠٣٨)، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣/ ٥١، وإسناده صحيح، انظر: الغبان، فتنة مقتل عثمان، ١/ ٢٩١؛ خالد الغيث، استشهاد عثمان ووقعة الجمل، ص١١٨.

(٦) الغبان، فتنة مقتل عثمان، ١/ ١٦٦.

إن رسـول الله ﷺ عَهِدَ إلي عهداً وإني صـابِرٌ نفسـي عليه»[1]. وهذا وحده كافٍ في تفسـير موقفه رضـي الله عنه في عدم قتالهم، وأمره بالكفِّ عنهم، وعزمه على الصـحابة أن يغمدوا سيوفهم وأن يرجعوا إلى بيوتهم.

ترى لماذا أوصاه النبي ﷺ ألا يقاتل وأن يستسلم للقتل؟

إذا حاولنا تلمس الحكمة من هذه الوصـية النبوية، فإننا نبصـر فيها عصـمةً للدماء، فإذا كان قد جرى القضـاءُ بأن عثمان مقتولٌ في هذه الفتنة، فمن الحكمة أن يسـعى إلى تقليل الضـحايا إلى أدنى حدّ، وهذا لا يكون بغير الكفّ عن قتالهم، فلا يسـقط في معركة الدفاع عنه أحد، فيكون استسلامه للقتل هو حقنه لدماء المسلمين. وسيتأكد لنا هذا حين نرى أن مقتل عثمان قد أشعل معركتين كبريَيْن بعد ذلك هما: الجمل وصفين، فمعركة الجمل هي التي قادها الصحابة الذين أرقهم مقتل عثمان وتأخر القصاص له، ومعركة صفين هي التي قادها معاوية وهو عصـبة عثمان وولي الدم، فإذا كان مقتل عثمان وحده اسـتثار معركتين بهذه الضـخامة، فكيف يكون الحال لو سـقط في معركة الدفاع عنه جماعة من المهاجرين والأنصار ومن المدافعين عنه من شتى القبائل؟! كم من المعارك التي كانت ستنشب ثأرا لمن قُتِلوا دفاعا عن عثمان؟! وكيف يُسـتطاع أن تُخْمَد هذه المعارك؟! إنه برغم فداحة ما جرَّه مقتل عثمان من النتائج، إلا أنها كانت سـتكون أفدح كثيرا جدا لو أنه قاتلهم وسـمح لأنصاره بقتالهم.

كذلك فإن عثمان يعلم يقينا أنه إن قُتل، فإن الخليفة من بعده لن يكون إلا واحدا من كبار الصـحابة: علي أو طلحة أو الزبير أو سـعد بن أبي وقاص، وكلهم من المرشـحين للخلافة، وكلهم أهل لها، فهو مطمئن لمن سيؤول إليه الأمر من بعده! فلن يتولى الخلافة

---

(١) أحمد (٢٤٢٩٨)، الترمذي (٣٧١١)، ابن ماجه (١١٣)، وأبو يعلى (٤٨٠٥)، والحاكم (٤٥٤٣) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، وصححه أحمد شاكر وشعيب الأرناؤوط في التعليق على المسند، والألباني في صحيح الترمذي وصحيح ابن ماجه، وحسين سليم أسد في التعليق على أبي يعلى.

مثلًا واحدٌ من أهل الفتنة أو من أعداء الإسلام أو من المتآمرين عليه كابن سبأ أو الأشتر. ولهذا لم يفكر عثمان في إشعال حرب عليهم في المدينة تسيل فيها الدماء، إذ نظام الإسلام والخلافة غير متهدد، بل إن بعض أهل الفتنة هؤلاء إنما يتشيع لعلي ويراه الأولى بالخلافة، وهذا مبعث خروجه(١).

وأما سياسته في الرفض التام للتنازل عن الخلافة، فمبعثها النص النبوي إذ أوصاه النبي ﷺ بذلك كما ثبت في الحديث: «يا عثمان إن الله عسى أن يلبسك قميصا فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه»(٢)، ثم إن هذا هو الحكمة التي يقول بها العقل، وقد كان

---

(١) ويجب التنبه هنا إلى مسألة مهمة، فقد استند بعض الناس على هذه الحادثة لكي يحرضوا صاحب الحق على ترك حقه والتنازل عنه للخارجي المفسد القاتل، أو منعوا صاحب الحق من المقاومة والمدافعة عن حقه حقنًا للدماء، مثلما فعل أولئك الذين طالبوا الرئيس محمد مرسي بالتنازل عن الحكم لعبد الفتاح السيسي، وأدانوا مقاومة أنصاره لحكم السيسي، فتحدثوا عن عثمان الذي لم يسمح بالقتال للخارجين عليه. إن الفارق الكبير بين الحالتيْن يظهر في أمريْن:

الأول: أن البديل المنتظر بعد عثمان لم يكن إلا علي أو غيره من كبار الصحابة كطلحة أو الزبير، ولم يكن يخطر ببال الخارجين ولا ببال أحد أن يتولى الخلافة عبد الله بن سبأ!! فالخروج على عثمان هو خروج على شخص الخليفة لا على نظام الدين، بينما كان انقلاب السيسي وأمثاله انقلابا على الدين وعلى فكرة الحكم الإسلامي كله، كان انقلابا على مبدأ أن يحكم الإسلاميون البلاد ومنعا لطموحهم في تطبيق الشريعة!

الثاني: أن الخارجين على عثمان، وإن كانوا من الأغرار والسفهاء والموتورين، كانوا من الغلاة في الدين، يطيلون الصلاة والصيام ويكثرون العبادة، وإنما حملهم الغلو والسفاهة وقلة العقول على أن يكونوا جمهورًا داعما لحفنة من الخبثاء والموتورين المندسين، بينما كان رؤوس الانقلاب على مرسي هم أعداء الدين الصرحاء من الكفار الأصليين كالنصارى، ومن أعداء الدين المجاهرين برفضه من العلمانيين والممثلين والراقصين وأصحاب المصالح المرتبطة باليهود والصليبيين.

فما أبعد ما بين الحالتين! فلو كان الخارجون على مرسي أنصارًا لزعيم إسلامي آخر، ينادون به، ويأخذون على مرسي أشياء يرونها منكرات في الدين، فربما جاز أن يشتبه الأمر، وربما جاز أن تصح نصيحة أولئك الناصحين لمرسي بالتنحي عن الحكم. كذلك فلا يخطر بالبال شك أن لو كان البديل بعد قتل عثمان هو عبد الله بن سبأ، لقاتل عثمان وقاتل وراءه الصحابة أجمعون.

(٢) أحمد (٢٤٦١٠)، الترمذي (٣٧٠٥)، ابن ماجه (١١٢)، وصححه الألباني وشعيب الأرناؤوط.

عليها معظم الصحابة، وعبر عنهم ابن عمر، فقد رأى قلةٌ من الصحابة -لا يُعْرَف منهم غير المغيرة بن الأخنس- أن يتنازل عثمان ليحقن دمه، فبينما هم عند عثمان إذ دخل عليهم ابن عمر، فقال عثمان: «انظر ما يقول هؤلاء، يقولون: اخلعها ولا تقتل نفسك. فقال ابن عمر: إذا خلعتها، أمخلد أنت في الدنيا؟ قال: لا. قال: فإن لم تخلعها، هل يزيدون على أن يقتلوك؟ قال: لا. قال: فهل يملكون لك جنة أو نارا؟ قال: لا. قال: فلا أرى لك أن تخلع قميصا قَمَّصَكَه الله، فتكون سنة: كلما كره قومٌ خليفتهم أو إمامهم قتلوه»[1].

فهذا النظر من ابن عمر هو النظر السياسي الحكيم، إذ لو كانت كل قلة تملك أن تخلع الخليفة إذا كرهته أو اشتبهت عليها بعض أموره، لما استقرَّ للأمة نظام ولا قرار، فما من أحد إلا وله مبغضون وكارهون، بل ولصارت هذه الأقليات هي الحاكمة على الحقيقة، وبهذا يتعطل معنى أهل الحل والعقد ومعنى الشورى، وبهذا يكون أراذل الناس هم الذين ينصبون الخلفاء!! فما كان لعثمان أن يعطي هؤلاء حقَّ نقضِ أمرٍ أبرمته الأمة، بل يصبح أمر الأمة مرهونا بالقلة المتمردة.

## استشهاد عثمان

اشتد الحصار على عثمان، فقد علم أنهم يقتلونه كما سمع ذلك من النبي ﷺ، وعلموا هم أنه لن يخلع نفسه من الخلافة، فاندفعوا إلى البيت وقتلوه في اليوم الذي صار معروفا باسم «يوم الدار» وهو صبيحة (الجمعة: ١٢ ذي الحجة ٣٥هـ)، والذي هو أول أيام الفتن الكبرى في تاريخ المسلمين!

رأى عثمان رؤيا في منامه ليلة هذا اليوم، النبي ﷺ وأبا بكر وعمر، والنبي يقول له:

---

(١) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ص١٧٠ بإسناد حسن؛ انظر: الغبان، فتنة مقتل عثمان، ١/ ٣١٩، ٣٢٠؛ أكرم العمري، عصر الخلافة الراشدة، ص٤٢٧.

«أفطر عندنا»، فأصبح صائما متوقعا القتل في ذلك اليوم[1]، وزاد في إلحاحه على من كان عنده من الصحابة وأبنائهم أن يخرجوا فيتركوه، ثم فتح باب الدار، وجلس يقرأ في المصحف منتظرا القتل[2]!

وقد وقعت بين المهاجمين للدار وأبناء الصحابة اشتباكات محدودة، جرح فيها الحسن بن علي وعبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم ومحمد بن حاطب[3].

ولكن أول من وصل إلى عثمان رجل لا يُعرف اسمه، فلما اقترب منه قال عثمان: «بيني وبينك كتاب الله»، فتراجع وتركه، وأما الثاني فقد كان رجلا أسود من بني سدوس، وجاء مع أهل مصر، وقد اقتحم الدار وهجم على عثمان فخنقه خنقا شديدا، قبل أن يهوي عليه بالسيف فقطع يده، وانتثر دم عثمان على المصحف، وفي رواية أن أول من ضربه رجل يدعى رومان اليماني، ضربه بصولجان، وهو العصا المعوج، قبل أن يهوي عليه الرجل الأسود بالسيف[4]! وقد حملت صفات هذا الأسود على الظن بأنه يمكن أن يكون عبد الله بن سبأ نفسه، فهو أسود، وهو مع أهل مصر، ويقال له جبلة وهو اسم أصله من يهود اليمن، وهو يهودي يمني[5]، ولكن هذا كله يظل في دائرة التخمين.

وكان عثمان وقتها شيخا كبيرا في الثانية والثمانين من عمره.

---

(١) انظر خلاصة الروايات وتحليلها في هذا الخبر عند: الغبان، فتنة مقتل عثمان، ١/ ١٧١ وما بعدها.

(٢) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ص١٧٤ بإسناد صحيح؛ وانظر طرق الروايات في مقتله وتفصيلها عند: الغبان، فتنة مقتل عثمان، ١/ ١٨٨.

(٣) ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي البجاوي، ط١ (بيروت: دار الجيل، ١٩٩٢م)، ٣/ ١٠٤٦ بإسناد حسن؛ انظر: الغبان، فتنة مقتل عثمان، ١/ ١٦٩؛ أكرم العمري، عصر الخلافة الراشدة، ص٤٣٠؛ خالد الغيث، استشهاد عثمان ووقعة الجمل، ص١١٨.

(٤) انظر خلاصة الروايات الصحيحة في مقتل عثمان عند: الغبان، فتنة مقتل عثمان، ١/ ١٨٩ وما بعدها؛ خالد الغيث، استشهاد عثمان ووقعة الجمل، ص١٢٤ وما بعدها.

(٥) الغبان، فتنة مقتل عثمان، ١/ ٢٠٧ وما بعدها؛ خالد الغيث، استشهاد عثمان ووقعة الجمل، ص١٢٦.

لئن كان لكل خليفة من الراشـدين بصـمة ومعجزة تاريخية انفرد بها في العالمين، فإن عثمان بن عفان هو الوحيد من بين أولئك الذين حكموا دولة شـاسـعة بعدل وبرحمة، ثم يضحي بنفسه وبدمه حفاظا على نظام الدولة، ولا يسمح أن يُراق دمٌ في سبيل الدفاع عنه، مع قدرته على إشعال حرب لأجل ذلك!

لقد كان عثمان يحكم نحو ثلث العالم المعروف وقتها، ومع ذلك يستطيع بضعة آلاف أن يصلوا إليه في عاصمته بمطلب الخلع والعزل، وهو مطلب لم تعرفه الشعوب في ذلك الوقت أصـلا، فما كان لأهل العراق ومصـر أن يتصـوروا أن بإمكانهم السـير إلى مدائن كسـرى أو قصـر قيصـر للمطالبة بعزله، ولا حتى العرب في الجاهلية كانوا يتصـورون مثل هذا. ومع هذا كان عثمان يبذل لهم ما فيه رضـاهم ويحاورهم ويقنعهم ويسـرد عليهم أعذاره وحججه ويبين لهم خطأهم، إلا أنهم أصروا على عزله أو قتله. فعندئذ اتخذ عثمان موقفه الذي فيه حفظ نظام الخلافة، برفضـه الانخلاع من الخلافة تحت ضـغط القلة المتمردة، وفيه حقن دماء الصـحابة وأهل المدينة برفضـه أن يدافعوا عنه، راضـيا أن يكون دمه هو ثمن هذا الموقف!

فهذه بصمة عثمان بن عفان في تاريخ الدول والحكام.. رجل يحكم ثلث العالم، يصل إليه خصومه في عا صمته وعند بيته، يحا صرونه، يمنعون عنه الطعام والشراب، فينهى عن قتالهم ولا يتخذ معهم إلا سـبيل المحاورة والإعذار والحجة، فيحفظ بيعة الأمة ونظامها كما يحفظ دمها بدمه.

وكان مقتل عثمان هو الزلزال الذي أصـاب أمة المسـلمين، فقد ترتبت عليه الحروب والنزاعات، وتفرقت فيه الآراء والمذاهب، ووضـعت فيه الروايات والأكاذيب، ولكننا في هذا المقام سنتوقف عند مسألتيْن مهمتيْن، هما:

- هل شارك أحد من الصحابة في قتل عثمان؟
- وكيف صَوَّرت الأحاديث النبوية مقتل عثمان.

وذلك أن هاتين المسألتين تؤثران في تصورنا لمسار الفتنة فيما بعد.

## هل شارك أحد من الصحابة في قتل عثمان؟

أثار مقتل عثمان كثيرا من النتائج المزلزلة، وانقسم الناس فيها إلى فرق وأحزاب، تنازعت بالألسن والمناظرات والأقلام، وتقاتلت كذلك بالسيوف، وليس بالمستغرب في هذه الحال أن تروج الأكاذيب وتتضخم الصغائر وتزيد المبالغات.

وقد أدى هذا كله إلى أن اتُّهم عدد من الصحابة بالمشاركة في التحريض على عثمان أو بالمشاركة في قتله، ولم يسلم من هذه التهم الشخصيات الكبار العظيمة كعلي بن أبي طالب وعائشة وأبي ذر وعمار بن ياسر وابن مسعود وغيرهم، فقد اتخذ الرواة والقصاصون والوضَّاعون الخلاف الصغير فجعلوه كبيرا ثم جعلوه سببا للمشاركة في التحريض على قتل عثمان. كذلك فإن البعض قد اتُّهِم بالكتابة للناس كما وُضِع كتابٌ على لسان عائشة.

والذي يثبت بالروايات الصحيحة أنه لم يشارك أحدٌ من الصحابة في قتل عثمان، ولا في التحريض عليه. بل الثابت عكس ذلك، فقد لزم هؤلاء الصحابة –ومنهم من خالف عثمان في شيء أو وجد في نفسه شيئا منه– طاعة عثمان، وقد ظهر موقف أبي ذر وصريح قوله الذي أسلفنا ذكره.

وشبيه بموقف أبي ذر ما صحَّ عن علي رضي الله عنه، ورواه عنه ابنه محمد بن

الحنفية، أنه قال: «لو سَيَّرَني عثمان إلى صرار لسمعت له وأطعت»[1].

كذلك ثبت في الروايات الصحيحة دفاع الصحابة عن عثمان وإرسالهم أبناءهم ليكونوا حماته في الدار[2].

ولكن هذا كله، والذي يثبت بعد التمحيص والفحص لرواة الأخبار، ووضعهم على موازين الجرح والتعديل، لم يكن بهذا الوضوح في ذلك العصر الذي اختلطت فيه الأمور، وزاد من اختلاطها عاطفة الحزن على مقتل عثمان، والدهشة أيضا، إذ كيف لبضعة آلاف أن يخلصوا إلى الخليفة في داره، فيحاصرونه حتى يمنعوه الصلاة والطعام والماء، ثم يقتلونه!..

فمن هاهنا وقع بين الناس كثير من التشويش والخلط، وهو ما ولَّد التنابز والتعصب، والتشاتم والتغاضب، حتى وصل الأمر إلى القتال!

وأقرب من يُمكن أن تناله هذه التهمة هو محمد بن أبي بكر الصديق، فلقد كان من الساخطين على عثمان، ومن المشاركين في التمرد عليه، ولكن ثبت بالأسانيد

---

(١) ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٧٦٩٩) بإسناد صحيح، انظر: المصنف ط أسامة بن إبراهيم، ١٣/ ٣٨٤؛ ابن أبي شيبة، المصنف، ط الشثري، ٢١/ ٤٣٧؛ عبد الحميد فقيهي، خلافة علي بن أبي طالب، رسالة ماجستير (المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية –كلية الدعوة وأصول الدين، ١٤١٢ه)، ص٥٨ (الملحق).

ومن العجيب الذي يمكن الاستدلال به على براءة علي، ما زعمته رواية ضعيفة، تنتهي إلى اثنين من شهود العيان المجهولين، وهما من المتمردين على عثمان، أن عددا من الصحابة وافق على قدوم أولئك المتمردين إلى المدينة، إلا عليّ الذي نهاهم عن القدوم.

ينظر: ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٧٧٠١)؛ المصنف ط أسامة بن إبراهيم (١٣/ ٣٨٥)؛ المصنف ط الشثري (٢١/ ٤٣٨)؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣/ ٤٨؛ فقيهي، خلافة علي، ص٥٩ (الملحق).

(٢) انظر مواقف الصحابة تفصيلا في: أكرم العمري، عصر الخلافة الراشدة، ص٤٣٢ وما بعدها؛ محمد أمحزون، تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة، ٢/ ١٨ وما بعدها.

الصحيحة أنه تراجع في اللحظات الأخيرة، وكفَّ يده، فهو إذن لم يقتله[1]، ولكن كان في المتمردين عليه. إلا أن محمد بن أبي بكر لا يُعدّ في الصحابة، فلقد وُلِد في حجة الوداع، وقد مات النبي ﷺ وعُمْره بضعة أشهر لا أكثر!

غير أن محمد بن أبي بكر يظل نموذجا يثبت كيف كان اختلاط الأمر وعِظَم الفتنة في ذلك الوقت، فإنه نشأ في بيت علي بن أبي طالب، وذلك أن أمه أسماء بنت عميس تزوجت بعلي بعد وفاة أبي بكر، فكان محمد بن أبي بكر بمثابة الولد من علي، ومع ذلك كان في المتمردين على عثمان بينما كان الحسن والحسين في المدافعين عنه! ثم إنه انحاز إلى علي بن أبي طالب بعد مقتل عثمان، وشهد معه معركة الجمل ضد أخته عائشة بنت أبي بكر، ثم شهد معه صفّين، وقد جعله علي واليا له على مصر، إلا أنه انهزم أمام جيش تابع لمعاوية ثم قُتِل!

وأكثر التباسا من حالة محمد بن أبي بكر، حالةُ محمد بن أبي حذيفة، وهو محمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة، أي أنه ابن خال معاوية بن أبي سفيان، وهندٌ بنت عتبة هي عمته، ودرجت الكتب التي تؤرخ للصحابة على أن تذكره في أسماء الصحابة[2].

وخلاصة ما تتفق عليه هذه الكتب أنه وُلِد بالحبشة، حيث كان أبوه أبو حذيفة بن عتبة من السابقين إلى الإسلام وممن هاجروا إلى الحبشة مع زوجته سهلة بنت سهيل بن عمرو، ولما قُتِل أبو حذيفة في حرب المرتدين باليمامة، كفله عثمان عثمان بن

(١) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ص١٧٤ بإسناد صحيح؛ ابن عبد البر، الاستيعاب، ٣/ ١٣٧٦، بإسناد حسن؛ انظر: الغبان، فتنة مقتل عثمان، ١/ ٢٠٩.

(٢) منها: معجم الصحابة للبغوي، ومعرفة الصحابة لأبي نعيم، والاستيعاب لابن عبد البر، وأسد الغابة لابن الأثير، والإصابة لابن حجر، وغيرهم!

عفان فأنفق عليه وربَّاه حتى كبر، ثم أراد محمدٌ أن يكون من ولاة عثمان، ولم يره عثمان أهلا لذلك، فخرج إلى مصر، فكان من أشد المحرضين على عثمان والمتآمرين عليه والراضين بقتله، وفي مصر انقلب على والي عثمان هناك، وهو عبد الله بن سعد بن أبي السرح، وظل يحكم مصر لعامٍ، وانحاز لعلي بن أبي طالب، ثم قُتِل في حرب بينه وبين جيشٍ تابع لمعاوية(١).

وغرابة هذه الحالة في أن محمدا قريب النسب من عثمان، ثم إنه قريب المعاشرة، فقد نشأ في كفالته ورعايته، فانقلب عليه، وواجه أهلَه وعصبتَه وقاتلهم، حتى قُتِل على أيديهم.

لكن الإشكال الوارد في هذه الحالة هو السؤال: هل محمد بن أبي حذيفة من الصحابة؟!

إن من الغريب حقا أن تَجمع مصادرُنا التاريخية تناقضا ظاهرا في تاريخ محمد بن أبي حذيفة، ويسوقه أغلب المؤلفين دون تعقيب أو تعليق، حتى إن مؤرخ الإسلام الذهبي وهو مَن هو في الدقة والتحقيق، فات عليه الأمر، فقد صنَّف محمدَ بن أبي حذيفة تحت عنوان «كبار التابعين» مع مروان بن الحكم ومحمد بن أبي بكر الصديق، ثم ترجم له فقال: «وُلِد لأبيه لما هاجر الهجرة الأولى إلى الحبشة، وله رؤية. ولما توفي النبي ﷺ كان هذا ابن إحدى عشرة سنة، أو أكثر... واستشهد أبو

---

(١) انظر: البغوي، معجم الصحابة، تحقيق: محمد الأمين الجكني، ط١ (الكويت: دار البيان، ٢٠٠٠م)، ٤/ ٥٢٢ وما بعدها؛ ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ٣/ ١٣٦٩، ١٣٧٠؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٥٢/ ٢٦٧ وما بعدها؛ ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق: علي معوض وعادل عبد الموجود، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٤م)، ٥/ ٨٢؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، تحقيق: بشار عواد معروف، ط١ (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٣م)، ٢/ ٣٤٠؛ ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، ٦/ ٩ وما بعدها.

حذيفة يوم اليمامة، فنشأ محمد في حجر عثمان»[1].

فلئن كان محمدٌ قد وُلِد في هجرة الحبشة الأولى التي كانت في العام الخامس للبعثة، فلا بد أن يكون عمره عند وفاة النبي تسعة عشر عاما، وبهذا تثبت له الصحبة بيقين فلا يُقال في مثله «له رؤية»، وعندئذ يكون عند مقتل أبيه أبي حذيفة في حروب الردة، في عمر العشرين، ومثل هذا لا يحتاج أن يدخل في كفالة أحد، ولا أن يُقال عنه «نشأ في حجر عثمان»! ولا يوضع تحت تصنيف «كبار التابعين»!

وبهذا فلا يبقى لنا سوى احتماليْن: إما أنه وُلِد في هجرة الحبشة فيكون أثبت في الصحبة من عبد الله بن الزبير الذي وُلِد بالمدينة، بل ومن عائشة التي وُلِدت بعده بسنة، وعندئذ لا يكون قد كفله عثمان أو نشأ في حجره. وإما أنه وُلِد في آخر عهد النبي أو في عهد أبي بكر، فلما قُتِل أبوه في حروب الردة، وتزوجت أمه، تولى كفالته عثمان، فحينها يصحّ أن يُقال: نشأ في حجر عثمان!

وهذا الاحتمال الثاني هو الأرجح، فلو كان محمد بن أبي حذيفة وُلِد في الحبشة لصارت له أخبار في المدينة، كشهوده بعض الغزوات أو حتى ردِّه عن المشاركة فيها لصغر سنه كما وقع ذلك لعدد من الصحابة في نفس هذا السنّ، أو مشاركته في أي شأن من شؤون المدينة أو روايته شيئا من الأحاديث، ولم يرد عنه شيء من هذا.

وسائر أخبار محمد بن أبي حذيفة من طريق ابن إسحاق والواقدي، ولا يُحْتَجّ بهذه الأخبار عند التحقيق، إلا أن مشاركته في التأليب على عثمان ثابتة مشتهرة.

ويلوح لي أن كلام المؤرخين عن ولادته في الحبشة إنما هو خلطٌ بين محمد هذا

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة بإشراف شعيب الأرناؤوط، ط٣ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥م)، ٣/ ٤٧٩، ٤٨٠.

وبين محمد بن جعفر بن أبي طالب فكلاهما محمد، وكلا الأبوين -جعفر وأبي حذيفة- كانا من مهاجري الحبشة. أو أن أبا حذيفة ولد ولدًا في الحبشة سمَّاه محمدا ثم مات، فلما ولد غيره في آخر حياته سمَّاه محمدًا أيضا، مثلما يفعل بعض الناس من إعادة تسمية أبنائهم بأسماء من مات، ربما يكون هذا مبعث الخلط بين الشخصيتين، والله أعلم.

هذان النموذجان: محمد بن أبي بكر، ومحمد بن أبي حذيفة، هما الشبهة الأقوى التي تُطرح حول مشاركة بعض الصحابة في التحريض على عثمان وقتله، وقد ثبت أنهما ليسا من الصحابة، ولم يثبت عن أحد من الصحابة تحريضٌ على عثمان أو مشاركة في قتله.

وقد ثبت بالأحاديث الصحيحة أن عثمان رضي الله عنه قُتِل شهيدا مظلوما، وأنه في الجنة، وأن المشاركين في قتله أهل شر وفتنة، وأن قتله من مواضع الاختبار التي من نجا منها، فقد سلم له دينه. وهذا هو اللائق بالصحابة الكرام أعلام الإسلام.

## ما جاء من الأحاديث في استشهاد عثمان

إن فهم الأحاديث التي جاءت في استشهاد عثمان ضروريٌ لفهم الموقف الشرعي أولا، وهو جزء من عقيدة المسلم، ثم هو ضروريٌ لفهم أحداث الفتنة نفسها، وكيف انقسم الصحابة في عهد علي إلى ثلاث فرق: من يقاتل مع علي، ومن يقاتل مع معاوية، ومن سكت فاعتزل الفريقيْن لا يدري أيهما على الحق.

لقد ذكر النبي ﷺ وقوع الفتنة وزمانها ومقتل عثمان فيها شهيدا مظلوما، ففي حديث ابن مسعود أن النبي ذكر زمان الفتنة فقال: «تدور رحى الإسلام على رأس

خمس وثلاثين أو ست وثلاثين أو سبع وثلاثين»[1].

وتعددت الأحاديث التي جاء فيها أن عثمان يُقتل شهيدا مظلوما، فمنها حديث أبي سعيد الخدري حين جعل نفسه يوما بوّابًا لرسول الله، استأذن عليه أبو بكر وعمر، فقال النبي لكل منهما «ائذن له وبشره بالجنة»، فلما استأذن عثمان قال النبي ﷺ: «ائذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه»[2].

وذات يوم صعد النبي ﷺ على جبل أحد، ومعه أبو بكر وعمر، فرجف بهم، فقال النبي: «اثبت أحد فإنما عليك نبي وصدّيق وشهيدان»[3].

وذكر النبي ﷺ أن قتل عثمان من المهلكات، فقال: «من نجا من ثلاث فقد نجا: موتي، والدجال، وقتل خليفة مصطبر بالحق معطيه»[4].

ومرَّ معنا سابقا أن النبي وصف من أراد خلع عثمان من الخلافة بالمنافقين، وذلك في قوله «يا عثمان إن الله عسى أن يلبسك قميصا فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه»[5].

وفي حديث ابن عمر قال: ذكر رسول الله فتنة فمر رجل فقال ﷺ: «يُقتل فيها هذا

---

(١) أحمد (٣٧٠٧)، أبو داود (٤٢٥٤)، الحاكم (٤٥٩٣)، وصححه أحمد شاكر والألباني وحسين سليم أسد، وحسنه شعيب الأرناؤوط.

(٢) البخاري (٣٤٧١)، مسلم (٢٤٠٣).

(٣) البخاري (٣٤٧٢).

(٤) أحمد (١٧٠١٤)، والحاكم (٤٥٤٨) وصححه ووافقه الذهبي، وحسنه شعيب الأرناؤوط.

(٥) أحمد (٢٤٦١٠)، الترمذي (٣٧٠٥)، ابن ماجه (١١٢)، وصححه الألباني وشعيب الأرناؤوط.

المقنع»(١) فإذا هو عثمان، ورُوِيَ هذا الحديث عن كعب بن مرة أيضا، أو لعله موقف آخر كرَّر فيه النبي ﷺ الأمر، فعن كعب قال: سمعت رسول الله ﷺ يذكر فتنة، فقرَّبَها، فمرَّ رجل مقنع، فقال: «هذا يومئذ وأصحابه على الحق والهدى» فقلت: هذا يا رسول الله؟ وأقبلت بوجهه إليه، فقال: «هذا». فإذا هو عثمان»(٢).

وفي حديث أبي هريرة، أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إنكم تلقون بعدي فتنة واختلافا» فقال قائل: فمن لنا يا رسول الله؟، فقال: عليكم بالأمين وأصحابه» يشير إلى عثمان(٣).

وبهذا يتبين لنا أن فتنة مقتل عثمان كان الحق فيها واضحا، وكان الصحابة فيها إلى جانب عثمان وهو جانب الحق، وأن أولئك الذين خرجوا عليه حتى قتلوه هم المنافقون الأشقياء الذين فتحوا باب الشر على أمة محمد ﷺ، سواءٌ منهم من كان خبيثا متآمرا كابن سبأ وأشياعه، أو من كان منهم جاهلا غاليا مفتونا مغرورا.

---

(١) أحمد (٥٩٥٣)، الترمذي (٣٧٠٨)، وصححه أحمد شاكر وحسنه الألباني، وقال شعيب الأرناؤوط: صحيح لغيره وإسناده محتمل للتحسين.

(٢) أحمد (١٨٠٩٣)؛ الترمذي (٣٧٠٤) وقال: حسن صحيح؛ ابن ماجه (١١١)؛ الحاكم (٤٥٥٢) وقال على شرط البخاري ومسلم ووافقه الذهبي، وصححه الألباني وشعيب الأرناؤوط.

(٣) أحمد (٨٥٢٢)، وصححه أحمد شاكر وحسنه شعيب الأرناؤوط.

# خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه

## فضل عليٍّ وكونه جديرا بالخلافة

عليٌّ هو ربيب بيت النبوة، حيث اتخذه الرسول ربيبا له منذ صغره، وهو الذي أسلم في سن العاشرة، فهو أول من أسلم من الصبيان[١]، وهو الذي نام على فراش النبي ليلة الهجرة في لحظة فدائية باسلة خالدة، وهو الذي أدَّى الأمانات عن النبي عند هجرته ﷺ[٢]، ثم هاجر ماشيا، وهو البطل العظيم في معارك الإسلام الحاسمة: في بدر وأحد والخندق، فقد كان في المبارزين في بدر[٣]، وهو الذي قتل عمرو بن عبد ود في الأحزاب[٤]، وهو الأمير الذي تولى قيادة المسلمين في خيبر ففتح الله عليهم الحصن بعد امتناعٍ، وقد أعلن

(١) الألباني، صحيح السيرة النبوية، ص٩٩، ١١٩؛ أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ١/ ١٣٤.

(٢) محمد الصوياني، الصحيح من أحاديث السيرة، ص١٤١، ١٤٢.

(٣) البخاري (٣٧٤٧).

(٤) أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ٢/ ٤٢٩؛ محمد الصوياني، الصحيح من أحاديث السيرة، ص٣٢٦.

النبي ﷺ في الصحابة أنه رجل «يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله»[١]، وقال له النبي ﷺ «لا يحبك إلا مؤمن، ولا يبغضك إلا منافق»[٢]، وقال فيه النبي ﷺ: «من كنتُ مولاه، فعليٌّ مولاه»[٣]، وقال له حين تركه واليا على المدينة في غزوة تبوك: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى»[٤]، وهو من العشرة المبشرين بالجنة[٥]، ومناقبه كثيرة والمقام يضيق عن استقصائها!

وكان ابن عمر يقول: «كنا نقول في زمن النبي ﷺ: رسولُ الله خير الناس، ثم أبو بكر، ثم عمر، ولقد أُوتي ابنُ أبى طالب ثلاث خصال، لأنْ تكون لي واحدةٌ منهنَّ أحبُّ إليّ من حُمْرِ النَّعَم، زوّجه رسول الله ﷺ ابنتَه وولَدَت له، وسَدَّ الأبوابَ إلا بابه في المسجد، وأعطاه الراية يوم خَيْبَر»[٦].

وبالجملة فإن علي بن أبي طالب جمّ المناقب والفضائل، حتى قال الإمام أحمد: «ما بلغنا عن أحد من الصحابة ما بلغنا عن علي»[٧]، وقال عددٌ من أئمة الحديث: «لم يرد في حق أحد من الصحابة بالأسانيد الجياد أكثر مما جاء في علي»[٨].

---

(١) البخاري (٢٨١٢)، مسلم (٢٤٠٧).

(٢) أحمد (٦٤٢)، والترمذي (٣٧٣٦)، والنسائي (٨٤٨٧)، وصححه الألباني وشعيب الأرناؤوط. وفي صحيح مسلم عن علي نفسه بلفظ: «لا يحبني إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق». مسلم (٧٨)

(٣) أحمد (٢٢٩٩٥)، والترمذي (٣٧١٣)، والنسائي (٨١٤٥)، وصححه الألباني وشعيب الأرناؤوط.

(٤) البخاري (٣٥٠٣)، مسلم (٢٤٠٤).

(٥) أحمد (١٦٢٩)، أبو داود (٤٦٤٩)، والنسائي (٨١٩٣)، وابن ماجه (١٣٣)، وصححه الألباني وشعيب الأرناؤوط.

(٦) أحمد (٤٧٩٧)، وحسنه ابن حجر في الفتح (٧/ ١٥)، وصححه أحمد شاكر.

(٧) ابن حجر، فتح الباري، ٧/ ٧٤.

(٨) ابن حجر، فتح الباري، ٧/ ٧١. وفي الواقع فإن هذه العبارة وأمثالها هي دليل ساطع على نضارة تاريخنا الإسلامي، وتفرده، فإن السلطة في أي حضارة قديمة أو حديثة كان لها الدور الأكبر في إنتاج المعرفة، ولكن دور السلطة في إنتاج المعرفة يتضاءل جدا في تجربة الحضارة الإسلامية، لأن سلطة الدين كانت أعلى من سلطة الدولة، وحيث إن إنتاج المعرفة في السياق الإسلامي كان لخدمة الدين فقد كان متحررا من سلطان الدولة، بل في الحضارة الإسلامية حققت

فالخلا صة أنه ر ضي الله عنه جديرٌ بالخلافة، وأنه فوق كل شبهة، وأما أن بعض الناس غلا فيه، فإن هذا الغلو يجب ألا يدفع أحدًا إلى انتقاص منزلته ومكانته!

ويجب أن تُفَسَّر مواقف علي رضي الله عنه وسياساته في ظل هذه النصوص الصحيحة الصريحة التي تثبت مكانته السامقة، ثم ستأتي الأحاديث التي ستثبت مرة أخرى أنه هو المصيب في اجتهاده، وهو الأقرب إلى الحق.

والواقع أنه لولا تلك الأحاديث الصحيحة لكان الأقرب إلى الترجيح والتصويب هو موقف معاوية، فإننا لو عزلنا تلك الأحاديث الصحيحة عن الأحداث فستبدو لنا صورة أخرى مشوهة لشخصية علي رضي الله عنه وسياسته، بل سيبدو وكأنه قاد انقلابا على عثمان وأسبغ حمايته على قتلة عثمان ثم قاتل بهم السابقين من الصحابة وأم المؤمنين!! وهذا الفهم المشوه الذي ابتعد عن الاسترشاد بنصوص السنة الصحيحة الصريحة هو الذي أخرج فرقة النواصب(١).

---

المعرفة -ولأول وآخر مرة في الحضارات الإنسانية فيما أعلم- انتصارا على رغبة السلطة.. فالأحاديث في فضل علي بن أبي طالب أغزر وأكثر من الأحاديث في فضل معاوية وفي فضل العباس، مع أن العلويين كانوا هم المضطهدين في عصري الأمويين والعباسيين، فلو كانت السلطة تنتج المعرفة لكان العكس هو الصحيح، ولكانت أحاديث فضل معاوية وفضل العباس هي الأغزر والأكثر والأشهر، بل إن ابن حجر يقول في نص نفيس بأن انتشار الأحاديث في فضل علي إنما كان لهذا السبب تحديدا، لكثرة من خرجوا عليه في حياته وتنقصوه بعد وفاته، فاحتاج أهل السنة لرواية الأحاديث في فضائله فصارت أشهر وأغزر وأكثر مما سواه من الصحابة، حتى من أحاديث أبي بكر وعمر.

وهذه الغزارة في الأحاديث التي يرويها أهل السنة في فضل علي «هي دليل ناهض على سلامة دينهم واستقامة معتقدهم بخلاف الرافضة الأفاكين الذين يروون الأكاذيب سواء في فضائل عليّ رضي الله عنه أو ما يخترعونه من مثالب من يكرهون كمعاوية وغيره» (استفدت هذه التعليق من د. عبد الحي يوسف حفظه الله، حين راجع هذا البحث).

(١) فرقة النواصب أطلقت على الذين عادوا عليا، وانسحب هذا على معاداتهم لآل البيت النبوي، واستُخْرِج الاسمُ من كونهم ناصبوا آل البيت بالعداء. ومن المؤسف أن الطغيان الشيعي المعاصر المتمثل بإيران، وما أنزلته من جرائم

إن هذه النصــوص النبوية هي التي أرشــدتنا وعلمتنا كيف نقرأ تاريخ الفتنة ونفهمه، وأوضحت لنا ما كان مستحيلا أن يتضح من دونها.

ولما توفي النبي ﷺ كان عليٌّ في المقربين من أبي بكر، وخاض معه الدفاع عن المدينة ضد المرتدين الذين هاجموها، وكان عليٌّ من العلم والحكمة حتى إن عمر رضي الله عنه، وهو مَنْ هو، كان يستشيره ويستعين برأيه! وقد شهد له بأنه أقضى الصحابة فقال: «أقضانا علي»[1] وأخبار مشــاورة عمر له كثيرة مشــهورة، ولما مات عمر بن الخطاب كان عليٌّ ضمن الستة الذين رشَّحهم لتولي الخلافة من بعده.

وقد ثبت في الروايات الصحيحة أن عليا رضي الله عنه كان يرى نفسه جديرا بالخلافة، وليس في هذا عيبٌ، فإن المرء إذا كان ذا موهبة وقدرة كان حريا به أن يتطلع إلى المرتبة الملائمة له، ولكن هذه الجدارة لم تدفعه مرة إلى شــق عصــا الطاعة أو تفريق الجماعة أو محاولة نقض ما أبرمته الأمة، بل شهد هو نفسه بأن أبا بكر وعمر خيرٌ منه! وبالتأمل في هذه الروايات الصــحيحة يتبين لنا فضــل الصــحابة ومرتبتهم العليا، وكيف جمعوا بين كونهم بشرًا لهم نوازع البشر واختلافهم في الرأي، وبين كونهم أسمى البشر وأقدرهم على التجرد والتواضع والتضحية وإنكار الذات.

فقد ثبت برواية صـحيحة أن عليًّا فكَّر في الأمر، وكان معه العباس الذي توقع أن يموت النبي ﷺ في مرضــه هذا، ولكن عليًّا قدَّر أنه من الحكمة ألا يســأل النبيَّ عنها، قال له

شنيعة في بلاد أهل السنة كالعراق وسوريا ولبنان واليمن وغيرها، قد تسبب في ردة فعل مقابلة، فظهرت مرة أخرى أفكار النواصب في هذه البلدان، ورأيت بنفسي عددا من الناس يسبُّ عليًّا ويراه أول منقلب على الخلافة الشرعية في التاريخ الإسلامي. ولا حول ولا قوة إلا بالله. ومن هنا نعيد التأكيد والتكرار على أن أحداث الفتنة مجال شائك لا يسلم منه إلا من تناوله بعلم وعدل، ولهذا فالأسلم ألا يُعرض خارج الساحات العلمية المتخصصة، فلا يخرج إلى عموم الناس، فإنه فوق عقولهم ومداركهم.

(١) البخاري (٤٢١١).

العباس: «أنتَ والله بعد ثلاثٍ عبد العصا[١]، وإني والله لأرى رسول الله ﷺ سوف يُتوفى من وجعه هذا، إني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت، اذهب بنا إلى رسول الله ﷺ فلنسأله فيمن هذا الأمر، إن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان في غيرنا علمناه فأوصى بنا. فقال علي: إنا والله لئن سألناها رسول الله ﷺ فمَنَعَنَاها لا يعطيناها الناس بعده، وايم والله لا أسألها رسول الله ﷺ»[٢].

وتشير هذه الرواية إلى التزام الصحابة أمرَ رسول الله، ففيها ردٌّ على من زعموا أن النبي أوصى لعليّ، فلو كان أوصى إليه لخضع لها الصحابة، ولم يكن ليثار خلاف في سقيفة بني ساعدة، ولا في غيرها، كما تثبت الرواية أنه لم تكن ثمة وصية لعلي وإلا ما جرى بينه وبين العباس مثل هذا الكلام[٣].

ولهذا يُثار هنا ما جاء عن عليٍّ أنه امتنع عن بيعة أبي بكر لستة أشهر، وهذه رواية صحيحة، وذلك لسببيْن أوضحتهما الرواية؛ الأول ما وقع من الخلاف بين فاطمة الزهراء وبين أبي بكر، إذ جاءت فاطمة تطلب نصيبها من ميراث أبيها ﷺ، فأخبرها أبو بكر بما سمعه من النبي ﷺ من أن الأنبياء لا يُورثون، وأن ما تركوه صدقة، وأما ما كان يُنفق النبي على أهله من المال فهو من مسؤولية الخليفة بعده[٤]! ولكن فاطمة غضبت من هذا القول فهجرت أبا بكر، فكان عليٌّ مراعيا لخاطرها. والثاني: أن عليا رضي الله عنه كان منشغلا مع عمه العباس بتجهيز جثمان رسول الله بينما جاء خبر اجتماع الأنصار في السقيفة، وهُرِع

---

(١) أي لن تمر على النبي ﷺ ثلاثة أيام حتى يكون قد توفي، وحينها سيكون غيرك خليفة وتكون أنتَ تابعا له، فهذا معنى قولهم «عبد العصا»، أي أن تكون محكوما تابعا لغيرك.

(٢) البخاري (٤١٨٢).

(٣) عبد الحميد فقيهي، خلافة علي بن أبي طالب، ص٦٣، ٦٤.

(٤) يجب أن يُنتبه هنا إلى أن ردَّ أبي بكر على فاطمة بأن الأنبياء لا يورثون، قد حرم أيضا ابنته عائشة من ميراثها، ومثلها حفصة بنت عمر. فظل يُنفق على أمهات المؤمنين باعتبارهم من آل بيت النبي، بما لهم من حق في النفقة التي يتولاها الخليفة. فلم يكن الأمر خاصا بفاطمة وحدها، رضي الله عن الجميع.

إليهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة، واتفقوا في السقيفة على خلافة أبي بكر، فغضب عليٌّ من أن الأمر تمَّ دون مشورته.

هذا نص الرواية كما جاء عن عائشة:

«أن فاطمة عليها السلام بنت النبي ﷺ أرسلت إلى أبي بكر تسأله ميراثها من رسول الله ﷺ مما أفاء الله عليه بالمدينة وفدك وما بقي من خمس خيبر. فقال أبو بكر: إن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث، ما تركنا صدقة، إنما يأكل آل محمد ﷺ في هذا المال». وإني والله لا أغير شيئا من صدقة رسول الله ﷺ عن حالها التي كانت عليها في عهد رسول الله ﷺ، ولأعملن فيها بما عمل به رسول الله ﷺ. فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة منها شيئا، فوجدت فاطمة على أبي بكر في ذلك، فهجرته فلم تكلمه حتى توفيت، وعاشت بعد النبي ﷺ ستة أشهر. فلما تُوُفّيت دفنها زوجها علي ليلا ولم يؤذن بها أبا بكر، وصلى عليها، وكان لعلي من الناس وجهٌ حياة فاطمة، فلما توفيت استنكر عليٌّ وجوه الناس، فالتمس مصالحة أبي بكر ومبايعته، ولم يكن يبايع تلك الأشهر، فأرسل إلى أبي بكر أن ائتنا ولا يأتنا أحد معك، كراهية لمحضر عمر، فقال عمر: لا والله لا تدخل عليهم وحدك. فقال أبو بكر: وما عسيتهم أن يفعلوا بي؟! والله لآتيهم. فدخل عليهم أبو بكر، فتشهد علي فقال: إنا قد عرفنا فضلك وما أعطاك الله، ولم ننفس عليك خيرا ساقه الله إليك، ولكنك استبددت(١) علينا بالأمر، وكنا نرى لقرابتنا من رسول الله ﷺ نصيبا. حتى فاضت عينا أبي بكر، فلما تكلم أبو بكر قال: والذي نفسي بيده لقرابة رسول الله ﷺ أحب إليَّ أن أصل من قرابتي، وأما الذي شجر بيني وبينكم من هذه الأموال فلم آل فيها عن الخير، ولم أترك أمرا رأيت رسول الله ﷺ يصنعه فيها إلا صنعته. فقال علي لأبي بكر: موعدك العشية للبيعة. فلما

---

(١) الاستبداد في اللغة هو الانفراد بالأمر، وهو لا يعني بالضرورة انتقاصا وليس سبَّة دائما، بل قد يُمدح المرء بالاستبداد أحيانا إذا أخذ بزمام المبادرة في لحظة تستوجب هذا، وقد يُنكر عليه إن أسرع بالأمر واختصه لنفسه. فمعنى الاستبداد في أصله اللغوي ليس هو الذي يفهمه أهل عصرنا من معنى الظلم والطغيان والتجبر.

صـلى أبو بكر الظهر، رقي على المنبر فتشـهد وذكر شـأن علي وتخلفه عن البيعة وعذره بالذي اعتذر إليه، ثم اسـتغفر وتشـهد علي فعَظَّم حقَّ أبي بكر، وحدَّث أنه لم يحمله على الذي صـنع نفاسـة على أبي بكر ولا إنكارا للذي فضلـه الله به، ولكنا نرى لنا في هذا الأمر نصـيبا، فاسْـتُبِدَّ علينا، فوجدنا في أنفسـنا. فَسُـرَّ بذلك المسـلمون وقالوا: أصـبت. وكان المسلمون إلى علي قريبا حين راجع الأمر المعروف»(١).

تشير هذه الرواية الصحيحة إلى هجران وقع بين علي وفاطمة من جانب وبين أبي بكر وعمر من جانب آخر، وتبين سبب الهجران وهو غضب فاطمة من أبي بكر وغضب عليٍّ من أن اختيار الخليفة تمَّ دون اسـتشـارته، وأن الغضـب بلغ بهما أنه لما توفيت فاطمة لم يخبر عليٌّ أبا بكر بذلك بل تولى بنفسـه تكفينها ودفنها. وأن المسـلمين كانوا يلتمسـون العذر لعلي لهجرانه أبا بكر في حياة فاطمة مراعاة لخاطرها، فلما توفيت بدا أن المسـلمين لا يرضون ابتعاد عليٍّ عن أبي بكر، ولما شعر عليٌّ بهذا بادر فأرسل إلى أبي بكر، وعرض رأيه وموقفه حتى بكى أبو بكر، ثم عرض أبو بكر رأيه وموقفه، وانتهى المجلس إلى أن بايع عليٌّ أبا بكر علانية، وبسط كلٌّ منهما رأيه أمام الناس بوضوح!

ونستفيد من هذه الرواية الصحيحة أمورا عديدة من أهمها:

١. أن كتب أهل السـنة لم تحاول تخبئة ما وقع بين الصـحابة من الخلاف، بل أوردته دون أن ترى في إيراده إسـاءة للصـحابة، واحترمت أمانة العلم ودقة المنهج العلمي في التوثيق والضبط.

٢. أنه ليس في هذه الرواية ذِكْرٌ لوصـية من النبي ﷺ لعليٍّ، فلو كان ثمة وصـية لاحتجَّ عليٌّ بها، وكان ذلك أقوى ما لديه في اسـتحقاقه للخلافة، ولكن ظهر أن الأمر إنما هو غضب منه لأنه لم يُسْتَشَر في الأمر.

(١) البخاري (٣٩٩٨)؛ مسلم (١٧٥٩).

٣. أن الصحابة لم يسمعوا أو يعرفوا شيئا عن تلك الوصية المزعومة، فلو عرفوها لناصروا عليًّا فيها، ولكنهم لم يعذروا استمراره بغير بيعة بعد وفاة فاطمة، وعرف عليٌّ ذلك في وجوههم!

٤. أن أبا بكر ترك عليًّا دون بيعة ولم يجبره عليها.

٥. أن غضب فاطمة وغضب علي رضي الله عنهما لم يتحول إلى عملٍ أو تمردٍ ضد أبي بكر، بل كان غاية الأمر ما بينهم من التغاضب والهجر.

٦. أن هذا الهجر والتغاضب انقضى وانتهى في مجلس واحدٍ، أوضح كلٌّ منهم موقفه ورأيه، وطُوِيت تلك الصفحة!

وبهذا نرى في هذه الرواية، التي تناولت خلافا بين الصحابة، جانبا من فضائل الصحابة وكيفية تعاملهم مع ما ينشب بينهم من المشكلات.

لو لم يرد غير هذه الرواية في الخلاف الذي كان بين علي وبين أبي بكر لكان الأمر مفهوما ومقبولا، فإن وقوع الخلاف لا يخلو منه مجتمع، وليس في البشر معصومٌ سوى الأنبياء، وهذا الخلاف أشبه بما وقع في السقيفة إلا أنه تأخَّر الفصل فيه هذه الأشهر، فهو من الخلاف الذي لا يخدش منزلة أصحابه.

لكن ثمة روايات صحيحة أخرى وردت عن هذا الخلاف، فهي تزيد الموقف وضوحا، وتسفر عن جوانب أكثر جمالا وسموًّا.

ففي رواية أخرى يظهر أن عليًّا لم يكن وحده، بل كان معه الزبير بن العوام لذات السبب، وأنهما حين بايعا قالا: «ما غضبنا إلا لأنّا أُخِّرنا عن المشاورة، وإنا نرى أبا بكر أحق الناس بها بعد رسول الله ﷺ، إنه لصاحب الغار، وثاني اثنين، وإنا لنعلم بشرفه وكبره،

ولقد أَمَرَه رسـول الله ﷺ بالصـلاة وهو حي»[1]. ففي قولهما اعترافٌ بفضـل أبي بكر وأنه الأجدر بالخلافة وأن الأمر لم يكن إلا عتبا على أنهما لم يحضرا المشاورة.

وفي رواية صـحيحة أخرى أن عليا والزبير بايعا أبا بكر في اليوم التالي لبيعة السـقيفة، ولم يتأخرا الأشـهر السـتة، وذلك أن أبا بكر حين نظر في الناس فلم يجد عليا أرسـل إليه فجاء فبايعه، ولم يجد الزبير فأرسـل إليه فجاء وبايعه، فكان يُنكر على كل منهما تأخره على البيعة، فكانا يجيبان: «لا تثريب يا خليفة رسـول الله»[2]. وجاءت روايات ضـعيفة أخرى بأن عليا بايع مع الناس.

وجاء في رواية صحيحة أخرى أن أبا بكر خرج من صلاة العصر «فرأى الحسن يلعب مع الصبيان، فحمله على عاتقه، وقال: بأبي، شبيه بالنبي لا شبيه بعلي. وعليٌّ يضحك»[3]. وورد في بعض ألفاظ هذه الرواية تاريخ هذه الواقعة، وأنها كانت بعد وفاة النبي ﷺ بليالٍ[4]، مما يزيد في التأكيد على أنه لم تكن منافرة ومهاجرة بين أبي بكر وعلي رضـي الله عنهما.

---

(1) الحاكم (٤٤٢٢)، وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي؛ موسى بن عقبة، أحاديث منتخبة من مغازي موسى بن عقبة، تحقيق: مشهور حسن آل سلمان، ط١ (بيروت: مؤسسة الريان – دار ابن حزم، ١٩٩١م)، ص٩٤. وقال ابن كثير: إسناده جيد، انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ط١ (بيروت: دار إحياء التراث، ١٩٨٨م)، ٥/ ٢٧٠، وقال عبد الحميد فقيهي: إسناده حسن. انظر: فقيهي، خلافة علي، ص٣٨.

(2) الحاكم (٤٤٥٧)، وقال: صحيح على شرط الشيخين. وقال ابن كثير: هذا إسناد صحيح محفوظ (البداية والنهاية، ٥/ ٢٧٠)، وقرر الذهبي جودة الإسناد كما في: الذهبي، المهذب في اختصار السنن الكبير، تحقيق بإشراف: ياسر بن إبراهيم، ط١ (الرياض: دار الوطن، ٢٠٠١م)، ٦/ ٣٢٤٠.

(3) البخاري (٣٣٤٩).

(4) ورد إثبات أنها بعد وفاة النبي عند: ابن أبي عاصم، الآحاد والمثاني، تحقيق: باسم الجوابرة، ط١ (الرياض: دار الراية، ١٩٩١م)، ١/ ٢٩٩؛ أبو بكر المروزي، مسند أبي بكر الصديق، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ط٤ (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٩٨٦م)، ص١٤٤؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ١٣/ ١٧٤، ١٧٥؛ وانظر: ابن حجر، فتح الباري، ٦/ ٥٦٧.

ولهذا جمع العلماء بين هذه الأخبار الصحيحة، فقال ابن كثير عن بيعة علي في اليوم الأول أو الثاني: «وهذا حق فإن علي بن أبي طالب لم يفارق الصديق في وقت من الأوقات، ولم ينقطع في صلاة من الصلوات خلفه، وخرج معه إلى ذي القصة لما خرج الصديق شاهرا سيفه يريد قتال أهل الردة، ولكن لما حصل من فاطمة رضي الله عنها عتب على الصديق احتاج علي أن يراعي خاطرها بعض الشئ، فلما ماتت بعد ستة أشهر من وفاة أبيها ﷺ رأى علي أن يجدد البيعة مع أبي بكر»(١).

وأصرحُ ما ورد عن عليٍّ في تقديم أبي بكر، ما رواه ابنه محمد بن الحنفية، قال: «قلت لأبي: أي الناس خير بعد رسول الله ﷺ؟ قال: أبو بكر. قلتُ: ثم من؟ قال: ثم عمر، وخشيت أن يقول عثمان، قلت: ثم أنت؟ قال ما أنا إلا رجل من المسلمين»(٢). ومن اللطيف في هذه الرواية ما نراه فيها من حرص الابن أن يكون أبوه أفضلَ الناس، ومحاولة محمد بن الحنفية أن يتجاوز عثمان، فكأنه كان مستقرًّا في ضميره أن عليًّا سيقول عثمان!

## بيعة علي رضي اللَّه عنه

مهما كان عِظَمُ المصيبة بقتل الخليفة الراشد، والرجل الثالث في الإسلام، فلا بد للناس من خليفة، كيف لا وقد اختار المسلمون خليفتهم الأول وما زال جثمان رسول الله ﷺ صاحب الرسالة لم يدفن بعد؟!

وإذا كان في المتمردين قسْمٌ يرى عليًّا أحق الناس بالخلافة، وهم الذين فشت فيهم أفكار ابن سبأ، فإن عليًّا رضي الله عنه هو الجدير بالخلافة من قبل أن يظهر ابن سبأ وأفكاره، بل وحين سُئل طلحة والزبير وعائشة عن الخليفة بعد عثمان ذكروا جميعا أنه عليّ، وهذا ما أورده الطبري بسند صحيح عن الأحنف بن قيس أنه حضر في المدينة في

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ٥/ ٢٧٠.

(٢) البخاري (٣٤٦٨).

الأيام الأخيرة من حصار عثمان، وتوقع أن الأمر ينتهي إلى القتل، يقول الأحنف: «فلقيت طلحة والزبير، فقلت: من تأمراني به وترضيانه لي؟ فإني لا أرى هذا الرجل إلا مقتولا، قالا: عليّ. قلتُ: أتأمراني به وترضيانه لي؟ قالا: نعم. فانطلقت حتى قدمت مكة فبينا نحن بها إذ أتانا قتل عثمان رضي الله عنه وبها عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، فلقيتها، فقلت: من تأمرين أن أبايع؟ قالت: علي. قلتُ: تأمرينني به وترضينه لي؟ قالت: نعم»[(١)].

وسأَلَ عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي أمَّ المؤمنين عائشة بعد قتل عثمان، فقالت له: «الزم عليا، فوالله ما غَيَّر ولا بَدَّل»[(٢)].

ومن هنا فلا يُشَكُّ في أن عليا هو الأجدر بالخلافة بعد عثمان، وأن هذا هو رأي الصحابة والتابعين وأهل المدينة، وأولئك هم أهل الحل والعقد، وهم الذين تنعقد بهم البيعة الشرعية، ولكن المعضلة كانت قائمة في الأجواء والظروف التي جرت فيها البيعة، على النحو الآتي:

لقد ازداد التوتر والتكتل لدى المتمردين على عثمان منذ أن بلغتهم الأخبار بتحرك جيوش من الشام والعراق ومصر لنجدة عثمان بن عفان[(٣)]، فلئن كان عثمان قد استطاع أن يُلزم أهل المدينة ألا يدافعوا عنه، فإن أولئك القادمين من بعيد لم يبلغهم ذلك، ثم إنهم من القوة والكثرة بحيث لن تصمد أمامهم حفنة المتمردين الذين لا يتجاوزون ثلاثة آلاف في

(١) ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٧٧٩٨)؛ الطبري، تاريخ الطبري، ٣/ ٣٤ بإسناد صحيح؛ انظر: ابن حجر، فتح الباري، ١٣/ ٣٤؛ البرزنجي، صحيح تاريخ الطبري، ٣/ ٣٨٢.

(٢) ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٧٨٣١)، بإسناد جيد كما قال الحافظ ابن حجر، فتح الباري، ١٣/ ٥٧.

(٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق: إحسان عباس، ط١ (بيروت: دار صادر، ١٩٦٨م)، ٣/ ٧١ ونقل هذا الموضع عن هذه الطبعة لكونه ساقطا من طبعة دار الكتب العلمية التي نعتمدها في النقل، فحيث نقلت عن صادر سأشير بهذه الملاحظة (ط صادر)؛ الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ٦٧٢.

أقصى تقدير[1]، فكان هذا الخوف من أسباب مسارعتهم في قتل عثمان، ثم كان من أسباب حرصـهم على التكتل، والبقاء في المدينة، وألا يتفرق جمعهم، كي لا تكون هذه فرصة للقصاص منهم.

وساعدهم في ذلك طبيعة البشر حين تحدث الفوضى، حيث يتكاثر الناس ويُهرعون إلى منطقة الأزمة، وتنفلت أزمة الأمور من أيدي الكبراء والوجهاء، ففي زمن الحصار هُرِع كثير من الأعراب حول المدينة إلى المدينة[2]، وتشير بعض العبارات الواردة في ثنايا الروايات إلى أن فترة الحصار سببت نوعا من الفوضى، توقفت معها العطايا والأموال، فجهد الأعراب فهرعوا إلى المدينة[3]، فازدادت الأزمة في المدينة، وكانت هذه هي المعضلة الأولى في وجه علي رضي الله عنه.

لقد بدا وكأن تكتل المتمردين، الذي تكاثر بتكتل الأعراب، قد غلب على المدينة وسيطر عليها، وامتلك قادة المتمردين زمام المبادرة في اختيار الخليفة القادم، وكما ذكرنا أنهم لم يكونوا متفقين على شخصية أخرى، وما كان يخطر ببالهم أن يتجاوزوا كبار الصحابة، وتورد الروايات أن أهل البصرة كانوا يرغبون في طلحة بن عبيد الله، وأهل الكوفة يرغبون في الزبير بن العوام، وأهل مصر –الذين فشا فيهم ابن سبأ– يرغبون في علي

(١) هذا التقدير من رواية سيف بن عمر، انظر: الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ٦٥٢.

(٢) هنا وقع ما يُسَمَّى في علم نفس الجماهير الشعور بالقوة ضمن المجموع، يحدث ذلك مع عدوى انتشار المشاعر، وقلة الإحساس بالمسؤولية الفردية ضمن المجموع، ولذلك فإن الثورات لا تُواجَه بالعنف والصدّ، وإنما بالتهدئة والامتصاص، لأن الجمهور حين يتمرد تعجز قدرة السلطة عن السيطرة عليه، إلا إن كان فارق القوة كبيرا جدا، فيمكن حينئذ للسلطة إخماد الثورة ولكن بكثير من التكاليف أيضا.

(٣) ابن حزم، المحلى بالآثار، (بيروت: دار الفكر، د. ت)، ٦/ ٥١. وظاهرة الهجرة إلى العاصمة هي ظاهرة اجتماعية طبيعية، ولا تزال متكررة عند وقوع الأزمات الاقتصادية أو المجاعات أو نحو ذلك، وقد وقع ذلك في عهد عمر حين كثر الأعراب بالمدينة في عام الرمادة.

بن أبي طالب[1]. فذهب كلُّ قومٍ من هؤلاء إلى صاحبهم ليبايعوه أن يكون خليفة، وكلهم يأبى ويدفعها عن نفسه، فذهبوا إلى عبد الله بن عمر وألحّوا عليه حتى هددوه بالقتل[2]، فكان جوابه كجواب الجميع، كلهم يدفعها عن نفسه، لسببيْن: ما في الإمارة من التكاليف والأمانة الثقيلة، ولأن هؤلاء الذين جاءوا يبادرون ويبايعون إنما هم المجرمون الذين ارتكبوا جريمة عظمى لأول مرة في تاريخ الإسلام: قتل الخليفة!

وبدا هذا واضحا في ردّ علي بن أبي طالب عليهم، كما حكاه بنفسه: «لقد طاش عقلي يوم قُتِلَ عثمان وأنكرت نفسي، وجاؤوني للبيعة، فقلت: والله إني لأستحيي من الله أن أبايع قوما قتلوا رجلا قال له رسول الله ﷺ: «ألا أستحيي ممن تستحيي منه الملائكة». وإني لأستحيي من الله أن أُبَايَع وعثمان قتيل على الأرض لم يدفن بعد! فانصرفوا، فلما دُفِنَ رجع الناس فسألوني البيعة، فقلت: «اللهم إني مُشْفِقٌ مما أُقْدِم عليه»، ثم جائت عزيمةٌ فبايعت، فلقد قالوا: يا أمير المؤمنين، فكأنما صُدِعَ قلبي، وقلتُ: «اللهم خذ مني لعثمان حتى ترضى»[3].

وهكذا بدا أن ثمة معضلة في الشرعية، وأن وجود هؤلاء في مشهد البيعة يضرّ بها وبشرعيتها، فما هم بأهل حل ولا عقد، بل هم مجرمون قتلة منقلبون على الخليفة الشرعي، ولذلك أبى عليٌّ أن يبايعهم في بيته، وأمر بأن تكون البيعة في المسجد خروجا من هذا الوضع، يروي ابنه محمد بن الحنفية جانبا آخر من المشهد فيقول: « كنت مع علي، وعثمان محصور، قال: فأتاه رجل فقال: إن أمير المؤمنين مقتول، ثم جاء آخر فقال: إن أمير المؤمنين مقتول الساعة، قال: فقام علي، قال محمد: فأخذت بوسطه تخوفا عليه، فقال: خلِّ لا أمّ لك، قال: فأتى عليٌّ الدار، وقد قُتِلَ الرجل، فأتى داره فدخلها، وأغلق

---

(١) الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ٦٩٩.

(٢) أحمد بن حنبل، فضائل الصحابة، (١٧٠٢) بإسناد صحيح كما قال محققه وصي الله؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٤/ ١١٣ بإسناد صحيح، انظر: فقيهي، خلافة علي، ص٦٩ (الملحق).

(٣) الحاكم (٤٥٢٧)، وقال: على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

عليه بابه، فأتاه الناس فضـربوا عليه الباب، فدخلوا عليه فقالوا: إن هذا الرجل قد قُتِلَ، ولا بد للناس من خليفة، ولا نعلم أحدا أحق بها منك، فقال لهم علي: «لا تريدوني، فإني لكم وزيرٌ خيرٌ مني لكم أمير، فقالوا: لا والله ما نعلم أحدا أحق بها منك، قال: فإن أبيتم عليّ فإن بيعتي لا تكون سرا، [وفي رواية: ولا تكون إلا عن رضا المسلمين]، ولكن أخرج إلى المسجد فمن شاء أن يبايعني بايعني، قال: فخرج إلى المسجد فبايعه الناس»(١).

كان عليٌّ هو أفضـل من بقي من الصـحابة، ولهذا فقد كان جديرا بالمبادرة، إذ لا بد للناس من خليفة، ولقد مات من هو خيرٌ من عثمان -رسول الله ﷺ- فبادر من هو خيرٌ من علي -أبو بكر وعمر رضي الله عنهما- إلى تدبير شأن الخلافة ونصب الخليفة، ولهذا فإن موقف عليٍّ بتولي الخلافة هو الموقف الصحيح شرعا وعقلا.

وقد دلَّت على شرعية بيعته أمورٌ منها نصوصٌ نبوية، وكفى بها، فمن هذه الأمور:

- قول النبي ﷺ «الخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثم تكون مُلْكًا»(٢)، وقد كانت بيعة علي ضـمن هذه السـنين. ولو لم يكن غير هذا الحديث الصـحيح حجة لكفى به، فإنه صـريح الدلالة.

- قول النبي ﷺ: «إني رأيت كأن دلوا دُلِّيَ من السـماء فجاء أبو بكر فأخذ بعراقيها(٣) فشرب شربا ضعيفا، ثم جاء عمر فأخذ بعراقيها فشرب حتى تضلع(٤)، ثم جاء عثمان فأخذ

(١) أحمد بن حنبل، فضائل الصحابة، (٩٦٩) بإسناد صحيح كما قال محققه وصي الله؛ الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ٦٩٦، وانظر: البرزنجي، صحيح تاريخ الطبري، ٣/ ٣٧١.

(٢) أحمد (٢١٩٧٨)؛ الترمذي (٢٢٢٦) وحسنه؛ النسائي (٨١٥٥)، وحسنه شعيب الأرناؤوط وصححه الألباني.

(٣) العراقي: أعوادٌ يخالَف بينها، ثم تُشَدُّ في عُرَى الدَّلو ويُعَلَّقُ بها الحبل.

(٤) تضلَّع: شرب كثيرا، والتضلُّع هو كثرة الشرب حتى تئن الضلوع منه.. والمعنى هنا: طول فترة الخلافة.

بعراقيها فشرب حتى تضلع، ثم جاء علي فأخذ بعراقيها فانتشطت[١] وانتَضَحَ عليه[٢] منها شيء»[٣].

- حديث أبي سعيد الخدري: كنا جلوسا ننتظر رسول الله ﷺ فخرج علينا من بعض بيوت نسائه، قال: فقمنا معه، فانقطعت نعله، فتخلف عليها عليٌّ يخصفها، فمضى رسول الله ﷺ ومضينا معه، ثم قام ينتظره وقمنا معه. فقال: «إن منكم من يقاتل على تأويل هذا القرآن كما قاتلت على تنزيله»، فاستشرفنا وفينا أبو بكر وعمر. فقال: لا ولكنه خاصف النعل. قال: فجئنا نبشره. قال: وكأنه قد سمعه[٤].

- سائر النصوص التي تفيد أنه على الحق في الخلاف الذي نشأ بينه وبين غيره من الصحابة، وسنأتي لها فيما بعد، لكن القصد هنا أن شهادة النبي له بأنه على الحق وأنه أولى الفئتيْن بالحق، هي دليل على شرعية بيعته.

- إجماع الصحابة على ذلك، إذ لم ينازعه أحدٌ الخلافة، وإنما غاية ما كان أن امتنع البعض عن بيعته، ولا يضرُّ امتناع البعضِ انعقادَ الخلافة شرعا. بل إن الذين خالفوه وقاتلوه لم يكونوا ينازعونه الخلافة، وقد ورد عن معاوية قوله: «ما قاتلتُ عليًّا إلا في أمر عثمان»[٥].

- و صية الصحابة باتباعه ولزومه حين سُئلوا عن الخليفة بعد عثمان، كما ثبت ذلك

---

(١) انتشطت: أي اضطربت. وفيه إشارة إلى الفتن والاضطرابات التي كانت في خلافة علي.

(٢) انتضح عليه: أي أصابه من مائها شيء. وفيه إشارة إلى قصر فترة الخلافة.

(٣) أحمد (٢٠٢٥٥) وأبو داود (٤٦٣٧)، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٤) أحمد (١١٧٩٠)، وابن حبان (٦٩٣٧)، وصححه شعيب الأرناؤوط، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٤٨٧).

(٥) ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٠٥٥٢)؛ بإسناد حسنه فقيهي وتابعه العمري، وقال الشمري: صحيح بشواهده. انظر: فقيهي، خلافة علي، ص٢٣٥ (الملحق)؛ العمري، عصر الخلافة الراشدة، ص٤٦٤؛ فواز بن فرحان الشمري، صحيح أخبار صفين والنهروان وعام الجماعة، (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠١٩م)، ٢/ ٥٧٩.

عن طلحة والزبير وعائشـــة، فضـــلا عمن بايعوه واتبعوه وقاتلوا معه، وثبوت بيعة أهل الحرمين له، وهم موطن أهل الحل والعقد في الأمة ذلك الزمن.

- شيوع العلم بين بأن عليًّا هو الخليفة بعد عثمان في زمنه دونما نكير، فعن حارثة بن مضرب قال: حججتُ مع عمر فكان الحادي يحدو: إن الأمير بعده عثمان، وحججتُ مع عثمان فكان الحاديث يحدو أن الأمير بعده علي(١).

- وجاء عن حذيفة بن اليمان، وهو أعلم الناس بالفتن لاهتمامه بها، أنه قال: «كيف أنتم وقد خرج أهل بيت نبيكم فرقتين يضرب بعضكم وجوه بعض بالسيف؟» فسُئل: يا أبا عبد الله فكيف نصـــنع إذا أدركنا ذلك؟ قال: «انظروا إلى الفرقة التي تدعو إلى أمر علي بن أبي طالب، فإنها على الهدى»(٢).

وشـــرعية البيعة لعلي وانعقاد الإمامة الشـــرعية له مما انعقد عليه قول أهل الســـنة والجماعة، ونطق به أئمتهم، وصنفوا في ذلك كتبا وتصانيف عديدة، فمن أقوالهم:

- قول الحســـن البصـــري: «قُتِل أمير المؤمنين عثمـان، فعمـد النـاس إلى خيرهم فبايعوه»(٣).

- قيل للإمام أحمد: «إن قوما يقولون إنه ليس بخليفة. قال: هذا قول ســـوء رديء؛ أصحاب رسول الله ﷺ يقولون له «يا أمير المؤمنين» أفنكذبهم؟! وقد حج بالناس، وقطع ورجم، فيكون هذا إلا خليفة؟!»(٤).

(١) البغوي، معجم الصحابة، ٤/ ٣٣١، بإسناد صحيح، انظر: ابن حجر، فتح الباري، ١٣/ ١٩٨.

(٢) البزار، مسند البزار، (٢٨١٠)، بإسناد جيد. انظر: ابن حجر، فتح الباري، ١٣/ ٥٥.

(٣) أحمد بن حنبل، فضائل الصحابة، (٩٧٦)، بإسناد صحيح كما قال محققه وصي الله.

(٤) عبد الله بن أحمد بن حنبل، السنة، تحقيق: محمد بن سعيد القحطاني، ط١ (الدمام: دار ابن القيم، ١٩٨٦م)، (١٣٤٥).

- وقال أبو الحسن الأشعري: «تثبت إمامة علي رضي الله عنه بعد عثمان رضي الله عنه لعقد من عقدها له من الصحابة رضي الله عنهم من أهل الحل والعقد، ولأنه لم يدَّعها أحدٌ من أهل الشورى غيره في وقته، وقد اجْتُمِع على فضله وعدله»[١].

- وقال ابن العربي: «ولم يكن بعد الثلاثة كالرابع قدرًا وعلمًا وتقىً ودينًا»[٢]. يقصد بالثلاثة: أبا بكر وعمر وعثمان، وبالرابع عليا رضي الله عن الجميع.

- وقال ابن تيمية: «لم يتردد أحمد (بن حنبل) ولا أحد من أئمة السنة في أنه: ليس غير علي أولى بالحق منه، ولا شكُّوا في ذلك»[٣].

- وقال ابن حجر الهيتمي: «وجه انعقاده في زمن الشورى على أنها له أو لعثمان، وهذا إجماعٌ على أنه لولا عثمان لكانت لعلي، فحين خرج عثمان بقتله من البيت، عُلِم أنها بقيت لعلي **إجماعًا**، ومن ثم قال إمام الحرمين: ولا اكتراث من قال: لا إجماع على إمامة علي. فإن الإمامة لم تُجْحَد له، وإنما هاجت الفتنة لأمور أخرى»[٤].

## تسلسل الأحداث المفضية إلى الحروب

مع أن موقف عليٍّ من المبادرة إلى الخلافة هو الصحيح شرعا وعقلا، ومع أن جمهور الصحابة والتابعين بايعوه في المدينة، إلا أن ظروف الاختلاف وأجواء الفتنة ومقتل عثمان

---

(١) الأشعري، الإبانة عن أصول الديانة، تحقيق: د. فوقية حسين محمود، ط١ (القاهرة: دار الأنصار، ١٣٩٧م)، ص٢٥٨.

(٢) ابن العربي، العواصم من القواصم، ص١٤٦.

(٣) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الرحمن بن قاسم، (المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف، ١٩٩٥م)، ٤/ ٤٣٨.

(٤) ابن حجر الهيتمي، الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة، تحقيق: عبد الرحمن التركي وكامل الخراط، ط١ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٧م)، ١/ ٣٤٩.

وما أثاره هذا في النفوس، أسـفر عن كثير من المعضـلات، كل معضـلة منها جرَّت إلى أخرى، مثلها أو أشد، وأدى الجميع إلى هذا التسلسل في الأحداث:

## (١) مشهد ملتبس!

بَدَتْ بيعةُ عليٍّ وكأنها انتصـار للمتمردين قتلة عثمان، فقد قتلوا الخليفة، ونصـبوا من رغبوا فيه خليفةً. ذلك أن بعضـهم كان في طليعة الذين بايعوا عليا كالأشـتر النخغي[١]. بل ويمكن لمن ينظر للأمر من بعيد أو لمن ينسى فضل عليٍّ ومكانته أن يفسِّر ما حدث، وما سيحدث بعدها من سياسة علي، باعتباره انقلابا ناجحا قاده عليٌّ على عثمان.

وقد وجد الوضَّاعون والكذّابون وأهل الشائعات من الرواة والقصاصين مجالا واسعا للكذب في الروايات التي ثَبَّتوا بها هذه التهمة، فقد حفلت العديد من الروايات السَّـاقطة بألفاظ تدلّ على تدبير عليٍّ على عثمان، أو رضـاه بذلك، وذكرت روايات أخرى اتهام عثمان لعليّ بأنه يحرِّض عليه وأنه يملك أن يمنع هذا التمرد ولا يمنعه، وكلُّ هذا مما انتشـر في الكتب وبين الناس، حتى قال ابن سـيرين: «ما علمتُ أن عليًّا اتُّهم في قتل عثمان حتى بويع، فلما بويع اتهمه الناس»[٢].

ولقد اضـطر عليٌّ أن ينفي هذه التهمة عن نفسـه مرارًا، وهو دليل على انتشار التهمة في زمنه وفيما بعد ذلك الزمن، قال عليٌّ:

---

(١) ابن حجر، فتح الباري، ١٣/ ٥٤، بسند صحيح أو حسن.

(٢) ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٠٧١٠)، ورجاله ثقات، ولا يضرّه هنا أن ابن سيرين كان صغيرا لا يروي عن علي كما ذهب إلى ذلك من حققوا المصنف فأعلوه بالإرسال، فابن سيرين هنا لا يروي واقعة، وإنما يذكر علما علمه، وهو قريب العهد. ويشهد لصحة المتن الروايات الكثيرة الواردة عن علي في دفع التهمة عن نفسه.

- «والله ما شاركت وما قتلت ولا أمرت ولا رضيت، يعني قتل عثمان»[1].

- «كنتُ لقتله لكارهـًا»[2].

- «اللهم إني أبرأ إليك من دمه، أن أكون قتلت أو مالأت على قتله»، وفي لفظ آخر: «أبرأ إليك من أمر عثمان»[3].

- «إن شـــاء الناس [وفي رواية: بني أمية] قمت لهم خلف مقام إبراهيم، فحلفت لهم بالله ما قتلتُ عثمان ولا أمرتُ بقتله، ولقد نهيتُهم فعصوني»[4].

- «والله لوددتُ أن بني أمية رضوا، لنفلناهم خمسين رجلا[5] من بني هاشم، يحلفون ما قتلنا عثمان، ولا نعلم له قاتلا»[6].

- «ألا إن النـاس يزعمون أني قتلـت عثمـان ولا والله الـذي لا إلا هو مـا قتلـت ولا مالأت»[7].

(١) ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٧٦٧٣)، بإسناد صحيح، انظر: المصنف، ط أسامة بن إبراهيم (١٣/ ٣٧٢)؛ المصنف ط الشثري (٢١/ ٤١٥).

(٢) ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٧٦٧٢)، بإسناد صحيح، انظر: المصنف، تحقيق: الشيخ محمد عوامة (٢٠٠٦: ٢١/ ٣٠٣)؛ المصنف ط أسامة بن إبراهيم (١٣/ ٣٧٢)؛ المصنف ط الشثري (٢١/ ٤١٤).

(٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣/ ٥٠، ٦٠.

(٤) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٣٩/ ٥٤١.

(٥) نفلناهم: أي حلفنا لهم.

(٦) سعيد بن منصور، سنن سعيد بن منصور، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، ط١ (بومباي – الهند: الدار السلفية، ١٩٨٢م)، (٢٩٤٢)؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٣٩/ ٥٤١؛ بإسناد صحيح كما قال العمري، عصر الخلافة الراشدة، ص٤٤٤.

(٧) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٣٩/ ٤٥٣.

- «فما ذنبي إن كان الناس قتلوه؟!»[١].

وقد سبق أن ذكرنا رواية عودة المتمردين على عثمان، في قصة الرسالة المُزَوَّرة، وفيها أنهم قدموا إلى علي فقالوا: «فَقُمْ معنا إليه. قال: والله لا أقوم معكم. قالوا: فَلِمَ كتبت إلينا؟ قال: والله ما كتبت إليكم كتابا! فنظر بعضـهم إلى بعض، ثم قال بعضـهم لبعض: ألهذا تقاتلون أم لهذا تغضـبون؟»[٢]. ففي كلامهم هذا دليلٌ على ما يروج بينهم من أن عليا مضـطهد مظلوم وأنهم يقومون للدفاع عنه! فاسـتغربوا أن ينفي عن نفسـه كتابة كتاب أو إعانتهم في الخروج على عثمان!!

بل إن محمد بن الحنفية، وهو ابن علي بن أبي طالب، نفى أن يكون عليٌّ سـبَّ عثمان أبدا، أو ذكره بسوء، وذلك أن بعض الناس كانوا في مجلسه، «فنال بعض القوم من عثمان، فقال: مَهْ، فقلنا له: كان أبوك يسبّ عثمان، قال: ما سبَّه، ولو سبَّه يوما لسبَّه يوم جئتُه وجاءه السُّـعاة...»[٣]، فذلك دليل على أن دعوى سـب عليٍّ لعثمان كانت شـائعة رائجة في ذلك

---

(١) ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٧٣٧١)، بإسناد صحيح، انظر: ط المصنف بتحقيق أسامة بن إبراهيم (١٣/ ٢٩٦)؛ ط المصنف بتحقيق سعد الشثري (٢١/ ٢٨٦)؛ فقيهي، خلافة علي، ص٨٠ (الملحق)؛ الشمري، صحيح أخبار صفين، ١/ ١٧٧.

(٢) أحمد بن حنبل، فضائل الصحابة، (٧٦٥)؛ ابن شبة، تاريخ المدينة، ٤/ ١١٤٩، انظر: الغبان، فتنة مقتل عثمان، ١/ ٣٣٠ وما بعدها؛ العمري، عصر الخلافة الراشدة، ٤٢١، ٤٢٢.

(٣) البخاري (٢٩٤٤)، وهذا لفظ ابن أبي شيبة (٣٧٧٠٧)، اخترت أن أذكره لكونه أوضح. وخلاصة القصة أن بعض الناس شكوا عثمان إلى علي، فكتبوا له رسالة، فأرسل عليٌّ ابنه محمد بن الحنفية بهذه الرسالة إلى عثمان، فأبى عثمان أن يأخذ الرسالة، فعاد بها محمد إلى أبيه علي، فقال علي: ضعها مكانها. أي ولم يذكره بسوء. وهو الموقف الذي يقول ابن الحنفية أن عليا كان غاضبا فيه من عثمان، فلو أنه ذكره بسوء أو سبَّه لفعل ذلك في هذا الموقف.

وأما السؤال الذي يدور هنا هو: لماذا أبى عثمان أن ينظر في الشكاية؟ والجواب أنه يحتمل أن يكون على علم بها، أو يحتمل أن يكون ذلك منه في لحظة شغل أو في لحظة غضب، وقد جاء موقف شبيه بهذا عند البخاري (٣٤٩٣) في رواية عبيد الله بن عدي بن الخيار حين ذهب ينصح عثمان في إقامة الحد على الوليد بن عقبة، فقال له عثمان: أعوذ بالله منك، فانصرف عبيد الله، ثم أرسل إليه عثمان فيما بعد يستفسر عما أراد أن ينصح به! ففي هذه الرواية يظهر أن عثمان ربما ردَّ صاحبَ شكوى أو نصحٍ في وقتِ غضبِه أو شغله، ثم يعود فينظر فيها!

الوقت!

وهذه الدعاوى والأكاذيب راجت كذلك عن أم المؤمنين عائشة وعن طلحة وعن الزبير وعن غيرهم من الصحابة كعمار بن ياسر وأبي ذر وعبد الرحمن بن عوف، ولكن سياق الأحداث فيما بعد جعلت التهمة تتركز على عليٍّ، وجعلته أكثر الناس احتياجا لنفيها عن نفسه!

والخلاصة المقصودة أن تولي عليٍّ للخلافة في هذه الأجواء المشتعلة بالعاطفة والغضب، جعلت الأمر يبدو وكأنه انتصار لقتلة عثمان، وكأنما صار بيدهم أن يقتلوا خليفة وينصبوا خليفة!

## (٢) مشهدٌ متكدر

لقد بايعَ جمهور الصحابة والتابعين عليًّا بالمدينة، ولكن في ظل هذه الظروف المحيطة بالبيعة وقعت أمورٌ كَدَّرت مشهد البيعة، وكانت مدخلًا لإثارة الغبار حول صحتها وشرعيتها، منها:

أ. **الإتيان بطلحة والزبير قسرا للبيعة،** فقد قَصَدَ أولئك القتلة المتمردون إلى طلحة والزبير، باعتبارهما أكبر من بقي من الصحابة ومن أهل الشورى، فإذا بايعا تمَّ الأمر لعلي وانتهى من يمكن أن ينافسه في الخلافة، وينتهي بذلك من يمكن أن يعارض بيعته، فقد ثبت بأكثر من رواية صحيحة أنهما بايعا مُكْرهيْن، وأنهما خُيِّرا بين البيعة وبين القتل فبايعا[1].

(١) ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٠٥٩٩)، بإسناد صحيح، انظر: ابن أبي شيبة، المصنف، ط أسامة بن إبراهيم، ١٠/ ١٦٠؛ ابن أبي شيبة، المصنف، ط الشثري، ١٧/ ١٢٣؛ ابن حجر، فتح الباري، ١٣/ ٥٤؛ أكرم العمري، عصر الخلافة الراشدة، ص٤٤٠؛ البرزنجي، صحيح تاريخ الطبري، ٣/ ٣٧٤. وثمة رواية أخرى عند الطبري (٣/ ٣٠)، عن الزبير وطلحة أول قدومهما البصرة، حين سُئلا: «أفلم تبايعوا عليا وتدخلوا في أمره» فقالا: «دخلنا واللُّج –السيف– على

وجاء في روايات أخرى، صححها البعض، ما يشير إلى البيعة طوعا، كرواية الحسن البصري أنه قال: «رأيت الزبير بايع عليًّا في حش [أي: بستان] من أحشاش المدينة»[1]، كذلك صحح الحافظ ابن حجر رواية عن الأشتر النخعي أنه قال: «رأيتُ طلحة والزبير بايعا عليًّا طائعيْن غير مكرهيْن»[2]، ولكن الأشتر نفسه مُتَّهَم، فالطريق إليه صحيحة[3] ولكن قوله ليس بمصدَّق[4].

---

أعناقنا». وأشار فقيهي والعمري إلى أن الإسناد حسن (انظر: خلافة علي، ص١١٦؛ عصر الخلافة الراشدة، ص٤٥٠). والإسناد رجاله ثقات، كلهم يروي عن بعض، وينتهي بشاهد عيان ثقة، فأقلُّ أحوالِ السندِ أن يكون حسنا. وإنما ضعَّفها البرزنجي وغيره لأنه يرى أن البيعة بالإكراه لا تليق بعدالة الصحابة ولا يمكن أن يقبلها عليّ، ولا يُسَلَّم للبرزنجي بهذا، وهذا ليس أسلوبا سديدا في تضعيف الروايات إذا صحت أسانيدها.

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، ٢/ ٢١٦، ومال البرزنجي إلى تصحيح المتن مع إقراره بضعف السند، لشواهد أخرى عند ابن أبي شيبة، صحيح تاريخ الطبري، ٣/ ٣٧٢؛ وقال ابن المديني عن هذه الرواية وقال «ليس من صحيح حديث هشيم»، انظر: فقيهي، خلافة علي، ص٧٤ (الملحق).

(٢) ابن حجر، فتح الباري، ١٣/ ٥٤، وينظر أيضا: ١٣/ ٥٧، ٥٨. وأصل الخبر عند الطبري، ٣/ ٤٧؛ ولتصحيح ابن حجر وضعه البرزنجي في: صحيح تاريخ الطبري، ٣/ ٣٨٣.

(٣) رجال السند ثقات، لكن فيه عنعنة من مدلسين، انظر: فقيهي، خلافة علي، ص٧٧، ٧٨ (الملحق)؛ وينظر: ابن أبي شيبة، ط أسامة بن إبراهيم، ١٣/ ٣٨٧.

(٤) هنا يحتاج الأمر وقفة عند شخصية الأشتر ومواقفه، وذلك أنه صاحب رواية أن الزبير وطلحة بايعا عليا طائعيْن غير مكرهين، والطريق إليه صحيحة كما ذكرنا:

الأشتر مالك بن الحارث النخعي، هو أحد أبطال الفتنة وإشعال التمرد على عثمان، منذ كان بالكوفة، وهو الذي هيَّج أهلها على الوليد بن عقبة ثم على سعيد بن العاص، وقد بقي في المدينة بعد رجوع الوفود راضية من عند عثمان، وبقاؤه موضع ريبة كأنما كان ينتظر رجوعهم، هذا إن لم يكن طرفا في إرسال الرسول المشبوه الذي حمل الرسالة المزورة فأرجعهم غاضبين، ومع أن له مواقف ظهر فيها كالمتعاطف مع عثمان كقوله «لعله مُكِر به وبكم»، لكنها تبدو من الخديعة، إذ هو نفسه من رؤوس المحاصرين لعثمان، وهو نفسه الذي منع توصيل الماء لعثمان حتى ضرب بغلة أم المؤمنين حبيبة فكادت تسقط من عليها. وثمة رواية تَنْسِب إليه هو أنه الذي هدَّد طلحة والزبير، وهي عند الطبري (تاريخ الطبري ٢/ ٦٩٧)، وهي صحيحة إلى الزهري ثم هي من مراسيله، ومراسيل الزهري ضعيفة.

ويرى البعض –ومنهم د. فواز الشمري– أن الأشتر تغير حاله في أثناء الحصار وأنه تاب وندم ورجع عن موقفه الأول، ويستدل على ذلك بأمور، منها:

١. رواية «لعله مُكر به وبكم» وهي صحيحة كما أسلفنا

٢. رواية أنه سمع يمين عائشة أنها لم تكتب شيئا في التحريض على عثمان. وهذه الرواية يصححها الشمري مع أن فيها مجهولا –وهي: أم الحجاج الجدلية الراوية عن عائشة– بقرينة الرواية الأخرى التي أخرجها ابن سعد بإسناد صحيح في الطبقات والتي أوردناها. والأمر يحتمل الأخذ والرد، لكن رواية أم الحجاج فيها أن يمين عائشة كان في أثناء حصار عثمان، بينما الأخرى فيها التصريح بأن ذلك كان بعد مقتل عثمان. فحاصل الأمر أن ثبوت تغير موقف الأشتر في أثناء حصار عثمان –الذي هو موضع البحث الآن– لم يرد إلا من طريق ضعيفة.

٣. رواية ابن أبي شيبة (المصنف، ٣٧٧٠٩) وابن شبة (تاريخ المدينة، ٤/ ١٣١٣) أن الأشتر كان كارها ليوم الدار (مقتل عثمان)، وأنه حاول تنفيذ عملية إنقاذ لعثمان، تدخل فيه أم المؤمنين أم حبيبة (رملة بنت أبي سفيان) إلى بيت عثمان في هودجها، ثم يُخرجون عثمان في الهودج وتبقى أم حبيبة في البيت، فيذهب عثمان إلى الشام أو إلى مكة حيث لا تطاله يد المحاصرين، غير أن أولئك المحاصرون اكتشفوا نية الأشتر فمنعوه. وهذه الرواية يصححها الشمري، ويصححها الشثري أيضا (المصنف ط الشثري ٢١/ ٤٤٣)، ويضعفها أسامة بن إبراهيم (المصنف ط أسامة ١٣/ ٣٨٧) وعبد الحميد فقيهي (فقيهي، خلافة علي، ص٧٧، ٧٨ – الملحق)، لعنعنة المغيرة بن مِقْسَم عن إبراهيم بن يزيد النخعي. ولم أر في المصححين من أجاب على علة التدليس هذه.

٤. رواية البخاري في التاريخ الأوسط (تحقيق: محمود إبراهيم زايد، ط١ دار الوعي ومكتبة التراث، ١٩٧٧م، ١/ ٨٨) أن الأشتر قال لمسروق بن الأجدع: «ما رأيت مثل شيء صنعناه ولا يوم عجل بني إسرائيل».

وثمة روايات أخرى أقل صراحة في موضع الشاهد هنا، منها: محاولته استرضاء عائشة بعد موقعة الجمل.

والأشتر ثقة في رواية الحديث، فليس متهما بالكذب، وقد وثَّقَه غير واحد من أهل العلم مثل العجلي وابن حبان والنسائي وغيرهم.

وخلاصة الأمر أن الأشتر بن مالك قد ورد عنه بطرق صحيحة أنه رأى طلحة والزبير بايعا طائعيْن غير مكرهيْن، وأنهما نكثا البيعة حين حركا جيشا وذهبا إلى البصرة مع عائشة، وأن هذا النكث هو مبرر لقتالهم. ولذلك اختلف رأي المعاصرين فيه وفي المسألة: فمن قالوا بأن طلحة والزبير بايعا طائعيْن غير مكرهيْن وجدوا مستندهم في رواية الأشتر، ثم هم يردُّون قوله بأنهما –أي: طلحة والزبير– قد نكثا لكون هذا رأي منه وليس رواية. ويَحْتَمِل الأمرُ أن يكون الأشتر قد شاهد بيعتهما فظنَّهما بايعا غير مكرهيْن لكون الإكراه قد وقع خارج المسجد أو خارج البستان كما يغلب على الظن.

على أن الذي أراه، والذي تطمئن إليه نفسي بعد مطالعة الروايات ومقارنتها، وأمور ليس المقام هنا للتفصيل فيها، أن الأشتر إنما يُعامَل في الرواية معاملة المبتدع الذي لا تقبل منه الرواية فيما يؤيد بدعته، وأن توثيقه ليس بالقوي، وأنه يصعب قبول نصف كلامه (البيعة من طلحة والزبير طوعا) ثم ردّ نصفه الآخر في كونهما نكثا. والأولى بمقام الصحابييْن الكبيريْن طلحة والزبير أن يكونا قد كَرِها وأكرها على البيعة في هذا الظرف ثم رأيا أنه يحل لهما السعي

والروايات التي تفيد بأنهما أُكْرِها على البيعة أقوى وأصـح إسـنادا، وحتى إذا اعتمدنا تصحيح البعض لروايات البيعة بغير إكراه، فإن التأمل فيها يشير إلى أن عليًّا لم يعرف ولم يطلع على ما كان من الإكراه فيها، فإن ذلك الإكراه جرى خارج المسـجد أو خارج البسـتان، إذ أُتِي بهما من بيوتهما على هذا النحو، فلم يظنّ عليٌّ أنهما بايعا كُرْها؛ يدل على ذلك قول الزبير في رواية ابن أبي شيبة: «إني أُدْخِلتُ الحُش، ووُضِع على عنقي اللُّج[1]»[2].

وبعد التأمل في الروايات، ومحاولة تكوين الصورة، نذهب إلى القول بأن طلحة والزبير لم يشـكَّا في أحقية علي بالخلافة، ولم يكونا يرضـيان بغيره، بل ونصـحا بالبيعة له، إلا أن ظروفَ بيعتِهِ وأجواءَها، وتَصَـدُّرَ القتلةِ المتمردين لها هي ما جعلتهما يكرهان أن يبايعا، فهي كراهةٌ للإجراء لا للمبدأ، كراهةٌ لما احتفّ بأمر البيعة نفسها لا لصاحبها. ولكن عليًّا، مع مرور الأيـام، عرف بحكمته وفطنته، وبما كـان من كلامهما معـه، كراهَتَهما لهذه الأوضـاع، فلذلك حين اسـتأذناه للخروج إلى مكة للعمرة، أخذ عليهما العهود والمواثيق ألا يُحَرِّكا الأمور. على هذه الهيئة تنسجم الروايات الصحيحة، والله أعلم[3]!

---

في الإصلاح وفي تحريك الجيش، من أن يكونا قد بايعا بالرضا ثم نكثا كما هو صريح كلام الأشتر. فإن صريح كلامه يدينهما، ولا ينبغي أن يقبل الكلام الذي فيه هذه الإدانة الصريحة سعيا لتصحيح شرعية بيعة علي التي تصح ولو لم يبايع طلحة والزبير أصلا!

ويبقى الأمر محتاجا إلى مجهود بحثي، شرط أن يقوم به الباحث وهو خالٍ من الضغط والتأثر الذي يثيره الشيعة أو النواصب، ولعل الله يوفق إلى ذلك من هو جدير به.

(١) اللُّج: هو السيف.

(٢) ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٧٧٧٥) بإسناد صحيح، انظر: المصنف، ط أسامة بن إبراهيم (١٣/ ٤١٢)؛ المصنف، ط الشثري (٢١/ ٤٨٤)؛ فقيهي، خلافة علي، ص٧١ وما بعدها (الملحق).

(٣) في الواقع يحتاج تحليل الروايات في هذه المسألة إلى بحث مستقل لا يتسع له المقام، يستخرج من بين ركام الروايات الكثيرة التي اختلط فيها الصحيح بالضعيف صورةً تُوَفِّق بين الروايات الصحيحة، فمن الخطأ ما يذهب إليه البعض من ردِّ رواية أنهما بايعا مُكْرَهَيْن بإطلاق كما فعل العديد من الباحثين، إذ هي صحيحة السند، بل هي أصح من الروايات التي تقول بأنهما بايعا بالرضا، ثم إنها تنسجم مع ما جرى بعد ذلك من أحداث الفتنة! فقد رأيت البعض

**ب. امتناع بعض الصحابة عن بيعة علي** ليس اعتراضًا عليه، ولكن لما ألمَّ بالمدينة من أجواء الفتنة، ولما انتشر في الأمة من اضطراب وانقسام، ومن هؤلاء: عبد الله بن عمر الذي أراد عليٌّ أن يجعله أميرًا على الشام لحبهم إياه ولكن ابن عمر امتنع عن البيعة وأصر على امتناعه[1].

ومنهم الذين اعتزلوا القتال مع علي في حروبه التالية، وهؤلاء لم يُنقل من الروايات على وجه الدقة موقفهم من البيعة، ولهذا ذهب البعض[2] إلى أن اعتزالهم الأحداث دليل على أنهم لم يبايعوا، بينما ذهب آخرون[3] إلى أن هؤلاء الصحابة إنما اعتزلوا القتال بعد أن بايعوا لحيرتهم في الأمر أو لتورعهم عن قتال المسلمين، ومن هؤلاء: أسامة بن زيد الذي صح عنه أنه أرسل لعلي يقول: «لو كنت في شدق الأسد لأحببت أن أكون معك فيه ولكن هذا أمر لم أره»[4]، ومحمد بن مسلمة الذي قال: «أوصاني خليلي أبو القاسم ﷺ إن

---

يردُّ رواية الإكراه جملة، ويقول: لم يصح منها شيء، كما فعل د. علي الصلابي في كتاب «علي بن أبي طالب»، ود. قمر الزمان غزال في كتاب «الفقه السياسي عند الإمام علي بن أبي طالب»، كما رأيت البعض يجتهد في ردِّها بكلام عام لا يشفي، مثلما فعل د. محمد بن طاهر البرزنجي في «صحيح وضعيف تاريخ الطبري»، ود. محمد أمحزون في «تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة». ومع التقدير للدافع النبيل الذي حملهم على ذلك، وهو إثبات شرعية بيعة علي وصحتها والرد على من يطعن فيها، إلا أن الأمر لا يحتاج إلى هذا، فحتى لو ثبت أن طلحة والزبير لم يبايعا أصلا، فليس هذا بمطعن في شرعية بيعة علي. وهذا الرأي الذي انتهينا إليه وأثبتناه في المتن هو خلاصة ما وصلنا إليه من البحث، والله أعلم.

(١) ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٠٦٧١)، بإسناد صحيح، انظر: ط المصنف بتحقيق أسامة بن إبراهيم (١٠/ ١٧٩)؛ ط المصنف بتحقيق سعد الشثري (١٧/ ١٥٣)؛ فقيهي، خلافة علي، ص٨٤ (الملحق)؛ أكرم العمري، عصر الخلافة الراشدة، ص٤٤١.

(٢) أكرم العمري، عصر الخلافة الراشدة، ص٤٤١.

(٣) الباقلاني، تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، تحقيق: عماد الدين حيدر، ط١ (بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، ١٩٨٧م)، ص٥٥٣، ٥٥٤؛ ابن العربي، العواصم من القواصم، ص١٥٠.

(٤) البخاري (٦٦٩٣).

أدركت شـيئا من هذه الفتن فاعمد إلى أُحُدٍ فاكسـر به حد سـيفك»[1]، ومثله أهبان بن صيفي[2]، وغيرهم.

وحتى بعض الصحابة الذين بايعوا عليًّا كان في نفوسهم بعض الكراهة لأن يكون عليٌّ هو الخليفة في هذا الظرف، أو أن يبطئ علي في الاستجابة للبيعة، وذلك أن عليًّا كان هو مطلب المتمردين على عثمان، فثمة شبهة وغبار وأقاويل تحيط به في ذلك، من هؤلاء الصحابة ابن عباس الذي قال: «لما وُثِب على عثمان فقُتِل، قلت لابن أبي طالب: اجتنب هذا الأمر، فستُكْفاه، فعصاني، وما أراه يظفر»، وفي رواية: «اعتزل، فلو كنتَ في جُحْرٍ طُلِبْتَ حتى تُسْتَخْرَج»[3]، وقد بيَّنت رواية أخرى أن ذلك الرأي من ابن عباس إنما كان لأن عليًّا لن يقدر على الأخذ بالقصاص من قتلة عثمان، فليس من الحكمة أن يتولى هذا الأمر فيكون مسؤولا عن القصاص ويكون مُطالبًا بما لن يقدر عليه بنو أمية أنفسهم، قال ابن عباس: «كان الرأي أن تخرج حين قتل الرجل، أو قبل ذلك، فتأتي مكة، فتدخل دارك وتغلق عليك بابك، فإن كانت العرب جائلة مضطربة في أثرك لا تجد غيرك! فأما اليوم فإن في بني أمية من يستحسنون الطلب بأن يلزموك شعبةً من هذا الأمر، ويُشَبِّهون على الناس، ويطلبون مثل ما طلب أهل المدينة، ولا تَقْدِر على ما يريدون، ولا يقدرون عليه، ولو صارت الأمور إليهم حتى يصيروا في ذلك أَمْوَتَ لحقوقهم وأَتْرَكَ لها، إلا ما يعجلون من الشبهة»[4].

---

(١) أحمد (١٨٠١١) وحسنه شعيب الأرناؤوط، والألباني، السلسلة الصحيحة، ٣/ ٣٦٩، تحت الحديث (١٣٨١).

(٢) أحمد (٢٧٢٤٤) وقال شعيب الأرناؤوط: حسن بطرقه وشواهده، وصححه الألباني، السلسلة الصحيحة، (١٣٨٠).

(٣) معمر بن راشد، الجامع (ملحق بمصنف عبد الرزاق)، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، ط٢ (باكستان – بيروت: المجلس العلمي – المكتب الإسلامي، ١٤٠٣هـ)، (٢٠٩٦٩)؛ الطبراني، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط٢ (الموصل: مكتبة العلوم، ١٩٨٣م)، (١٠٦٣٥)، والإسناد صحيح. انظر: الشمري، صحيح أخبار صفين، ١/ ١١١.

(٤) الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ٧٠٣، من رواية سيف بن عمر.

وذات هذه النصيحة قال بها الحسن بن علي أيضا، فقد صحَّ عنه قولُه لأبيه «أمرتُك حين حَصَر الناسُ هذا الرجل أن تأتي مكة فتقيم بها فعصيْتَني، ثم أمرتُك حين قُتِل أن تلزم بيتك حتى ترجع إلى العرب غواربُ أحلامها[١]، فلو كنتَ في جُحْر ضبٍّ لضربوا إليك آباط الإبل حتى يستخرجوك من جُحْرك فعصيتني»[٢].

وهاتان النصيحتان، وهما من أحرص الناس على عليٍّ، ابنه وابن عمه، دليلٌ على ما أحاط بالموقف من أجواء ضاغطة وشديدة، ودليلٌ على حساسية موقف عليٍّ على وجه الخصوص في تلك الأحداث[٣].

وفي ذات الاتجاه نَصَحَ المغيرة بن شعبة، وهو معدودٌ من دهاة العرب، باحتواء رجال عثمان وتسكين الأمور معهم، فقال له: «إن لك حق الطاعة والنصيحة... أَقْرِر معاوية على عمله، وأَقْرِر ابن عامر على عمله، وأقرر العمال على أعمالهم، حتى إذا أتتك طاعتهم وبيعة الجنود استبدلت أو تركت»[٤]. ولكن عليًّا قدَّر أن احتواء المتمردين على عثمان أولى أو أنه أيسر.

**جـ. امتناع بعض الأمصار عن بيعة علي**، ومن أهمها الشام التي أميرها معاوية بن أبي سفيان، وكان معاوية أقوى رجال بني أمية عصبة عثمان بن عفان، وقد كان جيشه قد خرج من الشام لنصرة عثمان حتى بلغهم في الطريق أنه قُتِل، فعاد الجيش وهو يضطرم بنار الثأر على مقتل عثمان، وفي ذلك الزمن الذي لم تكن تنتقل فيه الأخبار إلا بعد أيام وأشهر، لم

---

(١) غوارب أحلامها: أي عقولها التي طاشت.

(٢) ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٧٣٧١)، بإسناد صحيح، انظر: المصنف ط أسامة بن إبراهيم، (١٣/ ٢٩٦)؛ المصنف ط الشثري، (٢١/ ٢٨٦)؛ فقيهي، خلافة علي، ص٨٠ (الملحق)؛ الشمري، صحيح أخبار صفين، ١/ ١٧٧.

(٣) وفيما بعد انقضاء الفتنة، وبعد عام الجميع، ورد عن معاويةُ أنه قال: «لو أن عليًّا لم يصنع الذي صنع، ثم كان في غارٍ باليمن، لأتاه الناس حتى يستخرجوه منه». رواه البلاذري في أنساب الأشراف، ٢/ ١٥٣. بإسناد صحيح كما قال فواز الشمري.

(٤) الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ٧٠٢، ٧٠٣، من رواية سيف بن عمر.

يكن أحدٌ منهم ليعلم أن عثمان هو من أمر الصحابة ألا يدافعوا عنه، فكانت الدهشة والغضب تنتشر في الشام، كيف يُقتل عثمان وعنده أهل المدينة جميعا؟!

وزاد في تأجج هذه النار وهذا الغضب أن أسرة عثمان بن عفان قد أرسلت إلى معاوية أنهم يفوضونه في ولاية دم عثمان باعتباره أقوى رجل في بني أمية حينذاك، وتحت يده جيوش الشام. فقد كتبت أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبي سفيان (وهي أخت معاوية) رسالة تصف فيها كيف قُتِل عثمان، ثم أرسلت إلى زوجة عثمان نائلة بنت الفرافصة أن تبعث إليها بقميص عثمان الذي قُتِل فيه، فأرسلته وفيه دمه، ومعه الشعر الذي نتفوه من لحيته، فضمَّت أم حبيبة كتابها إلى قميص عثمان وشعره، وأرسلته مع النعمان بن بشير –رضي الله عنه– ليحمله إلى معاوية، فلما وصل هذا إليه، قرأ معاوية الكتاب على أهل الشام وأمر بقميص عثمان أن يُطاف به على جُند الشام، فكان هذا مما كَتَّل أهل الشام خلف معاوية في المطالبة بالقصاص لعثمان[1].

وأرسل عليٌّ إلى البصرة عثمان بن حنيف الأنصاري واليا عليها، بدلا من عبد الله بن عامر الذي كان واليا لعثمان، فشرع في أخذ البيعة لعلي من أهل البصرة، فانقسم أهلها، فمنهم من بايع، ومنهم من اعتزل، ومنهم من أبى البيعة حتى يؤخذ بالقصاص من قتلة عثمان[2].

واضطربت الأوضاع في مصر، إذ كان عبد الله بن سعد بن أبي السرح الذي هو والي عثمان عليها قد تركها، فتغلب عليها محمد بن أبي حذيفة، وبقي فيها عاما، وواجه هناك معارضة تطالب بالقصاص لعثمان، حتى إذا قُتِل في حرب مع جيشٍ لمعاوية، تولى مصر

---

(١) زيدت في قصة القميص مبالغات كثيرة منكرة على يد الأخباريين، وهذا القدر الذي أوردناه هو القدر الصحيح منه، انظر في التفصيل: الشمري، صحيح أخبار صفين، ١/ ١١٢، ٢٠٦، ٢٠٧.

(٢) أكرم العمري، عصر الخلافة الراشدة، ص٤٤٢.

بعد ذلك قيس بن سعد بن عبادة، فتمكن من أخذ البيعة من أهلها لعلي، وهادن الفئات الموالية لعثمان[1].

وكانت مكة تمور بالغضب على مقتل عثمان، وإليها يذهب من كره تكتل القتلة بالمدينة، ومنها خرج جيشٌ مع طلحة والزبير وعائشة فيما بعد، ويشير عزل عليٍّ لواليه على مكة أبي قتادة الأنصاري بعد وقت قصير، وتولية ابن عمه قثم بن العباس عليها، إلى طبيعة الأجواء المهيمنة عليها.

وبالجملة، فهذا التكدر الذي اختلط بمشهد البيعة، لا يضر صحة انعقاد البيعة لعلي، وأن بيعته شرعية، وأنه جديرٌ بها، وأنه من الخلفاء الراشدين، لكن لا ريب أن الاتفاق عليه والانصياع له كان أقل من الخلفاء الثلاثة الأُوَل، وهذا موقف أهل السنة، ومن أقوالهم في ذلك: «ليس تفسد إمامة علي بخلع من عقدها له، ولا بالتأويل عليه بأنها عقدت على شرط فيها، ولا يوهنها قعود من قعد عنها»[2].

ومع كثرة ما جرى من المناظرات والمساجلات بين علماء أهل السنة والشيعة، إلا أن علماء أهل السنة كانوا حريصين ألا ينزلقوا تحت ضغط الجدل إلى ما يخدش في شرعية علي، فمن أمثلة ذلك قول الباقلاني: «وعليٌّ -عليه السلام- قَعَد عن نصرته كثير ممن دعاه إلى القتال معه من جلة الصحابة، كسعد، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وعبد الله بن عمر، ومحمد بن مسلمة، وأسامة بن زيد، وسلامة بن وقش، وغيرهم ممن لا يُحْصَى كثرة، فيجب أن يكون ذلك أظهر في القدح في إمامته وأجدر مما تعلق على عثمان. ونحن نبرأ إلى الله تعالى من القدح في إمامتهما جميعا غير أن

(١) أكرم العمري، عصر الخلافة الراشدة، ص٤٤٢.

(٢) الباقلاني، تمهيد الأوائل، ص٥١٩.

الشيعة تفتح على أنفسها من هذا الباب ما لا قبل لهم بدفعه»[1].

## (٣) تكتل القتلة!

أدى كلا الأمريْن السابقيْن: المشهد الذي يبدو كانتصار لقتلة عثمان، ومشهد امتناع بعض الصحابة والأمصار عن بيعةِ علي، إلى مزيدٍ من تخوف المتمردين وتكتلهم، وبقائهم في المدينة، وإطالة فترة الفوضى، وهو الأمر الذي استمر في جذب الأعراب إذ ظلُّوا متكلتين بالمدينة.

لقد كان تكتل المتمردين على عثمان أمرا طبيعيا، من طبائع الاجتماع، كما يفعل سائرُ الذين يقلبون نظاما ويريدون تثبيت نظام جديد، فهم يظلون على خوفٍ من انقلاب الأمور عليهم، ويظلون على يقظة وتربص وتمسكٍ بتكتلهم واجتماعهم حتى يطمئنوا إلى تمام الأمر لهم.

وكان تكتُلُهم هذا تكتلًا حول علي رضي الله عنه، يخشوْن أن ينقلب الأمر عليهم وعليه، كما يخشون أنه إذا انفرد عنهم تكتَّل حوله المهاجرون والأنصار المطالبون بدم عثمان، فربما يأخذ القصاص منهم، فكان حرصهم على التكتل معه وحوله أمرًا لا مناص منه بالنسبة إليهم.

وظهر هذا واضحا في قول عليٍّ لما تعجلَّه بعض الصحابة، وعلى رأسهم طلحة والزبير، في الأخذ بالقصاص، فقال: «يا إخوتاه إني لست أجهل ما تعلمون، ولكني كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم؟ ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عُبْدانُكم، وثابت إليهم أعرابكم، وهم خلالكم يسومونكم ما شاؤوا، فهل ترون موضعا لقدرة على شيء مما

(١) الباقلاني، التمهيد، ص٥١٨، ٥١٩.

تريدون؟»[١].

يقول ابن حزم: «أما قولهم إن أخذ القود واجبٌ من قتلة عثمان رضي الله عنه... فَنَعَمْ، وما خالفهم قط عليٌّ في ذلك، ولا في البراءة منهم، ولكنهم كانوا عددا ضخما بما لا طاقة له عليهم، فقد سقط عن علي رضي الله عنه ما لا يستطيع عليه، كما سقط عنه وعن كل مسلم ما عجز عنه»[٢].

ولقد حاول عليٌّ تفكيك هذا التكتل، فنادى قائلا: «برئت الذمة[٣] من عبدٍ لم يرجع إلى مواليه»، «يا معشر الأعراب الحقوا بمياهكم[٤]»، ولكن هذا النداء حفَّز السبئية، فشعروا أنهم المقصودون بهذا، وأنه إذا انفض تكتل الأعراب عنهم، فغدًا سيُنادَى عليهم بالتفرق إلى الأمصار، فتحفزوا وازداد تكتلهم وشعروا بالخطر[٥].

### (٤) حزن وندم وعاطفة شديدة

وهو الحزن الذي شمل المسلمين جميعا، وعلى الأخص منهم: الصحابة، إذ هم أعرف الناس بعثمان وفضله، وعلى الأخص من الصحابة أولئك الذين أشيع عنهم التحريض على عثمان، أو صدرت من بعضهم مواقف خلاف طبيعية مع عثمان أو بعض سيا سته، فاتكأ عليها أولئك المتمردون و ضَخَّموها وا ستغلوها في ارتكاب جريمتهم. لقد رأى هؤلاء على وجهٍ أخصّ أن عليهم واجبًا لا يتخلف، وهو المسارعة في الأخذ

(١) الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ٧٠٢، من رواية سيف بن عمر.

(٢) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ٤/ ١٢٦.

(٣) برئت الذمة: أي لا ذمة له ولا أمان ولا ضمان. يشبه في الاصطلاح المعاصر قولنا «فقد عرض نفسه للعقوبة».

(٤) الحقوا بمياهكم: أي عودوا إلى دياركم، والعرب تسمي مواطنها مياها، لكون العرب يقيمون عند مواضع الماء.

(٥) الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ٧٠٢، من رواية سيف بن عمر.

بالقصاص لعثمان من قتله.

يعبر عن هذا قول طلحة بن عبيد الله: «إنا كنا قد داهنَّا في أمر عثمان، فلا نجد بُدًّا من المبالغة»[١]، يعني بالمداهنة اللين مع الثوار، وبالمبالغة التشدد في المطالبة بالقصاص[٢].

وكذلك قول عائشة التي نَفَتْ تماما أن تكون حرَّضت على قتله، فقالت: «كان القوم يختلفون إلي في عَيْبِ عثمان، ولا أرى إلا أنها معاتبة، وأما دمه، فأعوذ بالله من دمه»[٣]، وفي قول آخر لها نَفَتْ بشدة أن تكون تَمَنَّت لعثمان أي سوء، فكيف بالتحريض عليه؟! فكانت «كلما ذكرت عثمان بَكَتْ حتى ليبتلَّ خمارها، وتقول: ما تمنيتُ لعثمان شيئًا إلا أصابني، حتى أني لو تمنيتُ أن يُقتل قُتلتُ»[٤]. وفي رواية أخرى أنها كانت تقول: «يا ليتني كنت نسيا منسيا، فأما الذي كان من شأن عثمان فوالله ما أحببتُ أن ينتهك من عثمان أمر قط إلا انتهك مني مثله، حتى لو أحببت قتله قُتِلْت»[٥]، ثم ذكرت أن أولئك المتمردين كانت عليهم علامات التدين والاجتهاد في العبادة، ولم يكن يُتَوَقَّع منهم إقدام على جريمة كهذه!

هؤلاء الصحابة على وجه الخصوص هم من سيتصدرون تيار المطالبة العاجلة بالقصاص لعثمان، وسيبذلون في ذلك كل شيء، حتى دماءهم كما سيأتي!

## سياسة علي بن أبي طالب

(١) ابن أبي شيبة، (٣٠٦٩٧)، بإسناد صحيح، انظر: المصنف ط أسامة بن إبراهيم (١٠/ ١٨٥)؛ المصنف ط الشثري، (١٧/ ١٦٣)؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣/ ١٦٧.

(٢) أكرم العمري، عصر الخلافة الراشدة، ص٤٤٣؛ وانظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١/ ٣٥، فقد عبر عن المداهنة بلفظ «تمغفل» أي اصطناع الغفلة، فكأنه ترك الأمور دون أن ينهض لها بما تستحقه.

(٣) الخلال، السنة، (٥٤٥)، بإسناد صحيح كما قال العمري، عصر الخلافة الراشدة، ص٤٣٨.

(٤) أبو نعيم، الإمامة والرد على الرافضة، تحقيق: د. علي الفقيهي، ط٣ (المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، ١٩٩٤م)، ص٣٣٠.

(٥) أحمد بن حنبل، فضائل الصحابة، (٧٥٠) بإسناد صحيح كما قال محققه وصي الله؛ البخاري، خلق أفعال العباد، (٥٦)؛ ابن شبة، تاريخ المدينة، ٤/ ١٢٣٥.

أدرك عليٌّ بعميق حكمته وبُعْدِ نظره وحُسْـن فهمه لطبائع الناس وأحوالهم أن أولى الأولويات في هذه الفترة هي التهدئة والتسكين وامتصاص هذا التمرد، فكان شعاره الذي تكرر صـدوره منه « هذا أمرٌ دواؤه التسـكين»، فالتهدئة وحدها هي التي يمكن بها ردُّ الحقوق، وأخذ القصـاص من القتلة، ويمكن بها جمع الأمة من بعد الفتنة والاضـطراب. وورد عن عليٍّ قوله بأن تحريك الأمور سـيجعل الناس ثلاث فرق، فقال لطلحة والزبير ومن معهما ممن تعجل الأخذ بالقصاص: «إن الناس من هذا الأمر -إن حُرِّك- على أمور: فرقة ترى ما تَرَوْنَ، وفرقة ترى ما لا ترون، وفرقة لا ترى هذا ولا هذا، حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق. فاهدؤوا عني وانظروا ماذا يأتيكم»[1].

إن من طبائع الاجتماع أن الثورات لا تُواجَه ولكن تُمْتَصّ أو تُمتَطَى صـهوتها ليتغير اتجاهها، وهذا ما يدركه دهاقنة السياسـة والزعماء، إنه لا يمكن مواجهة حشـد من الناس المتحفزين المتكتلين في لحظة اجتماعهم، وفي لحظة شـعورهم بالانتصـار وبالخوف، إن اجتماعهم وتكتلهم وشعورهم بالانتصـار وبالخوف يجعلهم أكثر قوة وصـلابة وحماسـة واندفاعا[2]، ولئن فاتنا أن نتعلم هذا من الكتب أو من التاريخ، فيجب أن نتعلمه من تجاربنا المعاصرة التي نرى فيها كيف تمتصُّ النظم الإقليمية والدولية ثورات الشعوب الإسلامية والمستضعفة.

ويجب أن نتوقف هنا فنقول، إن محاولة التهدئة ضـارّة بالثورة التي لم تحقق أهدافها ولم تصـل إلى التمكين، ولهذا فإن كل ثورة يجب أن تتخوف من نداءات التهدئة قبل الوصول إلى التمكين والقضاء على النظام القديم. ولكن مناط هذا الأمر يعتمد على القائد الذي يصـدر عنه نداء التهدئة، فإن كان هذا الذي ينادي بالتهدئة مشـكوكا في إخلاصـه

(١) الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ٧٠٢، من رواية سيف بن عمر.

(٢) للمزيد، يراجع في هذا كتب علم النفس الاجتماعي وعلم نفس الجماهير، مثل: «روح الاجتماع» لجوستاف لوبون (وهو نفس الكتاب الذي تُرجم أيضا بعنوان «روح الجماعات» وترجم مرة أخرى بعنوان «سيكولوجية الجماهير»).

وحكمته وقوته فإن نداءه بالتهدئة مثير للشكوك وللتخوف، فضلا عن أن يكون صاحب هذا النداء من أركان النظام القديم الذين هم أركان عملية امتصاص الثورة والاستعداد للقضاء عليها، وأما حين يصدر نداء التهدئة من زعيم لا مجال للشك في قوته وحكمته وإخلاصه، فتلك هي الحكمة والرشد، وعندها يجب الانصياع لندائه!

وهنا كان الخطأ الذي وقع فيه أولئك الصحابة: أم المؤمنين عائشة وطلحة والزبير ومعاوية وعمرو بن العاص ومن كان معهم، ذلك أن زعيما مثل علي بن أبي طالب، لا مجال للشك في إيمانه وورعه وتقواه وقوته وإخلاصه، يجب أن تكون دعوته للتسكين والتهدئة موضع سمع وطاعة، إذ هو الأمير الشرعي، وليس هو بالمُتَّهَم! فدعوته هنا هي دعوة الحكمة والرشد والفطنة!

لو افترضنا أن أولئك القتلة المتمردين على عثمان قد نَصَّبوا أحدهم، عبد الله بن سبأ أو غيره، ثم طالبوا الناس بالتهدئة والتسكين، لكان ذلك هو الأمر الذي يجب أن يُعصَى ويُقام في وجهه، فإن التهدئة حينئذ تثبيت لحكم القتلة المجرمين وتمكين لهم.

وهذا الذي نقوله عن صحة موقف عليٍّ وسياسته ليس تحليلا عقليًّا مبنيًّا على النظر في التاريخ، بل هي أحاديث النبي ﷺ التي قررت أن عليًّا رضي الله عنه كان الأقرب إلى الحق، وهي الأحاديث التي كانت من دلائل نبوته ﷺ، ولكنها لم تكن لتنكشف إلا بعد وقوع الفتنة، ووقوع القتال، فوقوع الفتنة والقتال هو دليل صحتها.

وإذن، فقد اعتمد عليٌّ رضي الله عنه سياسة التسكين والتهدئة، ولكن مخالفيه من الصحابة لم يفهموا حكمته، وإنما حملهم الغضب والعاطفة على مخالفته، فكانت إجراءاتُه للتسكين والتهدئة، تُفْهَم على غير وجهها، فيُسْفِر هذا عن تفاقم الأمور وتعاظمها، وقد ذكرنا –ونكرر للتأكيد– أن سياسة عليٍّ رضي الله عنه لا يمكن أن تُفْهَم على وجهها إلا باستحضار مكانة عليٍّ وقدره، وأما إذا تجردنا من هذه الرؤية الإيمانية، فسيذهب تفسير قارئ الوقائع إلى نتيجة معاكسة تماما، وهي أن عليًّا قاد انقلابا ناجحا

على عثمان وعمل على حماية المنقلبين عليه إلى اللحظة الأخيرة!

ولهذا انقسم الناس في عليٍّ إلى ثلاثة أقسام: قسمٌ غلا فيه حتى وصل إلى سب أبي بكر وعمر وعثمان وعائشة وطلحة والزبير ومعاوية وغيرهم، وقسمٌ أبغضه حتى كَفَّره وناصبه العداء، وقسمٌ ثالثٌ هو أهل السنة والجماعة الذين استحضروا نصوص القرآن وأحاديث النبي فكانوا أهل العدل والإنصاف، وعرفوا أن الحق مع علي وأن من خالفوه كانوا مخطئين ولكنهم مجتهدون متأولون.

ولهذا أيضا انقسم الصحابة إلى ثلاث فئات: فئة قاتلت مع عليٍّ، وفئة قاتلته، وفئة اعتزلت الفتنة لا تدري أي الفئتين أقرب إلى الحق!! ولولا أننا طالعنا نصوص النبي ﷺ لكان خلاف الأمة في ذلك الأمر لا يزال مستمرًا، بل لتوقعنا أن يكون أغلب الأمة ممن يرون أن الحق في جانب معاوية، وهذا من دلائل قِصَر عقل الإنسان وقلة علمه، وأنه مُحتاج دائما إلى هداية القرآن والسنة في فهم الأمور والحكم عليها.

**تمثلت سياسة التهدئة التي اعتمدها على بن أبي طالب، لتفكيك تكتل المتمردين ومن انحاز إليهم من الأعراب، في عدد من الإجراءات، من أهمها:**

### (١) عزل ولاة عثمان

عزل عليٌّ واليَ البصرة عبدَ الله بن عامر، وهو من قرابة عثمان، وأرسل بدلا منه سهل بن حنيف. وعزل كذلك والي مكة خالد بن سعيد بن العاص المخزومي، وأرسل بدلا منه أبو قتادة الأنصاري، ثم ما لبث أن عزله وأرسل بدلا منه قثم بن العباس، وعزل والي اليمن ثمامة بن عدي وأرسل بدلا منه عبيد الله بن عباس، وكان والي عثمان على مصر عبد الله بن سعد بن أبي السرح قد انسحب منها، فتغلب عليها محمد بن أبي حذيفة، فأقرَّه علي

عليها، وهو من المحرضين على عثمان[1]. وأرسل سهل بن حنيف كذلك بعزل معاوية بن أبي سفيان عن الشام، ولكن قوة معاوية بالشام منعت تنفيذ هذا الأمر.

وهذه الإجراءات، التي تصب في تسكين أجواء الفتنة وتفكك تكتل المتمردين، أثارت من جهة أخرى مخاوف المطالبين بالقصاص لعثمان، فقد بدا وكأن عليًّا ينفذ ما أراده المتمردون –طوعا أو كرها- بإزاحته ولاة عثمان.

كذلك فإن بعض الولاة، لا سيما في المناطق التي يسودها الغضب لمقتل عثمان، كمكة والمدينة والبصرة كان ولاتها من قرابة علي، كعبد الله بن عباس (الذي تولى البصرة) وتمام بن العباس (الذي تولى المدينة) وقثم بن العباس (الذي تولى مكة) وعبيد الله بن عباس (الذي تولى اليمن، وهي من أكثر الولايات رجالا) ويمكن أن يضاف إليهم محمد بن أبي بكر (الذي تولى مصر فيما بعد)، فإنه ابن زوجته أسماء بنت عميس. وهذا أمرٌ يُمْكِن أن يُفَسَّر على أنه سعيٌّ في إخماد كل تعاطف مع عثمان، وتعطيل أي محاولة لتحرك يطالب بالقصاص له.

## (٢) إرجاء القصاص من قتلة عثمان

ومن ضمن سياسة التسكين التي اعتمدها علي رضي الله عنه، تأجيله القصاص من قتلة عثمان، إذ لا يزال الأمر غير ممكن، فهؤلاء المتمردون ما زالوا متكتلين، وما يزال الأعراب يتكتلون معهم في المدينة، ثم إن من ورائهم قبائل تتعصب لهم، وسيظهر فيما بعد حكمة علي في هذا، ولا شك في أن استقرار الأمور وتمكن الخليفة من شأن الحكم هو أولى وأسبق من إنفاذ حكم القصاص على بعض الناس، وإن كان المقتولُ الخليفةَ السابق!

يقول ابن تيمية: «لم يكن عليٌّ –مع تفرق الناس عليه- مُتَمَكِّنًا من قتل قتلة عثمان إلا

(١) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة، ص٢٠١.

بفتنة تزيد الأمر شرا وبلاء، ودَفْعُ أفسد الفاسديْن بالتزام أدناهما أولى من العكس؛ لأنهم كانوا عسكرا، وكان لهم قبائل تغضب لهم، والمباشر منهم للقتل -وإن كان قليلا- فكان ردؤهم أهل الشوكة، ولولا ذلك لم يتمكنوا»[1].

ويزيد في صعوبة الأمر أن قاتل عثمان غير معروف على وجه التعيين، كما صحَّ عن عليٍّ قوله: «ما قتلنا عثمان، ولا نعلم له قاتلا»[2]، ومن ثَمَّ فإن مصادمة الآلاف في اللحظة التي لم يتمكن الخليفة فيها من الأمر تزيد الفتنة فتنا كثيرة.

سيثبت فيما بعد حكمة علي رضي الله عنه، فلن يستطيع المخالفون له، عائشة وطلحة والزبير، مع ما كان لهم من الشوكة، ولن يستطيع معاوية رغم تمكنه فيما بعد من الأمور أن يقتص من قتلة عثمان، ولا أن يتعقبهم! ولكن النفوس في تلك اللحظة لم تكن تستوعب بقاء أولئك المتمردين والقتلة قريبا من علي، وفي أنصاره، ولا يؤخذ منهم القصاص على الجريمة العظمى التي اقترفوها.

يتململ بعض الصحابة من هذا الوضع، فيعرض طلحة على علي أن يذهب إلى البصرة فيجمع له من أنصاره وأنصار عثمان ما يستطيع بهم إنزال القصاص بهؤلاء، وكذلك فعل الزبير فقد عرض أن يذهب إلى الكوفة، فيحاول عليٌّ تأجيل الأمر فلا يأذن لهما، بل يقول: «حتى أنظر في ذلك»[3].

ويشعر عليٌّ بهذه المشاعر التي تسود جوّ المدينة، فمنع الصحابة من ترك المدينة خشية من تحركهم، كذلك خشي من تكاثر بني أمية عند معاوية، ومن انقسام آراء الصحابة في

---

(١) ابن تيمية، منهاج السنة، ٤/ ٤٠٧.

(٢) سعيد بن منصور، سنن سعيد بن منصور، (٢٩٤٢)، بإسناد صحيح كما قال العمري، عصر الخلافة الراشدة، ص٤٤٤.

(٣) الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ٧٠٣، من رواية سيف بن عمر.

مسألة الأخذ بالقصاص: «واشتدَّ على قريش، وحال بينهم وبين الخروج على حال، وإنما هَيَّجَه على ذلك هربُ بني أمية، وتفرُّقُ القوم، وبعضهم يقول: والله لئن ازداد الأمر لا قدرنا على انتصار من هؤلاء الأشرار، لَتَرْكُ هذا إلى ما قال علي أمثل. وبعضهم يقول: نقضي الذي علينا ولا نؤخره، ووالله إن عليًّا لمُسْتَغْنٍ برأيه وأمره عنا، ولا نراه إلا سيكون على قريش أشدَّ من غيره»[1].

وكانت أجواء تلك الفترة مشبعة بالشائعات، فما إن خرج ابن عمر من المدينة إلى مكة للعمرة حتى سرت إشاعة أنه خرج إلى الشام ليحرض الناس فيها على القتال، وهو ما فزع له عليّ[2]. ولكن خروج ابن عمر إلى مكة كان خيرا له، فقد منع ابنُ عمر أختَه أم المؤمنين حفصة من الخروج مع عائشة وطلحة والزبير.

## (٣) احتواء المتمردين في الجيش والمناصب

وقد أدى هذا كله، تكتل المتمردين من جهة، وسياسة علي في تسكين الأمور من جهة، وتململ بعض الصحابة وحرصهم على سرعة القصاص لعثمان من جهة، إلى أمرٍ آخر، ذلك أن عليًّا سعى إلى احتواء المتمردين في جيشه وفي ولاياته، فقد أقرَّ محمد بن أبي حذيفة على ولاية مصر، وكان محمدٌ هذا قد انقلب على والي عثمان عبد الله بن سعد بن أبي السرح، وسيطر على الولاية، وكان من أشد المحرضين على عثمان (مع أنه ربيب عثمان، وهو من قرابته، ومعاوية هو ابن عمَّة محمد هذا)، وكذلك محمد بن أبي بكر، الذي وإن كان قد تراجع في اللحظة الأخيرة عن قتل عثمان، إلا أنه كان عنصرا أساسيا في

---

(١) الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ٧٠٢، من رواية سيف بن عمر.

(٢) ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٠٦٧١)، بإسناد صحيح، انظر: ط المصنف بتحقيق أسامة بن إبراهيم (١٠/ ١٧٩)؛ ط المصنف بتحقيق سعد الشثري (١٧/ ١٥٣)؛ فقيهي، خلافة علي، ص٨٤ (الملحق)؛ أكرم العمري، عصر الخلافة الراشدة، ص٤٤١.

التحريض عليه، فقد كان قائد الرجالة في معركة الجمل (أي أن محمدا قاتل أخته عائشة في الجمل)، ثم ولّاه على مصر فيما بعد، وكذلك مالك الأشتر الذي كان من رؤوس التمرد على عثمان، فقد كان من قيادات جيش علي، ثم ولّاه على مصر فيما بعد أيضا، وكذلك صعصعة بن صوحان الذي جادل عثمان رضي الله عنه، فقد صار صعصعة في رجال عليٍّ وكان من رُسُل عليٍّ إلى الخوارج.

وهذا فضلا عن أن كتلة المتمردين على عثمان كانت بطبيعة الحال في معسكر علي، وهذا هو الأمر الذي سيُهَيِّج سائر الحروب القادمة!

وهذه الإجراءات، لا سيما احتواء المتمردين في الجيش والمناصب، إذا استحضرنا أنها كانت في زمن حزن وغضب وفتنة وشائعات متناثرة، فكيف يمكن أن تُفَسَّر؟!

إن التفسير المادي الذي ينسى من هو علي بن أبي طالب سيذهب مباشرة إلى القول بأن عليًّا يُمَكِّن للمنقلبين على عثمان ويحقق لهم أغراضهم، هذا إن لم يكن هو رأس المؤامرة منذ البداية. ونحن نكرر: حاشا لله أن نقول بهذا، وليس يقول به المسلمون، فإن عليا فوق مستوى الشبهة، وهو رجل من أهل الجنة. وإنما نسوق هذا الكلام ليتخيل القارئ كيف كان الأمر صعبا على نفوس الجميع، وكيف تذهب التخيلات شرقا وغربا، وكيف يصعب تفسير الأمور على محامل حسنة في وقت الدهشة والحزن والغضب. إن تصور هذه الأمور هو الكفيل بأن نعرف كيف كانت الفتنة شديدة، وكيف اضطربت فيها العقول، فلا يستسهل أحد أن يتفوه بالسوء على صحابي كان في هذا المعسكر أو ذاك أو اعتزل ولم يعرف أين يكون الحق فيهما!

كذلك فإن احتواء أولئك المتمردين في جيش علي وولاياته، سيحمل تخوفا شديدا بالنسبة لمعاوية في مسألة دم عثمان، إذ كيف يُسَلِّم لعليٍّ بالخلافة وهو يرى قتلة عثمان في جيشه وولاياته، وأين إذن يكون مصيره إن خرج عن أهل الشام وهم أنصاره وجنده وعدته؟! إنه لا يُستغرب –لو فعل ذلك- أن تكون تلك نهايته هو، ونهاية القصاص لدم

عثمان.

وثمةَ أمرٌ مهمٌ آخر قد اضـطرَّ عليًّا إلى اعتماده على هؤلاء المتمردين، ذلك هو كراهة كثير من الصحابة أن يقاتلوا في الفتنة، وتورعُّهم أن يرفعوا السيوف على مسلمين، حتى إن بعض العلماء يجعل هؤلاء الكارهين للقتال والمعتزلين له هم أكثر الصـحابة[(١)]، ولكن الأرجح أن أكثر الصـحابة قاتلوا إما في جانب علي أو في جانب معاوية[(٢)]. والمقصـود أن ثمة عددًا مؤثرًا من الصحابة لم ينهض للقتال مع علي. وحتى من نهض معه رضي الله عنه، فقد ظهرت الكراهة من بعضهم للقتال، فممن كرهوا القتال ابنُه الحسن، وقال له: «يا أبتِ دع هذا، فإن فيه سـفك دماء المسـلمين، ووقوع الاختلاف بينهم»[(٣)]، وقال له فيما بعد الجمل «يا أبتِ قد كنتُ أنهاك عن هذا»[(٤)]، ومنهم ابن عباس وأخوه عبيد الله بن عباس[(٥)]، وغيرهم.

ولم يكن من سياسة عليٍّ حملُ الناس على القتال معه، وإنما غاية ما ظهر منه المعاتبة لمن تخلف عنه، وأن يظهر في عمله كراهة تخلفهم عنه، فمن ذلك أنه:

١. لم يعطِ أسـامة بن زيد شـيئا حين بعث له، وقد فَهِم أنه يحتاج، ولكن الحسـن

---

(١) من هؤلاء ابن تيمية، قال: «أكثر الصحابة لم يوافقوه على هذا القتال، بل أكثر أكابر الصحابة لم يقاتلوا»، وابن كثير، قال: «كان ترك القتال أولى من فعله، كما هو مذهب جمهور الصحابة». انظر: ابن تيمية، منهاج السنة، ٦/ ٣٣٣؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٦/ ٢٣٩.

(٢) من هؤلاء ابن حجر، قال: «كان الذين توقفوا عن القتال في الجمل وصفين أقل عددا من الذين قاتلوا». انظر: ابن حجر، فتح الباري، ١٣/ ٣٤؛ وانظر: ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ٤/ ١٣٢.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ٧/ ٢٥٧.

(٤) عبد الله بن أحمد بن حنبل، السنة، (١٣٩٧)، بإسناد صحيح، انظر: الشمري، صحيح أخبار صفين، ١/ ١٧٤.

(٥) الطبراني، المعجم الكبير، (٢٨٠١)، بإسناد قوي كما قال الذهبي، ورجاله ثقات كما قال الهيثمي. انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٣/ ٢٨٧؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، (١٥١٢٦)؛ الشمري، صحيح أخبار صفين، ١/ ١٨٥.

والحسين أعطياه حتى أوقرا له راحلته[1].

٢. قال لسليمان بن صرد بعد انتهاء معركة الجمل: «يا ابن صرد، تنأنأتَ وتزحزحتَ وتربصتَ[2]، كيف ترى الله صنع، قد أغنى الله عنك»[3].

٣. قال لأهبان بن صيفي حين امتنع: «لا حاجة لنا فيك ولا في سيفك»[4].

وفي ظل هذا الوضع الذي قلَّ فيه المتحمسون للقتال، مع ما يراه علي من خطورة انقسام الأمة وانفلات الوضع، كان مضطرًّا أن يحتوي هؤلاء في جيشه، وأن يقاتل بهم.

***

إذا تأمل القارئ في هذا الوضع، وأطال النظر فيه، فهم كيف هو عسيرٌ أن تُفْهَم هذه الإجراءات التي اتخذها علي في زمن ملتهب بالعاطفة والغضب والحزن على مقتل عثمان رضي الله عنه، لا سيما إذا رأى بعض الصحابة أنهم لم يبذلوا وسعهم في ردِّ الفتنة من أولها، أو في الدفاع عن عثمان عند حصاره وقتله، أو إذا رأى أحدهم أن شيئا انتقده على عثمان مما فيه اختلاف واجتهاد واسعٌ قد كان من أسلحة أولئك المتمردين في خروجهم عليه وقتله!

تنقل الروايات هذه العاطفة المشبوبة الممزوجة بالندم على ما مضي، وبالترقب لما هو آت في كلام الصحابة، فقد رأى علقمة بن وقاص الليثي، وهو من كبار التابعين، طلحة بن عبيد الله قبيل معركة الجمل، وهو يحب الانفراد بنفسه، وكثيرا ما يطئطئ رأسه، فقال

---

(١) البخاري (٦٦٩٣).

(٢) تنأنأت وتزحزحت وتربَّصت: أي ضعفت وتباعدت وانتظرت

(٣) ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٧٨١٢)، بإسناد صحيح، انظر: المصنف ط أسامة بن إبراهيم (١٣/ ٤٢٥)؛ المصنف ط الشثري (٢١/ ٥٠٥)؛ الشمري، صحيح أخبار صفين، ١/ ١٧٥.

(٤) أحمد (٢٠٦٨٩)؛ الترمذي (٢٢٠٣)؛ وصححه الألباني، وقال شعيب الأرناؤوط: حسن بطرقه وشواهده.

له: «يا أبا محمد، إني أراك وأحب المجالس إليك أخلاها، وأنتَ ضاربٌ بلحيتك على زورك، أن تكره هذا اليوم فَدَعْه، فليس يُكْرِهك عليه أحد. قال: يا علقمة بن وقاص لا تَلُمْنِي؛ كنَّا يدًا واحدةً على من سوانا، فأصبحوا اليوم جَبَلَيْن يزحف أحدنا إلى صاحبه، ولكنه كان مني في أمر عثمان رضي الله عنه ما لا أرى كفارته إلا أن يسفك دمي في طلب دمه. قلتُ: فمحمد بن طلحة، لِمَ تُخْرِجه ولك ولد صغار؟ دَعْهُ فإن كان أمرًا، خَلَفَك في تَرِكَتِك. قال: هو أعلم. أَكره أن أرى أحدًا له في هذا الأمر نيةٌ فأردّه[(١)]. فكلمتُ محمد بن طلحة في التخلف، فقال: أكره أن أسأل الرجال عن أبي»[(٢)].

وقريبٌ من هذا ما قاله الزبير، فقد سأله مطرف بن عبد الله الشخير، وهو تابعي من البصرة، قال: «قلنا للزبير: يا أبا عبد الله، ما جاء بكم؟ ضيَّعْتُم الخليفة حتى قُتِل، ثم جئتم تطلبون بدمه؟! قال الزبير: إنا قرأناها على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةًۖ﴾[الأنفال: ٢٥] لم نكن نَحْسِب أَنَّا أَهْلُها، حتى وقعتْ منَّا حيث وقعتْ»[(٣)].

يشير بذلك إلى أن الفتنة لم تصب الذين ظلموا وحدهم، بل عمَّت حتى شملت المؤمنين معهم، وهو قولٌ يحمل في طياته الندم على ما فات، والترقب والتردد فيما هو آت!

وقد عبَّر عليٌّ نفسه عن أثر قتل عثمان في نفسه لما قال «ولقد طاش عقلي يوم قُتِلَ

---

(١) أي: أكره أن أردَّ أحدًا نوى أن يخرج في الطلب بدم عثمان.

(٢) الحاكم (٥٥٩٥)، وقال الذهبي: سنده جيد.

(٣) أحمد (١٤١٤)، وصححه أحمد شاكر، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده جيد؛ وانظر: فقيهي، خلافة علي، ص٩٣، ٩٤ (الملحق).

عثمان وأنكرت نفســي»[1]، وأول ما بلغه الخبر قال: «تبًّا لكم آخر الدهر»[2]، إلا أنه كان أكثر الجميع حكمة وحنكة وحلما، فلم تحمله الفاجعة على مجاوزة حسن النظر والتقدير والتدبير.

لكن مجمل هذه الإجراءات التي كانت من سياسة علي، لم تتحملها نفوس بعض الصحابة، وفي طليعتهم عائشة وطلحة والزبير، وهذا الذي يفسِّر تغير موقفهم على عليّ، وهو التغير الذي توقف عنده الأحنف بن قيس، ذلك الذي جاء إلى هؤلاء الثلاثة قبيل مقتل عثمان فسألهم عمن هو الأجدر بالخلافة بعده فأجابوه بعليّ، فلما رآهم في البصرة قبيل معركة الجمل سألهم عن هذا التغير، قال: يا أم المؤمنين، أنشدك بالله، هل قلتُ لك: من تأمريني به؟ فقلتِ: عليا. فقلتُ: تأمريني به وترضينه لي؟ فقلتِ: نعم، قالتْ: نعم، ولكنه بدل. قلت: يا زبير، يا حواري رسول الله ﷺ، يا طلحة، نشدتكما بالله، أقلت لكما: من تأمراني به؟ فقلتما: عليا. فقلتُ: تأمراني به وترضيانه لي؟ فقلتما: نعم؟ قالا: بلى، ولكنه بدل»[3].

---

(١) الحاكم (٤٥٢٧)، وقال: على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٢) ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٧٦٧٦) بإسناد صحيح، انظر: المصنف ط الشثري (٢١/ ٤١٦)؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣/ ٢١؛ فقيهي، خلافة علي، ص٦١ (الملحق).

(٣) ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٧٧٩٨)؛ الطبري، تاريخ الطبري، ٣/ ٣٤ بإسناد صحيح؛ انظر: ابن حجر، فتح الباري، ١٣/ ٣٤؛ البرزنجي، صحيح تاريخ الطبري، ٣/ ٣٨٢.

# وقعة الجمل

## خروج عائشة وطلحة والزبير إلى البصرة

خرجت عائشة من المدينة قبيل مقتل عثمان، فذهبت إلى مكة، وكانت تلك أيام الحجّ، في أوائل ذي الحجة، وكان معها أم المؤمنين حفصة بنت عمر، وأما الزبير وطلحة فقد ظلا في المدينة بعد مقتل عثمان لأربعة أشهر ينتظرون ويترقبون أن يقتصَّ عليٌّ من قتلة عثمان، فلا تمضي الأيام إلا ويزدادون حزنا وغضبا وتألما على مشهد المتمردين في المدينة، وحول عليٍّ، ولا يزال علي يرى أن الدواء هو التسكين، وهو لا يزال يحتويهم ويجعلهم في الجيش والولايات.

فاستأذن طلحة والزبير عليًّا في الخروج إلى العمرة، فأذن لهما على تخوف، ولعله أراد أن يصرف عنهما المشهد الذي يثيرهما رؤيته بالمدينة، فلما ذهبا إلى مكة، لقيا بها أم المؤمنين عائشة، فاتفقوا على الطلب بدم عثمان وقتل قتلته[1]. وتزامن هذا مع قدوم والي اليمن يعلى بن أمية معتمرا، وقد خرج إلى مكة قبل أن يُقتل عثمان، وكان يعلى مقربا من

(١) ابن حجر، فتح الباري، ١٣/ ٥٤.

عثمان، وكان موســرا، فتحمل نفقة عظيمة في الإعداد لقتال قتلة عثمان، قيل إنه أعطى طلحة والزبير أربعمائة ألف دينار، وتكفل بنفقة سبعين رجلا من قريش، وهو الذي اشترى الجمل الذي ركبته عائشة بثمانين دينارا، حتى قال عليٌّ: «أتدرون بمن بليت؟ أطوع الناس في الناس عائشة، وأشد الناس الزبير، وأدهى الناس طلحة، وأيسر الناس يعلى بن أمية»[١].

فاســتقر القرار على أن يخرجوا إلى العراق، وإلى البصــرة على وجه الخصــوص.. فلماذا؟

لقد تركزت القوة الإســلامية، قوة القبائل والجيوش في ثلاث مناطق: العراق والشــام ومصـر؛ فالعراق هي مركز الجيوش التي فتحت مناطق الشـرق والشـمال الشـرقي: فارس وخراســان وما إليها، والشــام هي مركز الجيوش التي تواجه الروم وتفتح مناطق الشـمال والشمال الغربي، ومصر هي مركز الجيوش التي تفتح بلاد السودان والشمال الإفريقي.

فأما الشـام فهم محبون مطيعون لمعاوية، فهم على أهبة الاستعداد للقصـاص لعثمان، وأما مصــر فقد تغلب عليها محمد بن أبي حذيفة وفيها اضــطرابات بينه وبين المطالبين بالقصاص لعثمان، ثم إن الشام ومصر بعيدتان لا يمكن الخروج إلى أيٍّ منهما دون العبور على المـدينـة، وأمـا العراق فهو الأقرب وهو الممكن، إذ لا يزال فيه أنصــار لقضــيـة الاقتصــاص من عثمان، كما أن طلحة والزبير كليهما محبوب في تلك الأنحاء، فبإمكانهما تجييش الناس، للأخذ بالقصاص من قتلة عثمان.

فلماذا البصرة على وجه التحديد؟

لقد عُرِفت البصــرة بميلها إلى عثمان بن عفان، حتى وُصِــفت بأنها «قطعة من أهل الشــام»[٢]، وظلت البصــرة معروفة بهذا الميل حتى نحو قرن من الزمان، وقد اســتبعدها

(١) ابن حجر، فتح الباري، ١٣/ ٥٥.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٦/ ٣٢٥.

العباسيون من أن تكون محضنا لدعوتهم ومركزا لثورتهم[1].

ويتبين بهذا أنهم لم يقصدوا الخروج على عليٍّ ولا نقض بيعته، وإنما كان هدفهم توفير العدة الكافية من الجنود التي يمكن بها إعانة علي على قتلة عثمان. وهذا أمر مُهِمٌّ وفارق في فهم موقف عائشة وطلحة والزبير، فالصورة عندهم على هذا النحو:

١. إن كل واحدٍ منهم يستشعر في نفسه حزنا وغضبا على مقتل عثمان، وكل واحد منهم يرى أنه كان يستطيع أن يبذل من الوسع ما لم يبذله، إما في إيقاف التأليب على عثمان، أو في مواجهة المتمردين عليه، أو في مواقف صدرت منهم ضَخَّمها أهل الفتنة واتكؤوا عليها للطعن في عثمان.

٢. إنهم يشهدون الآن انقسام الأمة وعدم انسجامها لعلي، فالشام لا يستسلم لعلي، إلا أن يؤخذ القصاص من قتلة عثمان، وإليه ذهب سائر من يرى هذا الرأي من بقية الصحابة، والولايات الأخرى لا تخلو من انقسام بين ثلاث فئات: من بايع عليا ومن أبى ومن اعتزل فلم يبايع، وهذا الانقسام لا ينتهي إلا بأخذ القصاص من قتلة عثمان.

٣. ولكن عليًّا لتكتل هؤلاء وتكاثرهم، وما يتخوف منه من انفلات الأمور، ولتثاقل الكثير من الناس عنه، يرجئ الأخذ بالقصاص من قتلة عثمان، ويستمر في محاولته تسكين الأمور وتهدئتها، وفي سياسته احتواء هؤلاء المتمردين في الجيش والولايات.

٤. فإذا استطاعت عائشة وطلحة والزبير تجييش الناس للأخذ بالقصاص من قتلة عثمان، فإنهم بهذا يُعينون عليًّا على الأخذ بالقصاص، فينتهي انقسام الناس حول علي، ويعود التئام الأمة مرة أخرى تحت خلافة علي، فيبايع أهل الشام مع سائر الأمصار.. فهذا هو تفصيل غرضهم أو هو محتوى شعارهم الذي رفعوه، شعار «الإصلاح بين الناس»،

---

(١) الجاحظ، رسائل الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٦٤م)، ١/ ١٦ وما بعدها؛ ابن قتيبة، عيون الأخبار، تحقيق: د. يوسف علي طويل، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٨ه)، ١/ ٣٠٣.

وهي الكلمة التي ستتردد كثيرا في الروايات تعبيرا منهم عن موقفهم.

استقر الأمر على الخروج إلى البصرة، وفي الطريق وقع لعائشة -رضي الله عنها- حدث عجيب..

لما أقبلت عائشة فنزلت بعض مياه بني عامر، نبحت عليها الكلاب، فقالت: أي ماء هذا؟ قالوا: الحوأب. قالت: ما أظنني إلا راجعة. فقال لها بعض من كان معها: بل تقدمين، فيراك المسلمون، فيصلح الله ذات بينهم. فقالت: إن النبي ﷺ قال لنا ذات يوم: «كيف بإحداكن تنبح عليها كلاب الحوأب»[١]، وفي رواية: «أيتكن صاحبة الجمل الأدبب، تخرج حتى تنبحها كلاب الحوأب، يقتل عن يمينها وعن شمالها قتلى كثيرة، وتنجو من بعد ما كادت»[٢].

يتعجب كثيرون من موقف عائشة هذا، وكيف أنها تذكرت الحديث، ثم مع ذلك لم ترجع! ولكن العجب من هؤلاء أولى وأقوى، فلو أن عائشة رجعت وما وقعت معركة الجمل، لكان هذا طعنا في النبوة، وإخفاقا لما أخبر به النبي ﷺ! لقد كان لا بد من وقوع ما أخبر به النبي ﷺ، فهذا من دلائل صدقة ونبوته، ولكن ترى كيف فكَّرت عائشة في الأمر، فأتمت سيرها إلى البصرة؟

يبدو لي -والله أعلم- أنها تفكرت في الحديث فلم تر فيه أي تخطئة لها، فهي ما تنهض إلا للاقتصاص من قتلة عثمان، بغرض الإصلاح بين الناس وإنهاء انقسامهم، ومن الممكن أن يُقتل حولها كثيرون في جهاد صحيح كهذا الجهاد! فليس في هذا ما يثنيها عن المسير! ولعلها قدَّرت أنه لا تلازم بين خروجها هذا واستنهاض المسلمين وبين وقوع قتلي كثيرين، فهي تخرج الآن لتصلح بين المسلمين، ثم في موقف آخر قادم يكون هذا

---

(١) أحمد (٢٤٢٩٩)؛ وصححه ابن حجر والألباني وشعيب الأرناؤوط، انظر: ابن حجر، فتح الباري، ١٣/ ٥٥؛ الألباني، السلسلة الصحيحة، (٤٧٤).

(٢) البزار، مسند البزار، (٤٧٧٧)؛ بإسناد رجاله ثقات، انظر: ابن حجر، فتح الباري، ١٣/ ٥٥.

القتل حولها، فنصُّ الحديث يحتمل أن يكون عن حدثيْن منفصليْن. ولعله يكون أمرٌ آخر، فلذلك أكملت المسير.

عندما وصل الجيش إلى البصرة، استسلم لهم عثمان بن حنيف أمير البصرة، فقد تورع أن يقاتل جيشا فيه هؤلاء، فاستولى جيش الزبير وطلحة وعائشة على ما في بيت المال بالبصرة(١)، وقد كان فيها من الدنانير والدراهم ما زاد في قوة جيشهم.

ولكن حكيم بن جبلة، زعيم المتمردين البصريين على عثمان، جمع ستمائة رجل من قومه، فقاتلوا جيش طلحة والزبير وعائشة، فهُزِم وقُتِل وأبيد جيشُه، فكان بذلك أول المقتولين من الذين سعوا في قتل عثمان، وفرَّ من جيشه حرقوص بن زهير السعدي —وهو من أولئك المتمردين أيضا- إلى قومه بني سعد! وهناك تعصب له قومُه حتى احتشد منهم ستة آلاف عزموا أن يقاتلوا دونه!

وهنا، نبصر ما رصده ابن خلدون من أن العصبية القبلية قد عادت في تلك الفترة لتنافس عصبية الدين وتعلو عليها(٢)، فهؤلاء القوم تعصبوا لفرد منهم مستحق للعقوبة، حتى أنهم سيُقاتلون من أجله جيشا فيه زوج رسول الله وحواريه وصاحبه في الجنة!

## خروج علي إلى العراق

كانت معركة البصرة وما وقع فيها دليلًا جديدا على صحّة موقف علي رضي الله عنه، فلقد أسفرت المعركة عن مزيد انقسام وتمزق، فقبلها كان الشام هو الإقليم الممتنع عن البيعة، فالآن صارت الشام والعراق على وشك الخروج من سلطان الخليفة، ولئن كان قصد الذين خرجوا القصاص لقتلة عثمان، فقد هيَّجت حربهم حروبا أخرى تبدو في الأفق،

(١) ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٧٨١٥) بإسناد صحيح؛ انظر: المصنف ط أسامة بن إبراهيم (١٣/ ٤٢٦)؛ المصنف ط الشثري (٢١/ ٥٠٧)؛ فقيهي، خلافة علي، ص١٠٠ (الملحق).

(٢) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ١/ ٢٦٣.

إذ تعصبت قبائل المقتولين لهم، وتحشدوا لمقاتلة جيش الزبير وطلحة وعائشة، فما هو إلا ينفلت نظام الأمة كلها.

عزم علي على الخروج بجيشه إلى العراق لوضع حدٍّ لهذا الانفلات، ووجد عليٌّ لمرة أخرى تثاقلا من العديد من الصحابة وأهل المدينة عن الخروج معه، فبعضهم علم أن هذا الخروج إنما هو خروج إلى القتال، قتال المسلمين الذين على رأسهم الزبير وطلحة وعائشة، فكان يرى ألا يتورط في قتال مسلم! وبعضهم كان يرى أن التأخر عن قتالهم أولى، فلعلهم حين يتسع عليهم الأمر يعرفون خطأ رأيهم فيعودون إلى الطاعة والتسليم لأمر علي، وبعضهم كان معترضا على مبدأ خروج الخليفة من المدينة من الأصل!

جاء عبد الله بن سلام فوقف في طريق عليٍّ وهو متجه إلى العراق، فقال له: «لا تقدم العراق، فإني أخشى أن يصيبك بها ذباب السيف. قال علي: وايم الله لقد أخبرني به رسول الله ﷺ»، حتى لقد تعجَّب الراوي أبو الأسود الديلي وقال: فما رأيت كاليوم قط محاربا يخبر بذي عن نفسه[1]. وهذا يفيد أن عليًّا كان لديه علمٌ من رسول الله بخروجه إلى العراق وبمقتله هناك!

وجاء في رواية أن ابن سلام قال لعلي: «لا تأت العراق، وعليك بمنبر رسول الله، فالزمه؛ ولا أدري هل ينجيك، فوالله لئن تركته لا تراه أبدا»، فقال من حوله: «دعنا فلنقتله»، فقال علي: «إن عبد الله بن سلام منا، رجل صالح»[2]. ولعل أولئك كانوا من أولئك المتمردين على عثمان، فإنهم كانوا أحرص الناس على القتال.

وكان الحسن بن علي معارضا لأبيه في الخروج، وناشده ألا يأتي العراق فيُقتل «بحالِ

---

(١) أبو يعلى، مسند أبي يعلى، (٤٩١) بإسناد صححه حسين سليم أسد؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، (١٤٧٨٥) وقال: رجاله رجال الصحيح غير إسحاق بن إبي إسرائيل وهو ثقة مأمون؛ البرزنجي، صحيح تاريخ الطبري، ٣/ ٣٧٧.

(٢) إسناده صحيح، انظر: فقيهي، خلافة علي، ص١٠٥، ١٠٦ (الملحق).

مَضيعةٍ»[1].

والســؤال هنا: إن كان عليٌّ –رضــي الله عنه– لديه علم من رســول الله بخروجه إلى العراق ومقتله هناك، وإن كانت نصائح المقربين منه مالت إلى البقاء بالمدينة، فلماذا أصرَّ على الخروج؟!

والجواب، والله أعلم، كالآتي: إن في هذا الموقف شبهًا قويا بحديث عائشة مع كلاب الحوأب، ومن قبله بحديث عثمان مع أهل الفتنة، فكان لا بد لعائشــة أن تخرج ليتحقق خبر رســول الله، ولا بد لعثمان أن يُقتل، وإن قضــاء الله لا يُرَدُّ، وعند وقوعه تذهل العقول وتُحْجَب الأبصــار والبصــائر. لكن قضــاء الله وإن كان نافذا إلا أنه لا بد من محاولة فهم الأســباب وجريانها، وكيف يتصــرف الناس بعقولهم واجتهادهم في تحقيق قدر الله النافذ الســابق. وقد ذكرنا الحكمة التي تبدت لنا من تصــرف عثمان، وذكرنا كذلك ما قد يكون دار في رأس عائشة مما يحملها على المسير.

وأما عليٌّ رضــي الله عنه، فقد وجدتُ نصًّــا يفسِّــر كيف نظر إلى الأمر، وذلك هو قوله لابنه الحســن: «لا أكون كالضَّــبع تستمع اللدم[2]»[3]. فهنا ضــرب عليٌّ مَثَلًا بالضــبع، فقد كانت العرب إذا أرادت أن تصــيد الضــبع ضــربت على جُحره بحَجَرٍ أو بالأيدي، فيظنُّ الضبعُ أن هذا شيءٌ يُصاد، فيخرج إليه، فيُصاد! فكأن عليا أراد أن يقول: إن بقاءه في المدينة كبقاء الضــبع في جُحْره، وإنه إن بقي فيها فســتأتيه الجيوش إليها لتضــرب عليه المدينة، فيخرج إليهم حينئـذ، فيكون موقفـه أضــعـف حـالا، بعـد أن تكون جيوش المطـالبين بالقصاص لعثمان قد زادت وتكاثرت، فيكون خروجه حينئذ لملاقاتها كخروج الضبع من

(١) ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٧٣٧١)، بإسناد صحيح، انظر: المصنف ط أسامة بن إبراهيم، (١٣/ ٢٩٦)؛ المصنف ط الشثري، (٢١/ ٢٨٦)؛ فقيهي، خلافة علي، ص٨٠ (الملحق)؛ الشمري، صحيح أخبار صفين، ١/ ١٧٧.

(٢) اللدم: الضرب.

(٣) ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٧٣٧١)، بإسناد صحيح، انظر: المصنف ط أسامة بن إبراهيم، (١٣/ ٢٩٦)؛ المصنف ط الشثري، (٢١/ ٢٨٦)؛ فقيهي، خلافة علي، ص٨٠ (الملحق)؛ الشمري، صحيح أخبار صفين، ١/ ١٧٧.

جُحره، يُصاد من حيث يحسب أنه يصيد!

وهذا فضلا عما سيكون قد انتشر في الأمة من الفوضى، وما يشيع فيها من القتال داخل كل ولاية بين المطالبين بالقصاص لعثمان والمبايعين لعليّ، وفي ذلك ضياع الأمة وتفرقها. هكذا قرأ عليٌّ صورة الحال حينها، ولهذا قرر الخروج إلى العراق لمنع انفلات الوضع.

لم يخرج مع علي من المدينة سوى سبعمائة، فكان عليٌّ يرسل إلى الأمصار يستنفر الناس معه، وكان أولى من يُرسل إليهم أهل الكوفة، فقد أخذ أبو موسى الأشعري منهم البيعة لعلي، ولكن أبا موسى نفسه رأى أن هذا قتال فتنة، فصار يحمل الناس على القعود وترك الخروج إلى القتال مع علي، وكان يروي لهم حديث النبي ﷺ: «إن بين يدي الساعة فِتَنًا كقطع الليل المظلم؛ يصبح الرجل فيها مؤمنا ويمسي كافرا، ويمسي مؤمنا ويصبح كافرا، القاعد فيها خير من القائم، والماشي فيها خير من الساعي، فكسِّروا قسيكم، وقطعوا أوتاركم، واضربوا سيوفكم بالحجارة، فإن دُخِل -يعني على أحد منكم- فليكن كخير ابني آدم[1]»[2].

واستطاع تحذير أبي موسى أن يثبط أهل الكوفة عن الخروج مع علي، وأن يعرقل مهمة الذين أرسلهم عليٌّ لاستنفار أهل الكوفة، فعزله

(١) كخير ابني آدم: أي كالذي قال لأخيه ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَ﴾ [المائدة: ٢٨].

(٢) أحمد (١٩٧٤٥)؛ أبو داود (٤٢٥٩)؛ ابن ماجه (٣٩٦١)، وحسنه شعيب الأرناؤوط، وصححه الألباني.

عليٌّ عن الكوفة، وكان من رُسُله إلى الكوفة ابنُ عباس، ولكن النتائج كانت قليلة، فأرسل بعده عمار بن ياسر والحسن بن علي، ويبدو أن قلة تحمس ابن عباس للقتال أثَّرت على نهوض الناس معه، بينما كانت حماسة عمار القوية للقتال قد أثارت واستنفرت أهل الكوفة، تذكر الرواية «فأرسلَ عبدَ الله بن عباس إلى الكوفة فأبطأوا عليه، ثم أتاهم عمارٌ فخرجوا»[١]، ومع ذلك فقد كان عمارٌ وهو في شدة حماسته واستنفاره للمسلمين يقول عن عائشة: «إني لأعلم أنها زوجته (ﷺ) في الدنيا والآخرة ولكن الله ابتلاكم لتتبعوه أو إياها»[٢]، وفي رواية: «إن أمير المؤمنين بعثنا إليكم لنستنفركم فإن **أُمَّنا** قد سارت إلى البصرة»[٣]. ومع أن الحسن كان مع عمار، إلا أن عمارًا هو الذي كان يخطب، بينما كان الحسن ساكتا[٤]، ويظهر من هذا الفارقُ بين رأي كلٍ منهما في القتال.

ويدلُّ على ذلك أيضا أن أبا موسى الأشعري وأبا مسعود الأنصاري أقبلا على عمارٍ فقالا: «ما رأيناك أتيتَ أمْرًا أَكْرَهَ عندنا من إسراعك في هذا الأمر منذ أسلمت؟ فقال عمار: ما رأيتُ منكما منذ أسلمتما أَمْرًا أَكْرَهَ عندي من إبطائكما عن هذا الأمر»[٥].

خرج عليٌّ من المدينة بسبعمائة رجل، ثم خرج إليه من الكوفة سبعة آلاف، وانضمَّ إليه من أهل البصرة ألفان، أكثرهم من قبيلة حكيم بن جبلة، الذي قُتِل في معركة البصرة، وكان رأس المتمردين البصريين على عثمان، فصار أولئك الموتورون في جيش علي أيضا[٦].

---

(١) ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٧٨٣٣)، بإسناد صحيح. انظر: ابن حجر، فتح الباري، ١٣/ ٥٨.

(٢) البخاري (٣٦٥١).

(٣) ابن حجر، فتح الباري، ١٣/ ٥٨.

(٤) ابن حجر، فتح الباري، ١٣/ ٥٨.

(٥) البخاري (٦٦٨٩).

(٦) الطبري، تاريخ الطبري، ٣/ ٣٩؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ٢/ ٢٦٢، وبالإسنادين يكون الخبر مقبولا، انظر: فقيهي، خلافة علي، ص١٠٨، ١٠٩ (الملحق).

## نشوب القتال

حاول عدد من الصحابة والتابعين إيقاف انفلات الحرب، والتخذيل عنها، فأرسل عمران بن الحصين رضي الله عنه إلى بني عديٍّ ينهاهم عن القتال، ويحلف بالله لهم «لئن يكون عبداً حبشياً مُجَدَّعاً يرعى أعنزاً في رأس جبل حتى يدركه الموت أحب إليه من أن يرمي في أحد من الفريقين بسهم، أخطأ أو أصاب»، ولكنهم استعظموا أن يتفرقوا عن أم المؤمنين، فقالوا: «والله لا ندع ثقل رسول الله ﷺ لشيء أبداً»(١).

وأفادت رواية حسنة الإسناد أن عليًّا نصب خيمةً بين المعسكرين، فكان يأتي إليها طلحة والزبير، فيتكلمون ويتذاكرون، وفي اليوم الثالث عند الظهر، رفع عليٌّ الخيمة، ثم أمر بالقتال(٢)، وهذه الرواية تشير إلى رفع الخيمة ثم الأمر بالقتال تصف الوضع باختصار، جاء في روايات أخرى تفصيله، وخلاصته أن القوم كادوا يصطلحون وينتهي القتال، وهو ما قد يُفَسِّر رفع الخيمة التي كانت فيها المفاوضة بين علي وبين طلحة والزبير.

---

(١) ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٧١١٧)؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٤/ ٢١٦؛ الطبري، تاريخ الطبري، ٣/ ٣٧، ٣٨، بإسناد صحيح، انظر: البرزنجي، صحيح تاريخ الطبري، ٣/ ٣٨٢؛ الشمري، صحيح أخبار صفين، ١/ ٣٢٢.

(٢) ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٧٧٧٧)، بإسناد صحيح، انظر: المصنف ط أسامة بن إبراهيم (١٣/ ٤١٣)؛ المصنف ط الشثري (٢١/ ٤٨٥)؛ فقيهي، خلافة علي، ص١١٦ (الملحق).

لقد كان شأن الخلاف بين الفريقين واضحا، فلم يكن ثمة أحدٌ يشكك في خلافة عليٍّ:

يقول ابن حزم: «وأما أم المؤمنين والزبير وطلحة رضي الله عنهم، ومن كان معهم، فما أبطلوا قط إمامة علي ولا طعنوا فيها ولا ذكروا فيه جرحة تحطه عن الإمامة، ولا أحدثوا إمامة أخرى، ولا جددوا بيعة لغيره، هذا ما لا يقدر أن يدعيه أحد بوجه من الوجوه. بل يقطع كل ذي علم على أن كل ذلك لم يكن، فإذ لا شك في كل هذا، فقد صح صحة ضرورية لا إشكال فيها أنهم لم يمضوا إلى البصرة لحرب علي، ولا خلافا عليه، ولا نقضا لبيعته. ولو أرادوا ذلك لأحدثوا بيعة غير بيعته، هذا ما لا يشك فيه أحد ولا ينكره أحد، فصحَّ أنهم إنما نهضوا إلى البصرة لسد الفتق الحادث في الإسلام من قتل أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه ظلما»(١).

يقول ابن حجر: «يدل لذلك أن أحدا لم ينقل أن عائشة ومن معها نازعوا عليا في الخلافة، ولا دعوا إلى أحد منهم ليولوه الخلافة، وإنما أنكرت هي ومن معها على علي مَنْعَه مِن قَتْلِ قَتَلَة عثمان وترك الاقتصاص منهم، وكان عليٌّ ينتظر من أولياء عثمان أن يتحاكموا إليه، فإذا ثبت على أحد بعينه أنه ممن قتل عثمان اقتص منه، فاختلفوا بحسب ذلك، وخشي من نُسِبَ إليهم القَتْلُ أن يصطلحوا على قتلهم، فأنشبوا الحرب بينهم»(٢).

تشير بعض الروايات الصحيحة إلى المندسين بين الفريقَيْن من أهل الفتنة، كذلك الرجل الذي جاء إلى الزبير بن العوام يعرض عليه اغتيال علي، فأبى الزبير؛ قال الرجل: «أقتل لك عليًّا؟ قال: لا. وكيف تقتله ومعه الجنود؟ قال: أَلْحَقُ به فأفتك به. قال: لا إن

(١) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ٤/ ١٢٣.

(٢) ابن حجر، فتح الباري، ١٣/ ٥٦. وهذا رأي ابن بطال في شرح البخاري كما نقله ابن حجر، ولقد أثبتُّ كلام ابن حجر دون كلام ابن بطال لأنه أوضح وأدق، انظر: ابن بطال، شرح صحيح البخاري، تحقيق: ياسر بن إبراهيم، ط٢ (الرياض: مكتبة الرشد، ٢٠٠٣م)، ١٠/ ٥١، ٥٢.

رسول الله ﷺ قال: «إن الإيمان قيد الفتك، لا يفتك مؤمن»[١].

وتفيد الأسانيد الصحيحة والحسنة أن القتال نشب فجأة، وأن بدايته كانت من الصبيان والعبيد و سفهاء المعسكرين، فقد كان اختلاط الناس بين المعسكرين يدور حول الصلح والرغبة في تجنب القتال، جاء في رواية صحيحة: «فقال لنا أصحابنا من أهل البصرة: ما سمعتم إخواننا من أهل الكوفة يريدون ويقولون؟ فقلنا: يقولون: خَرَجْنا للصلح، وما نريد قتالا. فبينا هم على ذلك، لا يحدثون أنفسهم بغيره، إذ خرج صبيان العسكرين فتسابُّوا، ثم تراموا، ثم تتابع عبيد العسكرين، ثم ثَلَّثَ السفهاء، ونشبت الحرب»[٢].

ولكن لا نجد فيما بين أيدينا تفصيلا لما في الروايات الصحيحة المختصرة، إلا رواية سيف بن عمر عند الطبري، فهي رواية تنسجم مع ما صحَّ من الطرق الأخرى، وتشهد لعدالة الصحابة، وتفسر مواقفهم على خير وجه، وتشير إلى يد أصحاب الفتنة الذين أنشبوا الحرب، فهم أحرص الناس عليها[٣]، تقول الرواية أن عليًّا أرسل القعقاع بن عمرو إلى عائشة وطلحة والزبير، فذهب القعقاع وبدأ بعائشة، فسلَّم عليها وقال لها:

«أي أمه! ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة؟

قالت: أي بني! إصلاحٌ بين الناس.

قال: فابعثي إلى طلحة والزبير حتى تسمعي كلامي وكلامهما.

فبعثت إليهما فجاءا، فقال: إني سألت أم المؤمنين ما أشخصها وأقدمها هذه البلاد، فقالت: إصلاحٌ بين الناس. فما تقولان أنتما؟ أمتابعان أم مخالفان؟

قالا: متابعان.

---

(١) أحمد (١٤٢٦)، وصححه أحمد شاكر وشعيب الأرناؤوط والألباني؛ وانظر: فقيهي، خلافة علي، ص١١٩.

(٢) الطبري، تاريخ الطبري، ٣/ ٣١، بإسناد حسن. انظر: فقيهي، خلافة علي، ص١١٥، ١١٦.

(٣) ولذلك وضعها البرزنجي في صحيح الطبري، مع إقراره بضعف إسنادها. انظر: صحيح تاريخ الطبري، ٣/ ٣٨٠.

قال: فأخبراني، ما وجه هذا الإصــلاح؟ فوالله لئن عرفنا لنصــلحن، ولئن أنكرناه لا نصلح.

قالا: قتلة عثمان رضــي الله عنه، فإن هذا إن تُرِكَ كان تركًا للقرآن، وإن عُمِلَ به كان إحياء للقرآن.

فقال: قد قتلتما قتلة عثمان من أهل البصــرة، وأنتم قبل قتلهم أقرب إلى الاســتقامة منكم اليوم، قتلتم ستمائة إلا رجلًا، فغضب لهم ستة آلاف، واعتزلوكم، وخرجوا من بين أظهركم، وطلبتم ذلك الذي أَفْلَت -يعني حرقوص بن زهير- فمنعه ستة آلاف، وهم على رجل! فإن تركتموه، كنتم تاركين لما تقولون، وإن قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فأديلوا عليكم، فالذي حذرتم وقربتم به هذا الأمر أعظم مما أراكم تكرهون. وأنتم أحميتم مضــر وربيعة من هذه البلاد، فاجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصرة لهؤلاء، كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدث العظيم والذنب الكبير.

فقالت أم المؤمنين: فتقول أنت ماذا؟

قال: أقول: هذا الأمر دواؤه التسكين، وإذا سَكَنَ اخْتُلِجوا[1]، فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير، وتباشير رحمة، ودرك بثأر هذا الرجل، وعافية وسلامة لهذه الأمة. وإن أنتم أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافه، كانت علامة شر، وذهاب هذا الثأر...

فقالوا: نعم، إذًا قد أحســنت وأصــبت المقالة، فارجع، فإن قدم علي وهو على مثل رأيك صلح هذا الأمر.

فرجع إلى علي فأخبره، فأعجبه ذلك، وأشرف القوم على الصلح، كره ذلك من كرهه، ورضيه من رضيه. وأقبلت وفود البصرة نحو علي حين نزل بذي قار، فجاءت وفود تميم

(١) إذا سكن اختلجوا: أي إذا هدأت الأمور واستقرت الأحوال، أمكن استخلاص هؤلاء المتهمون بالقتل وانتزاعهم للقضاء والقصاص دون أن تتعصب لهم قبائلهم، التي تتعصب الآن لهم في أجواء الحرب والفوضى والفتنة.

وبكر قبل رجوع القعقاع لينظروا: ما رأى إخوانهم من أهل الكوفة؟ وعلى أي حال نهضوا إليهم؟ وليعلموهم أن الذي عليه رأيهم الإصلاح، ولا يخطر لهم قتال على بال. فلما لقوا عشائرهم من أهل الكوفة بالذي بعثهم فيه عشائرهم من أهل البصرة، وقال لهم الكوفيون مثل مقالتهم»[1].

كانت تباشير الإصلاح هذه هي التي تخوف منها أهل الفتنة، فقد علموا أن الصلح بين المسلمين سيعود عليهم بالضرر، فكان اندساس بعضهم بين الفريقين، وإشعالهم الحرب على يد الصبيان والعبيد والسفهاء هو الطريقة المثلى التي تنقض ما قد كان أُبْرِم. ولم يكن الاندساس بين الجيشيْن صعبا، فالقبائل منقسمة بين الجيشين، والبلدان منقسمة، وقد سلف أن رأينا رجلا يستطيع أن يزعم أنه يلتحق بعلي ليقتله غيلة، فكان تهييج الصبيان والعبيد والسفهاء هو شرارة المعركة!

يروي الطبري: «فباتوا على الصلح، وباتوا بليلة لم يبيتوا بمثلها للعافية من الذي أشرفوا عليه، والنزوع عما اشتهى الذين اشتهوا وركبوا ما ركبوا. وبات الذين أثاروا أمر عثمان بشر ليلة باتوها قط، قد أشرفوا على الهلكة، وجعلوا يتشاورون ليلتهم كلها، حتى اجتمعوا على إنشاب الحرب في السر، واسْتَسَرُّوا بذلك خشية أن يفطن بما حاولوا من الشر، فَغَدَوْا مع الغلس وما يشعر بهم جيرانهم، انسلوا إلى ذلك الأمر انسلالا وعليهم ظلمة، فخرج مضريهم إلى مضريهم، وربعيهم إلى ربعيهم، ويمانيهم إلى يمانيهم، فوضعوا فيهم السلاح فثار أهل البصرة وثار كل قوم في وجوه أصحابهم الذين بهتوهم»[2].

فما أتى الصباح إلا وكان الجيشان قد اصطفَّا، وكل منهما يشعر بالغدر من جانب الآخر. ولما أحس قاضي البصرة الشهير، كعب بن سور، بهذا خرج وهو يُعلِّق المصحف،

(١) الطبري، تاريخ الطبري، ٣/ ٢٩، ٣٠، من رواية سيف بن عمر.

(٢) الطبري، تاريخ الطبري، ٣/ ٣٩، من رواية سيف بن عمر.

فسار بين الصفَّيْن، يناشد الناس في دمائهم، فجاءه سهمٌ فقتله[1]، ثم انفلت الأمر!

ويروي محمد بن الحنفية أن أباه عليًّا أعطاه الراية عندما اقترب القتال، يقول: «فرأى مني نكوصا لما دنا الناس بعضهم إلى بعض، فأخذها مني فقاتل بها»[2]. وتدل الرواية على ما كان يمور بصدور المسلمين من الحرج في قتال المسلمين.

وسـرعان ما التهمت المعركة المشـتعلة الرجليْن الكبيريْن: طلحة والزبير، فكانا أول ضـحاياها، يقول الأحنف بن قيس: «لما التقوا كان أول قتيل طلحة بن عبيد الله»[3]، وقد اشتهر أنه قُتِل بسهم أطلقه مروان بن الحكم، ولا يصحُّ هذا، والأقرب أنه قُتِل بسهم طائشٍ أو لا يُعرف صاحبه[4].

---

(١) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة، ص١٨٥؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٧/ ٦٤، بإسناد صححه ابن حجر، فتح الباري، ١٣/ ٣٤.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٥/ ٦٨، بإسناد حسن، انظر: فقيهي، خلافة علي، ص١٣٨ (الملحق)؛ علي بن غرسان الشمراني، الأحاديث والآثار الواردة في كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد: من أول حديث عثمان بن عبيد الله من ترجمة أبي هريرة إلى آخر ترجمة أبي الجعد الأشجعي دراسة وتخريجًا، رسالة دكتوراة (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٤٢٦هـ)، ص٥١٥ (نسخة إلكترونية).

(٣) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة، ص١٨٥؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٧/ ٦٤، بإسناد صححه ابن حجر، فتح الباري، ١٣/ ٣٤.

(٤) وقفة عند اتهام مروان بن الحكم بقتل طلحة بن عبيد الله:

مع أن منهجنا عدم التوقف عند التفاصيل الدقيقة، إلا أن شهرة هذه الحادثة تحملنا على مخالفة هذا المنهج:

١ . فقد وردت روايات تفيد أن مروان بن الحكم قتل طلحة بن عبيد الله، قاصدا، لأنه كان يحرض على عثمان، وبعض طرق هذه الروايات ظاهرها الصحة، ولذلك ذهب محققا المصنف لابن أبي شيبة إلى تصحيح السند (انظر: ط أسامة بن إبراهيم ١٣/ ٤١١؛ المصنف ط الشثري ٢١/ ٤٨٢)، ويوحي كلام ابن حجر تصحيح السند إذ قال (الإصابة في تمييز الصحابة ٣/ ٤٣٢): «أخرجه أبو القاسم البغويّ بسند صحيح من الجارود بن أبي سبرة...» فذكره، ثم قال: «أخرج يعقوب بن سفيان بسند صحيح، عن قيس بن أبي حازم...».

٢ . للحافظ ابن حجر طريقة تظهر بممارسة كتبه، وهي أنه يشير أحيانا إلى علّة السند إشارة خفية، فهذه على الأرجح من طريقته، فهو يصحح الإسناد حتى الجارود وحتى قيس بن أبي حازم، وهذه أقوى طرق هذه الرواية. ولكن

الإشكال هنا أن كلا الرجلين لم يشهد موقعة الجمل، فالإسناد منقطع، فالسند صحيح إليهما. وكذلك طريق أخرى تنتهي إلى محمد بن سيرين الذي كان صغيرا وقت المعركة.

٣. لكن ذهب بعض العلماء إلى ضعف هذه الرواية، منهم ابن العربي (العواصم من القواصم، ص١٦٠، وتابعه في هذا محقق العواصم الشيخ محب الدين الخطيب)، وابن كثير (البداية والنهاية ٧/ ٢٧٦)، ولكنهما لم ينقدا الروايات على وجه التفصيل. ثم جاء النقد التفصيلي للروايات وتتبعها على يد الباحثين المعاصرين، مبرهنين بذلك على مقولة «كم ترك الأول للآخر»، وكنتُ قد بذلتُ جهدا في تتبع الروايات، ثم وقعتُ على جهد مَنْ سبقني، فحذفتُ ما كتبتُ مكتفيا بالإشارة إلى جهدهم فهو أشمل وأوسع وأتقن، انظر: عبد الحميد الأزهري، «هل صح رمي مروان لطلحة بن عبيدالله يوم الجمل؟»، موقع الألوكة، بتاريخ ٣١/١٢/٢٠١١، على الرابط <www.alukah.net/sharia/0/37162>؛ وقد استفاد منه، وزاد عليه: الشمري، صحيح أخبار صفين، ١/ ٤٤١، ٤٤٢؛ وسبق الأزهريَّ والشمريَّ في بعضِ الأمور د. خالد الغيث، استشهاد عثمان، ص١٩٣، ١٩٤؛ وانظر: د. الصلابي، علي بن أبي طالب، ص٤٧٤، ٤٧٥.

٤. وأظهر الأدلة على براءة مروان أربعة:

- أن لا داعي ولا مصلحة لمروان في قتل طلحة، إذ هما في نفس المعسكر، معسكر المطالبين بدم عثمان، ولا يُعقل أن يقتل مروان قائد الجيش المطالب بالقصاص، فإنه بهذا يُطعن نفسه وقضيته ويساهم في هلكة جيشه.
- تقول الروايات الضعيفة بأن مروان قتله لأن طلحة كان من أشد المحرضين على عثمان، ولا يثبت هذا عن طلحة، بل رُوِي أن محمد بن طلحة كان في أبناء الصحابة المدافعين عن عثمان (انظر: تاريخ الطبري، ٢/ ٦٧٤، من رواية سيف بن عمر) كما كان في الجمل (الحاكم برقم ٥٥٩٥ بسند جيد كما قال الذهبي).
- أن أبناء طلحة، وجيش علي، كلاهما كان يرى أن طلحة قُتِل على يد جيش علي، وقد ورد هذا من طرق صحيحة، (انظر طرق الرواية عند: فقيهي، خلافة علي، ص١٦١، ١٦٢)، ولم يرد عن أحد من آل طلحة اتهامه لمروان، أو طلبه القصاص منه.
- كذلك فإن صنيعَ الصحابة وأئمة الحديث مع مروان، يدلّ أنهم يبرؤونه، فقد روى عنه الحديثَ بعضُ الصحابة كسهل بن سعد، وبعض كبار التابعين، ونقل عنه المحدثون الكبار كمالك والبخاري وأصحاب السنن، وهم متشددون في اشتراط العدالة، فكيف وهذا قتل وغدر معًا؟! (انظر: ابن حجر، فتح الباري، ١/ ٤٤٣، ولا يصحُّ توجيه الإسماعيلي وغيره من أنه كان في قتله متأولا، لكونه قتال في فتنة، فإنه قتل وغدر، وليس قتالا).

٥. ومن غرائب هذه الرواية، أنها تخالف رواية الأحنف بن قيس، وهو أقرب معايشة لمعركة الجمل، وكان معتزلا لها، ففي رواية الأحنف أن طلحة هو أول من قُتِل، وفي هذه الرواية أن مروان لما رأى الهزيمة على أهل الجمل رمى طلحة بسهم، أي أن قتله كان في آخر المعركة.

٦. ومن غرائب هذه الرواية أيضا أن قيس بن أبي حازم كوفي (أي من المدينة المعروفة بشدة ولائها لعليّ)، ولكنه كان عثمانيا، أي من المنحازين لعثمان، ومع هذا فهو يروي رواية لا يذكر فيها شيخَه، تُثْبِتُ تهمة القتل والغدر على مروان (المنحاز لعثمان) في حق طلحة (المنحاز لعثمان)!!

وأما الزبير فقد هاله مرأى جيشين من المسلمين يتأهبان للقتال، فورد عنه أنه انصرف من المعركة دون أن يُقاتل، وذلك في أولها، ولا تصحّ الرواية التي ذكرت بأنه انصرف حين ذَكَّره عليٌّ بأن النبي ﷺ قال للزبير يوما عن عليّ: «تقاتله وأنت له ظالم»[1]! وجاء في عدد من الروايات سبب انصرافه، فمنها ما يعزو انصرافه لمعاتبة وقعت بينه وبين علي، فعليٌّ هو ابن خال الزبير، أو لأنه رأى عمارا في صفِّ علي، فضلا عما كان فيه من التردد الذي عبَّر عنه بقوله «ما أظن أنها نزلت فينا»، وقد يكون هذا كلُّه أو أشياء أخرى[2]. والمهم أنه حين انصرف تبعه رجلان منهم ابن جرموز، فقتله، واحتزَّ رأسه، ثم ذهب بها إلى علي رضي الله عنه، فقال علي: «بشر قاتل ابن صفية بالنار»[3].

ومع اختفاء القائدَيْن الكبيرَيْن فجأة في أول القتال، تركّز القتال حول عائشة التي كانت في هودج فوق الجمل، ولولا الهودج لقُتِلت، فلقد روى شاهد عيان مشهد الجمل فقال:

---

(١) ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٧٨٢٧)؛ الحاكم (٥٥٧٤). ولم أر أحدًا صحح هذه الرواية إلا الحاكم، ووافقه الذهبي في طريق واحد فقط، وسائر من تناول الإسناد بالفحص انتهى إلى أنه ضعيفٌ فيه أكثر من علّة، أو أنه يصححه بمجموع الطرق الضعيفة كما فعل الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٦٥٩). انظر مثلا: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١/ ٥٨ (حاشية التحقيق)؛ السيوطي، جمع الجوامع، تحقيق: مختار إبراهيم وآخران، ط٢ (القاهرة: الأزهر الشريف، ٢٠٠٥م)، ١٧/ ٥٤٧ (حاشية التحقيق)؛ المصنف ط أسامة بن إبراهيم (١٣/ ٤٢٨)؛ المصنف ط الشثري، (٢١/ ٥١١)؛ فقيهي، خلافة علي، ص١٢٢ وما بعدها (الملحق)؛ البرزنجي، ضعيف تاريخ الطبري، ٨/ ٦٨٧؛ خالد الغيث، استشهاد عثمان ووقعة الجمل، ص١٩٢.

ثم إن في المتن علةً أخرى، فقول النبي صريح في وقوع القتال «لتقاتلنه»، وبقية الرواية تقول بأن الزبير انصرف دون قتال! وبهذا تطمئن النفس إلى أن هذه الحادثة ليست صحيحة. وإنما توقفت عندها لشهرتها مع أن منهجنا هذه «الخلاصة» الإعراض عن الضعيف وتجاهله.

(٢) انظر في الروايات: فقيهي، خلافة علي، ص١٢٧ وما بعدها.

(٣) أحمد، المسند، (٦٨١)؛ فضائل الصحابة (١٢٧٢) وحسنه محققه وصي الله؛ والحاكم (٥٥٨٠) وصححه ووافقه الذهبي، وصححه ابن حجر في الفتح (٦/ ٢٢٩) وأحمد شاكر وحسنه شعيب الأرناؤوط؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣/ ٨١، ٨٢، بإسناد حسن، انظر: فقيهي، خلافة علي، ص٩٧، ١٤٧ (الملحق).

«لقد رأيت الجمل يومئذ كأنه قنفذ من النبل، ورجل آخذ بالخطام وهو يقول:

نحن بنو ضبة أصحاب الجمل ننازل الموت إذا الموت نزل

والموت أحلى عندنا من العسل نفدي ابن عفان بأطراف الأسل[1]

ويُصَوِّر لنا هذا الشعر استماتة البصريين حول جمل عائشة، فأيُّ عارٍ أن يُخلص إلى أم المؤمنين وهي بينهم، «فقتل بشر والله كثير حول عائشة يومئذ سبعون كلهم قد جمع القرآن. قال ومن لم يجمع القرآن أكثر»[2]. وقيل في وصف المشهد يوم الجمل: «لا والله ما رأيت مثل يوم الجمل لقد أشرعوا الرماح في صدورنا وأشرعناها في صدورهم حتى لو شاءت الرجال أن تمر عليها لمرت»[3].

ونادت عائشة بلعن قتلة عثمان، وقد يكون نداؤها هذا غضبا وسخطا على انفلات الوضع واشتعال القتال، كما قد يكون تحميسا للمدافعين عنها، فكان الناس ينادون بلعنهم، حتى بلغ صوتُهم معسكر عليٍّ رضي الله عنه، «فقال: انظروا ما يقولون، فرجعوا فقالوا: يهتفون بقتلة عثمان، فقال: اللهم احلل بقتلة عثمان خزيا»[4]، وفي رواية أنه قال: «لعن الله قتلة عثمان في السهل والجبل والبر والبحر»[5].

وأدرك عليٌّ أن المعركة لن تنتهي طالما بقي الجمل قائما والهودج بارزا، فأرسل ما يمكن أن نسميه بمصطلحاتنا المعاصرة «فرقة خاصة»، لعقر الجمل، فأرسل محمد بن أبي بكر وعبد الله

---

(١) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ص١٩٠؛ الطبري، تاريخ الطبري، ٣/ ٥٣، بإسناد حسن، انظر: فقيهي، خلافة علي، ص١٣٨ (الملحق). والأسل: الرماح.

(٢) ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٧١١٧)؛ ؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٤/ ٢١٦؛ الطبري، تاريخ الطبري، ٣/ ٣٧، ٣٨، بإسناد صحيح، انظر: البرزنجي، صحيح تاريخ الطبري، ٣/ ٣٨٢؛ الشمري، صحيح أخبار صفين، ١/ ٣٢٢.

(٣) ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٧٧٦٩)؛ خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ص١٩١، بإسناد صحيح؛ انظر: فقيهي، خلافة علي، ص١٣٧.

(٤) ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٧٨١٠)؛ انظر: فقيهي، خلافة علي، ص١٣٦ (الملحق)

(٥) ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٧٧٩٣)، بإسناد صحيح؛ انظر: فقيهي، خلافة علي، ص١٣٥ (الملحق)

بن بديل، فاخترقا صفوف البصريين، فقطعا قوائم الجمل، وكان الأمر سريعا حتى روى بعض البصريين أنه كان مفاجأة لهم، قال: «فأقسم بالله ما برح حتى برى قوائم البعير، فسقط، فقالوا: أمنا! أمنا! فقال: رجل لأبي رجاء ما صنعت يومئذ؟ قال: رميت بأسهم فما أدري ما فعلن»[1].

ولما انتهى عبد الله بن بديل إلى عائشة وهي في الهودج يوم الجمل، قال: يا أم المؤمنين، أنشدك بالله، أتعلمين أني أتيتك يوم قتل عثمان فقلتُ: إن عثمان قد قتل فما تأمريني؟ فقلتِ لي: الزم عليا، فوالله ما غيَّرَ ولا بدَّل، فسكتَتْ. ثم أعاد عليها ثلاث مرات، فسكتت. فقال: اعقروا الجمل، فعقروه. قال: فنزلتُ أنا وأخوها محمد بن أبي بكر، واحتملنا الهودج حتى وضعناه بين يدي علي، فأمر به علي فأُدْخِلَ في منزل عبد الله بن بديل[2].

وبهذا تحقق ما كان النبي ﷺ أخبر به، وذلك في قوله ﷺ لعليٍّ: «إنه سيكون بينك وبين عائشة أمر. قال: أنا يا رسول الله؟! قال: نعم. قال: فأنا أشقاهم يا رسول الله! قال: لا، ولكن إذا كان ذلك، فارددها إلى مأمنها»[3]. وأصيبت عائشة يوم الجمل في رأسها، بشَجَّةٍ أو رمية[4].

ومع سقوط الجمل، انتهت المعركة التي بدأت بعد صلاة الظهر، فما غربت الشمس وحول الجمل عين تطرف ممن كان يذب عنه، فقال علي: «لا تتموا جريحا، ولا تقتلوا مدبرًا، ومن أغلق بابه وألقى سلاحه فهو آمن»؛ فلم يكن قتالهم إلا تلك العشية وحدها[5]. حتى لقد رُوي عن مروان بن الحكم أنه قال لعلي بن الحسين بن علي: «ما رأيت أحدًا أكرم غلبة من أبيك، ما هو

(١) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ص١٩٠.

(٢) ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٧٨٣١)، بإسناد جيد، انظر: ابن حجر، فتح الباري، ١٣/ ٥٧.

(٣) أحمد (٢٧٢٤٢)، بإسناد حسن، انظر: ابن حجر، فتح الباري، ١٣/ ٥٥.

(٤) ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٧٨٣١)، بإسناد جيد، انظر: ابن حجر، فتح الباري، ١٣/ ٥٧.

(٥) ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٧٨٣٣)، بإسناد صحيح، انظر: ابن حجر، فتح الباري، ١٣/ ٥٧.

إلا أن ولينا يوم الجمل فنادى مناديه: لا يُقْتَل مُدْبِر، ولا يذفف على جريح»[١].

وشــهدت المعركة بعض مواقف مؤثرة، تبين كراهة المؤمنين لهذا القتال، وتدلُّ على أن نية القتال لم تكن حاضــرة، وإنما انفلت الأمر وخرج عن يد الجميع؛ فقد روى محمد بن الحنفية أنه كاد يطعن رجلا من أهل البصــرة، فقال له: أنا على دين علي بن أبي طالب، فكفَّ عنه وتركه[٢]. وقال محمد بن طلحة لعائشــة: يا أماه ما تأمريني؟ فقالت: كُنْ كَخَيْرِ ابني آدم[٣]، فأغمد سيفه بعد ما سلَّه، ثم قاتل حتى قتل»[٤].

ولما انتهت المعركة اقترب عمار بن ياسر من المنزل الذي فيه عائشة، فقال لها: «يا أم المؤمنين! ما أبعد هذا المســير من العهد الذي عُهِدَ إليك[٥]! قالت: أبو اليقظان؟! قال: نعم. قالت: والله إنك -ما علمتُ- قوَّال بالحق. قال: الحمد لله الذي قضــى لي على لسانك»[٦].

طويت بانتهاء المعركة أول معركة اقتتل فيها الصحابة منذ ظهر الإسلام، وقُتِل من المسلمين بيد المسلمين بضعة آلاف، كلهم دعواهم واحدة، وانقضت معركة لم يسعَ إليها أحد إلا وهو يظن أنه يسعى في الإصلاح لا في القتال وسفك الدماء.

---

(١) الشافعي، الأم، (بيروت: دار المعرفة، ١٩٩٠م)، ٤/ ٢٢٩؛ سعيد بن منصور، سنن سعيد بن منصور، (٢٩٤٧)؛ بإسناد حسن، انظر: فقيهي، خلافة علي، ص١٤٨ (الملحق).

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٥/ ٦٨، بإسناد حسن، انظر: فقيهي، خلافة علي، ص١٣٨ (الملحق)؛ الشمراني، الأحاديث والآثار في طبقات ابن سعد، ص٥١٥.

(٣) كن كالخير من ابني آدم: أي كن المقتول ولا تكن القاتل، كما قال تعالى عن ابن آدم ﴿لَبِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَ﴾[المائدة: ٢٨]

(٤) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٥/ ٤٠؛ ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٧٨٢٣)؛ البخاري، التاريخ الصغير، ١/ ١١٠؛ الطبري، تاريخ الطبري، ٣/ ٥١؛ الحاكم (٥٦٠٩)؛ بإسناد حسن، انظر: فقيهي، خلافة علي، ص١٣٩ (الملحق).

(٥) يقصد بالعهد قول الله تعالى: ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾[الأحزاب: ٣٣].

(٦) الطبري، تاريخ الطبري، ٣/ ٦١، بإسناد صحيح، انظر: ابن حجر، فتح الباري، ١٣/ ٥٨.

واستفاد المسلمون على طول الدهر من هذه المعركة فقها في قتال البغاة المتأولين، وكان عليٌّ رضي الله عنه هو فارس هذا الباب، فرأى المسلمون «أن عليا لم يَسْبِ يوم الجمل ولم يقتل جريحا»[1]، ولم يغنم من أهل الجمل إلا السلاح والعتاد[2]، وكتبوا هذا في فقههم الذي يباهون به كل قانون وُضِع في هذه الدنيا، فلم تعرف الدنيا فقها رعى حق الخارجين عن السلطة الشرعية وقاتلوها كما عرفوه في شريعة هذا الدين.

## آثار معركة الجمل

صحَّ عن عليٍّ رضي الله عنه أنه لما نشبت المعركة ورأى هَوْل تقاتل الجيشيْن قال لابنه الحسن: «يا حسن، لوددت أني مت قبل هذا بعشرين حجة»[3]، وفي رواية أنه قال: «يا حسن، ثكلتك أمك -أو: هبلتك أمك- ما ظنك بأمريءٍ جمع بين هذين الغارَيْن[4]، والله ما أرى بعد هذا خيرا، قال: فقلتُ: اسكت، لا يسمعك أصحابك فيقولوا: شككت، فيقتلونك»[5]. وتبين هذه الرواية أن الأمر كان منفلتا من الجميع،

(١) ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٧٧٦٤)؛ عبد الله بن أحمد بن حنبل، السنة، (١٣٢٦)، بإسناد صحيح، انظر: المصنف، ط أسامة بن إبراهيم، (١٣/ ٤٠٩)؛ المصنف، ط الشثري (٢١/ ٤٧٩)؛ فقيهي، خلافة علي، ص١٥٠ (الملحق)؛ الشمري، صحيح أخبار صفين، ١/ ١٧٢.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٥/ ٦٨؛ ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٧٨٢٠)، بإسناد حسن، انظر: فقيهي، خلافة علي، ص١٣٨ (الملحق)؛ الشمراني، الأحاديث والآثار في طبقات ابن سعد، ص٥١٥؛ المصنف ط الشثري (٢١/ ٥٠٨).

(٣) ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٧٨٣٥)، بإسناد صحيح، انظر: فقيهي، خلافة علي، ص١٥٧ (الملحق)؛ المصنف ط الشثري (٢١/ ٥١٦)؛ الشمري، صحيح أخبار صفين، ١/ ١٧٥.

(٤) الغاريْن: الجيشين.

(٥) ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٧٨١٢)، بإسناد صحيح، انظر: المصنف ط أسامة بن إبراهيم (١٣/ ٤٢٥)؛ المصنف ط الشثري (٢١/ ٥٠٥)؛ الشمري، صحيح أخبار صفين، ١/ ١٧٥.

وأن عليًّا نفسه لم يكن يستطيع إيقاف القتال، بل إن الحسن خشي عليه من أن يَظْهَر ندمُه، فيقوم إليه هؤلاء فيقتلونه!!

ويظهر من الرواية نَدَم عليٍّ على وقوع المعركة، ويدل على ذلك ما جاء في رواية أخرى صحيحة: قال علي رضي الله عنه لابنه الحسن يوم الجمل: «يا حسن، ليت أباك مات من عشرين سنة، فقال له الحسن: يا أبت قد كنت أنهاك عن هذا. قال: يا بني لم أر الأمر يبلغ هذا»(١).

كذلك ندمت عائشة، وورد عنها أنها قالت: «وددت أني كنت غصنا رطبا ولم أسر مسيري هذا»(٢)، وترحمتَ على قتلى الجيشَيْن، فقد دخل عليها خالد بن الواشمة، ويبدو أنه كان أول من دخل عليها بعد الجمل، فسألته: ما فعل فلان؟ -تعني طلحة- قال: قتل يا أم المؤمنين، قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، يرحمه الله، ما فعل فلان؟، قال: قتل، قال: فرَجَّعت أيضا، وقالت: يرحمه الله، قال: قلتُ: بل نحن لله، وإنا لله على زيد وأصحاب زيد -يعني زيد بن صوحان- قالت: وقُتِل زيد؟، قال: قلت: نعم، قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، يرحمه الله، قال: قلت: يا أم المؤمنين، هذا من جند، وهذا من جند ترحمين عليهم جميعا؟! والله لا يجتمعون أبدا! قالت: أولا تدري، رحمة الله واسعة وهو على كل شيء قدير»(٣).

ومع هذا الندم العام، إلا أن بعض الناس لم ير أنه أخطأ، لا سيما الذين كانوا في

---

(١) عبد الله بن أحمد بن حنبل، السنة، (١٣٩٧)، بإسناد صحيح، انظر: الشمري، صحيح أخبار صفين، ١/ ١٧٤.

(٢) ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٧٨١٨)، بإسناد صحيح، انظر: المصنف ط الشثري (٢١/ ٥٠٨)؛ فقيهي، خلافة علي، ص١٦٨ (الملحق).

(٣) معمر بن راشد، الجامع، (٢٠٥٦٤)؛ ومن طريقه: البيهقي، السنن الكبرى، (١٦٤٩٥)، بإسناد حسن. انظر: العمري، عصر الخلافة الراشدة، ص٤٥٩.

جانب علي؛ ففي مجلس للحارث بن سويد وعبد الله بن سلمة تذاكرا يوم الجمل، فقال الحارث: «فوالله لوددت أني لم أشهد ذلك اليوم وأن عليَّ كذا، فقال عبد الله بن سلمة: والله ما يسرني أني غبت عن ذلك اليوم، ولا أني غبت عن مشهد شهده علي وأن لي كذا»[1].

وكان من أهم آثار معركة الجمل أن عليًّا رأى حماسة أهل الكوفة في الخروج معه والقتال إلى جواره، وكانت المقارنة بينهم وبين ما سواهم من أهل الأمصار كمكة والمدينة والبصرة حاسمة لصالحهم، لا سيما وأن معاوية في الشام لا يزال ممتنعا عن البيعة، والأفق ينذر با شتعال معركة أخرى معه ومع أهل الشام، فعزم عليٌّ على البقاء بين أنصاره في الكوفة، لتكون هذه هي المرة الأولى التي تتغير فيها عاصمة الدولة الإسلامية من المدينة المنورة إلى الكوفة.

ويُروى عن علي –رضي الله عنه– في ذلك قوله: «إن الأموال والرجال بالعراق، ولأهل الشام وثبة أحب ان أكون قريبا منها»[2].

فيظهر من قوله هذا أمورا ثلاثة:

١ . أنه وجد بالعراق أنصارا افتقد مثلهم بالمدينة

٢ . كما أن أموال العراق أكثر مما سيجد بالمدينة لا سيما في الحال الذي تمتنع فيه الشام عن أداء الأموال للخليفة، ولا بد للخليفة من أموال، لا سيما في أجواء الحروب وضروراتها.

---

(١) ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٧٧٦٩)؛ خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ص١٩١، بإسناد صحيح؛ انظر: فقيهي، خلافة علي، ص١٣٧.

(٢) الدينوري، الأخبار الطوال، تحقيق: عبد المنعم عامر، ط١ (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٠م)، ص١٤٣.

٣. ثم إن العراق مهددة أيضا، وهي أقرب إلى الشام، فلو أن معاوية سار إليها لمُنِع عليٌّ حينئذ من أموالها ومن رجالها أيضا، وتلك خسارة لا تعويض لها!

فلذلك كله قرر أن يكون قريبا من وثبة متوقعة لأهل الشام.

وهذا التفسير -سواءٌ صحَّ القول عنه، أو كان منحولا إليه رضي الله عنه- هو أقرب من تفسيرات أخرى ذهبت بعيدا[١].

---

(١) ذهب البعضُ مذاهب شتى في تفسير قرار علي الانتقال إلى الكوفة، فثمة تفسيرات غلبت عليها الرقة والروحانية كالذي قاله الأستاذ أبو الحسن الندوي من أنه «فعل ذلك لصيانة مدينة الرسول الأثيرة الحبيبة ومهجره من الحروب الداخلية والاصطدامات العسكرية بين المسلمين». والبعض جنح به التفسير حتى اختلق أمورا لم تكن قد وُجِدت بعد، كما فعل العقاد حين قال: «اختار الكوفة فكانت أوفق عاصمة للإمامة العالمية في تلك المرحلة، فكانت ملتقى الشعوب من جميع الأجناس، وكانت مثابة التجاربة بين الهند وفارس واليمن والعراق والشام، وكانت العاصمة الثقافية التي ترعرع فيها مدارس الكتابة واللغة والقراءات والأنساب...»، وكل هذا أقرب إلى الخيال منه إلى طبيعة الكوفة آنذاك.

انظر: الندوي، المرتضى، ص١٥٨؛ عباس محمود العقاد، المجموعة الكاملة، ط١ (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٤م)، ٢/ ١٢٤.

# وقعة صفين

كان لا بد أن يقع الصـــدام بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وبين معاوية بن أبي سـفيان أمير الشــام، وزعيم بني أمية المطالب بدم عثمان، والرافض لبذل البيعة قبل الاقتصاص من قتلته، وهو أقوى الأمراء، وتحت يده أهل الشام وجيوشها، وهو ما حدث بالفعل في المعركة المزلزلة: موقعة صفين.. فكيف سارت الأحداث إلى صفين؟

## تسلسل الأحداث من وجهة نظر معاوية رضي اللّه عنه

إذا نظرنا إلى المشـهد من وجهة نظر معاوية فسـنرى أننا إزاء تراكمات من الأحداث التي تؤكد له صـحة موقفه منذ البداية، وكلما سـارت الأيام كلما كان له مزيد من الدوافع التي تحمله على التمسك برأيه، وبأنه على الحق في هذا النزاع:

### (١) أحاديثٌ فهم منها معاوية أنه على الحق

لقد كانت اللحظة الأولى في هذا النزاع هي لحظة قتل عثمان رضــي الله عنه، وقد جاء

في شـأن عثمان عددٌ من أحاديث النبي ﷺ التي تؤكد أنه يُقتل شـهيدا مظلوما، وأنه على الحق، وأن قتلته منافقون، وأن الإيمان حين تندلع الفتن يكون بالشـام. ولعله من المهم أن نعيد التذكير بهذه الأحاديث لنحاول فهم كيف كان يقرؤها معاوية ومن في معسكره، وكيف كانت تقع في نفوسهم:

- «اثبت أحد فإنما عليك نبي وصدّيق وشهيدان»[1].

- «من نجا من ثلاث فقد نجا: موتي، والدجال، وقتل خليفة مصطبر بالحق معطيه»[2].

- ذكر رسول الله فتنة فمر رجل فقال ﷺ: «يُقتل فيها هذا المقنع»، فإذا هو عثمان[3].

- وقد سمع معاوية بنفسه حديث النبي ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضـرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله عز وجل وهم ظاهرون على الناس»، وبينما هو يعلنه من فوق المنبر حتى قام مالك بن يخامر السكسكي فقال: « يا أمير المؤمنين، سمعت معاذ بن جبل يقول: «وهم أهل الشام»، فقال معاوية ورفع صوته: هذا مالك يزعم انه سمع معاذا يقول وهم أهل الشام»[4].

- «إنكم تلقون بعدي فتنة واختلافا» فقال قائل: فمن لنا يا رسول الله؟، فقال: عليكم

---

(١) البخاري (٣٤٧٢).

(٢) أحمد (١٧٠١٤)، والحاكم (٤٥٤٨) وصححه ووافقه الذهبي، وحسنه شعيب الأرناؤوط.

(٣) أحمد (٥٩٥٣)، الترمذي (٣٧٠٨)، وصححه أحمد شاكر وحسنه الألباني، وقال شعيب الأرناؤوط: صحيح لغيره وإسناده محتمل للتحسين.

(٤) أحمد (١٦٩٧٤)، وصححه شعيب الأرناؤوط، وصححه الألباني، السلسلة الصحيحة، ط١ (الرياض: مكتبة المعارف، ١٩٩٥م)، (١٩٥٨). وهذه الرواية تدل على أنها متأخرة في الزمن بدليل قول مالك لمعاوية «يا أمير المؤمنين»، ولكن الشاهد المقصود أن معاوية سمع هذا الحديث من النبي، ثم تضافرت الأحداث التي تجعله يظن أن مطالبته بدم عثمان هو الحق، ومن هذه الأمور الزيادة المفسِّرة عن معاذ أن هذه الطائفة هم أهل الشام.

بالأمين وأصحابه» يشير إلى عثمان[١].

- «يا عثمان إن الله عسى أن يلبسك قميصا فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه»[٢].

ومما لا شك فيه أن هذه الأحاديث انتشرت وذاعت في تلك الفترة، لمناسبتها، ولشدة الحاجة إليها، فكانت دافعا قويا لكثير من المسلمين للقتال طلبًا لدم عثمان والثأر له ممن سماهم رسول الله ﷺ منافقين[٣].

فهذا الحديث الأخير، إنما روته عائشة رضي الله عنها، وسمعه منها النعمان بن بشير رضي الله عنه، وكان النعمان هو الذي حمل رسالة أم حبيبة ومعها قميص عثمان الملطّخ بدمه إلى معاوية، فلما أخبر النعمانُ معاوية بهذا الحديث، سارع معاوية فأرسل إلى عائشة ليتأكد منها، وطلب منها أن تكتب إليه بهذا الحديث في كتاب، ففعلت[٤].

وأشهر المواقف التي استدعت هذه الأحاديث وأخطرها، حين وصل كتاب أم المؤمنين حبيبة بنت أبي سفيان (أخت معاوية) يصف مقتل عثمان، ومعه قميص عثمان وشعرُه الذي نُتِف من لحيته، وكان معاوية حينئذ في بيت المقدس، فنصب القميص في المسجد، وجمع الناس، وفيهم قادة الأجناد، وتحدث الخطباء في هذا الاجتماع، «وكان آخر من تكلم: مُرّة بن كعب[٥] فقال: لولا حديثٌ سمعتُه من رسول الله ﷺ ما قمتُ، سمعت رسول الله ﷺ يذكر فتنة فقرَّبَها، فمرَّ رجل مُقَنَّع، فقال: «هذا يومئذ وأصحابه على الحق والهدى» فقلت: هذا يا رسول الله؟ -وأقبلت بوجهه إليه- فقال: «هذا». فإذا هو

(١) أحمد (٨٥٢٢)، وصححه أحمد شاكر وحسنه شعيب الأرناؤوط.

(٢) أحمد (٢٤٦١٠)، الترمذي (٣٧٠٥)، ابن ماجه (١١٢)، وصححه الألباني وشعيب الأرناؤوط.

(٣) عبد الحميد فقيهي، خلافة علي بن أبي طالب، ص١٨٤.

(٤) أحمد (٢٤٦١٠)، الترمذي (٣٧٠٥)، وصححه الألباني وشعيب الأرناؤوط.

(٥) أو: كعب بن مرة، اختلفت الروايات في اسمه.

عثمان»[1]. وفي رواية صحيحة أخرى أنه قام صحابي آخر هو ابن حوالة الأزدي فقال لمرة بن كعب: «إنك لصاحب هذا؟ قال: نعم. قال: والله إني لحاضرٌ ذلك المجلس»[2].

وفي مثل تلك الأجواء، لا يقع في النفوس والأفهام، إلا أن معاوية ومن معه هم أصحاب عثمان، إذ هم المطالبون بدمه، فهم إذن -كما في الحديث- «على الحق والهدى»! فهذا هو الفهم الذي تحرك به أهل الشـام، وهو معتمدهم في الاجتهاد، ولذلك يُقال عنهم: اجتهدوا وتأولوا وأخطؤوا.

ومما يزيد من تمسُّكهم بهذا الفهم أن هذا الصحابي الثاني، عبد الله بن حوالة، الذي شهد على صحة قول الصحابي الأول مرة بن كعب، كان هو نفسُه قد سمع النبي يقول بأن عثمان «من أهل الجنة»[3]، وهو نفسه راوي حديث «من نجا من ثلاث فقد نجا...»، وهو نفسه الذي أوصاه النبي ﷺ باللحاق بالشام إذا وقعت الفتن، وإذا توزَّعت الجيوش[4].

---

(١) أحمد (١٨٠٩٣)؛ الترمذي (٣٧٠٤) وقال: حسن صحيح؛ ابن ماجه (١١١)؛ الحاكم (٤٥٥٢) وقال على شرط البخاري ومسلم ووافقه الذهبي، وصححه الألباني وشعيب الأرناؤوط.

(٢) أحمد (١٨٠٩٢)، وصححه شعيب الأرناؤوط، وقال الألباني: إسناد أحمد على شرط مسلم، السلسلة الصحيحة، (٣١١٩). وذات المعنى في سياق آخر في حديث صحيح عند: أحمد بن حنبل، فضائل الصحابة، (٨٢٥)، بإسناد صحيح كما قال محققه وصي الله.

(٣) أحمد بن حنبل، فضائل الصحابة، (٨٤٥) بإسناد صحيح كما قال محققه وصي الله؛ الحاكم (٤٥٣٩) وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني، السلسلة الصحيحة، (٣١١٨).

(٤) أحمد بن حنبل، فضائل الصحابة، (١٧٠٤)، (١٧٠٧)، بإسناد صحيح كما قال محققه وصي الله، ورواه أحمد في المسند (١٧٠٤٥)، وصححه شعيب الأرناؤوط، والحاكم (٨٥٥٦) وصححه، ووافقه الذهبي... ووقع في بعض الروايات أن اسمه زائدة أو مزيد، وإنما هو عبد الله بن حوالة، انظر: الألباني، السلسلة الصحيحة، ٧/ ٣١٧.

ونص الحديثيْن كالآتي:

عن عبد الله بن حوالة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ستُجَنَّدون أجنادًا: جندا بالشام وجندا بالعراق وجندا باليمن. قلت: يا رسول الله اختر لي. قال: «عليكم بالشام، فمن أبي فليلحق بيمنه، وليسق من غدره، فإن الله عز وجل تكفل لي بالشام وأهله».

وفي مثل هذه الأجواء، لا يقع في النفوس والأفهام، إلا أن أهل الشـام على الحق، فقد أوصى النبي باللحاق بهم، وهم الذين كانوا أبعد الناس عن المساهمة في قتل عثمان.

ولكن الفهم الحق، الذي يتبين بعد انقضـاء الفتنة وخمود غبارها، والذي يجمع بين النصـوص كلها، أن فئة علي هي الأدنى إلى الحق، وفئة معاوية هي الباغية، وأن أصـحاب عثمان هم الذين كانوا معه ولم يرضوا بخلعه، وهم كل الصحابة، وأن فضل الشام وأهله أنهم في رباط ضـد عدو المسـلمين، وأن الفتنة لم تُصِـب الشـام، فمن كان بالشـام كان أبعد الناس عن المشاركة في فتنة قتل عثمان.

## (٢) سياسة علي مع أنصار عثمان

كذلك فإن عليًّا أخذ في عزل ولاة عثمان، لا سـيما من كان من أقاربه، كخالد بن سـعيد بن العاص، وعبد الله بن عامر بن كريز، ثم عزله لمعاوية بن أبي سـفيان في الشـام، كل هذا مما أقل ما فيه أن يثير الخوف والقلق في نفس معاوية على نيّة علي في الأخذ بالقصاص من قتلة عثمان، فلئن سَلَّم معاويةُ الشام لعليّ فإنه يكون قد خرج من قوته وعدته وأنصاره، بل ربما تولى الشامَ أحدُ زعماء التمرد على عثمان، فيكون قد ضاع دم عثمان إلى غير رجعة، بل ربما سعى أولئك إلى قتل معاوية نفسه ليتمّ لهم الأمر وتنتهي قضية دم عثمان كلها[(١)].

بل إن الذين نهضـوا للقصـاص من قتلة عثمان، وهم طلحة والزبير وعائشـة، ومن كان معهم، قد نهض إليهم علي، فقاتلهم حتى هزمهم في الجمل! فلئن كان عليٌّ يسـعى للتهدئة مع القتلة الذين تمردوا على عثمان وحاصـروه وقاتلوه، فكيف به يقاتل الذين سـعوا في نصرته والقصاص له؟!

---

وعنه قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر من أسفاره قال: «يا ابن حوالة كيف تصنع في فتنة تثور في أقطار الأرض كأنها صياصي بقر؟» قال: قلت: أصنع ماذا يا رسول الله؟ قال: «عليك بالشام».

(١) علي الصلابي، علي بن أبي طالب، ط١ (اسطنبول: دار الروضة، ٢٠١٧م)، ص٥١٣.

بل إن عليًّا لم يقبل من واليه على مصر، قيس بن سعد بن عباده، الملاينة والمهادنة التي كان قد عقدها مع أنصار عثمان، فعزله عنها، واستبدل به اثنين من رؤوس الفتنة، الواحد تلو الآخر: محمد بن أبي بكر والأشتر مالك بن الحارث النخعي!!

ونكرر أننا هنا نحاول أن نشرح الموقف من زاوية معاوية وأنصاره! فمن كان يرى المشهد من الشام كان يراه على هذا النحو.

## (٣) قتلة عثمان في جيش عليّ وأمراء في ولاياته

ومنذ البداية عمد علي إلى إرجاء الأخذ بالقصاص من قتلة عثمان، وحاول تسكين الأمور وتبريدها، وسعى إلى محاصرة أي حركة يقوم بها الصحابة لمقاتلتهم، فلئن كان من الواجب الأخذ بالقصاص للمقتول ظلما ولو كان من أغمار الناس، فكيف والمقتول ظلما هو عثمان بن عفان، الرجل الثالث في الإسلام؟!

وفوق ذلك فإن جيش عليٍّ يضم قتلة عثمان، وبعضا من رؤوس الفتنة، وهو قد وضعهم في جيشه وفي ولاياته، فلقد ولَّى محمد بن أبي بكر قيادة الرجالة في جيشه في الجمل، ثم ولاه على مصر، ومثله الأشتر النخعي الذي كان من قيادات جيش عليٍّ في الجمل، وهو الذي أثخن عبد الله بن الزبير بالجراح[1]، ثم ولاه على مصر. وقبلهما أقرَّ عليٌّ على مصر محمد بن أبي حذيفة المتمرد على عثمان، والذي انتزعها من والي عثمان عبد الله بن سعد بن أبي السرح، وظل ابن أبي حذيفة عاما كاملا على مصر، بأمر علي!

ثم إن عليًّا انتقل إلى الكوفة، معقل رؤوس الفتنة الذين تمردوا على عثمان منذ أول الأمر، فقد طاب له أن يكونوا أنصاره وجنده، واستبدلهم بأهل المدينة وفيها المهاجرون والأنصار وهي عاصمة رسول الله ﷺ. فمن بعد ما كان أولئك القتلة في جيشه، صار هو

(١) الطبري، تاريخ الطبري، ٣/ ٤٧، بإسناد صحيح. انظر: ابن حجر، فتح الباري، ٣/ ٤٧.

نفسه بينهم وفي معاقلهم وقبائلهم!

هكذا كانت الصورة كما ينظر إليها أهل الشام، وعلى رأسهم معاوية، فلذلك كان أول ما فعله معاويةُ حين بلغه غلبةُ عليٍّ على أهل الجمل، أن دعا إلى الطلب بدم عثمان، فأجابه أهل الشام[1].

وبهذا يُفهم ردُّ معاوية على من جاء له، فحين ذهب أبو مسلم الخولاني إلى معاوية، واستنكر عليه موقفه من علي، فقال له: «أنت تنازع عليا؟ أم أنت مثله؟» فقال معاوية: «لا والله، إني لأعلم أن عليًّا أفضلُ مني، وأنه لأحق بالأمر مني، ولكن ألستم تعلمون أن عثمان قُتِل مظلوما وأنا ابن عمه؟ وإنما أطلب بدم عثمان، فائتوه، فقولوا له فليدفع إليّ قتلة عثمان، وأسلِّم له». فأتوْا عليا فكلموه بذلك، فلم يدفعهم إليه. وفي رواية: فَأَتوه فَكَلَّمُوه فقال (علي) «يدخل (معاوية) في البيعة ويحاكمهم إليّ»، فامتنع معاوية[2].

فلم يكن الخلاف بين علي ومعاوية نزاعًا على الخلافة، فمعاوية يقرّ بأن عليا أفضل منه، وأحق بالخلافة منه، ولكن كيف يمكن أن يبايعه، فينعزل، فيتجرد من قوته وشوكته، ويستسلم لعليٍّ، والقتلة في رجاله، وهو في ديارهم؟!!

إن استحضار هذه الصورة، وفهم هذا الموقف، يجعلنا نرى كم كان الأمر محيرا وعصيبا، وأن لكل منهم من النصوص النبوية والمسوغات العقلية ما يجعله متمسكا بموقفه، بل يجعله يرى نفسه على الحق بلا ريب في ذلك. ولئن كان قد ظهر في النهاية أن فئة علي هي الأدنى إلى الحق، وأن فئة معاوية هي الباغية، فإن هذا أمرٌ قد جاء فيما بعد!

## وقوع القتال

ما إن استقر أمر البصرة لعلي، ودخل أهلها في بيعته، حتى أمَّر عليها عبد الله بن عباس،

(١) ابن حجر، فتح الباري، ١٣/ ٨٥. بإسناد جيد.

(٢) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٥٩/ ١٣٢، بإسناد جيد كما قال الحافظ ابن حجر، فتح الباري، ١٣/ ٨٦.

ثم بدأ في الاتجاه نحو معاوية وأهل الشـــام، فأرســـل عليٌّ جرير بن عبد الله البجلي إلى معاوية ليطلب منه البيعة لعلي، مثلما بايع ســـائر الناس، ولكن معاوية جمع أهل الشـــام ليراهم جريرٌ، وسـألهم عن موقفهم، فكان أهل الشـام على النحو الذي يرضـاه معاوية، من القوة والتماسك، والحرص على القصاص لدم عثمان.

وأخفقت الر سائل والسفارات بين علي ومعاوية، فلم يكن بدٌّ من القتال.. و شرع علي في تجهيز الجيش لغزو معاوية وأهل الشام.

ولأن الموقف كان عصيبا، ولا تزال ذكرى الجمل لم تبرد من القلوب، فقد سُـئل عليٌّ عن مسيره هذا، هل هو اجتهاد منه، أم عهدٌ عَهِدَ به إليه رسـول الله، فقال عليٌّ: ما عهد إلي رسـول الله ﷺ بشـيء، ولكنه رَأْيٌ رأيته»[1]. وفي رواية –أو لعلها حادثة أخرى- فإن الذي أجاب هو عمار بن ياسـر، قال: «ما عهد إلينا رســول الله ﷺ شـيئا لم يعهده إلى الناس كافة»[2].

وقد كان معروفا أن هذه الحرب ستكون أعسر وأشرس وأشد من موقعة الجمل، ففي الجمل قومٌ خرجوا للإصلاح ولم تنعقد نيتهم على القتال، وإنما انفلت الوضع، بينما أهل الشـام يسـتعدون لقتال ويعزمون عليه. كذلك فإن القيادة لم تكن واحدة في معركة الجمل، فثمة الزبير وطلحة ثم عائشـة، بينما قيادة أهل الشـام واحدة، وهو معاوية ولا يخالفون عن رأيه وعزمه. ثم إن جيش الجمل قد احتشد في أيام وقضى شهورا تحت قيادة طلحة والزبير وعائشة، بينما أهل الشام قد مكث فيهم معاوية عشرين سنة، وخاض بهم الحروب الرهيبة مع الروم وخرج منتصرا!

ومن هنا، يفهم ما قاله الأشـــتر النخعي لقومه قبيل المعركة: «إن هذه الأمة عمدت إلى

(١) أحمد (١٢٧٠)؛ أبو داود (٤٦٦٦)؛ وصححه أحمد شاكر والألباني وشعيب الأرناؤوط.

(٢) مسلم (٢٧٧٩).

خيرها فقتلته، وسـرنا إلى أهل البصـرة، قوم لنا عليهم بيعة فنُصِـرْنا عليهم بنكْثِهم، وإنكم تسـيرون غدا إلى أهل الشـام، قومٌ ليس لكم عليهم بيعة، فلينظر امرؤ منكم أين يضـع سـيفه»[١]، وفهم البعضُ أن هذا النصَّ منه تثبيط لقومه أو تورُّع، وأن ذلك كان منه بسـبب غضبه وتغيره حين لم يُعْطِه عليٌّ ولاية البصرة، وقد كان يرجوها[٢]، والأقرب فيما أرى أن هذا الكلام منه كان تحميسًا وتهييجا لهم، ولكنه فيما يبدو ثبطهم ولم يؤتِ ثمرته[٣].

يُضـاف إلى ذلك أن عددًا ممن تورعوا عن قتال طلحة والزبير وعائشـة، لسـبقهم في الإسـلام وفضـلهم وقربهم من النبي ﷺ، لم يروْا ذلك قائما في حال معاوية ومن معه، ومن أولئك الأحنف بن قيس التميمي الذي كان معتزلا بقومه في الجمل، ثم دخل بهم في جيش علي لقتال أهل الشام[٤].

ومن جهته خرج معاوية على رأس جيش الشـام، حتى كان التقاء الجيشـين في أرض تسـمى «صـفِّين»، فهناك اصـطف الجيشـان الكبيران، اللذان هما ثقل القوة الإسـلامية، بل القوة العظمى في العالم في ذلك الوقت.

---

(١) ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٧٧٨٤)؛ والحاكم (٤٥٧١) وقال: صحيح الإسناد، وقال الذهبي: على شرط مسلم، وانظر: المصنف ط الشثري (٢١/ ٤٨٨)؛ فقيهي، خلافة علي، ص١٧٥.

(٢) العمري، عصر الخلافة الراشدة، ص٤٦٦.

(٣) من الالتفاتات الذكية للدكتور أكرم العمري، أنه رجح قلة من شاركوا من الأزد –قوم الأشتر– في صفين مع جيش علي، وذلك أن الرواية التي ذكرت قلَّتهم هي من طريق أبي مخنف، وهو واحد من الكذابين الذين بلغ بهم الغلو في علي إلى تشويه الصحابة، وهو من الأزد، فليس معقولا أن يكذب مثله على قومه في مناصرتهم لعلي. انظر: أكرم العمري، عصر الخلافة الراشدة، ص٤٦٦.

(٤) فقيهي، خلافة علي، ص١٨٧.

بالغت الروايات كثيرا في عدد من حضـروا المعركة من كبار الصـحابة، ومن أهل بدر، ودخلت الأهواء والأكاذيب في ذلك، وقد تصـدى عدد من الباحثين لتحقيق من شـهدوا المعركة من كبار الصـحابة والبدريين، وأحسـن ما وقفتُ عليه من المجهود هو ما ينتهي إلى أن معركة صفين ثبت أن قد شهدها خمسة وعشرون صحابيا، منهم أربعة بدريون، وهؤلاء البدريون الأربعة كانوا مع أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، ومن هؤلاء الصحابة الذين شهدوا صفين أربعة عشر كانوا مع علي وسبعة كانوا مع معاوية[1].

إلا أن الصحابة وإن كانوا قلة، فإن الجيشيْن كانا بمثابة أعداد هائلة، فأقل التقديرات أن جيش علي بلغ خمسين ألفا، وأن جيش معاوية بلغ ستين ألفا، بينما ذهبت تقديرات أخرى حتى بلغت بجيش علي إلى مائة وخمسـين ألفا وبجيش معاوية إلى مائة وعشـرين ألفا[2]. وفي كل الأحوال فهذه أعدادٌ هائلة قياسا إلى ذلك الزمن!

وقد كان المشـهد مهيبًا من جهة العدد، ومحيِّرًا من جهة الصـواب، وصـفه أبو العالية

---

(١) الشمري، صحيح أخبار صفين، ١/ ١٣٩ وما بعدها.

(٢) انظر في التقديرات وأسانيدها: فقيهي، خلافة علي، ص١٨٦، ١٨٧، ١٩٤، ١٩٥؛ العمري، عصر الخلافة الراشدة، ص٤٦٥، ٤٦٦؛ الشمري، صحيح أخبار صفين، ١/ ٣٦١ وما بعدها.

الرفاعي بقوله: «لما كان زمن علي عليه السلام ومعاوية، وإني لشابٌ القتال أحبُّ إلي من الطعام الطيب، فتَجَهَّزْتُ بجهازٍ حَسَــن حتى أتيتهم، فإذا صــفان لا يُرَى طرفاهما، إذا كبَّر هؤلاء كبَّر هؤلاء، وإذا هلَّل هؤلاء هلّل هؤلاء. قال: فراجعت نفســي فقلتُ: أي الفريقين أنزله كافرا؟ وأي الفريقين أنزله مؤمنا؟ أو من أكرهني على هذا؟ فما أمسيت حتى رجعت وتركتهم»[1].

ومثل ذلك موقف عبد الله بن عمرو بن العاص، فقد كان يرى اعتزال القتال، ولكن أباه عمرو بن العاص، ذَكَّره بوصية رسول الله له «أطع أباك ما دام حيا، ولا تعصه»[2]، فكان في جيش معاوية ولكنه لم يقاتل، وعبَّر عن شــأنه في صــفين فقال: «ما لي ولصــفين! ما لي ولقتال المسلمين! لوددت أني متّ قبله بعشر سنين. أما والله على ذلك، ما ضربتُ بسيف ولا طعنتُ برمح ولا رميتُ بسهم»[3].

ومثله أيضــا ما رواه جري بن كليب العامري قال: لما ســار علي إلى صــفين كرهت القتال، فأتيتُ المدينة فدخلت على ميمونة بنت الحارث فقالت: ممن أنت؟ قلت: من أهل الكوفة. قالت: من أيهم؟ قلت: من بني عامر. قالت: رحبا على رحب، وقربا على قرب تجيء، ما جاء بك؟ قال: قلت: ســار علي إلى صــفين وكرهت القتال فجئنا إلى ها هنا. قالت: أكنت بايعته؟ قال: قلت: نعم. قالت: فارجع إليه فكن معه، فو الله ما ضــل ولا ضل به»[4].

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٧/ ٨١؛ بإسناد حسن، انظر: فقيهي، خلافة علي، ص١٨٦ (الملحق).

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣/ ١٩٢؛ أحمد (٦٩٢٩)، وصححه أحمد شاكر وشعيب الأرناؤوط.

(٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٤/ ٢٠١؛ بإسناد صحيح، انظر: فقيهي، خلافة علي، ص١٨٥ (الملحق).

(٤) الحاكم (٤٦٨٠) وقال صحيح على شرط البخاري ومسلم، ووافقه الذهبي وابن الملقن. وانظر تدقيقا في السند لدى د. سعد بن عبد الله آل حميد في تحقيقه لمختصر تلخيص الذهبي لابن الملقن، ط١ (الرياض: دار العاصمة، ١٤١١)، ٣/ ١٥٠٣، ١٥٠٤؛ وانظر: فقيهي، خلافة علي، ص٢٢٤ (الملحق).

اصطف الجيشان في صفين منذ ذي الحجة (٣٦هـ)، وظلا لا يلتحمان، والقتال بينهما أشبه بالمناوشات والغارات الصغيرة طيلة الشهر، وأول ما اندلع من الاشتباك بين الجيشَيْن: المعركةُ على الماء، فقد سبق جيشُ معاوية إلى الماء فاتخذ موقعا يريد به حرمان جيش علي منه، فأخرج عليٌّ قطعة من جيشه بقيادة الأشعث بن قيس، فاستطاعوا الوصول إلى الماء، وغلبوا عليه[١].

وبقي الحال على الاشتباكات المتقطعة طيلة ذي الحجة، والمحرم، حتى إذا انقضى أسبوع من صفر (٣٧هـ) اشتعل القتال والتحم الجيشان جميعا[٢]. لقد كان هذا الوقت الطويل بمثابة التأجيل للمعركة، لترك فسحة للصلح أو لمساعي الوسطاء والسفارات، ولكن لم يسفر هذا كله عن شيء.

وكان عمارٌ والحسين من أشد الناس في الحرب، ليقينهم التام أنهم على الحق، وأنهم يقاتلون الفئة الباغية التي يأمر القرآن بقتالها في قوله تعالى ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الحجرات: ٩]، وروى شاهد عيان في المعركة قتال عمار فقال: «رأيت عمارًا يوم صفين، شيخا كبيرا آدم طُوَالًا[٣]، آخذا الحربة بيده، ويده ترعد[٤]، فقال: والذي نفسي بيده، لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سَعَفَات هجر، لعرفتُ أن مصلحينا على الحق، وأنهم على الضلالة»[٥]، وفي رواية أنه كان يقول: «من سرَّه أن تكتنفه الحور العين فليتقدم بين الصفَّيْن

(١) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ص١٩٣، بإسناد حسن، انظر: فقيهي، خلافة علي، ص١٨٥ (الملحق).

(٢) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ص١٩٣.

(٣) آدم: أسمر، طوالا: طويل القامة.

(٤) ترعد: ترجف، وفيه دليل على إصراره على القتال مع كبر سنه!

(٥) أحمد (١٨٩٠٤)؛ الحاكم (٥٦٧٨) وقال: صحيح على شرط الشيخين؛ ابن حبان (٧٠٣٩)، وحسنه الألباني في التعليق على ابن حبان، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٠٥٧) رجال أحمد رجال الصحيح.

محتسبا»[1]، وكان يقول: «الجنة تحت البارقة[2]»[3].

وفي قول عمار «مصــلحينا على الحق» دليل على أنه كان يرى أن في جيش عليٍّ قوما مفسدين مندسين، ممن شارك في قتل عثمان رضي الله عنه[4].

وكالعهد به، لم تخرج به حماسته ولا يقينه عن الإنصاف، ومن ذلك أنه سمع رجلا يقول: «كفر أهل الشام»، فقال: «لا تقولوا ذلك؛ نبينا ونبيهم واحد، وقبلتنا وقبلتهم واحدة، ولكنهم قوم مفتونون جاروا عن الحق، فحقَّ علينا أن نقاتلهم حتى يرجعوا إليه»[5]. وهذا يُذَكِّر بموقفه في الجمل حين قال عن عائشة: أمّنا، وهي زوجة نبينا في الدنيا والآخرة.

وكذلك كان الحسين، من أشد الناس في القتال، فقد كان على مذهب أبيه في القتال، حتى قال فيه أبوه بين جماعة من أنصاره الموافقين له على القتال: «فأما أنا وحسين، فأنا وحسين، فإنا منكم وأنتم منا»[6].

وفي هذه المعركة وقع مصداق ما أخبر به النبي ﷺ، وهو قتل عمار، وتلك هي اللحظة الكبرى في هذه المعركة، ومن العجيب أن النبي ﷺ أخبر عن ذلك في أول أمر الإسلام، في لحظة بناء المسجد النبوي بعد الهجرة، وقت أن كان السواد الأعظم من هذيْن الجيشيْن لم يولد بعد أو لم يُسلم بعد! فقد نظر النبي إلى عمار وهو يحمل لبنات المسجد، فقال

---

(١) ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٧٨٣٩)، بإسناد صححه ابن حجر، انظر: ابن حجر، فتح الباري، ١٣/ ٨٦؛ وانظر تدقيقا طيبا في السند عند: الشمري، صحيح أخبار صفين، ١/ ٤١٧.

(٢) البارقة: السيف.

(٣) الطبراني، المعجم الكبير، (١٤٣٢٧) بإسناد صحيح. انظر: ابن حجر، فتح الباري، ٦/ ٣٣.

(٤) الشمري، صحيح أخبار صفين، ١/ ١٩٣، ٤١٧.

(٥) ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٧٨٤١)، بإسناد صحيح، انظر: المصنف، ط الشثري، (٢١/ ٥١٨).

(٦) الطبراني، المعجم الكبير، (٢٨٠١)، بإسناد قوي كما قال الذهبي (سير أعلام النبلاء، ٣/ ٢٨٧)، ورجاله ثقات كما قال الهيثمي (مجمع الزوائد، ١٥١٢٦).

ﷺ: «ويح عمار! تقتله الفئة الباغية، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار»[١].

وفزع عمرو بن العاص من خبر مقتل عمار، فذهب إلى معاوية، وهو يُرَجِّع[٢]، «فقال له معاوية: ما شـأنك؟ قال: قُتِل عمّار، فقال معاوية: قد قُتِل عمَّار، فماذا؟ قال عمرو: سـمعت رسـول الله ﷺ يقول: «تقتله الفئة الباغية» فقال له معاوية: دحضـت في بولك، أَوَنحن قتلناه؟ إنما قتله علي وأصحابه، جاءوا به حتى ألقوه بين رماحنا»[٣].

ويظهر هنا أن معاوية لم يكن قد سـمع بحديث عمار، فقد اسـتغرب أن يفزع عمرو لقتله، والقتل مستمر مستحرّ في الناس.

وليس ثمة ريبٌ في أن هذا التأويل الذي نطق به معاوية رضي الله عنه تأويلٌ فاسد، والله أعلم بما كان في نفسه، ولكننا نعرف من طبائع الإنسان أنه يكاد يستحيل على من تشبع بقضية ما أو اعتنق فكرة ما حتى قاتل في سـبيلها أن تنهدم عنده في لحظة واحدة! بل يعمل العقل في تلقائية عجيبة لتطويع الحقائق الجديدة لتنسجم مع القناعات الراسخة مهما كان ذلك متكلفا متعسفا[٤].

ويسـري هذا بسـرعة من القائد إلى الجنود، فالقائد والجندي كلاهما يعلم أن شـكّ القائد مهلكة له وللجند معا، فسـرعان ما يتشـرب الجندي تأويل القيادة، فالشـكُّ في ذاته محنة نفسية، والشكُّ في لحظة القتال محنة لا تُحْتَمَل، وهذا ما يفسر استمرار المعركة من

---

(١) البخاري (٤٣٦).

(٢) يُرَجِّع: أي يردد «إنا لله وإنا إليه راجعون».

(٣) معمر بن راشد، الجامع، (٢٠٤٢٧)؛ أحمد (١٧٨١٣)، وصححه أحمد شاكر وشعيب الأرناؤوط؛ الحاكم (٢٦٦٣) وقال: على شرط البخاري ومسلم ووافقه الذهبي؛ أبو يعلى، المسند، (٧١٧٥)، وصححه حسين سليم أسد.

(٤) ثمة نظرية مشهورة في علم النفس، تعرف باسم «نظرية التناسق / التنافر المعرفي»، وينسب اكتشافها لعالم النفس الاجتماعي ليون فستنفر، وخلاصتها أن الإنسان إذا تلقى معلومات تتعارض مع قناعة عنده، فإن ذلك يتسبب في محنة نفسية تثير دوافعه لاستعادة الانسجام أو الاتساق بين القناعة الراسخة والمعلومات الجديدة، فإما أن يُغيِّر قناعته أو يغيِّر أفعاله. وفيما يخص موضوعنا هنا فإن البحث عن تفسير آخر للمعلومة الجديدة، أو بالمصطلح الإسلامي «تأويل النص» هو أحد الوسائل التي تلجأ إليها النفس لاستعادة الانسجام مرة أخرى.

جهة طبائع النفس والاجتماع[1]!

وهو ما يفسر سرعة تشرب عمرو بن العاص لهذا التأويل أيضا، بل لقد عمل عقله هو في تأويل حديث آخر سمعه من النبي ﷺ، وذلك أنه لما سمع نبأ قتل عمار، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن قاتله، وسالبه في النار»

فقيل لعمرو: فإنك هو ذا تقاتله، قال: إنما قال: قاتله، وسالبه»[2]، يريد بذلك أن النص يتوعد

---

(١) إن انصياع الإنسان لظروف الأوضاع المحيطة به، وتبعيته لها، من أهم حقائق علم النفس الاجتماعي، وتعد من أهم الأبحاث التي أجريت في هذا الصدد في عصرنا الحديث: تجارب وأبحاث ستانلي مليجرام وفيليب زمباردو، يقول ديفيد باتريك هوتون: «وجهة النظر الغالبة في علم النفس الاجتماعي، تؤكد أن الموقف الذي نواجهه (أينما نكون) يؤثر في سلوكنا تأثيرا يفوق تأثير خصائصنا الشخصية في كثير من الأحيان، وإلى حد أكبر مما يمكننا تصوره». ديفيد باتريك هوتون، علم النفس السياسي، ترجمة: ياسمين حداد، ط١ (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، أغسطس ٢٠١٥م)، ص٢٠، وانظر: ص٦٥ وما بعدها.

وهذا ما عبَّر عنه منذ قديم دريد بن الصمة لما قال:

| | |
|---|---|
| أمرتهمُ أمري بمنعرج اللوى | ولم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد |
| فلما عصوني كنت منهم وقد أرى | غوايتهم، أو أنني غير مهتد |
| وهل أنا إلا من غزية إن غوت | غويت، وإن ترشد غزية أرشد |

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣/ ١٩٧؛ أحمد (١٧٨١١) وهذا لفظه، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده قوي، وحسنه في تحقيقه لسير أعلام النبلاء (١/ ٤٢٥)؛ الطبراني، المعجم الأوسط، (٩٢٥٢)؛ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٠٠٨).

ومع هذا فلا بد هنا من وقفة سريعة وإشارة إلى أمر مهم في هذا الحديث:

١. لقد كان حديث «تقتله الفئة الباغية» من أهم مواطن الجدل الذي دار بين السنة والشيعة، إذ أراد الشيعة أن يتوصلوا به إلى أن الصحابة المخالفين لعلي كفروا وأنهم في النار، بل هم دعاة إلى النار. والحديث صحيحٌ لا يتطرق الشك إلى ثبوته، ولكن المعنى الذي أرادوه منه هو الباطل، وإنما يُفهم هذا الحديث إلى جوار الأحاديث الأخرى، ومن أهمها «إن ابني هذا سيد، وإن الله سيصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» (البخاري: ٢٥٥٧)، فسمَّى الرسول الفئتين «مسلمين»، وكذلك حديث «تقتلهم أولى الطائفتين بالحق»، فهو صريحٌ في أن طائفة معاوية معها شيء من الحق.

القاتل الفعلي وحده[1].

استمرت المعركة نعم، لكن مقتل عمار لم يكن بلا تأثير، ولئن كان أهل الشام قد تشربوا تأويل معاوية الذي وُلِد في لحظة، فإن أهل العراق قد ازدادوا إيمانا ويقينا بما هم عليه، لهذا فبينما كان أهل الشام هم الأعلى يدًا في المعركة، إذ بمقتل عمّارٍ يلقي بأثره فيفُتُّ في عضد أهل الشام، ويعطي لأهل العراق قوة نفسية هائلة بأنهم على الحق، وأن خصومهم هم الفئة الباغية، فإذا بالمعركة ينقلب ميزانها حتى يعلو أهل العراق على أهل الشام، ومع ذلك فالمعركة لا تفتر ولا تهدأ!

ولقد كان في قلب قيادة جيش الشام عبد الله بن عمرو بن العاص، فكان مع أبيه طاعة

٢. وأما الحديث الثاني في هذا الموطن من الجدل، فهو هذا الحديث الذي يكشف عن أن قاتل عمار في النار، وقد ثبت أن قاتله هو أبو الغادية الجهني، وهو صحابي كما ثبت عنه في الروايات الصحيحة، بل هو ممن شهدوا بيعة العقبة الثانية، وكان لهم سهم كبير في جهاد الروم، وتعلق الشيعة بهذا الحديث ليكون مدخلهم إلى تكفير عموم الصحابة وإسقاط عدالتهم. ولكن هذا الحديث مختلف في تصحيحه:

- فأما الذين صحَّحوه، فيجعلون أبا الغادية استثناء من عموم ما ورد في فضل الصحابة، لأن الدليل الصحيح قاطعٌ في شأنه. (صرح بذلك الألباني في السلسلة الصحيحة، ٥/ ١٩، وردّ على ابن حجر؛ ويدل عليه صنيع الذهبي في سير أعلام النبلاء: الراشدون/ ٢٨٨)

- وأما الذين ضعَّفوه فقد سَلِم لهم الأمر، إذ لا ينهض الحديث الضعيف لإسقاط عدالة الصحابة الثابتة بالقرآن والسنة، ومن ثَم فأبو الغادية مثله مثل غيره من الصحابة الذين قاتلوا باجتهاد وتأويل، فمثله مثل معاوية وعمرو بن العاص وغيرهم. وأكمل بحث رأيته عن هذا الرأي عند: الشمري، صحيح أخبار صفين، ١/ ٢٤٦ وما بعدها.

٣. وتحرير المسألة أمرٌ يخرج عن هذا المقام، ولكن حتى لو سَلَّمنا بصحة الحديث، وأن أبا الغادية في النار، فإنما هو حديث خاصٌّ في شأن واحد، الله أعلم بما في نفسه، وبم استحق ما استحق، ولا يُستغرب هذا، فثمة أقوامٌ ممن رأوا النبي ارتدوا في حياته أو بعد موته، وإذا كان أبو الغادية هو الاستثناء الوحيد من قاعدة عدالة الصحابة، فلا يعود هذا على أصل القاعدة بالإبطال، ولا يكون هذا الوعيد في حقه لأنه خالف عليًّا أو قاتله، فقد ثبت عن آخرين ممن خالفوه وقاتلوه أحاديث في فضلهم وأنهم في الجنة. وإنما يكون هذا الوعيد في حقه لأمور أخرى بينه وبين الله، لا نعلمها.

(١) أكرم العمري، عصر الخلافة الراشدة، ص٤٧١.

له، ولكنه لم يقاتل، فلما جاء خبر مقتل عمار لم يرض بالتأويل الذي قاله معاوية، وظل يكرر على أبيه أن النبي ﷺ قال «تقتله الفئة الباغية»، حتى قال معاوية ضـجرا: «ألا تغني عنا مجنونك يا عمرو؟ فما بالك معنا؟»، فكان يقول: «إن أبي شـكاني إلى رسـول الله ﷺ فقال لي رسول الله ﷺ: «أطع أباك ما دام حيا ولا تعصه». فأنا معكم ولست أقاتل»(١).

كان لكل هذا تأثيره على الجيشين، وبدأ جيش الشام يتراجع، يروي أبو وائل الأسدي، التابعي شاهد العيان، فيقول: «كنا بصفين، فلما استحرَّ القتْلُ بأهل الشام اعتصموا بتلٍّ، فقال عمرو بن العاص لمعاوية: أرسِلْ إلى عليٍّ بمصحف، وادعه إلى كتاب الله، فإنه لن يأبى عليك. فجاء به رجل فقال: بيننا وبينكم كتاب الله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [آل عمران: ٢٣]. فقال علي: نعم. أنا أولى بذلك، بيننا وبينكم كتاب الله. قال: فجاءته الخوارج ونحن ندعوهم يومئذ القراء وسيوفهم على عواتقهم، فقالوا: يا أمير المؤمنين، ما ننتظر بهؤلاء القوم الذين على التل، ألا نمشي إليهم بسيوفنا حتى يحكم الله بيننا وبينهم؟! فتكلم سهل بن حنيف، فقال: يا أيها الناس اتهموا أنفسكم فلقد رأيتنا يوم الحديبية».. وذكر حديث الحديبية(٢).

واسـتقر الأمر على إيقاف القتال، والعهد بالخلاف إلى تحكيم يختار الطرفان ممثليه، فيُفصل فيه بهذه الطريقة، حقنا لدم المسلمين!

ووردت عدد من الروايات التي تفيد أن عليا لم يكن راضـيا بالتحكيم، وأنه حُمِل على

---

(١) أحمد (٦٩٢٩)، وصححه أحمد شاكر وشعيب الأرناؤوط؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣/ ١٩٢.

(٢) أحمد (١٦٠١٨) وقال شعيب الأرناؤوط: صحيح على شرط الشيخين. والخلاصة من حديث الحديبية أن الصحابة كانوا يرون أن الخير في القدوم إلى مكة، ولم تحتمل عقولهم الرجوع عنها، ولا الرضا بصلح الحديبية، وكادوا يعصون أمر رسول الله، ثم ظهر أن الخير في أمر رسول الله، وأن رأيهم لم يكن سديدا.

ذلك، ولم أر منها رواية صحيحة، بل سائرها ضعيف.

وتكرر في صفين ما جرى في معركة الجمل، قال أبو أمامة الباهلي: «شهدت صفين، فكانوا لا يجهزون على جريح، ولا يطلبون مُوَلِّيًا، ولا يسلبون قتيلا»[1]. بل نهى علي عن سبّ أهل الشام، فقد قال رجل يوم صفين «اللهم العن أهل الشام». فقال علي: «لا تسبّ أهل الشام جمًّا غفيرا، فإن بها الأبدال، فإن بها الأبدال، فإن بها الأبدال[2]»، وفي رواية: «فإن فيهم قوما كارهون لما ترون، وإن فيهم الأبدال»[3].

وانكشفت المعركة عن عدد كبير من القتلى اختلف المؤرخون والرواة في أعدادهم، لم يرد لنا شيء منها بأسانيد صحيحة، وإنما اشتهر وراج أن قتلى صفين سبعون ألفا[4]، وبالغ آخرون حتى أوصلهم إلى مائة ألف وعشرة آلاف[5] وهذا الرقم الأخير ظاهر البطلان، وخالفهم آخرون من المعاصرين فذهبوا إلى أنهم ثمانية آلاف يزيدون أو ينقصون[6]، وإنما قاسوا ذلك على القادسية التي كان القتال فيها ثلاثة أيام وكان شديدا ومتصلا.

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٧/ ٢٨٨؛ ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٣٢٧٨)، بإسناد صحيح، انظر: المصنف، ط أسامة بن إبراهيم (١١/ ١٥٥)؛ المصنف ط الشثري (١٨/ ٤١٩)؛ الحاكم (٢٦٦٠) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٢٤٦٣).

(٢) الأبدال: أي الصالحون.

(٣) أحمد بن حنبل، فضائل الصحابة، (١٧٢٦)، بإسناد صحيح كما قال محققه وصي الله، وانظر: فقيهي، خلافة علي، ص١٨٩ (الملحق)؛ الشمري، صحيح أخبار صفين، ١/ ٢٢٣، ٢٢٤.

(٤) ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٧٨٦٠)؛ خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ص١٩٤؛ فقيهي، خلافة علي، ص٢٤٥، وقد نصر فقيهي هذا القول، وأنكر على من رآه تضخيما ومبالغة، وكأنه رأى أن ضعف السند والروايات المرسلة أقوى من القياس المجرد إلى معركة أو القول بالتوقع.

(٥) المسعودي، مروج الذهب، بعناية: كمال حسن مرعي، ط١ (بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠٥م)، ٢/ ٣٠٦.

(٦) يوسف العش، الدولة الأموية، ص١٠٧، ١٠٨؛ وتابعه: الصلابي، علي بن أبي طالب، ص٥٣٥؛ وتابعهما: الشمري، صحيح أخبار صفين، ١/ ٥٠١.

والذي يعنينا أنها كانت ملحمة عظيمة، ومعركة هائلة، وكان ضحاياها كثيرين، ما أشد خسارة الإسلام بهم، لقد سقط في صفين عددٌ من أبطال الفتوح الكبار الذي أسقطوا ملك فارس والروم وكانت لهم في سجل الفتوحات صفحات مشرقة، مثل هاشم بن عتبة بن أبي وقاص فاتح المدائن، ومنهم ذوو الفضائل المذكورة مثل خزيمة بن ثابت الملقب بذي الشهادتين إذ جعل النبي شهادته بشهادة اثنين. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وقد سُئِل عليٌّ عن قتلى صفين فقال: «قتلانا وقتلاهم في الجنة، ويصير الأمر إليَّ وإلى معاوية»، وفي رواية: «من قُتِل منّا ومنهم يريد وجه الله والدار الآخرة دخل الجنة»[1].

وبدأ فصلٌ جديد في قصة الفتنة، وهو فصل التحكيم.

## قصة التحكيم

صار معروفا الآن، بفضل المجهود الذي بذله الباحثون المعاصرون، أن القصة المشهورة للتحكيم قصة باطلة، تلك القصة التي رواها الأخباري الشيعي الكذاب أبو مخنف لوط بن يحيى، والتي تتحدث عن أن عمرو بن العاص خادع أبا موسى الأشعري، فحمله على أن خلعَ عليَّ بن أبي طالب، ثم أعلن عمرو أنه يثبت معاوية بن أبي سفيان، ثم إنهما تسابًّا وتشاتما، وضرب كلُّ واحدٍ منهما للآخر مثلا مما نزل في القرآن بشأن الكافرين[2].

فما هي إذن قصة التحكيم؟

تبدأ القصة منذ جرى الاتفاق على وقف القتال والذهاب إلى التحكيم، فحينئذ وُضِع ما يُسَمَّى الإنسان «اتفاق إطار»، أي كتابة وثيقة تحدد مسار المفاوضات المرتقبة

---

(١) سعيد بن منصور، سنن سعيد بن منصور، (٢٩٦٨)؛ ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٧٨٨٠) بإسناد صحيح؛ انظر: المصنف ط الشثري (٢١/ ٥٣٥)؛ فقيهي، خلافة علي، ص٢٢٠ (الملحق).

(٢) للمزيد، انظر: يحيى اليحيى، روايات أبي مخنف في تاريخ الطبري- عصر الخلافة الراشدة: دراسة نقدية، ط (الرياض: دار العاصمة، د. ت)، ص٤٠١ وما بعدها.

وموضوعها وشروطها، وخلاصة هذه الوثيقة كالآتي:

١. اختار عليٌّ أبا موسى الأشعري محكما ممثلا عنه، واختار معاوية عمرو بن العاص، رضي الله عن الجميع.

٢. التزام المحكمين بالحكم بكتاب الله، فما لم يجداه في كتاب الله، فبالسنة الحسنة العادلة المجمعة غير المفرقة. وأن يجتهدا في أمرهما كي لا تعود الأمة إلى الفرقة والحرب.

٣. التزام الفريقين –فريق علي وفريق معاوية– بالخضوع لما يصدر عن الحكمين، وأن الحكميْن آمنان على أنفسهما وأموالهما ودورهما، وأن الأمة جندٌ لهما في تنفيذ ما يُتَّفَق عليه.

٤. الحد الأقصى للقائهما في رمضان، أي بعد ثمانية أشهر. والمكان كيفما يتفقان عليه على أن يكون وسطا بين الشام والعراق والحجاز.

٥. من صلاحيات الحكميْن اتخاذ من شاؤوا من الشهود للشهادة على هذه الوثيقة[(١)].

وقبيل وضع الوثيقة حصل خلاف، فقد أراد عليٌّ أن يكتب «هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب **أمير المؤمنين** ومعاوية بن أبي سفيان»، فاعترض معاوية وقال: بئس المرء أنا إن أقررتُ أنه أمير المؤمنين ثم أقاتله! فمُحيت «أمير المؤمنين»، وكان هذا الموقف شبيها بموقف الحديبية حين محا رسول الله ﷺ صفة «رسول الله» لما اعترض عليها سهيل بن عمرو سفير قريش في الصلح.

وإن كان طبيعيا أن يختار معاوية عمرو بن العاص، فمن المستغرب أن يختار عليٌّ أبا موسى الأشعري مُحَكِّمًا من قِبَله، فأبو موسى كان ممن اعتزل القتال مع علي، وكان يثبط

---

(١) الجاحظ، الرسائل السياسية، (بيروت: دار ومكتبة الهلال، د.ت)، ص٣٧١، ٣٧٢؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ٢/ ٣٣٤ وما بعدها؛ الدينوري، الأخبار الطوال، ص١٩٤ وما بعدها؛ الطبري، تاريخ الطبري، ٣/ ١٠٤؛ وانظر: فقيهي، خلافة علي، ص٢٣٦ وما بعدها.

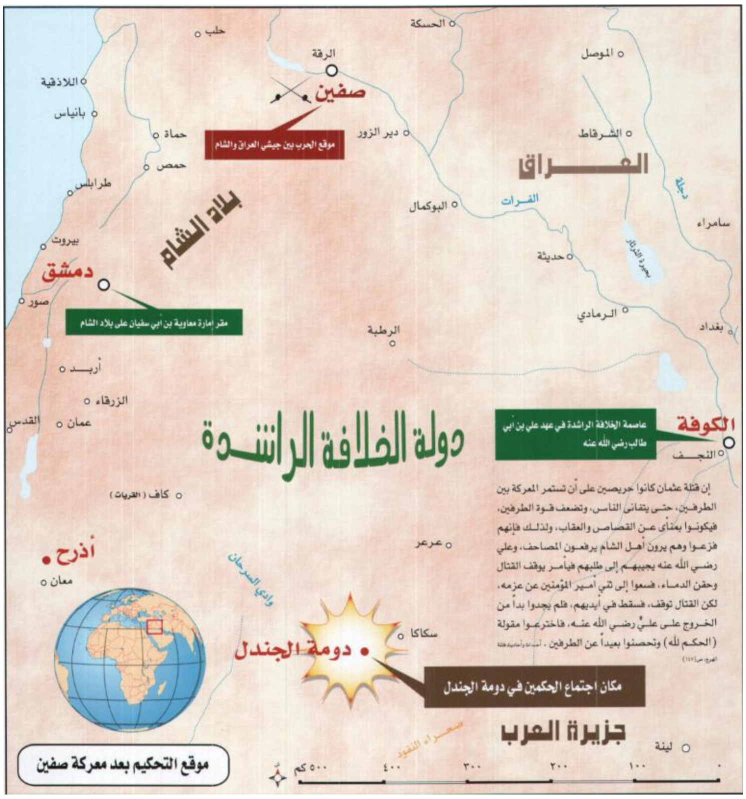


أهل الكوفة عن الخروج معه إلى البصرة، حتى اضطر عليٌّ إلى عزله، وهو لم يشارك في صفين. يبدو أن عليًّا قصد إلى هذا ليكون دوره في التحكيم مُخَفِّضًا للخصومة مع أهل الشام، ومُحفزًّا لسرعة نجاح التحكيم. لا سيما وأبو موسى محبوبٌ لدى أهل العراق، ولعل هذا مغزى قول علي عن أبي موسى «فقد رضيه الناس»[1].

وأبو موسى صحابي قديم الإسلام، وقد قدم مع قومه الأشعريين إلى النبي مع مهاجرة الحبشة، وهو من ولاة النبي، فقد عمل واليا على بعض اليمن وقاضيا، ثم هو من ولاة عمر وقضاته، ومن وُلاة عثمان وقضاته، وقد اختصه عمر بكتابه المشهور في القضاء، وهو من رجال الفتوح الكبار، حيث شارك في فتوح العراق وفارس. فرجلٌ مثل هذا لا تصح أن تُنسب إليه الغفلة ولا أنه يسهل خداعه!

وعمرو بن العاص أحد دهاة العرب، وقد أسلم بعد الحديبية، وشهد له النبي بالإيمان والصلاح وبشَّره بأن له عند الله خيرا كثيرا في أحاديث صحيحة[2]، وأرسله النبي أميرا في بعض السرايا على أبي بكر وعمر، ثم كان من قادة جيش فتح الروم، وهو فاتح مصر، وهو من دهاة العرب، وممن خُلِقوا للقيادة، حتى قيل فيه «ما ينبغي لأبي عبد الله أن يمشي على

---

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، ٢/ ٣٤٦.

(٢) انظر: الحاكم (٥٩١٦)، وصححه ووافقه الذهبي؛ الألباني، السلسلة الصحيحة، (١٥٥)، (١٥٦).

الأرض إلا أميرا».

جرى لقاء الحكمين في دومة الجندل، وهو مكان متوسط بين العراق والشام والحجاز، في رمضان (٣٧هـ)، وحضر التحكيم كذلك ابن عباس ممثلا عن علي، كما حضر عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير، وحضر معاوية بنفسه. وكان مجمل الوفدين يبلغ المئات.

ولم يستطع علي حضور التحكيم بنفسه بسبب خطر الخوارج، فقد أرسل معاوية يزيد بن الحر العبسي إلى علي يطلب منه الحضور، قال يزيد: «إن في حضورك هذا الأمر صلاحا ووضعا للحرب وإطفاء للنائرة. فقال علي: يا ابن الحر، إني آخذٌ بأنفاس هؤلاء، فإن تركتُهُم وغِبْتُ عنهم كانت الفتنة في هذا المصر أعظم من الحرب بينهم وبين أهل الشام». ومن ثم أرسل ابن عباس ممثلا عنه، وأرسل أبا موسى الأشعري مفاوضا عنه[1]. وفي هذا دليل آخر على أن خطر الخوارج أعظم من خطر البغاة.

كذلك لم يحضر آخر الأحياء من العشرة المبشرين بالجنة، سعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد، فأما سعدٌ فقد أصرّ على اعتزاله، وأما سعيد فقد أخرجه عمر عند وفاته من الستة أهل الشورى لكونه من بني عدي، وهم قبيلة عمر، فلم يبق من الستة أهل الشورى أحد حيٌّ إلا عليٌّ وسعدٌ.

فما الذي جرى في التحكيم؟

إننا الآن نشهد أقوى محاولة لحل هذه الفتنة التي يرى كل طرف فيها أنه على الحق.

**فالقضية من جانب علي على هذا النحو:**

عليٌّ هو الخليفة الشرعي، لا أحد ينازعه الخلافة، فالبيعة له واجبة، وإنزال القصاص بقتلة عثمان إنما هو أمر يأتي بعد الدخول في البيعة، فإذا دخل معاوية في البيعة رفع أمر عثمان وما جرى فيه إلى عليٍّ ليكون القضاء في هذه القضية، وإن بقاء إقليم خارج البيعة

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، ٢/ ٣٤٦؛ وقال الشمري: خبر مقبول. انظر: الشمري، صحيح أخبار صفين، ٢/ ٦١٠.

لهو تفرقة للأمة، والامتناع عن البيعة والخروج بإقليم وجُنْدٍ عن طاعة الخليفة يجعل معاوية ومن معه طائفة باغية قد أمر القرآن بقتالهم حتى يفيئوا إلى أمر الله.

وهذه الصورة -كما نرى- واضحة وبسيطة ومباشرة.

**وأما القضية من جانب معاوية على هذا النحو:**

عليٌّ هو الخليفة الشرعي، وهو يُقرُّ بأن عثمان قُتِل مظلوما، ولكن قتلة عثمان في جيشه وفي ولاياته، وقد قاتل بهم في الجمل وفي صفين، وهو يُصِرُّ على إرجاء النظر في أمر القصاص، ويأبى تسليمهم أو عزلهم عن جيشه، وفي ذات الوقت يُصِرُّ على عزل معاوية عن الشام، وبالتالي تجريده من قوته وشوكته. فلئن حدث هذا فإنه لا أمل في الاقتصاص لعثمان حين تخلو يد معاوية من القوة، بل ولا يأمن معاوية على نفسه من أن يقتله هؤلاء، فلئن كان عليٌّ لا يستطيع السيطرة عليهم حتى لقد احتاج إلى احتوائهم، فكيف يضمن معاوية أن يقتصَّ عليٌّ منهم، أو كيف يضمن معاوية لنفسه ألا يغتالونه؟!

ثم حَمَلت هذه الأشهر السبعة، بين صفر ورمضان، تطورًا جديدا، فلقد خرج أناس آخرون في جيش علي، وانشقوا عليه، وانحازوا إلى قرية في العراق، وها هو علي نفسه لا يأمن أن يخرج من الكوفة ليحضر التحكيم خشية انفجار خطرهم، فلئن نزل معاوية عن الشام ودخل في البيعة وأمِن على نفسه من قتلة عثمان، فكيف يأمن على نفسه من أولئك الخوارج الذين انشقوا على عليٍّ، ويكادون أن يقاتلوه[1]! كذلك فإن هذا التفرق الذي أصاب جيش عليّ، في مقابل التماسك الذي ما زال يحتفظ به جيش الشام، يدفع إلى التشكيك في قدرة علي على القيام بواجبات الخلافة.

وبهذا فالأمر من وجهة نظر معاوية أكثر تعقدا، بل وأكثر خطورة، إذ في خسارة التحكيم تهديدٌ لحياته نفسها!

---

(١) لم تكن موقعة النهروان قد جرت بعد، فالتحكيم كان في رمضان (٣٧هـ)، والنهروان كانت في (٣٨هـ).

لهذا كله، عمل معاوية على أن ينتهي التحكيم إلى: أن يتولى هو الخلافة، فإن لم يكن فليتولها من يُقرِّه على الشام فلا يتجرد من قوته.

وبهذا نرى أن مطلب معاوية في التحكيم قد تجاوز في هذه الفترة القصاص لقتلة عثمان، إلى أمرٍ يضمن له ألا يُجَرَّد من ولاية الشام.

وهذا الأمر يستوعبه جيدا عمرو بن العاص، وهو نفسه ليس بعيدا عن التخوف الذي يسكن صدر معاوية، فهو الرجل الثاني في معسكر معاوية، وعداوة قتلة عثمان له كعداوتهم لمعاوية.

وكذلك فإن هذه الصورة لا تغيب عن أبي موسى الأشعري..

لذلك، فكَّر الحَكَمان في عزل علي ومعاوية، وفي تنصيب خليفة جديد، ولكن هذا الخليفة الجديد لن يكون إلا واحدا من اثنين: سعد بن أبي وقاص، فهو الوحيد الباقي من أهل الشورى الستة، أو عبد الله بن عمر لما له من مكانة كبرى عند أهل الشام وأهل العراق[1]، ولكن المعضلة في أن سعد بن أبي وقاص قد اعتزل الأمر كله، حتى أنه لم يحضر إلى التحكيم، وأما عبد الله بن عمر فقد اعتزل الأمر كله ولكنه حضر التحكيم، فعُرِض عليه الأمر، فأبى هذا أشد الإباء، وبقي على موقفه أنه لا يقبلها إلا لو اتفق عليه المسلمون جميعا، حتى لا يختلف منهم اثنان!

حاول عمرو بن العاص أن يأخذ عبد الله بن عمر إلى جانب أهل الشام، صحَّ أنهم «لما اجتمعوا بدومة الجندل قال عمرو لابن عمر: إنا قد رأينا أن نبايعك فهل لك أن نعطيك مالا وتدعها لمن هو أحرص عليها منك؟ فوثب ابن عمر مغضبا، فأخذ ابن الزبير بثوبه، فجلس، وقال: ويحك يا عمرو بعت آخرتك بدنياك، إني والله لا أعطي عليها مالًا، ولا أقبل عليها مالًا، ولا أقبلها إلا هي رضا جميع الناس»[2].

(١) ينبغي ألا ننسى أن عليًّا اقترح على عبد الله بن عمر أول ولايته أن يوليه على الشام لأنه «رجل محبب إليهم».

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، ٢/ ٣٤٥، بإسناد صحيح؛ انظر: فقيهي، خلافة علي، ص٢٣١، ٢٣٢ (الملحق).

كانت تلك المحاولة سعيًا من عمرو بن العاص لإيصال معاوية إلى الخلافة، للأسباب السابق ذكرها، ولكن ابن عمر رفض!

ومن جهته حاول معاوية محاولة أخرى لاستمالة أبي موسى الأشعري، يقول أبو موسى: «كتب إلي معاوية: سلام عليك. أما بعد فإن عمرو بن العاص قد بايعني على الذي قد بايعني عليه، وأقسم بالله لئن بايعتني على ما بايعني عليه، لأبعثن ابنيك أحدهما على البصرة والآخر على الكوفة، ولا يُغْلق دونك باب، ولا تقضي دونك حاجة، وإني كتبتُ بخط يدي، فاكتب إلي بخط يدك. فقال: يا بني إنما تعلمت المعجم بعد وفاة رسول الله ﷺ، قال: وكتب إليه مثل العقارب: أما بعد فإنك كتبت إلي في جسيم أمر أمة محمد ﷺ، لا حاجة لي فيما عرضت علي»[1].

وهكذا، فليس ثمة أحدٌ يقبل أن يكون خليفة.. فما الحل؟

لقد انتهى الحكمان إلى هذا الحوار:

- سأل عمرو أبا موسى: ما ترى في هذا الأمر؟
- قال: أرى أنه في النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ
- قال عمرو: فأين تجعلني من هذا الأمر أنا ومعاوية؟
- قال: إن يستعن بكما ففيكما معونة، وإن يستغن عنكما، فطالما استغنى أمر الله عنكما[2]

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٤/ ٨٤، بإسناد صحيح، انظر: فقيهي، خلافة علي، ص٢٣٣ (الملحق)؛ عبد الرحمن بن عمر جُرْدي المدخلي، تخريج ودراسة الأحاديث والآثار الواردة في كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد: من قوله «ومن بلحارث بن الخزرج رجلان» إلى قوله «إني لأخرج إلى السوق مالي حاجة»، رسالة دكتوراة (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٤٢٢هـ)، ص٨٧٦ (نسخة إلكترونية).

(٢) انظر هذا الخبر وأسانيده وشواهده، عند: الشمري، صحيح أخبار صفين، ٢/ ٥١٢ وما بعدها. وتحتمل الروايات أن يختلف ترتيبها، فألفاظها وأحوالها محتملة لأن يكون بعضها يسبق بعض، فتركيب الصورة النهائية موضع اجتهاد.

وهكذا تكون خلاصة التحكيم: أن عليًّا هو الخليفة الشرعي، فهو من أهل الشورى الستة، وليس لمعاوية ولا لعمرو حقّ في شيء، فإن يرى عليٌّ أن يستعين بهما كان بها، وإلا ففي غيرهما الغنى عنهما(١).

ولما وصلت هذه النتيجة إلى معاوية غضب، فقد خسر بهذا كل شيء، وصار إلى الوضع الأول، وهذا مع زيادة التهديد بوجود الخوارج، ومع ما يراه من ضعف قدرة علي على ضبط الأمور في مقابل ازدياد قوته. وهنا وقع الغضب بينه وبين عمرو بن العاص، فالواقع إذن على خلاف الصورة المشهورة عن التحكيم، فلم يعزل أبو موسى عليا، وإنما عزل عمرو معاويةَ، ولم يستطع أن يأخذ شيئا لنفسه ولا لصاحبه.

وبهذا الوضع، رفض معاوية نتيجة التحكيم!

إن فشل التحكيم يرجع في جوهره إلى عدم حيازة المحكمين على قوة محايدة تنفذ القرار، فبقيت الأوضاع على حالها، علي خليفة المسلمين، ومعاوية أمير الشام ولم يبايع معاوية بالخلافة(٢).

ولقد كانت قوة معاوية وسياسته مما ساهم في ميل المزيد من الناس إليه، يروي مسروق بن الأجدع، وهو شاهد عيان، قال: «كنت مع أبي موسى أيام الحكمين، وفسطاطي الى جانب فسطاطه، فأصبح الناس ذات يوم قد لحقوا بمعاوية من الليل، فلما أصبح أبو موسى رفع رفرف فسطاطه، فقال: يا مسروق بن الأجدع. قلت: لبيك أبا موسى. قال: إن الإمرة ما اؤتُمِرَ فيها، وإن الملك ما غُلِبَ عليه بالسيف»(٣).

(١) انظر في التحكيم ونتائجه وترتيب رواياته وفصوله: فقيهي، خلافة علي، ص٢٧٤ وما بعدها؛ ولكن أفضل وأشمل ما رأيته من البحث في هذه المسألة عند: الشمري، صحيح أخبار صفين، ٢/ ٥١٢ وما بعدها.

(٢) العمري، عصر الخلافة الراشدة، ص٤٧٦، ٤٧٧.

(٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٤/ ٨٥، بإسناد صحيح، انظر: فقيهي، خلافة علي، ص٢٣٧؛ الشمري، صحيح أخبار صفين، ٢/ ٥٦٩.

وفي هذه الكلمة التي قالها أبو موسى خلاصة لمواقف السياسة، القوة، فكل اتفاق يكون تعبيرا عن ميزان القوى بين أطرافه، وإلا فلا ينفذ، ولقد شهد ميزان القوى تغيرا خلال هذه الأشهر السبعة الفاصلة بين معركة صفين وبين التحكيم، فترةٌ شهدت ضعفا واضحا في معسكر علي رضي الله عنه، وذلك بسبب: خروج الفرق!

# خروج الفرق

لقد كان الحال في ذلك الزمن عصيبا، فما له وصفٌ أحسن من قول سهل بن حنيف، الصحابي البدري الذي شهد صفين، سُئل عن صفين بعد قدومه منها، فقال: «اتهموا الرأي، فلقد رأيتني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أرد على رسول الله ﷺ أمره لرددتُ، والله ورسوله أعلم. وما وضعنا أسيافنا على عواتقنا لأمر يفظعنا إلا أسهلن بنا إلى أمر نعرفه، قبل هذا الأمر، ما نسد منها خصما إلا انفجر علينا خصم ما ندري كيف نأتي له»[1].

لقد كانت كل محاولة لحل الأمور تلد مشكلة أعقد منها، إن المبادرة إلى البيعة ليستقيم أمر الناس أسفر عن تحميل علي مشكلة القصاص من قتلة عثمان، ومحاولته احتواء هذه الموجة المتكتلة من المتمردين على عثمان أسفرت عن انقسام المسلمين إلى فريقين، ثم ما لبث أن خرج عدد منهم يريد أن يستنهض المسلمين ضد قتلة عثمان، فما هي حتى استحالت حربا في البصرة، فلما خرج علي بجيشه من المدينة ليحول دون انفلات الوضع انفلت الوضع واشتعلت معركة الجمل، ثم ما انخفض غبار الجمل حتى جاءت صفين، وما أدراك ما صفين التي كادت تهلك فيها جيوش المسلمين وأبطالهم! فما

(١) البخاري (٣٩٥٣).

إن خرج رأي التحكيم لإيقاف القتال وحقن الدماء حتى انقسم معسكر عليٍّ، وخرجت فيه الفرق التي انشقت عنه!!

إن من أبرز الفوارق بين جيش علي وجيش معاوية، هو انسجام أهل الشام وائتلافهم على معاوية رضي الله عنه، على خلاف ما كان عليه أهل العراق مع علي رضي الله عنه، فقد كثر خلافهم عليه، حتى إن بعض الروايات تكشف عن اختلاف قد ينقلب إلى عداء، مثلما جاء عن الحسن بن علي، أن عليا قال له: «يا حسن، ثكلتك أمك -أو: هبلتك أمك- ما ظنك بأمريءٍ جمع بين هذين الغارَيْن، والله ما أرى بعد هذا خيرا، قال: فقلتُ: اسكت، لا يسمعك أصحابك فيقولوا: شككت، فيقتلونك»[(١)].

ولئن كانت الفتنة على عثمان قد تسربل مفجروها بحب علي والمغالاة فيه، فلقد كانت صفين هي اللحظة التي انكشف فيها الغلاة في خصومة علي، وأولئك هم الخوارج.

وقد وصف عليٌّ حاله مع قومه مقارنة بأهل الشام بقوله: «وبطواعيتهم إمامهم ومعصيتكم له، واجتماعهم على باطلهم وتفرقكم على حقكم»[(٢)].

ولكن الحديث عن خروج الفرق يمثل المناسبة لتناول الفرقة القديمة التي خرجت في أمة المسلمين، ولكنها لم تتميز عنها في أرضٍ وقتال حتى ذلك الوقت، تلك هي فرقة:

## الشيعة

لقد تطورت البذرة التي بذرها عبد الله بن سبأ في مصر، أيام كان يحرض على عثمان

---

(١) ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٧٨١٢)، بإسناد صحيح، انظر: المصنف ط أسامة بن إبراهيم (١٣/ ٤٢٥)؛ المصنف ط الشثري (٢١/ ٥٠٥)؛ الشمري، صحيح أخبار صفين، ١/ ١٧٥.

(٢) الطبراني، المعجم الكبير، (٢٨٠١)، بإسناد قوي كما قال الذهبي، ورجاله ثقات كما قال الهيثمي. انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٣/ ٢٨٧؛ الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق: حسام الدين القدسي، (القاهرة: مكتبة القدسي، ١٩٩٤م)، (١٥١٢٦).

بالغلو في علي، وزادتها أجواء الفتنة قوة ونموا، فإن الغلو في عليٍّ يجد له في هذه الحروب والخلافات متنفسا ومخرجا، وهو يختلط بالانحياز لعلي، كما يختلط بالمحبة له والتوقير اللائق به لسابق فضله وإيمانه وورعه وتقواه وبذله في الإسلام. كذلك فإن انشغال علي بهذه المشكلات المتفجرة والمتتالية يسمح لأولئك الغلاة بالوقت والفرصة الكافية لتتخمر لديهم هذه الأفكار ثم تتطور حتى تصل إلى منتهاها، وهو ما كان.

لقد فوجئ عليٌّ ذات يوم بظاهرة خطيرة، قيل له: «إن هنا قومًا على باب المسجد يدّعون أنك ربهم. فدعاهم، فقال لهم: ويلكم ما تقولون؟ قالوا: أنت ربنا وخالقنا ورازقنا. فقال: ويلكم! إنما أنا عبدٌ مثلكم، آكل الطعام كما تأكلون، وأشرب كما تشربون، إن أطعتُ الله أثابني إن شاء، وإن عصيته خشيت أن يعذبني، فاتقوا الله وارجعوا. فأبوا، فلما كان الغد غدوا عليه، فجاء قنبر، فقال: قد والله رجعوا يقولون ذلك الكلام. فقال: أدخلهم. فقالوا كذلك، فلما كان الثالث قال: لئن قلتم ذلك لأقتلنكم بأخبث قتلة. فأبوا إلا ذلك. فقال: يا قنبر ائتني بفعلة معهم مرورهم. فخَدَّ لهم أخدودا بين باب المسجد والقصر، وقال: احفروا. فأبعدوا في الأرض، وجاء بالحطب فطرحه بالنار في الأخدود، وقال: إني طارحكم فيها أو ترجعوا. فأبوا أن يرجعوا، فقذف بهم فيها حتى إذا احترقوا قال:

إني إذا رأيت أمرا منكرا.. أوقدت ناري ودعوت قنبرا»[1]

وقد وقعت المغالاة في علي، بأدنى من هذا الحد، فقد بلغه أن بعض الناس يُفَضِّله على أبي بكر وعمر، فكان يكرر أنهما خير منه، حتى لقد «رُوِي عنه من أكثر من ثمانين وجها أنه قال: خير هذه الأمة بعد نبيها: أبو بكر ثم عمر»[2]، وقال: «لا يفضلني أحد على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما إلا جلدته حد المفتري»[3].

---

(١) ابن حجر، فتح الباري، ١٢/ ٢٧٠. وقال: هذا سند حسن.

(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ٣٥/ ١٨٥.

(٣) عبد الله بن أحمد بن حنبل، السنة، (١٣١٢)؛ ابن أبي عاصم، السنة، (١٢١٩).

فكانت سياسته رضي الله عنه مثالا فريدا بين الحُكَّام الذين يستهويهم أن يغالي أتباعهم فيهم بحق أو بباطل، وأن يفضلوهم على من سبقهم من الحكَّام، وكم من حاكم سعى لأن يكون إلها في قومه، أو أسَّسَ نظام حكمه على كونه سليلا من الآلهة أو تسكنه روحٌ مقدسة أو نحو ذلك من الخرافات التي استعبد الحُكَّام بها الناس. على العكس من هذا كان علي رضي الله عنه، لقد أحرق من غلا فيه، وأقر على نفسه بالبشرية والعبودية، بل وتوعَّد الذين فضَّلوه على من سبقوه بالعقوبة! ما فعل هذا إلا حراسة للدين وقياما بحق الشريعة!

## الخوارج

وأما الخوارج فقد كان مبتدأ أمرهم في اللحظة التي قبل فيها عليٌّ التحكيم لإيقاف حرب صفين وحقن دماء المسلمين؛ يروي أبو وائل الأسدي، التابعي شاهد العيان، فيقول: «كنا بصفين، فلما استحرَّ القتْلُ بأهل الشام اعتصموا بتلٍّ، فقال عمرو بن العاص لمعاوية: أرسِلْ إلى عليٍّ بمصحف، وادعه إلى كتاب الله، فإنه لن يأبى عليك. فجاء به رجل فقال: بيننا وبينكم كتاب الله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾[آل عمران: ٢٣]. فقال علي: نعم. أنا أولى بذلك، بيننا وبينكم كتاب الله. قال: فجاءته الخوارج -ونحن ندعوهم يومئذ القرّاء- وسيوفهم على عواتقهم، فقالوا: يا أمير المؤمنين، ما ننتظر بهؤلاء القوم الذين على التل، ألا نمشي إليهم بسيوفنا حتى يحكم الله بيننا وبينهم؟! فتكلم سهل بن حنيف، فقال: يا أيها الناس اتهموا أنفسكم فلقد رأيتنا يوم الحديبية».. وذكر حديث الحديبية(١).

رفع الخوارج شعارهم «لا حكم إلا لله» اعتراضا على التحكيم، وكشف عليٌّ أنها «كلمة حق أريد بها باطل»(٢).

---

(١) أحمد (١٦٠١٨) وقال شعيب الأرناؤوط: صحيح على شرط الشيخين.

(٢) مسلم (١٠٦٦).

لقد كان أولئك الخوارج هم الحاضنة التي اعتمدت عليها مؤامرة ابن سبأ، فلقد كان ابن سبأ وتنظيمه يفجرون الأحداث أو يبثون الشائعة، ثم يعمل هؤلاء بعقولهم الضيقة، ونفوسهم المتهيجة، فيندفعون بها إلى التمرد والحركة، ولقد كان اجتهادهم في العبادة والصلاة وتلاوة القرآن مما يُزَيِّف صورة المؤامرة ويُزخرفها، حتى لقد قالت عائشة أنها حين نظرت إليهم وهم في حصار عثمان احتقرت أعمال أصحاب رسول الله ﷺ»[١]، ولهذا كانوا يسمُّونهم «القراء».

وقد جمع أولئك الخوارج بين بغض عثمان وبغض عليٍّ رضي الله عنهما، ثم تطور الحال إلى أن انفصلوا بأنفسهم عن الأمة ونابذوها بالسيف، وأولئك الخوارج هم الواقع المتجسد للمنهج الذي يحسب أصحابه أنفسهم مثاليين، حتى إن مثاليتهم هذه تحملهم على أن يظن الواحد منهم نفسه أتقى لله وأعدل في القسمة من رسول الله ﷺ.

فأول من ظهر منهم، رجل يُدعى ذا الخويصرة التميمي، يروي أبو سعيد الخدري فيقول: «بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسما، أتاه ذو الخويصرة، وهو رجل من بني تميم، فقال: يا رسول الله اعدل! فقال ﷺ: «ويلك! ومن يعدل إذا لم أعدل؟ قد خبتُ وخسرتُ إن لم أكن أعدل». فقال عمر: يا رسول الله ائذن لي فيه فأضرب عنقه؟ فقال ﷺ: «دعه فإن له أصحابا، يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»[٢].

وقد توقف العلماء عند وصف النبي لهم «يمرقون من الدين»، واختلفوا، بل واختلف الصحابة قبلهم في الخوارج، هل هم مسلمون أم كفار، فأقوال عليٍّ وسلوكه معهم تقول

---

(١) أحمد بن حنبل، فضائل الصحابة، تحقيق: وصي الله بن محمد عباس، ط١ (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، ١٩٨٣م)، (٧٥٠) بإسناد صحيح كما قال محققه وصي الله؛ البخاري، خلق أفعال العباد، (٥٦)؛ ابن شبة، تاريخ المدينة، ٤/ ١٢٣٥، والإسناد صحيح.

(٢) البخاري (٣٤١٤)؛ مسلم (١٠٦٤).

بإسلامهم، فقد سُئل عنهم «فقيل له: أمشركون هم؟ قال: من الشرك فرُّوا، فقيل: منافقون؟ قال: المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلا، قيل: فما هم؟ قال: قومٌ بغوا علينا فقاتلناهم»(١). وكذلك أفعاله؛ إذ «لم يَسْبِ عليٌّ يوم الجمل، ولا يوم النهروان»(٢).

بينما كان أبو سعيد الخدري يشير إلى كفرهم، فقد جاءه أبو سلمة وعطاء بن يسار، فسألاه عن الحرورية أسمعت النبي ﷺ؟ قال: لا أدري ما الحرورية، سمعت النبي ﷺ يقول «يخرج في هذه الأمة -**ولم يقل منها**- قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز حلوقهم أو حناجرهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، فينظر الرامي إلى سهمه، إلى نصله، إلى رصافه، فيتمارى في الفوقة هل علق بها من الدم شيء»(٣). فدلَّ تأكيده على أن النبي استعمل لفظ «في الأمة» وليس «منها» أنه يذهب إلى تكفيرهم(٤). ولكن جمهور الصحابة وتبعهم جمهور العلماء على أنهم من المسلمين(٥).

إن هؤلاء الذين خرجوا على عثمان يحاسبونه على قطعة أرض زاد في حماها، وعلى أنه تخلف عن غزوة، بل على ما هي من مناقبه كجمعه المصحف وتغيبه في سفارة للنبي عن بيعة الرضوان، هؤلاء هم الذين انتهى حالهم إلى بغض صحابة النبي المشهود لهم بالجنة:

«جاء رجل إلى ابن عمر، فسأله عن عثمان، فذكر عن محاسن عمله، قال: لعل ذاك يسؤوك؟ قال: نعم. قال: فأرغم الله بأنفك. ثم سأله عن علي، فذكر محاسن عمله. قال:

---

(١) المروزي، تعظيم قدر الصلاة، (٥٩١)، بإسناد صحيح، انظر: فقيهي، خلافة علي، ص٢٣٨، ٢٣٩؛ الشمري، صحيح أخبار صفين، ١/ ١٧٢.

(٢) البيهقي (١٦٥٢٧)، بإسناد صحيح، انظر: الشمري، صحيح أخبار صفين، ١/ ١٧٢.

(٣) البخاري (٦٥٣٢).

(٤) النووي، شرح صحيح مسلم، ٧/ ١٦٤.

(٥) مجموعة، الموسوعة الفقهية الكويتية، ٨/ ١٣٠.

هو ذاك في بيته أوسط بيوت النبي ﷺ. ثم قال: لعل ذاك يسؤوك؟ قال: أجل. قال: فأرغم الله بأنفك، انطلق فاجهد علي جهدك»[1]. وفي رواية أنه سُئل: «فما قولك في علي وعثمان؟ قال ابن عمر: ما قولي في علي وعثمان؟ أما عثمان فكان الله قد عفا عنه فكرهتم أن يعفو عنه. وأما علي فابن عم رسول الله ﷺ، وختنه -وأشار بيده- وهذه ابنته -أو بنته- حيث ترون»[2].

لم يُرْضِ أولئك أن عليًّا رضي الله عنه استجاب لطلب التحكيم، فما هم حين رجع الجيش إلى الكوفة حتى انفصلوا بأنفسهم، وانحازوا إلى قرية تسمى «حروراء»، فلذلك يُسمُّون «الحرورية»، وكانوا ستة آلاف، وليس فيهم صحابيٌّ واحد!

كان ينبغي أن ينبههم أن ليس فيهم أحد من الصحابة إلى بطلان ما هم عليه، ولكن هذا لم يكن، لشدة ما في نفوسهم من الغلو، بل على العكس لقد بدؤوا من حروراء موجة من التكفير حتى شملت سائر من لم يوافقهم على مذهبهم.

وحتى لما أخفق التحكيم في حلّ الخلاف بين عليٍّ ومعاوية، رضي الله عنهما، قال علي للخوارج: «إن الحَكَمَيْن تفرقا على غير رضا، فارجعوا إلى ما كنتم عليه، وسيروا بنا إلى الشام للقتال»، فأبوا ذلك وقالوا: «لا، حتى تتوب وتشهد على نفسك بالكفر»[3]. ويظهر في ردِّهم هذا تَمَكُّن الغلو من قلوبهم، فلم يكفهم رجوع عليٍّ إلى الحق (كما يظنونه)، وإنما لا بد أن يشهد على نفسه بأنه قد كفر، وأنه يتوب من كفره، ولا يزال هذا النَفَس وهذه النفسية مستمرة في أولئك الخوارج حتى زماننا هذا!

و ستظهر هذه النفسية الضيقة في مناظرتهم مع ابن عباس، وهي المناظرة التي نقلها ابن

---

(١) البخاري (٣٥٠١).

(٢) البخاري (٤٣٧٣). يقصد أنه لو لم يكن عليا موضع ثقة رسول الله وكفئا لفاطمة ما زوجه إياها!

(٣) البلاذري، أنساب الأشراف، ٢/ ٣٦١. والخبر مقبول. انظر: الشمري، صحيح أخبار صفين، ٢/ ٦١٨.

عباس نفسه، فقال:

«فخرجت إليهم ولبست أحسن ما يكون من حلل اليمن، فأتيتهم وهم مجتمعون في دارهم قائلون، فسلمت عليهم فقالوا: مرحبا بك يا ابن عباس[1] فما هذه الحلة[2]؟

قلت: ما تعيبون عليَّ! لقد رأيت رسول الله ﷺ على أحسن ما يكون من الحلل، ونزلت: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ﴾ [الأعراف: ٣٢]

قالوا: فما جاء بك؟

قلت: أتيتكم من عند صحابة النبي ﷺ من المهاجرين والأنصار، لأبلغكم ما يقولون، المخبرون بما يقولون، فعليهم نزل القرآن، وهم أعلم بالوحي منكم، وفيهم أنزل، وليس فيكم منهم أحد[3].

فقال بعضهم: لا تخاصموا قريشا فإن الله يقول: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨﴾ [الزخرف: ٥٨][4]

قال ابن عباس: وأتيت قوما قط أشد اجتهادا منهم، مُسَهَّمَةً وجوههم من السهر، كأن أيديهم وركبهم تثني عليهم، فمضى من حضر، فقال بعضهم: لنكلمنه ولننظرن ما يقول.

قلت: أخبروني ماذا نقمتم على ابن عم رسول الله ﷺ وصهره والمهاجرين والأنصار؟

قالوا: ثلاثا

قلت: ما هن؟

قالوا: أما إحداهن فإنه حَكَّم الرجال في أمر الله، وقال الله تعالى ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ [يوسف:

(١) لم يردُّوا عليه بتحية الإسلام، إذ هم يكفِّرونه!

(٢) يستغربون أنه يلبس حلة جميلة، وذلك أنهم يرون التزين ولبس الحلل الجميلة مما يعارض الزهد والورع والتقوى.

(٣) ينبههم بقوله هذا «وليس فيكم منهم أحد» إلى بطلان ما هم عليه، فلو كان يمكن أن يكون حقا لما ضلُّوا عنه بأجمعهم.

(٤) لما انقطعت حجتهم، ولم يعرفوا كيف يردون على هذا الأمر الخطير، أن ليس معهم من الصحابة أحد، اتهموا ابن عباس بأنه من قريش الذين نزل القرآن يصفهم بالخصومة في الجدل!

٦٧]، وما للرجال وما للحكم؟

فقلت: هذه واحدة.

قالوا: وأما الأخرى، فإنه قاتل ولم يسب ولم يغنم. فلئن كان الذي قاتل كفارا لقد حل سبيهم وغنيمتهم، ولئن كانوا مؤمنين ما حلَّ قتالهم[(١)].

قلت: هذه اثنتان فما الثالثة؟

قال: إنه محا نفسه من أمير المؤمنين، فهو أمير الكافرين[(٢)].

قلتُ: أعندكم سوى هذا؟

قالوا: حسبنا هذا.

فقلتُ لهم: ارأيتم أن قرأت عليكم من كتاب الله ومن سنة نبيه ﷺ ما يرد به قولكم أترضون؟

قالوا: نعم.

فقلت: أما قولكم حَكَّم الرجال في أمر الله، فأنا فأنا أقرأ عليكم ما قد ردّ حكمه إلى الرجال في ثمن ربع درهم في أرنب، ونحوها من الصيد، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ﴾ [المائدة: ٩٥] إلى قوله ﴿يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ [المائدة: ٩٥]، فنشدتكم الله، أحكم الرجال في أرنب ونحوها من الصيد أفضل، أم حكمهم في دمائهم وصلاح ذات بينهم؟ وأن تعلموا أن الله لو شاء لحَكَمَ ولم يُصَيِّر ذلك إلى الرجال، وفي المرأة وزوجها قال الله عز وجل: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾ [النساء: ٣٥] فجعل الله حكم الرجال سنة مأمونة، أخرجتم عن هذه؟

(١) يظهر من هذه ضيق عقولهم، وأنهم لا يرون في الناس إلا المؤمن والكافر، فأما العاصي والباغي ونحو ذلك، فلا تتسع عقولهم له.

(٢) ويظهر من هذه ضيق عقولهم بأقوى من التي قبلها، فعليٌّ إن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين!!

قالوا: نعم.

قال: وأما قولكم: قاتل ولم يسب ولم يغنم، أتسبون أمكم عائشة؟ ثم تستحلون منها ما يُسْتَحَلّ من غيرها؟ فلئن فعلتم لقد كفرتم وهي أمكم، ولئن قلتم: ليست أمنا لقد كفرتم فإن الله يقول: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾[الأحزاب: ٦] فأنتم تدورون بين ضلالتين أيهما صرتم إليها، صرتم إلى ضلالة.

فنظر بعضهم إلى بعض، قلت: أخرجتم من هذه؟

قالوا: نعم.

قال: وأما قولكم محا اسمه من أمير المؤمنين، فأنا آتيكم بمن ترضون، وأريكم قد سمعتم أن النبي ﷺ يوم الحديبية كاتب سهيل بن عمرو وأبا سفيان بن حرب فقال رسول الله ﷺ لأمير المؤمنين: «اكتب يا علي: هذا ما اصطلح عليه محمد رسول الله»، فقال المشركون: لا والله ما نعلم إنك رسول الله لو نعلم إنك رسول الله ما قاتلناك، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إنك تعلم أني رسول الله، اكتب يا علي: هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله»، فوالله لرسول الله خير من علي، وما أخرجه من النبوة حين محا نفسه.

قال عبد الله بن عباس: فرجع من القوم ألفان، وقتل سائرهم على ضلالة»[1].

وهذه المناظرة دليل صدق على أن القوم يقرؤون القرآن ولا يجاوز حناجرهم، فلا هو يصل إلى عقولهم فيفقهونه ويعقلونه ويتأملون أحكامه، ولا هو يصل إلى قلوبهم فيجعلهم أرق أفئدة وألين أخلاقا، بل جمعوا إلى ضيق العقل ضيق النفس!

وثمة مناظرة أخرى بين علي وبين الخوارج، ربما كانت قبل مناظرة ابن عباس أو كانت بعدها، وتكرر فيها بعضُ ما ذُكر في مناظرة ابن عباس، وزادت عليها أشياء، فمن هذه الأشياء الزائدة:

---

(١) عبد الرزاق، المصنف، (١٨٦٧٨)؛ الحاكم (٢٦٥٦) وهذا لفظه، وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

أن عليًّا ردَّ على قولهم «إن الحكم إلا الله»، بأن جاء بمصحف كبير، «فجعل يصُكُّه بيده ويقول: أيها المصحف، حدِّث الناس.

فناداه الناس فقالوا: يا أمير المؤمنين، ما تســأل عنه؟! إنما هو مداد في ورق، ونحن نتكلم بما روينا منه، فماذا تريد؟

قال: أصحابكم هؤلاء الذين خرجوا، بيني وبينهم كتاب الله، يقول الله تعالى في كتابه في امرأة ورجل ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾[النساء: ٣٥] فأمة محمد ﷺ أعظم دما وحرمة من امرأة ورجل[١]...

فرجع منهم أربعة آلاف كلهم تائب، فيهم بن الكواء[٢]، حتى أدخلهم علي على الكوفة.

فبعث علي رضــي الله عنه إلى بقيتهم، فقال: قد كان من أمرنا وأمر الناس ما قد رأيتم، فَقِفُوا حيث شئتم حتى تجتمع أمة محمد ﷺ.

بيننا وبينكم:

١. أن لا تسفكوا دما حراما

٢. أو تقطعوا سبيلا

٣. أو تظلموا ذمة

فإنكم إن فعلتم فقد نبذنا إليكم الحرب على سواء، إن الله لا يحب الخائنين»[٣].

---

(١) ووجه الحجة في كلام علي أن الرجال، أي أهل العلم، هم الذين ينطقون بحكم الله، فالمصحف لا ينطق من تلقاء نفسه.

(٢) ذُكر ابن الكواء لأنه كان من أشد هؤلاء الخوارج، وكان يرفض حتى المناظرة! وقد كان قبل ذلك من المتمردين على عثمان.

(٣) أحمد (٦٥٦)؛ الحاكم (٢٦٥٧) وقال: على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي؛ وصححه أحمد شاكر وحسنه شعيب الأرناؤوط، وصححه الألباني وقال: على شرط مسلم (إرواء الغليل ٨/ ١١٣).

وفي رواية أخرى أنه أوضح حقوقهم بقوله: «الآن لكم عندي ثلاث خلال:

١. ما كنتم معنا، لن نمنعكم مساجد الله أن يذكر فيها اسمه

٢. ولا نمنعكم فيئا ما كانت أيديكم مع أيدينا

٣. ولا نقاتلكم حتى تقاتلوا»[١].

ويظهر في هذا الفقه وجهٌ آخر من عظمة علي رضـي الله عنه، فإن عليًّا الذي أحرق من قدَّسـوه وألَّهوه، هو نفسـه الذي حفظ حقوق من كفَّروه ونابذوه، ما فعل هذا ولا ذاك إلا حراسـة للدين وحفظا للشـريعة، فذلك هو الفارق بين الخلفاء الراشـدين المهديين وبين طبائع الملوك والحكام، فأولئك يلزمون الشـرع وأولئك يقرِّبون من يُعَظِّمهم، ويعتمدون أشد القسوة على من خالفهم لمجرد أنه خالفهم!

## موقعة النهروان

بينما عليٌّ يفكر في غزو الشام، بدأ الخوارج في ارتكابهم القتل، فخطب عليٌّ في أنصاره: «ما ترون؟ أتسـيرون إلى الشـام أم ترجعون إلى هؤلاء الذين خلفوا إلى ذراريكم؟ فقالوا: لا، بل نرجع إليهم»[٢]، وفي رواية: «فتذهبون إلى معاوية وأهل الشـام وتتركون هؤلاء يخلفونكم في ذراريكم وأموالكم؟!»[٣].

وقد كان مع عليٍّ علم من رسـول الله بما سـيصير إليه أمر أولئك الخوارج، وهو معركة

---

(١) ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٧٩٣٠)، خبر صحيح، انظر: فقيهي، خلافة علي، ص٢٥٤ (الملحق)؛ الشمري، صحيح أخبار صفين، ٢/ ٦١٤.

(٢) ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٧٩١٤)، بإسناد صحيح، انظر: المصنف ط أسامة بن إبراهيم (١٣/ ٤٥٥)؛ المصنف ط الشثري (٢١/ ٥٥٥)؛ الشمري، صحيح أخبار صفين، ٢/ ٦٧١.

(٣) مسلم (١٠٦٦).

إبادة، وجاء في هذا عدد من الأحاديث، تصف خروجهم في زمن الفرقة، وتصف أعمارهم الصغيرة، وعقولهم السفيهة، وتصف المعركة والقتلى، وتشير إلى رجل منهم إشارة خاصة، فمن هذه الأحاديث الصحيحة:

- «يخرج من ضئضئ هذا قوم يتلون كتاب الله رطبا لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية -وأظنه قال- **لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود**»[١].

- «يخرج قوم من أمتي يقرأون القرآن ليس قراءتكم إلى قرائتهم بشيء، ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء، ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء، يقرأون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم، لا تجاوز صلاتهم تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، **لو يعلم الجيش الذي يصيبونهم ما قضي لهم على لسان نبيهم ﷺ لاتكلوا عن العمل**، وآية ذلك أن **فيهم رجلا له عضد وليس له ذراع على رأس عضده مثل حلمة الثدي عليه شعرات بيض**»[٢].

- «**آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة، أو مثل البضعة تدردر**، ويخرجون على **حين فرقة من الناس**»[٣].

- «سيخرج في آخر الزمان قوم **أحداث الأسنان سفهاء الأحلام**، يقولون من خير قول البرية، يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، **فإذا لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجرا** لمن قتلهم عند الله يوم القيامة»[٤].

- قال أبو أمامة: كلاب النار، شر قتلى تحت أديم السماء، خير قتلى من قتلوه، ثم قرأ

---

(١) البخاري (٤٠٩٤)؛ مسلم (١٠٦٤).

(٢) مسلم (١٠٦٦).

(٣) البخاري (٣٤١٤).

(٤) مسلم (١٠٦٦).

﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ﴾[آل عمران: ١٠٦] إلى آخر الآية. فقيل له: أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: «لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين أو ثلاثا أو أربعا حتى عد سبعا ما حدثتكموه»[1].

- «الخوارج كلاب النار»[2].

كان عددٌ من تلك العلامات متحققا في أولئك الخوارج، ولكن الأمر لن يكتمل إلا بوقوع معركة الإبادة التي جاء وصفها في الأحاديث، وهي المعركة التي فجَّرها ما شرعوا في عمله من الإغارة والهجوم، حتى قيل في وصف عملهم «يهدُّون الناس قتلا»، وكان أبرز ما وقع منهم قتلهم لعبد الله بن خباب بن الأرت، وزادوا على ذلك أن بقروا بطن جاريته التي كانت حبلى في ذلك الوقت.

وفي ذات الوقت الذي كانوا يقتلون فيه ويمثلون بالجثث، فقد أخذ أحدهم تمرة، فنهره صاحبه أن أخذ تمرة لم يستأذن صاحب نخلتها!! فكانوا يتورعون في التمرة، ويسفكون الدم بغير تردد!!

---

(١) أحمد (٢٢٢٠٥)؛ الترمذي (٣٠٠٠) وقال: حسن صحيح؛ الحاكم (٢٦٥٤) وقال الذهبي: على شرط مسلم، وصححه الألباني وشعيب الأرناؤوط.

(٢) ابن ماجه (١٧٣)، وصححه الألباني.

طالبهم عليٌّ بأن يُسَلِّموا إليه قتلة عبد الله بن خباب، فقالوا: كلنا قتله، فعندئذ قصد علي إلى قتالهم، وقال: «والله إني لأرجو أن يكونوا هؤلاء القوم[1]، فإنهم قد

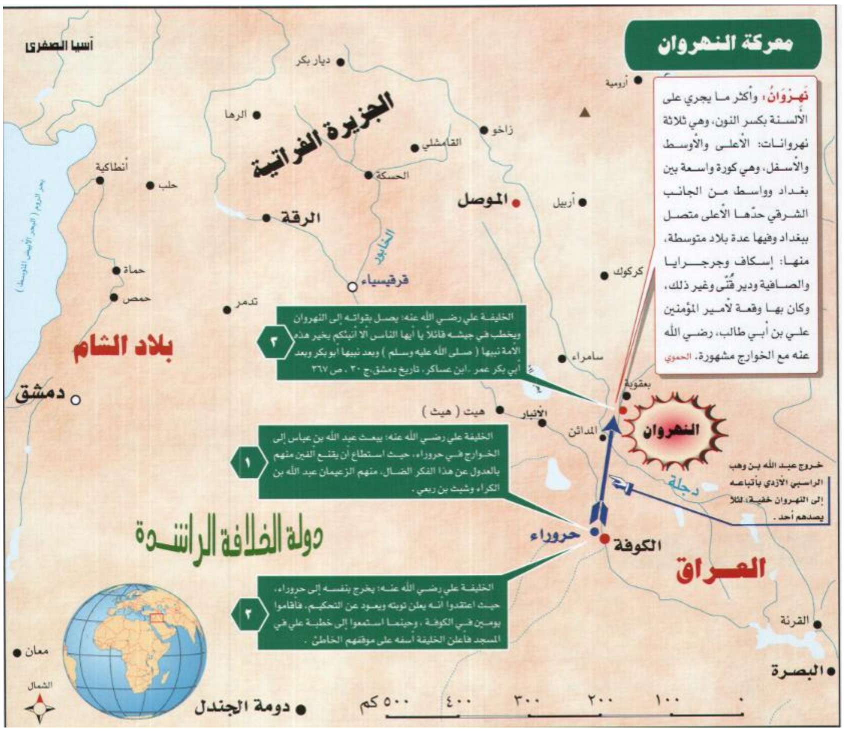


سفكوا الدم الحرام وأغاروا في سرح الناس فسيروا على ا سم الله»[2]، وكان قائد الخوارج يومها عبد الله بن وهب الراسبي، والتقى الجيشان فأبدى الخوارج قوة وشدة حتى كانت «خيل علي لا تقوم لهم؛ فقام علي فقال: أيها الناس إن كنتم إنما تقاتلون لي، فوالله ما عندي ما أجزيكم به، وإن كنتم إنما تقاتلون لله فلا يكن هذا قتالكم، فحمل الناس حملة واحدة، فانجلت الخيل عنهم، وهم مكبون على وجوههم»[3].

وثمة اتفاق بين الروايات على أن المعركة أفنت أولئك الخوارج إلا قليلا، وأن الذين استشهدوا من جيش علي قليل أيضا هم ما بين الاثنين والبضعة عشر رجلا[4].

---

(١) أي: الخوارج الذين وصفهم رسول الله ﷺ.

(٢) مسلم (١٠٦٦).

(٣) ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٧٩١٤)، بإسناد صحيح، انظر: المصنف ط أسامة بن إبراهيم (١٣/ ٤٥٥)؛ المصنف ط الشثري (٢١/ ٥٥٥)؛ الشمري، صحيح أخبار صفين، ٢/ ٦٧١.

(٤) مسلم (١٠٦٦)؛ ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٧٨٩٤)، (٣٧٨٩٨)، بأسانيد حسنة أو صحيحة؛ خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ص١٩٧؛ انظر: المصنف ط الشثري (٢١/ ٥٤٥)؛ فقيهي، خلافة علي، ص٢٤١، ٢٤٢.

وبالإضافة إلى ما كان مع عليٍّ من العلم الذي أخبر به رسول الله ﷺ عن الخوارج، إلا أن الحديث الذي كان عليٌّ أكثر الناس فرحا به، هو قوله ﷺ: «هم شر الخلق (أو من أ شر الخلق) يقتلهم أدنى الطائفتين إلى الحق»، وفي لفظ «تمرق مارقة عند فرقة من المسلمين يقتلها أولى الطائفتين بالحق»(١).

إن هذا الحديث دليل إضافي على أن فئة علي هي الأولى بالحق، والأدنى إلى الحق، وأن فئة معاوية هي الفئة الباغية الأبعد عن الحق، فبه ينكشف مزيدٌ من الحق في الفتنة التي اقتتل فيها الصحابة، ويظهر من هذا الحديث «أن عليا رضي الله عنه كان هو المصيب المحق، والطائفة الأخرى أصحاب معاوية رضي الله عنه كانوا بغاة متأولين. وفيه التصريح بأن الطائفتين مؤمنون لا يخرجون بالقتال عن الإيمان ولا يفسقون»(٢)، وفي الحديث «دليلٌ على أن كلتا الطائفتين المقتتلتين -علي وأصحابه ومعاوية وأصحابه- على حق، وأن عليا وأصحابه كانوا أقرب إلى الحق من معاوية وأصحابه»(٣).

ولقد اهتم عليٌّ اهتماما بالغا بالقتيل الذي وصفه رسول الله ﷺ، فلما انقضت معركة النهروان قال لأصحابه: «انظروا، فنظروا فلم يجدوا شيئا، فقال: ارجعوا، فوالله ما كذبت ولا كُذِّبت -مرتين أو ثلاثا- ثم وجدوه في خربة، فأتوا به حتى وضعوه بين يديه»(٤). قال أبو سعيد الخدري: أشهد سمعت من النبي ﷺ وأشهد أن عليا قتلهم وأنا معه جيء بالرجل على النعت الذي نعته النبي ﷺ»(٥). وفرح عليٌّ رضي الله عنه بتحقق هذه العلامة التي تنصر الحق الذي هو عليه!

وفي رواية أن عليًّا خرج بنفسه ليبحث عنه حين لم يجدوه، جاء في رواية مسلم:

---

(١) مسلم (١٠٦٤).

(٢) النووي، شرح صحيح مسلم، ٧/ ١٦٨.

(٣) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ٤/ ٤٦٧.

(٤) مسلم (١٠٦٦).

(٥) البخاري (٦٥٣٤).

«فالتمسوه فلم يجدوه، فقام علي رضي الله عنه بنفسه، حتى أتى ناسا قد قُتِلَ بعضُهم على بعض. قال: أخِّرُوهم. فوجدوه مما يلي الأرض. فَكَبَّر، ثم قال: صدق الله وبلغ رسوله. قال: فقام إليه عبيدة السلماني فقال: يا أمير المؤمنين آلله الذي لا إله إلا هو لسمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ؟ فقال: إي والله الذي لا إله إلا هو حتى استحلفه ثلاثا وهو يحلف له»[١]

## وقفات ومسائل مهمة

ثمة مسائل قليلة يحسن إلقاء الضوء عليها قبل أن ننتقل عن هذا الموضع، وهي:

### (١) سياسة علي مع معارضيه

ربما سأل سائل[٢]: لماذا فرَّق علي رضي الله عنه في تعامله بين طائفة معاوية وطائفة الخوارج، فقد ترك للخوارج حرية الانفصال السياسي بل والاعتقادي، فلم يحرمهم حقا من حقوقهم كمسلمين، ومنع التعرض لهم ما لم يعتدوا، على الرغم من خروجهم من البيعة وتكفيرهم للصحابة وغيرهم، بينما أعلن الحرب العامة على أهل الشام لمجرد إصرارهم على رفض المبايعة. تقولون إن عليا سنَّ في معاملة الحاكم للمعارضة السياسية سنته المعروفة عندما واجه حركة الخوارج، ولكن لماذا لا تجعلون معاملته لطائفة الشام بالسيف بعد أن نصحهم وذكرهم وقبل أن يعتدوا من سنته أيضا؟

والجواب، والله أعلم، أن الحرب في صفين كانت اجتهادا من عليٍّ وليس معه فيه نصٌّ من النبي ﷺ، كما أجاب هو من سأله عن خروجه إليها فقال بأنها رأي منه واجتهاد. وهذا

(١) مسلم (١٠٦٦).

(٢) بينما أكتب هذا البحث جاءني هذا السؤال بالفعل من أحد طلاب العلم، وكتبتُ جوابا عليه خلاصته ما وضعته في المتن.

الاجتهاد خالفه فيه بعضُ الصحابة كما هو معروف فاعتزلوا القتال.

وحيث كانت المسألة اجتهادية فإن النظر فيها عائد إلى التقدير السياسي، وهذا الفارق في تعامله رضي الله عنه مع فئة معاوية ومع الخوارج، يرجع إلى أن فئة معاوية كانت كبيرة قوية مستقلة بالشام، بينما كان الخوارج قلة صغيرة معتزلة في قرية الحرورية، فلهذا كان الخطر والخشية من انقسام الدولة الإسلامية بانفصال قطر كبير عنها مثل الشام، ولهذا بادر إليهم علي رضي الله عنه.

والدليل على هذا أنه حين بادر إلى الشام وجرت موقعة صفين لم يكن يعاني من خطر الخوارج.

ولما ظهرت الخوارج بعد صفين، واعتزلوا في قريةٍ، رأى عليٌّ رضي الله عنه أن احتواءهم ممكن، فأخبرهم بحقوقهم وأنه لا يبدؤهم بقتال ما لم يُحدِثوا، فلما أحدثوا وقتلوا، كان خطرهم أشد خطرًا من فئة الشام لقربهم من الكوفة، ولهذا فلم يحضر عليٌّ التحكيم بنفسه وقال «إني آخِذٌ بأنفاس هؤلاء».

فلما أخفق التحكيم في حل القضية وكان مقررا تجدد الحرب مع أهل الشام، جعل عليٌّ الأولويةَ لقتال الخوارج على قتال أهل الشام لأنهم أقرب وأخطر. مع أن فئة معاوية كانت تزداد قوة في هذه الفترة.

فخلاصة القول أن المسألة تابعة لتقدير الخطر، ففي كل مرحلة واجه عليٌّ الخطر الأعظم منهما والله أعلم.

(٢) من هم الفئة الباغية؟

بزغت في السنوات الأخيرة من جديد طائفةٌ أعادت قول النواصب، من بعد ما كانوا قد انقرضوا، وكان من أسباب ذلك ما ارتكبه الشيعة من الإجرام الشنيع في العراق (٢٠٠٦م

وما بعدها) وسـوريا (٢٠١١م وما بعدها) واليمن (٢٠١٥م وما بعدها)، وكان من آثار ذلك أن خرج أولئك النواصـب الجدد والمتأثرون بهم بقوليْن في حديث «تقتله الفئة الباغية»، فمنهم من ردَّ هذه العبارة وضَعَّفها بالكلية ونافح عن أنها موضوعة ومدسوسة في الحديث، ومنهم من تأوَّلها بحيث يصـرفها عن فئة معاوية فيجعلها في فئة «قتلة عثمان»، وأنهم هم الفئة الباغية المذكورة في الحديث.

وقبل البدء في الكلام عن هذا الأمر، فيجب التأكيد على أن انبعاث قول النواصـب من جديد إنما كان ردة فعل نفسـية وليس قولا علميا، وأن الأفراد القليلون ممن قالوا بقول النواصـب قديما إنما وجدوا بيئة نفسـية مهيئة مجروحة ومهيضـة بل مقتولة ومذبوحة بيد الشيعة الذين يرفعون شعار آل البيت، فلذلك ازدهر قول الناصبة الجدد وانتشر من بعد ما كان قد انقرض.

**وإنما نقول هذا لكي نشير إلى أمريْن مهميْن:**

**الأول**: أنه ليس في الناصـبة الجدد علماء ولا طلاب علم، بل قوم ينتهبون الأقوال وهم يجهلونها ويجترئون على تضعيف الأحاديث وردها وعلى تجريح الرواة دون أي حظ من العلم، وقد جرَّهم هذا إلى أصـول ومقولات خطيرة طعنت في الصـحابة –لا سـيما عليٌّ وأنصاره– وركب عباب هذا العلم قوم لا يحسنون السباحة بل لا يحسنون النظر إلى العلم من بعيد فَضَلُّوا وأَضَلُّوا كثيرًا، وكان عملهم نموذجا في خطورة أن يتكلم في الفتنة من ليس من أهل العلم!

**والثاني**: أن هذا الوضـع هو دليلٌ جديدٌ على أن الأمة المهزومة تَتَجَرَّح أفكارُها وعقائدُها بهزيمتها، فالأفكار –كما ذكرنا وكررنا– تتوسع وتنتشر حين تنتصر، وهي كذلك تنكمش وتنحسر حين تنكسر، فها هي أمة الإسلام لما كانت مغلوبة خرج فيها من يرى أن أصـل الهزيمة هو الإسـلام نفسـه، أو هو اللغة العربية نفسـها، أو هو اعتقاد أهل السـنة والجماعة نفسه. وتطيح الأقوال وتشرد الأذهان شرقا وغربا في تفسير سبب الهزيمة. ومن

أراد نصـرة الدين حقا فالطريق الأقوم والأقصـر بل الطريق الأوحد أن يعمل على نصـرة الدين وتمكينه في واقع الحياة، وأما ما سوى ذلك فليس بحل!

**ثم نأتي إلى الكلام في شبهة: الفئة الباغية.**

فأما الذين حاولوا ردَّ هذه العبارة من الحديث فقد اصـطدموا بحقيقة أن الحديث في أعلى درجات الصحة، فهو حديث متواتر، وهو في البخاري ومسلم ولدى أصحاب السنن والمسـانيد، وقد تعلقوا وتكلفوا أن العبارة لم ترد في بعض نسـخ البخاري، مع أنها قد وردت في أصـحّ نسـخ البخاري وهي النسـخة اليونينية[١]، على أنها لو لم ترد في البخاري أصلا لم يكن هذا طعنا في صحتها فقد وردت بطرق عديدة في غيره كصحيح مسلم، فضلا عن ورودها في كتب أصـحاب السـنن والمسـانيد، وقد أطبق العلماء على صـحتها، وكلام العلماء كثيرٌ جدا في إثباتها، من ذلك مثلا:

- قال ابن عبد البر: «تواترت الآثار عن النبى ﷺ أنه قال تقتل عمار الفئة الباغية وهذا من إخباره بالغيب وأعلام نبوته ﷺ وهو من أصح الأحاديث»[٢].
- قال المزي: «تواترت الروايات عن رسـول الله ﷺ أنه قال لعمار: «تقتلك الفئة الباغية» روي ذلك عن عمار بن ياسر، وعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وعبد الله بن عباس في آخرين»[٣].
- قال الذهبي: «وفي الباب عن عدة من الصحابة، فهو متواتر»[٤].

---

(١) وللشيخ المحدث المصري أحمد معبد عبد الكريم بحث مفرد في بيان أن الصحيح في نسخ البخاري هو ثبوت هذه العبارة، وهو بعنوان: «إرشاد القارئ إلى النص الراجح لحديث «ويح عمار» من صحيح البخاري وأثر ذلك في تحقيق معنى الحديث وفقهه».

(٢) ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ٢/ ١١٤٠. وذات العبارة كررها ابن العطار الشافعي، العدة في شرح العمدة، اعتنى به: نظام محمد صالح يعقوبي، ط١ (بيروت: دار البشائر، ٢٠٠٦م)، ١/ ٢٤٣، ٢٤٤.

(٣) المزي، تهذيب الكمال، ٢١/ ٢٢٤.

(٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١/ ٤٢١.

▪ قال ابن حجر: «روى حديث تقتل عمارا الفئة الباغية جماعة من الصحابة منهم قتادة بن النعمان كما تقدم وأم سلمة عند مسلم وأبو هريرة عند الترمذي وعبد الله بن عمرو بن العاص عند النسائي وعثمان بن عفان وحذيفة وأبو أيوب وأبو رافع وخزيمة بن ثابت ومعاوية وعمرو بن العاص وأبو اليسر وعمار نفسه وكلها عند الطبراني وغيره وغالب طرقها صحيحة أو حسنة وفيه عن جماعة آخرين يطول عدهم وفي هذا الحديث علم من أعلام النبوة وفضيلة ظاهرة لعلي ولعمار ورد على النواصب الزاعمين أن عليا لم يكن مصيبا في حروبه»[1].

▪ قال السيوطي: «أخرج الشيخان عن أبي سعيد ومسلم عن أم سلمة وأبي قتادة أن رسول الله ﷺ قال لعمار (تقتلك الفئة الباغية). هذا الحديث متواتر رواه من الصحابة بضعة عشر كما بينت ذلك في الأحاديث المتواترة»[2].

▪ وأدرجه العلماء الذين جمعوا الأحاديث المتواترة، كالسيوطي في «قطف الأزهار المتناثرة في الأخبار المتواترة» ومحمد بن جعفر الكتاني في «نظم المتناثر من الحديث المتواتر».

وأما الذين كانوا أقل سوءًا من هؤلاء، وكان عندهم شيء من علم ودين فلم يجترئوا على تضعيف الحديث، فقد اجتهدوا في تأويله عن معناه ليجعلوه منصرفا إلى «قتلة عثمان» وأنهم هم الفئة الباغية، وأنهم قتلوا عمارًا في موقعة صفين.

وتكلفوا أن يقولوا بوقوع التصحيف بين اسم «عثمان» واسم «عمار»، ونسوا -أو تناسوا- أن الحديث إنما كان يُنقل بالرواية والمشافهة أكثر من انتقاله مكتوبا، وبعيدٌ أن يقع الوهم في المشافهة بين اسمي عثمان وعمار، كما أن بعض ألفاظ الحديث فيها «ابن سمية»، وهو ما لا يمكن أن يُقصد به عثمان! فهو لفظ صريح في عمار.

---

(١) ابن حجر، فتح الباري، ١/ ٥٤٣. وانظر له أيضا: الإصابة في تمييز الصحابة، ٤/ ٤٧٤.

(٢) السيوطي، الخصائص الكبرى، ٢/ ٢٣٩.

وتكلفوا أمورا أخرى، فلم يصـنعوا إلا أنهم فَرُّوا من مضـيق ليقعوا في مضـايق أكثر، وفاجأتهم إشكالات عديدة لا يمكن لهم حلها إلا بكثير من التكلف والتعسف، منها:

- مخالفة القرآن الكريم في معنى «الفئة الباغية»، فإن القرآن الكريم ذكر الفئة الباغية على أنها مؤمنة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾[الحجرات: ٩].
- وكذلك مخالفة حديث النبي ﷺ، فقد ذكر النبي ﷺ أن الفئة الباغية فئة مسلمة، وذلك في قوله عن الحسن: «إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»[١]. بينما وصف النبي ﷺ قتلة عثمان بأنهم منافقون في قوله «يا عثمان إن الله عسى أن يلبسك قميصا فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه»[٢]. والنفاق هنا هو النفاق الأصغر الذي لا يُخرج من الملة، وليس النفاق الأكبر الذي يعني إظهار الإسلام وإضمار الكفر. فكان حديث النبي عن فئة معاوية حديثا اجتمع فيه وصفهم بالإسلام وبالبغي، وأما حديثه عن المتمردين على عثمان فوصف بالنفاق فحسب! فالكلام واضح في أن فعل المتمردين على عثمان مُنْكَرٌ مُدانٌ، بينما فعل فئة معاوية له وجه وتأويل، وقد ذكرنا من قبل حديث النبي ﷺ الذي يصرح بأن معهم شيئا من الحق، وهو لفظ «تقتلهم أدنى الفئتيْن إلى الحق» أو «أولى الفئتيْن بالحق».
- وهذا الحديث الأخير أيضا، الذي يوضح صحة موقف علي في قتاله الخوارج، هم يخالفونه، ويتكلفون في تضعيفه وتأويله تكلفا غريبا، وذلك أنه صريح في تصحيح موقف علي، وفي تعضيد فهم حديث «تقتله الفئة الباغية» على أنها فئة معاوية.
- مخالفة ما ثبت من أن قاتل عمار هو أبو الغادية الجهني الذي كان في جيش معاوية، كما أسلفنا ذكره.

---

(١) البخاري (٢٥٥٧)

(٢) أحمد (٢٤٦١٠)، الترمذي (٣٧٠٥)، ابن ماجه (١١٢)، وصححه الألباني وشعيب الأرناؤوط.

- مخالفة سـائر فهم الصـحابة للحديث فإنهم قد اجتمعوا على أن عمارًا قتلته فئة معاوية وأما هؤلاء فقد جعلوا عمارا قد قتلته فئة علي فإن المتهمين بقتل عثمان كانوا في جيش علي، وحتى معاوية لما أراد صـرف الحديث عن نفسـه وفئته لم ينفِ أن عمارا قد قُتِل على يد أحدٍ من جيشـه هو، وإنما أقرَّ بذلك، غير أنه جعل المسـؤول عن ذلك عليًّا وجيشه إذ أخرجوه معهم فألقوه بين سيوف جيش معاوية
- مخالفة العقل، فلماذا يقتل جيشُ عليٍّ واحدًا من أبرز قيادات هذا الجيش وأكثرهم حماسة فيه؟!
- مخالفة سـائر أهل السـنة والجماعة الذين فسَّروا الحديث على أنه في شـأن معاوية وجيشه لا في شأن قتلة عثمان.

وذكروا أمورا أخرى، كلها متهافتة لا تصـمد أمام حقائق العلم ومبادئه، ولكن لا يسـعنا التوقف معها ولا الرد عليها، فليس هذا غرضنا من هذه «الخلاصة».

# استشهاد علي رضي الله عنه

أعاد إخفاق التحكيم الأمر إلى ما كان عليه، فأخذ علي رضي الله عنه في استنفار الناس لحرب معاوية وأهل الشام، وشرع معاوية من جهته في استنفار الناس معه ومحاولة الاستيلاء على الأمصار، وجرت محاولات واشتباكات بين الطرفين للسيطرة على الأمصار، واستطاع معاوية الاستيلاء على مصر، وكانت له محاولة غير ناجحة في البصرة، وأرسل بسر بن أبي أرطأة إلى المدينة ومكة واليمن. كذلك فقد عانى عليٌّ من بعض التمردات الأخرى في الأهواز وفارس، وغيرها. وتفاصيل هذه الأخبار ومتابعتها مما لا يعنينا في هذه «الخلاصة»، فهي تاريخٌ محضٌ، لا يضيف شيئا كثيرا في فهم أحوال هذه الفترة.

ويمكن تفسير هذه الغارات على أن معاوية ينفذ ضربات استباقية تمنع عليا من إعادة شن الحرب عليه، كما يمكن تفسيرها على أن معاوية صار يرى أنه أحق بالخلافة لقوته وتماسك جيشه، في الوقت الذي يعاني فيه جيش علي من التفرق والانقسام والتثاقل(١).

## تثاقل أهل الكوفة عن أمر علي

بدا عليٌّ رضي الله عنه في آخر أيامه مثقلا بالهموم، وأشدُّ ما أهمه ما كان من تثاقل أهل الكوفة عن القيام معه في الحق الذي يبغيه.

قال أبو صالح الحنفي: «رأيت علي بن أبي طالب أخذ المصحف فوضعه على رأسه حتى لأرى ورقه يتقعقع، ثم قال: اللهم إنهم منعوني أن أقوم في الأمة بما فيه،

(١) الصلابي، علي بن أبي طالب، ص٨٢٤، ٨٢٥؛ الشمري، صحيح أخبار صفين، ٢/ ٥٨٦ وما بعدها.

فأعطني ثواب ما فيه، ثم قال: اللهم إني قد مَلَلْتُهم ومَلُّوني، وأبغضْتُهم وأبغضوني، وحملوني على غير طبيعتي وخلقي، وأخلاقٍ لم تكن تُعْرَف لي، فأبدلني بهم خيرا منهم، وأبدلهم بي شرًّا مني، اللهم أَمِتْ قلوبهم ميت الملح في الماء»[١].

يقصد أنهم لم يطيعوه للقيام بما في القرآن من مقاتلة الفئة الباغية، وهذا مع أنه قد ثبت لأهل الكوفة تماما أن عليا على الحق، بعد انتصاره على الخوارج، وظهور ذو الثدية، وكذلك مقتل عمار في معسكره.

وفي رواية يقول عليٌّ: «فأرحني منهم، وأرحهم مني، فما ينفع أشقاكم أن يخضبها بدم؟» ووضع يده على لحيته[٢]. فقد كان لدى عليٍّ علمٌ من رسول الله بأنه مقتول، فكان كأنه يستحثُّ هذا الأشقى الذي سيقتله!

وقال عبيد الله بن أبي رافع: «شهدت عليا وقد اجتمع الناس عليه حتى أَدْمَوا رجله فقال: اللهم إني قد كرهتهم وكرهوني فأرحني منهم وأرحهم مني. قال عبيد الله بن أبي رافع: فما بات إلا تلك الليلة»[٣]. ويظهر من قوله «حتى أدموا رجله» وفي رواية «حتى وطئوا على رجله» أن قوما من أهل الكوفة كانوا لا يُوَقِّرون عليا رضي الله عنه[٤].

## مؤامرة الخوارج الكبرى

اجتمع نفرٌ من الخوارج، ينظرون ماذا عليهم أن يفعلوا لتصحّ أحوال الأمة، فَهَدَاهم ضيق عقولهم وضيق نفوسهم إلى أسوأ حل، فعزموا على اغتيال الثلاثة

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٥/ ٦٩؛ الفسوي، المعرفة والتاريخ، ٢/ ٧٥١؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ٢/ ٣٨٣، خبر صحيح، انظر: الشمري، صحيح أخبار صفين، ٢/ ٧١٠، ٧١١.

(٢) عبد الرزاق، المصنف، (١٨٦٧٠)

(٣) البلاذري، أنساب الأشراف، ٢/ ٤٨٨، بإسناد صحيح، انظر: الشمري، صحيح أخبار صفين، ٢/ ٧١١.

(٤) الشمري، صحيح أخبار صفين، ٢/ ٧١٢.

الساسة الكبار في الأمة: علي بن أبي طالب في الكوفة، ومعاوية بن أبي سفيان في دمشق، وعمرو بن العاص في فسطاط مصر! وأن يكون اغتيال الثلاثة في يوم واحد، وهو صبح اليوم السابع عشر من شهر رمضان من عام أربعين للهجرة!

وتصدى ثلاثة منهم للقيام بالمهمة، فعبد الرحمن بن ملجم المرادي لاغتيال علي، والبرك بن عبد الله التميمي لاغتيال معاوية، وعمرو بن بكر التميمي لاغتيال عمرو بن العاص.

فأما عبد الرحمن بن ملجم فأدرك غايته، إذ هاجم عليا بن أبي طالب بالسيف في جامع الكوفة فأصابه إصابة بليغة ما لبث أن مات منها، وأما البرك بن عبد الله فقد هاجم معاوية في جامع دمشق فأصابه إصابة متوسطة فلم تقتله، وأما عمرو بن بكر فقد قتل أمير الناس في الصلاة بالفعل، ولكن عمرو بن العاص كان قد مرض في تلك الليلة، فأصابه وجعٌ في بطنه، فناب عنه في صلاة الصبح صاحب الشرطة خارجة بن حذافة! فذاك الذي قُتِل(١).

وباستشهاد علي بن أبي طالب، تُطوى صفحة الرجل الذي هيَّأه الله ليتعلم منه المسلمون كيف يكون فقه التعامل مع المعارضة بأنواعها، وقد ادَّخره الله لهذا الموقف العصيب الذي لا يتأهل له إلا رجل بلغ في العلم وفي الحرب الغاية! فهو فارس مقاتل بطل محارب، ثم هو عالِم فقيه مغروسٌ في دوحة النبوة، عاش صباه في كنف النبي، ثم زوجه النبي بأحب بناته إليه، وأولاده هم سبطا النبي ﷺ، فأخذ من علم النبوة وبركتها ما لم يتسنّ لغيره!

---

(١) ومن هنا جاء المثل الشهير القائل: أردتُ عَمْرًا وأراد الله خارجة!

قال أبو حنيفة: «ما قاتل أحدٌ عليًّا إلا وعلي أولى بالحق منه، ولولا ما سار عليٌّ فيهم ما عَلِمَ أحدٌ كيف السيرة في المسلمين»[1].

وفاز عليٌّ بالشهادة، على يد أولئك الخوارج الذين لا زالت الأمة تذوق منهم شرَّ ما تذوق أمةٌ من أبنائها، ليثبت لمرة ثانية أن هذه الأمة لم تُؤْتَ من أعدائها كما قد أُوتيت من أولئك المنسوبين إليها!

(١) ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، (بيروت: دار الفكر، د. ت)، ١/ ١٢٩.

# وقفة عند عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة

قرر أهل السنة والجماعة في عقائدهم التي كتبوها لبيان الإيمان الواجب على المسلم أنهم يكفون عما شجر بين الصحابة ولا يتكلمون فيه، ويرون أن الجميع مجتهد متأول معذور، وأن الحق كان مع علي رضي الله عنه، وأن فئة معاوية هي الفئة الباغية.

## كيف تكونت عقيدة أهل السنة والجماعة؟

مما اشتهر على ألسنة الخاصة والعامة قولهم: «المنتصر يكتب التاريخ»، ومن معاني هذه المقولة: أن الذي انتصر فرض روايته ورؤيته وأفكاره على الناس، وكتب تاريخه، ثم إن المنبهرين بانتصاره كتبوا التاريخ متأثرين بهذا الانبهار، فالتاريخ مكتوبٌ على هواه رغبا ورهبا، رغبا من حيث إن المغلوب مولع بتقليد الغالب، ورهبا من حيث امتلاكه القوة والقهر الذي يفرض به رؤيته وأفكاره ورؤاه. وللباحثين والفلاسفة في هذا الباب كلام طويل عن دور السلطة في إنتاج المعرفة!

يظنّ المستشرقون، ومن اتبعهم من العلمانيين العرب، ومن تأثر بهم من عموم الباحثين، أن هذا الأمر مثلما جرى على تواريخ الأمم، وعلى تاريخهم الغربي، فقد جرى

أيضـا على تاريخ المسـلمين، وأن عقيدة أهل السـنة والجماعة إنما هي عقيدة الفرقة التي انتصــرت وســادت عبر التاريخ، فمن ثَمَّ كتبت هي التاريخ، ونجحت في تعميم أفكارها، وبالقوة والانتصار صارت عقيدة أهل السنة هي عقيدة السواد الأعظم من المسلمين.

إن عصر الفتنة بين الصحابة، والتأريخ له، هو أحد أهم الدلائل على فساد هذا التصور، ومن ثمَّ فهو أحد أهم الدلائل على أن عقيدة أهل السـنة والجماعة لم تكتبها السـلطة ولم تكن سـائدة بأثر الغلبة والقهر، وإنما تكوَّنت هذه العقيدة عبر منهج علمي دقيق، منهج علميٍّ يتعامل مع نصوص الكتاب والسنة، ومع أقوال الصحابة رضوان الله عليهم، يبتغي بذلك فهم مُراد الله ورسوله، والوصول إلى الحق فيما اختُلِف فيه.

تقرر عقيدة أهل السـنة والجماعة أن ما وقع بين الصـحابة كان فتنة، وأن الحق فيها كان مع علي رضـي الله عنه، وأن الفئة الباغية هي فئة معاوية رضـي الله عنه، وكان هذا اسـتنادا إلى نصوص نبوية. فلو أن هذه العقيدة كتبها منتصرٌ، لكانت قد انحازت إلى معاوية لا إلى علي، ولكانت فئة علي هي الفئة المنقلبة التي قتلت عثمان ثم انهزمت أمام الذين انتصـروا لدمه، لا سـيما وأولئك الذين انتصـروا لدمه قد أقاموا دولة عظيمة شـاسـعة الأرجاء، هي أوسـع ما قام للمسـلمين من ممالك، فالدولة الأموية امتدت من الصـين إلى فرنسـا تحت خليفة واحد، ولم تسـتطع دولةٌ بعدها أن تحكم كل هذه المسـاحة، ولا أن ينفرد خليفتها بأن يحكم كل المسلمين، فالدولة الأموية هي آخر لحظة وحدة تامة بين المسلمين!

ولما جاء العباسـيون بعد الأمويين، وطال زمان حكمهم، لم يتغير على عقيدة أهل السنة والجماعة شيء، مع أن العباسيين أعداء الأمويين، ولا يمكن رصدُ أصلٍ من أصول هذه العقيدة قد تغير أو تبدل بين العصريْن، بل كان علماء السـنة في عصـر تدوين الحديث ينقلون عن الأمويين في أسـانيدهم الحديث النبوي، وربما نقلوا أقوالهم وقضـاءهم، وأخذوا أيضـا عن العلماء الذين اشـتهروا بقربهم من خلفاء الأمويين، ولم يُنْقَل أن خليفة من خلفاء العباسيين استنكر على أهل العلم أخذهم عن هؤلاء الرواية أو العلم!

إنما تقررت العقيدة بالعلم، عبر المنهج العلمي الذي يتحقق من نسبة النصوص إلى قائليها حتى الصحابي والنبي ﷺ، ومحاكمتها وموازنتها بما سواها من النصوص الأخرى، حتى يتضح الحق من بين ذلك كله.

لو أن الغالب المنتصر تدخل في كتابة عقيدتنا ما كان بالإمكان أن تكون على هذا النحو، فعصر الأمويين لن يرحب بأن تكون فئة علي هي الأدنى إلى الحق وفئة معاوية هي الفئة الباغية، وعصر العباسيين لن يرحب بأن يكون معاوية ومن معه متأولين مجتهدين معذورين! وبهذا يظهر أن عقيدة أهل السنة إنما كُتِبت وقُرِّرت انطلاقا من نصوص القرآن والسنة فحسب، ولم يؤثر عليها مصدر آخر!

لو أن عقيدة أهل السنة والجماعة تنحاز إلى التفسير المادي وتزن الأطراف به، فمعاوية هو الذي انتصر، وأبناؤه أقاموا بعده دولة عظيمة، بينما عليٌّ لم يستطع السيطرة على جيشه، ولا الحسين انتصر على يزيد، ولا ابن الزبير فيما بعد استطاع أن يحكم البلاد، ومع هذا، فقد ظل عليٌّ أرفع وأعظم وأجدر من معاوية، وظل معاوية هو الباغي، كما ظل الحسين شهيدا مظلوما ويختلف أهل السنة في جواز لعن يزيد أو أن يكون مغفورا له، كما ظل عبد الله بن الزبير الخليفة الشرعي وبقي مروان بن الحكم باغيا، وكذلك ابنه عبد الملك بن مروان أول خليفة متغلب! فثبت بهذا أنها لم تتكون متأثرة بالنظرة المادية!

ولو أن عقيدة أهل السنة والجماعة تنحاز إلى المعيار الروحي وتزن الأطراف به، وتنحاز للمظلومين المقهورين كما تفعل بعض الاتجاهات الفلسفية ومدارس التاريخ الحديثة، لكانت قد انحازت إلى الخوارج، فلقد كانوا أشد عبادة من أصحاب رسول الله ﷺ، وكانوا –بالمعيار الروحي المثالي- في الذروة من المثالية والنقاء والفداء، لم يتقبلوا ما يرونه أدنى تنازل في الدين، وكان يُسمع لهم دوي بالقرآن، وكانت وجوههم مسهمة من السهر بقيام الليل، وكانت أقدامهم مثفَّنة من الاجتهاد في العبادة!!

إنما كانت عقيدة أهل السنة والجماعة تفسيرا لآيات الكتاب ولأحاديث النبي ﷺ،

وفق منهج علمي متين!

ومن أصول عقيدة أهل السنة والجماعة أن الصحابة عدول، وأن فضلهم ثابت بالقرآن والسنة، وأنهم خير الأجيال، وأن الله اختارهم لصحبة نبيه، وأنهم أعلام هذه الأمة ونجومها، وأن سائر أعمال هذه الأمة لن تبلغ أعمالهم، لأن أعمال الأمة في ميزان حسناتهم، إذ هم الفاتحون للبلاد، وهم المبلغون للدين، وهم الذين ربُّوا من بعدهم من التابعين.

وهذا يفتح مسألتيْن تتعلقان بموضوعنا هنا؛ الأولى: كيف يكون الصحابة عدولا وقد قاتلوا واقتتلوا؟ والثانية: لماذا نكف عما شجر بين الصحابة؟

## عدالة الصحابة هل تخدشها الفتنة؟

يزعم البعض أن ما وقع في عصر الفتنة بين الصحابة يخدش عدالتهم، إذ كيف يكون عدلًا من حمل السيف فقاتل، ومارس ما تستلزمه الحرب من مناورات وخدع؟ وكيف يكون القاتل والمقتول في الجنة؟ وكيف يكون كلاهما عدلًا؟ وكيف يأتمن المسلمون هؤلاء على الدين؟ ألا يمكن أن يختلق الواحد منهم شيئا عن النبي لم يقله لضرورات ما يرتكبه من المخادعة والمقاتلة؟

إن عصر الفتنة بين الصحابة يقوم دليلا قويا، بل لعله الدليل الأقوى، على أن الصحابة عدول، وعلى أنهم مؤتمنون، وعلى أنهم خير الناس. وقد مرَّ معنا كيف أن قتالهم لبعضهم كان أشرف قتال، فلم يكونوا يجهزون على جريح ولا يتبعون مدبرا ولا يسبون ذرية! وهو أمرٌ لا تخلو منه الحروب في أي زمان ومكان.

لكننا نتوقف هنا أمام الأمر الأهم، وهو عدالتهم في نقلهم عن النبي ﷺ، فلقد أثبتت أحداث هذه الحقبة، حقبة الفتنة، نزاهتهم وورعهم وأن الشك لا يتطرق إليهم في نقلهم عن النبي ﷺ:

١. لقد روى جمع من الصحابة أحاديث تؤيد مواقفهم، ولم يوجد أحدٌ يتهمهم بالكذب على رسول الله لمصلحتهم:

فعليٌّ رضي الله عنه هو الذي روى كثيرا من أخبار الخوارج، وشهد معه بعض الصحابة على صدقه في بعض ما روى، وزاد عليه. ولم يرد عن أحد من أهل الشام –المنافسين لعليٍّ– أو عن أحد من أهل المدينة أو مكة تشكيكا فيما رواه علي، لأنه رواية تؤيد ما يفعل!

ومثل ذلك ما رواه عبد الله بن حوالة الأزدي من حديث «عليكم بالأمين وأصحابه»، أو ما رواه في فضائل الشام، وهي الأحاديث التي فهم منها أن أهل الشام على حق، ودفعته أن يكون في أهل الشام. لم يرد أن أحدًا من أهل العراق أو من أهل المدينة أو مكة، كذَّب عبد الله بن حوالة فيما يرويه، وأثار أن روايته هذه إنما اختلقها لتأييد موقفه!

كذلك النعمان بن بشير، الصحابي الذي نقل ثوب عثمان ملطخا بدمه ومعه أصابع زوجة عثمان المقطوعة إلى معاوية بالشام، هو الذي روى عن عائشة حديث إسرار النبي لعثمان، وفيه «لعل الله أن يقمصك قميصا، فإن أرادك المنافقون على خلعه، فلا تخلعه»، وكان النعمان في أهل الشام، ولم يُثِر أحدٌ من أهل العراق أو غيرهم احتمال أن يكون قد كذب أو أن عائشة قد كذبت، فاختلق أحدهما أو كلاهما الحديث لنصرة ما يذهب إليه.

حتى معاوية، حين سمع حديث «تقتل عمار الفئة الباغية» لم يداخله شكٌّ في أن يكون الحديث مكذوبا عن النبي، بل عمل عقله بتلقائية في استخراج تأويل له!!

تلك المواقف المتعددة، تثبت أن الصحابة لم يكونوا متَّهمين في روايتهم عن النبي ﷺ، في أحرج لحظات الفتنة والحرب التي تحتاج إلى المداراة والمخادعة ونحو ذلك.

٢. وأظهر من ذلك أن الصحابة رووا بأنفسهم أحاديث عن النبي ﷺ فيها مجالٌ لخصومهم، ولو كانوا ممن يتلاعب بالنقل عن النبي ﷺ لكتموا ذلك أو لغيَّروه:

فعليٌّ هو الذي روى حديث «تقتلهم أقرب الفئتين إلى الحق»، وهذا لفظ صـريح في أن الفئة الأخرى التي يقاتلها قريبة من الحق أيضـا، ولها نصـيب منه! فلو كان متلاعبا لقال: «تقتلهم الفئة التي على الحق» أو لقال: «يقتلهم أهل الحق دون أهل الباطل»!

وعليٌّ هو من روى حديث «إن لكل نبيٍّ حواريا، وإن حواريي الزبير بن العوام»، وهو من روى حديث «بشر قاتل ابن صفية بالنار»، وابن صفية هذا هو خصمه الزبير، فلو كان عليٌّ من أهل السياسة في زماننا هذا، ولو كان يجيز لنفسه الكذب على رسول الله، لروى حديثا يقول: «بشر قاتل ابن صفية بالجنة»!!

وقد سُئل عليٌّ سؤالا مباشرا في موقف هو أحوج فيه إلى كثرة الناس، سُئل عن خروجه لقتال معاوية، أهو شيء عهد به إليه رسول الله أم هو رأيٌ منه، فقال: ما عهد إلينا رسول الله بشيء، وإنما هو رأي. وذلك موقفٌ لو كان له أن يخترع فيه شيئا لاخترع، لضرورة الحرب ولاحتياجه كثرة المقاتلين، ولكنه لم يفعل!

ولذلك لما خرج لقتال الخوارج حدَّث عن النبي ﷺ بما كان عنده من العلم، وأوضح أنه إذا حدَّث عن النبي فلا مجال للمخادعة، قال: «إذا حدَّثْتُكم عن رسول الله ﷺ فَلَأَنْ أَخِرَّ من السماء أحب إلي من أن أقول عليه ما لم يقل، وإذا حدثتكم فيما بيني وبينكم فإن الحرب خدعة. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيخرج في أخر الزمان قوم أحداث الأسنان سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فإذا لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجرا لمن قتلهم عند الله يوم القيامة».

٣. ومن الأدلة على عدالتهم اعترافهم لبعضهم، في موطن الخصومة والحرب، بالفضل والسبق:

فعمَّارٌ يجيش أهل الكوفة للخروج مع علي، ضد عائشة وطلحة والزبير، وهو يقول

لهم «إني لأعلم أنها زوجته في الدنيا والآخرة»

وعائشة تسمع عتابه لها بعد الجمل، فتقول له: «إني ما علمت أنك قوال بالحق».

ومعاوية يُسأل: أنت تنازع عليا؟! فيقول: إني لأعرف أن عليًّا أفضل مني وأحق بالأمر مني!

وعليٌّ يشهد لأهل الشام بالصلاح وبأداء الأمانة، بينما هو يلوم قومه، فيقول: «والله لقد خشيت أن يُدال هؤلاء القوم عليكم بصلاحهم في أرضكم وفسادكم في أرضكم، وبأدائهم الأمانة وخيانتكم، وبطواعيتهم إمامهم ومعصيتكم له».

وهكذا، لم تكن الحرب بينهم مما يدفعهم لاختلاق كذب على رسول الله ينصرون به أنفسهم أو يخصمون به من خصومهم، بل نقلوا كما سمعوا، ما كان من ذلك يشهد لهم أو يشهد عليهم، ولم يجاوزوا الإنصاف في أمرهم، فرضي الله عنهم وأرضاهم.

## لماذا نكف عما شجر بين الصحابة؟

تعددت أقوال العلماء التي قرروها في متون العقائد، التي تقرر الكف عما شجر بين الصحابة، فمن أمثلة ذلك:

- قال أبو حاتم وأبو زرعة الرازييْن: «والترحم على جميع أصحاب محمد ﷺ، والكفّ عما شجر بينهم»[1].
- قال ابن أبي زيد القيرواني: «وألا يُذكر أحدٌ من صحابة الرسول ﷺ إلا بأحسن ذكر، والإمساك عما شجر بينهم، وأنهم أحق الناس أن يُلتمس لهم أحسن المخارج، ويُظنّ بهم أحسن المذاهب»[2].

---

(١) عبد العزيز الطريفي، الخراسانية في شرح عقيد الرازييْن، ط١ (د.م: د. ن، ٢٠١٦م)، ص١٠.

(٢) عبد العزيز الطريفي، المغربية في شرح العقيدة القيروانية، ط١ (الرياض: دار المنهاج، ١٤٣٨ه)، ص١٢.

- قال الطحاوي: «ونحب أصحاب رسول الله ﷺ ولا نُفْرِط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان»[١].

- قال ابن تيمية في بيان معتقد السلف: «ويتبرؤون من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم، وطريقة النواصب الذين يؤذون أهل البيت بقول أو عمل، ويُمسكون عما شجر بين الصحابة رضي الله عنهم»[٢].

- قال السفاريني:

واحذر من الخوض الذي قد يُزري ... بفضلهم مما جرى، لو تدري
فإنه عن اجتهاد قد صدر ... فاسلَمْ، أذلَّ الله من لهم هجر[٣]

ترى هل كان ذلك منهم محاولة للهروب من مناقشة الفتنة، أو محاولة لطمس هذا التاريخ ودفنه؟ أم كانت خلاصة بحث علمي هائل، وخلاصة منهج دعوي تربوي صحيح وعميق.

لو أنهم حاولوا التهرب من الموضوع لما أفردوا له هذه المساحة الواسعة من مصنفاتهم في الحديث والآثار والعقائد والتاريخ، وما وصلت إلينا تلك الثروة الهائلة من النصوص التي احتشد فيها كل شيء، بما في ذلك روايات القُصَّاص والوضّاعين، بل كان المؤلف يضع في كتابه ما يصل إليه وإن لم يقبله، قياما منه بواجب الأمانة العلمية في الجمع والأداء، ينقل ذلك بأسانيده، لكي يُعرف أصحاب كل سند! وبهذا وصلت إلينا كل هذه النصوص، وعرفنا رتبة كل حدث من القوة والضعف، ومعها رتبة كل رجل من الرواة، وأمدَّنا كل هذا

---

(١) الطحاوي، متن العقيدة الطحاوية، ط١ (بيروت: دار ابن حزم، ١٩٩٥م)، ص٢٩.

(٢) ابن تيمية، العقيدة الواسطية، تحقيق: أشرف عبد المقصود، ط٢ (الرياض: أضواء السلف، ١٩٩٩م)، ص١١٩، ١٢٠.

(٣) السفاريني، لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، ط٢ (دمشق: مؤسسة الخافقين ومكتبتها، ١٩٨٢م)، ٢/ ٣٨٥.

بعلوم نفيسة لا تزال تنتظر من يعكف عليها بالتحليل الاجتماعي والنفسي والاقتصادي لهذه الأعصار والأمصار. وبهذا يثبت أن ليس ثمة محاولة هروب من مناقشة الموضوع في باب العلم وساحته، وليس ثمة محاولة لدفن هذا التاريخ أو طمسه والإعفاء عليه.

إلا أن المنهج العلمي نفسه يفرض ألا يُعطَى العلم إلا لأهله، ولمن يطيقه، ولا يكون الأمر مشاعا لمن يفهم ولمن لا يفهم، وهذا أمر يقوم به أهل كل علم من علوم الدنيا، وبناء على هذا الأمر نشأت المدارس والإجازات والشهادات العلمية، وصار لا يُسْمَح بممارسة علمٍ ما إلا لمن أثبت قدرته على فهمه. وفي زماننا هذا تطرَّف الكثيرون فصاروا يشترطون الشهادات والإجازات في كل شيء حتى في الطبخ والرقص والرسم ونحوه!

وأما شؤون الطب والهندسة والعلوم، فلا يُسمح فيها بالممارسة إلا لمن انخرط في دراستها، وثبت للأساتذة فيها وعبر الاختبارات المتنوعة أنه مؤهل لذلك، ولا تعد الموهبة الفطرية ولا الذكاء العقلي وحده كافيا لصاحبه في أن يخوض التطبيب أو البناء! وهذا مع أن كثيرا من أمور التطبيب والبناء ونحوها يُكتسب بالخبرة والممارسة، فكم تداوى الناس بالخبرة الشعبية وكم بنى الناس بيوتهم وسفنهم بتراكم المعرفة والملاحظة.

فكيف إذا كان العلم متعلقا بأديان الناس وعقائدهم، وهي أهم شيء في دنياهم وأخراهم، وبها يتحدد مصيرهم الكبير: في الجنة أو في النار؟! وكيف إن كان هذا العلم لا يُتلقَّى إلا بالنصوص الصحيحة، فلا تنفع فيه الخبرة المتراكمة ولا الممارسة الشعبية؟!

إن غوامض أي علم ودقائقه، لا تترك لعموم الناس، فهي فوق إدراكهم، فكيف يُسْمَح لمن لا يدرك أمرا أن يخوض فيه، لا سيما إن كان الخوض بغير علم يعود عليه بالضرر في دينه، وبالنار في آخرته؟! إن المنع من الخوض فيما شجر بين الصحابة هو ذاته منع غير الخبير من العبث بالعقاقير والمركبات الكيميائية، أو التلاعب في الأجهزة الصناعية والأسلحة المعقدة! فهذا المنع هو جزء من صيانة العلم نفسه، لأنه جزء من المنهج العلمي.

ونحن نعلم بالطبيعة، ومن واقع الناس والحياة، أن أقل الناس هم من يستطيعون إدراك الحكمة في الأمور الكبيرة المعقدة، ومن أهمها أمور السياسة والحروب، ولا يوجد مجتمع بشري يشارك عموم أفراده في هذه القرارات، بل يستأثر بها في الواقع ثلة قليلة، حتى في عالمنا المعاصر الذي انتشرت فيه وسائل الإعلام والصحافة وكليات السياسة ومراكز البحث، لا تزال ثمة ثلة قليلة تدير سياسات الدول، وما كل هؤلاء إلا مجرد مراقبين أو محللين، أو حتى، في أحسن الأحوال، ناصحين يقدمون التوصيات!

وشأن الفتنة بين الصحابة، لا يمكن أن يدركه إلا من اجتمع له علم واسع وعميق بالنصوص والآثار، ودرجتها من الصحة والضعف، ثم له قدرة على التحليل والترجيح والموازنة، وهؤلاء أنفسهم ربما اختلفوا في دقائق التحليل والترجيح، لاتساع الموضوع وتشعبه، وكثرة ما جاء فيه، وكلما ابتعد الزمان كلما ازداد الأمر صعوبة، لأن المؤرخ يفتقد روح الزمان وأجواءه، وهي أمور مؤثرة في مجرى التاريخ، ولا تكتب –عادة– في الكتب.

فالقصد هنا: أن المنع من الخوض فيما شجر بين الصحابة هو من أركان المنهج العلمي.

ثم إن المنع من الخوض فيما شجر بين الصحابة هو من أصول الدعوة والتربية، فإن الصحابة هم نقلة الدين وهم خير القرون وهم ذروة الأجيال المسلمة، وأدنى من له معرفة بطبائع النفوس يعرف أن تعريضها للتشكك في الأبطال الكبار يعود عليها بالشك والحيرة، ويعود عليها بالفتور والهم والغمّ، وقد يؤدي بها إلى العدمية والإحباط، إن لم يدفع بها إلى الخروج من الدين كله!

ولهذا فلكل أمة حساسيتها تجاه أبطالها ورموزها اللامعين، ومن الأمم من يمنع حتى من البحث العلمي النزيه لأنه قد يعود على هذه الرموز بالتشكيك والتشويه، ويحدث هذا

في الأمم التي تفاخر بالحريات[1]، فكيف بالأمم التي تفرض ستارا حديديا على رموزها وشخصياتها التأسيسية؟ وتعاقب بالعقوبات الصارمة من ينال من أحدهم أو مجموعهم؟!

ولذلك أخذ العلماء في صرف عموم الناس عن الدخول في هذا الموضوع، وكانت أجوبتهم لمن خاض فيه بجهل أقرب إلى أجوبة الدعاة والمربين منها إلى أجوبة القضاة والحاكمين، قال رجل لأبي زرعة الرازي: «أنا أبغض معاوية. قال: لم؟ قال: لأنه قاتل علي بن أبي طالب. قال (أبو زرعة): إن رب معاوية رب رحيم، وخصم معاوية خصم كريم، فأيش دخولك أنت بينهما، رضي الله عنهم أجمعين»[2]. وخلدت في هذا المقام كلمة عمر بن العزيز، وهو أُموي، يفترض به أن يكون من خصوم علي، التي قال فيها: «تلك دماء طَهَّر الله منها يدي، فما أحبّ أن أخضب لساني منها»[3].

وإذا ظهر من يطعن في الصحابة كان من الواجب الردُّ عليه، كما قال ابن تيمية: «لهذا أوصوا بالإمساك عما شجر بينهم؛ لأنا لا نُسْأَل عن ذلك... لكن إذا ظهر مبتدع يقدح فيهم بالباطل، فلا بد من الذب عنهم، وذكر ما يبطل حجته بعلم وعدل»[4].

ويفرِّق العلماء بين من وقع في سبِّ الصحابة لشبهة عرضت له، فهذا يستعملون معه أسلوب النصيحة والبيان والتوجيه، وبين من يسبُّهم وله في هذا أغراض أخرى، فهذا الذي قرروا له العقوبة من الجلد أو الحبس أو حتى القتل، بحسب ما اختلفوا في تأصيله

---

(١) للسياسي الأمريكي مارك بوكانان كتاب بعنوان «موت الغرب»، يدعو فيه في أحد فصوله -بعنوان: الحرب على الماضي- إلى محاربة الباحثين في التاريخ، لأن بحثهم هذا سيشوه رموز الأمة الأمريكية وسيُخرج جيلا يفتقد الثقة بأمته.

(٢) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٥٩/ ١٤١.

(٣) أحمد بن حنبل، الجامع في العلل ومعرفة الرجال، تحقيق: د. وصى الله بن محمد عباس، ط١ (بومباي – الهند: الدار السلفية، ١٩٨٨م)، (٥٢٦).

(٤) ابن تيمية، منهاج السنة، ٦/ ٢٥٥.

وبحسب ما يرى القاضي والمفتي في تنزيله!

وإن الذين تجرؤوا على خوض هذه الأمور بغير ما يستحقه من العلم والعقل والعدل، انتهى بهم الأمر إلى مفارقة أهل السنة، فمنهم من تشيع حتى استحل لنفسه سب الصحابة، ومنهم من فارق أهل الإسلام ودخل في العلمنة، فاستحل لنفسه محادة الله ورسوله! ومن لم يصل إلى هذه المرحلة فهو في الطريق إليها، وإلا فهو يُلَفِّق لنفسه رأيا يحاول به أن يريح ضميره، ولا يزال من دينه في شك!!

إن الخوض فيما جرى بين الصحابة كان سبيل الخبثاء الذين أرادوا هدم الدين، ولقد وصل بعضهم لما أراد، من أول عبد الله بن سبأ وحتى أدنى معاصر يلوك هذا الموضوع، وسبحان الله! ما يكاد يخوض هذا الموضوع أحدٌ ثم هو ينجح في اختبار الواقع، بل سائر من يطعن في الصحابة إن لم يكن متلبسا بالثناء على طاغية عنيد، فهو ساكتٌ عن طاغية عنيد!! وإنما يمارس ثوريته ضد التاريخ، حيث ممارسة الثورية هناك بلا تكاليف!!

وقد أدرك عددٌ من العلماء أن الخوض فيما شجر بين الصحابة ليس مجرد بحث علمي نزيه، وإنما علامة على فساد في النفس أو فساد في القصد، حتى قال الإمام مالك: «أرادوا القدح في النبي فلم يمكنهم فقدحوا في أصحابه ليقال: لو كان صالحا لكان أصحابه صالحين»[(١)].

وهذا الكلمة الحكيمة من الإمام مالك رحمه الله تفسر ما فعله الشيعة حين مهدوا الطريق للعلمانيين والمستشرقين، فالأولون طعنوا في الصحابة ونشروا الروايات المكذوبة عنهم، فجاء الآخرون فمدُّوا الطعن حتى شمل النبي نفسه لأنه لم يحسن إصلاح النفوس بل عادت الجاهلية بعده كالتي كانت أو أشد، وقد أفرد الشيخ الندوي كتابه «صورتان متضادتان» للحديث في هذا الأمر. إذ صورة الصحابة في كتب السنة تكشف عن نبي عظيم أحسن إصلاحهم وتربيتهم وتهذيبهم، بينما صورتهم في كتب الشيعة تدفع إلى تصويره على صورة مضادة.

---

(١) ابن تيمية، الصارم المسلول على شاتم الرسول، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، (الرياض: الحرس الوطني السعودي، د. ت)، ص٥٨٠.

ومثله قال الإمام أبو زرعة الرازي: «إذا رأيت الرجل ينتقص من الصحابة فاعلم أنه زنديق.. إنما يريدون جرح شهودنا ليبطلوا القرآن والسنة».. وهذه الكلمة الحكيمة من الإمام أبي زرعة تفسر لنا كيف فتح الشيعة أبواب التفسير السياسي للعلمانيين والمستشرقين، حيث طُعِن في كتب الحديث بل في الآيات القرآنية بدعوى أن الصحابة اختلقوها في نزاعاتهم ولخدمة أغراضهم[١].

ونحن الآن في عصر اشتدت فيه سطوة المتغربين وسطوة الشيعة، وضعفت فيه قوة أهل السنة حتى ما عادت لهم دولة تتصدى لأمر الطعن في عقائد أهل السنة، واشتد مع ذلك شأن الطعن في الصحابة وفي التاريخ الإسلامي، وتعرض كثير من عموم الناس لما لا يطيقونه من الشبهات[٢].

وفي مقابل ذلك فقد أدى طغيان الشيعة وجرائمهم -لا سيما في العراق وسوريا واليمن، وأقل من ذلك في لبنان- إلى انبعاث جديد لفرقة النواصب، غير أن النواصب الجدد قوم جُهَّال، وقد أسرف بعضهم في الطعن على علي حتى تعاطف مع قاتله الخارجي عبد الرحمن بن ملجم، مع أن هؤلاء الخوارج يكفرون معاوية أيضا!! ولكنهم لجهلهم بالفرق وأفكارها قد ابتلعوا وشربوا كل ما رأوا أنه طاعنٌ في علي حتى لو أنه كان يرتد عليهم في نهاية الأمر، فضلا عما يعتنقونه من تعظيم يزيد بن معاوية وتعظيم الحجاج بن يوسف الثقفي، فهؤلاء قوم انبعثوا من عاطفة وجهالة، ثم تصدروا في زمن وسائل التواصل الاجتماعي، فهم وإن كانوا يستحقون التأديب من وجه، إلا

---

(١) تناولت طرفا من هذا في بحث لي بعنوان «فحص دعوى تأثير السياسة في تدوين الموطأ»، وينظر فيه الكتاب المهم للدكتور إبراهيم العجلان «المحدثون والسياسة»، والكتاب المهم الذي صدر مؤخرا (٢٠٢٣م) للدكتور أحمد صنوبر «السلطة السياسية وحركة رواية الحديث النبوي».

(٢) من الظواهر التي رصدها المهتمون بمكافحة الإلحاد، أن فئة من أولئك الذين سقطوا في هذا البئر كانت بدايتهم من عند عدنان إبراهيم، وهو رجل يزعم أنه يعيد قراءة التاريخ، فيطعن في الصحابة بلسان شيعي مبين، مع انتسابه إلى السنة، ونشأ عنه فسادٌ كبير، ومع أن عدنان نفسه يعمل أيضا في مكافحة الإلحاد وإثبات وجود الإله باستعمال النظريات العلمية الحديثة، إلا أنه لم يستطع أن يحمي أتباعه من التفلت إلى الإلحاد، لأنه أسقط لهم قدواتهم من الصحابة الكرام. وجدير بالذكر أن عدنان إبراهيم الذي يطعن الصحابة زاعما أنه يصحح مسار التاريخ الإسلامي ومكافحة الاستبداد من جذوره، هو نفسه الذي يؤيد طغاة هذا العصر، وتنشر صوره مع بعض رجالهم!! وليس هذا بالمستغرب، فإن الذي يطعن في الصحابة لا يلبث أن يفضحه الله ويهتك ستره!

أنهم أيضا ضحايا لتعاظم نفوذ الشيعة ولضمور المؤسسات العلمية الإسلامية السنية، لا سيما بعد الهجمة العاتية عليها في مصر (بعد الانقلاب العسكري في ٢٠١٣م) والجزيرة العربية (بعد تولي محمد بن سلمان ولاية العهد وابتداء برنامجه التغريبي الكاسح في ٢٠١٧م).

والذي أراه أن الواجب علينا أمران يعملان معا وفي وقت واحد؛ الأول: دعم طلبة العلم لتكوين فرق متخصصة في الذب عن الصحابة بعلم وعدل وعقل، والثاني: تهدئة إثارة هذه المواضيع وتحجيم تداولها في المجالات العامة والإعلام ما استطعنا، فإن إثارتها لا تأتي بخير، وليس فيها نفع.

وهذا الفصل إنما كُتب للعاملين لهذا الدين، ليكونوا على اطلاع ومعرفة بالموضوع، لا ليُجادَل بها، فإنما هم أهل عمل لا أهل جدل، فإذا حققت هدفها في بيان الموضوع فقد تم المراد، والله أعلى وأعلم!

نسأل الله تعالى أن يجعل عملنا كله خالصا لوجهه الكريم.